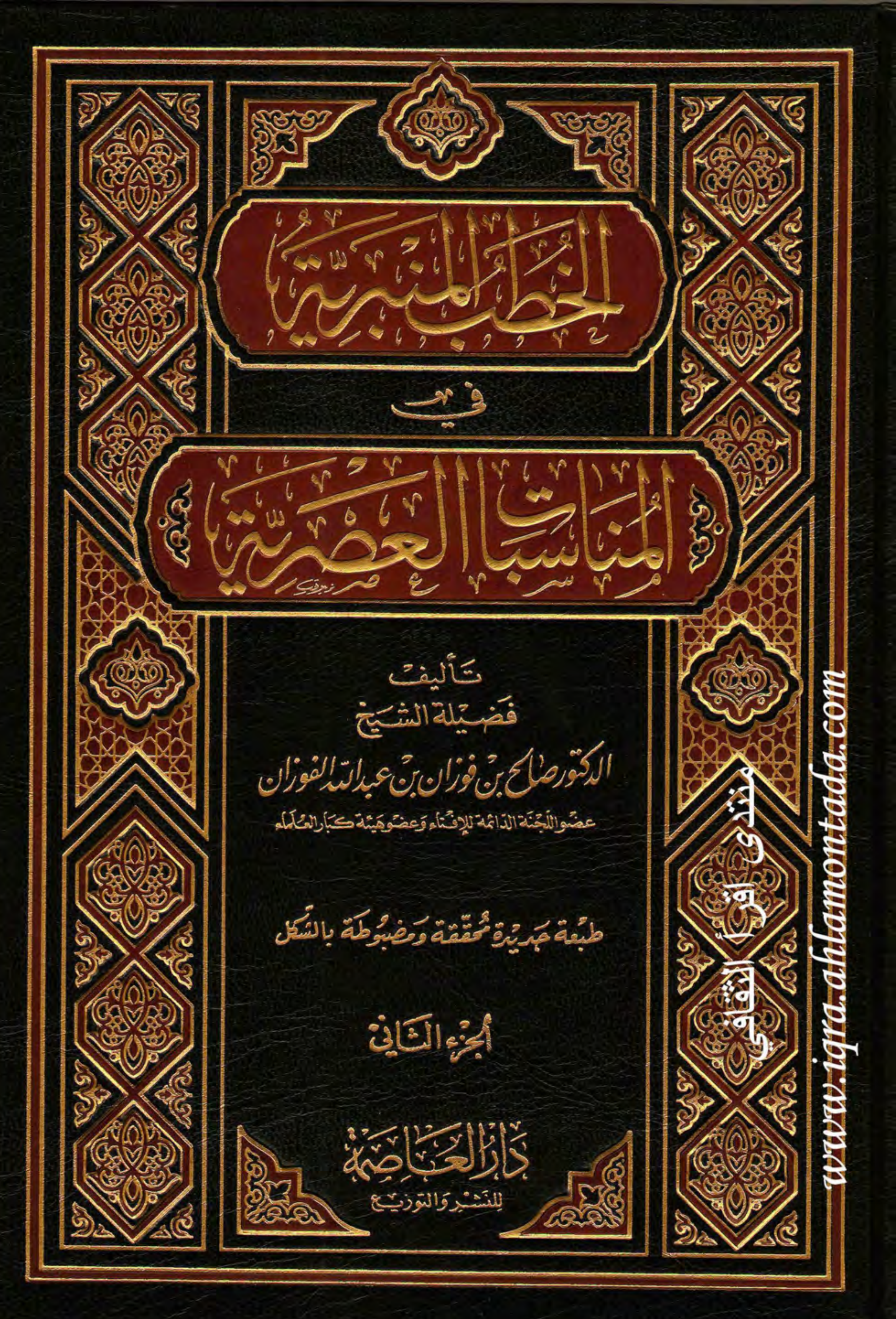

الخطب المنبرية
في
المناسبات العصرية
تأليف
فضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان
عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء
طبعة جديدة محققة ومضبوطة بالشكل
الجزء الثاني
دار العاصمة
للنشر والتوزيع



تأليف
فضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

طبعة جديدة محققة ومضبوطة بالشكل

الجزء الثاني

دار العاصمة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفوزان، صالح بن فوزان
الخطب المنبرية في المناسبات العصرية ./ صالح بن فوزان الفوزان .
-الرياض ١٤٢٦ هـ
٦ مج
ردمك : ٠-٠٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
٧-٠٢-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج ٢)
١- خطبة الجمعة أ - العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٢٦/٢٠٤

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٠٤
ردمك : ٠-٠٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)
٧-٠٢-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج ٢)

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الصف والإخراج دار العاصمة للنشر والتوزيع

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدّمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، القائلِ في كتابِهِ المبينِ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّه الناصحِ الأمينِ، نَبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وأصحابِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

وبعدُ: فهذه مجموعة من الخُطبِ ألقيتُها في أيامِ الجُمَعِ، وأَحببتُ نشرَها؛ رجاءَ أنْ ينفعَ اللهُ بِهَا من يقرؤها، كما أرجُو أنْ يكونَ قد انتفعَ بها مَنْ سَمِعَهَا، إنَّه سميعٌ مجيبٌ، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ وآلِه وصحبِه.

المؤلف

معنى الشهادتين ومقتضاهُمَا

الحمدُ للهِ الذي لم يتخذْ ولدًا ولمْ يكنْ له شريكٌ في المُلكِ، ولم يكُنْ له وليٌّ من الذلّ، وكبِّرهُ تكبيرًا، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحده لا شريكَ له، وتعالَى عمَّا يقولُ الظالمونَ والجاحدونَ علوًّا كبيرًا، وأَشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَهُ بينَ يدَي الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنهِ وسراجًا منيرًا، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابهِ وأتباعهِ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى وأطيعُوهُ.

عبادَ اللهِ: إن الركنَ الأولَ من أركانِ الإسلامِ هو الشهادتانِ: شهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ. وهذا الركنُ هو الأساسُ الذي تقومُ عليهِ بقيةُ الأركانِ، وتنْبنِي عليهِ سائرُ أحكامِ الدينِ، فإنْ كانَ هذا الأساسُ سليمًا قويًّا استقامتْ سائرُ الأعمالِ، وكانتْ مقبولةً عندَ اللهِ، وانتفعَ بها صاحبُها، وإن اختلَّ هذا الأساسُ فسدتْ سائرُ الأعمالِ، وصارتْ هباءً منثورًا، وصارتْ كسرابٍ بقيعةٍ يحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَهُ لمْ يجدْه شيئًا، وصارتْ كرمادٍ اشتدتْ به الريحُ في يومٍ عاصفٍ، صارتْ تعبًا على صاحبِها في الدنيا وحسرةً وخسارةً يوم القيامةِ.

عبادَ اللهِ: إن الشهادتينِ لهُمَا معنى ولهما مقْتَضًى، ولا بُدَّ للناطقِ بهما أنْ يعرفَ ذلكَ المعْنى، ويعملَ بذلكَ المُقْتَضَى، وإلاَّ فإنَّه لا ينفعُهُ مجردُ التلفظِ بهما، فمعنى شهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ: الإقرارُ بأنَّهُ لا يستحقُّ العبادةَ إلا اللهُ، وأنَّ كُلَّ معبودٍ سواهُ باطلٌ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الحج: ٦٢]، ومُقْتضى شهادة أن

لا إلٰهَ إلا اللهُ: أن تُفرِدَ الله بالعبادة فلا تعبد معه غيره، فإذا قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، فقدْ أعلنْتَ البراءةَ منْ كُلِّ معبودٍ سوى اللهِ، والتزمتَ بعبادةِ اللهِ وحدَه، وفعلِ ما أَمرَ به وتركِ ما نَهى عنه؛ ولذلكَ لمَّا قالَ النبيُّ ﷺ للمشركين: «قولوا: لا إلهَ إلا اللهُ» فهمُوا من ذلكَ أنَّه يطلبُ منهمْ عبادةَ اللهِ وحدَه وتركَ عبادةِ الأصنامِ، فامتنعُوا مِنْ أنْ يقولوا هذه الكلمةَ واستنكرُوها، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝﴾ [ص: ٥ ـ ٧]. هذا معنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، جَعْلُ الآلهةِ إلهًا واحدًا، وتركُ عبادةِ ما سواهُ، وقد فهِمَهُ المشركونَ لأنَّهم عربٌ فصحاءُ، وعبّادُ القبور اليومَ لا يفهمونَ معنى «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، ولا يعملونَ بمقتضاها؛ فلذلك يقولونَ: «لا إلهَ إلاَّ اللهُ»، ويعبدونَ الموتَى، فالمشركونَ الأولونَ أعلمُ منهم بمعنى لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأعلمُ منهم بمقتضاها، هؤلاءِ القبوريونَ يقولونَ: «لا إلهَ إلا اللهُ» ويقولون معَ ذلكَ: «يا عليُّ!»، «يا حسينُ!»، يا عبدَ القادرِ!» ينادونَ المَوْتىٰ ويستغيثونَ بهم في قضاءِ الحاجاتِ، وتفريجِ الكرباتِ، ويطوفونَ بقبورِهِم ويذبحونَ لهم، فما معنى لا إلٰهَ إلا اللهُ عندَ هؤلاءِ؟ وما فائدتها؟ إنهم قومٌ لا يعقلونَ ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

عبادَ اللهِ: ومن مُقتضى شهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ: أنْ تقيمَ الصلاةَ، فإنّها الركنُ الثاني بعد الشهادتينِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

ومن مُقتضَى شهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ أن تؤتي الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحج البيت إنِ استطعتَ إليهِ سبيلاً، وتفعلَ الواجباتِ الدينيةَ، وتتركَ

المحرماتِ، فقدْ قاتلَ الصحابةُ رضيَ اللهُ عنهُم بقيادةِ أبي بكر الصديقِ رضيَ اللهُ عنهُ مَنْ منعَ الزكاةَ وهم يقولونَ: لا إله لا اللهُ، وقالَ الصحابةُ: إنَّ الزكاةَ من حقِّ لا إلٰهَ إلا اللهُ. قيلَ للحسنِ البصريِّ رحمَهُ اللهُ: إنَّ ناسًا يقولونَ: منْ قالَ لا إلٰهَ إلا اللهُ، دخلَ الجنةَ؟ فقال: منْ قالَ: لا إلٰهَ إلا اللهُ فأدَّى حقَّهَا وفرْضَها دخلَ الجنة. وقالَ وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ لِمَنْ سألَهُ: أليسَ لا إلٰهَ إلا اللهُ مفتاحَ الجنَّةِ؟ قالَ: بَلَى، ولكِنْ ما من مفتاح إلاَّ له أسنانٌ، فإنْ جئتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فتحَ لكَ، وإلاَّ لمْ يفتح لكَ.

عبادَ اللهِ: وكمَا أنَّ الشركَ الأكبرَ يناقضُ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وينافِيها، كذلكُم سائرُ المعاصِي التي هي دونَ الشركِ تنقصُ مُقْتضَى هذه الكلمةِ وتقللُ من ثوابِها، بحسبِ الذنبِ الذي يصدُرُ مِنَ العبدِ، ومطلوبٌ من المسلمِ أنْ يقولَ: لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ، ويعلمَ معناها، ويعملَ بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا، ويستقيمَ عليها، قالَ تعالَى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾، [الزخرف: ٨٦]، ﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: قالَ «لا إلٰهَ إلا اللهُ»، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبِهِمْ ما نطقتْ به ألسنتُهُم من تلكَ الكلمةِ.

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، واعرفوا معنى هذِه الشهادةِ، واعملُوا بِمُقتضَاها، فليسَ المقصودُ منها مجردَ النطقِ بها من غيرِ فهمِ معناها واعتقادِ مدلولِهَا، والعملِ به، فإنَّ ذلكَ لا ينفعُ ولا يُجدِي.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَه بالهُدى، ودينِ الحقِّ ليظهِرَه على الدينِ كُلِّهِ، وكَفَى باللهِ شهيدًا، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ إقرارًا بِهِ وتوحيدًا،

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلى آلِهِ وأصحابهِ، وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

أمَّا بعدُ: أيها الناسُ، ومعنى «أشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ» الإقرارُ بأنَّه رسولٌ من عندِ اللهِ، واعتقادُ ذلكَ في القلبِ، ومقتضىٰ هذه الشهادةِ يتلخَّصُ في أربعةِ أمورٍ: طاعتِهِ فيما أَمَرَ، وتصديقِهِ فيما أَخْبَرَ، واجتنابِ ما نَهَى عنهُ وزَجَرَ، وألا يُعبدَ اللهُ إلاَّ بما شَرَعَ، فإذا شهدْتَ أنَّه رسولُ اللهِ وجبَ عليكَ أنْ تطيعَهُ فيما يأمُركَ به، وأن تجتنبَ ما نهاكَ عنهُ، وأنْ تصدِّقهُ فيما يخبرُ به عنِ اللهِ تعالَى وعن الغيوبِ الماضيةِ والمستقبلةِ، وألا تتقربَ بشيءٍ من العباداتِ إلاَّ إذا كانَ موافقًا لشريعتِهِ، فتتركَ البدعَ والمحدثاتِ، وتتركَ الأقوالَ المخالفةَ لسنَّتِهِ مهما بلغَ قائلُها من العلمِ والفقهِ، فكلٌّ منّا يؤخذُ من قولِهِ ويتركُ إلاَّ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ رحمَهُ اللهُ: «كُلُّنا رادٌّ ومردودٌ عليهِ إلاَّ صاحبَ هذا القبرِ». يعني رسولَ اللهِ ﷺ. وقالَ الإمامُ محمدُ بنُ إدريس الشافعي رحمَهُ اللهُ: «أجمعَ العلماءُ على أنَّ مَنِ استبانتْ له سُنَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ لمْ يكنْ له أنْ يَدَعهَا لقولِ أحدٍ»، ويقولُ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل رحمَهُ اللهُ: عجبتُ لقومٍ عرفُوا الإسنادَ وصحَّتهُ يذهبونَ إلى رأيِ سفيان، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور: ٦٣]، أتدْري ما الفتنةُ؟ الفتنةُ الشركُ، لعلَّهُ إذا ردَّ بعضَ قولِهِ أنْ يقعَ في قلبهِ شيءٌ من الزيغِ فيهْلك. واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

عبادَ اللهِ، اتقُوا اللهَ تعالَى وأطيعُوهُ، واعلمُوا أنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهدْيِ هدْيُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ محدثاتُها... إلخ.

في وجوبِ عبادةِ اللهِ وبيانِ معناها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ الخلقَ لعبادتهِ، وأمرَ بتوحيدِه وطاعتِه، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أكملُ الخلْقِ عبوديةً للهِ وأعظمُهُمْ خشيةً له، دعا إلى اللهِ وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وقام على قدميهِ الشريفتين حتى تفطَّرَتا من طولِ القيامِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابهِ، ومَنِ اهْتدَى بهُداهُ وسارَ على نهْجِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وتفكروا لماذا خُلِقتُمْ وبماذا أُمرتُمْ، إنَّكُم خُلِقتُمْ لعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له وبها أُمِرْتُم؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]، وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

والعبادةُ: اسمٌ جامعٌ لِكلِّ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ من الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنةِ، وهي بهذا التعريفِ تشملُ كلَّ ما يصدرُ من العبدِ من الأعمالِ القلبيةِ والبدنيةِ والماليةِ المشروعةِ، حتى العادات تتحولُ إلى عباداتٍ إذا قارنَتْها نيةٌ صالحةٌ. فالنومُ مثلاً إذا قُصِدَ به التَّقوِّي على الصيامِ أو على قيامِ الليلِ يكونُ عبادةً، واتصالُ الرجلِ بأهلِهِ إذا قُصِدَ به التعفُّفُ عن الحرامِ يكونُ عبادةً، قالَ ﷺ: «وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ» قالوا: يا رسولَ اللهِ، أيأتي أحدُنا شهوتَهُ ويكونُ

له فيها أجرٌ؟ قالَ: «أرأيتُم لو وضعَهَا في حرامٍ أكانَ عليهِ وِزْرٌ؟ فكذلكَ إذا وضعَها في الحلالِ كانَ له أجرٌ»[١] رواهُ مسلمٌ. وقد صحَّ الحديثُ بأنَّ نفقةَ الرجلِ على أهلِه صدقةٌ، وفي صحيحِ مسلمٍ عن سعدٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ نفقتَكَ على عيالكَ صدقةٌ»[٢] وخرّجَ الإمامُ أحمدُ من حديثِ المقدامِ بن معدِ يكرب عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ما أطعمتَ نفسَك فهو لكَ صدقةٌ»[٣]، وفي صحيحِ مسلمٍ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «ما مِن مسلمٍ يغرسُ غرسًا إلاَّ كانَ ما أُكِلَ منه له صدقةً، وما سُرِقَ منه له صدقةً، وما أَكل السبعُ منه فهو له صدقةٌ، ولا يَنْقصُهُ أحدٌ إلاَّ كان له صدقةً»[٤] وفي روايةٍ له أيضًا: «فلا يأكلُ منه إنسان ولا دابة ولا طائرٌ إلا كانَ له صدقةً إلى يومِ القيامةِ»[٥].

عبادَ اللهِ: والعبادةُ قسمانِ: قسمٌ واجبٌ، وقسمٌ مستحبٌّ. والقسمُ الواجبُ منه ما يتكررُ في اليومِ والليلةِ خمسَ مراتٍ: كالصلواتِ الخمسِ، ومنهُ ما يتكررُ كلَّ أسبوعٍ: كصلاةِ الجمعةِ، ومنه ما يتكررُ كلَّ عامٍ كصيامِ رمضانَ، وأداءِ الزكاةِ، ومنها ما يجبُ مرةً واحدة في العمرِ كالحجِ والعمرةِ من المستطيعِ. والقسمُ المستحبُّ لا يتحددُ بوقتٍ، كنوافلِ الصلواتِ، ونوافلِ الصدقاتِ، ونوافلِ الصيامِ فيما عدا الأوقاتَ المنهيَّ عن الصلاةِ فيها وعنْ صيامها، ومن نوافلِ العبادةِ ما يُطلبُ كلَّ وقتٍ، كذِكرِ اللهِ بالقلبِ واللسانِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب:

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر.
(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٦).
(٣) مسند أحمد (١٦٠٢٧، ١٦٧٤٠).
(٤) صحيح مسلم (١٥٥٣).
(٥) نفس المصدر.

٤١، ٤٢]، وقالَ تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، وقالَ تعالَى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]، وهكذا نَرى أنَّ عمرَ المسلمِ لا تمرُّ منهُ فترةٌ بغيرِ عبادةٍ قوليةٍ أو فعليةٍ، ومَنْ فرَّطَ في فترةٍ من عمرِهِ فتركَها تمرُّ بغيرِ عبادةٍ خسرَهَا يومَ القيامةِ.

أيُّهَا المسلمونَ: والعبادَةُ لا تُسَمّى عبادةً وتنفعُ صاحبَها عندَ اللهِ إلاَّ إذا كانتْ خالصةً للهِ، ليسَ فيها شركٌ ولا رياءٌ ولا سمعةٌ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]، وقالَ تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: ٤ـ٧]، وقالَ تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وفي الحديثِ: يقولُ اللهُ تعالَى: «**أنا أغنى الشركاءِ عن الشركِ، من عملَ عملاً أشركَ معِي فيهِ غيْرِي تركْتُهُ وشركَهُ**»[١].

وكما يشترطُ في صحةِ العبادةِ الإخلاصُ، كذلكَ يشترطُ فيها المتابعةُ للنبيِّ ﷺ؛ قال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عملاً ليسَ عليهِ أمرنَا فهو ردٌّ**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (١٨/١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧/١٧١٨) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

أيُّها المسلمونَ: إنَّ عبادةَ اللهِ هي أولُ الواجباتِ على العبد، وهي حقُّ اللهِ عليهِ المقدمُ على سائرِ الحقوقِ، قالَ تعالَى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالَى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

وفي حديثِ معاذٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «يا معاذُ، أتدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ؟ وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟» قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قالَ: «فإنَّ حقَّ اللهِ على العبادِ أنْ يعبدُوهُ ولا يشركُوا به شيئًا، وحقُّ العبادِ على اللهِ ألا يُعَذِّبَ مَنْ لا يشركُ به شيئًا»[1].

وعبادةُ اللهِ واجبةٌ على الإنسانِ العاقلِ من حينِ يبلغُ سنَّ التكليفِ إلى أنْ يموتَ، قالَ تعالَى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وقالَ عنْ عيسى عليه السلامُ: ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١].

عبادَ اللهِ: مَنْ لمْ يعبدِ اللهَ صارَ عبدًا للشيطانِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]. مَنْ لمْ يعبدِ اللهَ صارَ عبدًا لِهَواهُ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦، ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣) ومسلم (٣٠).

بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. مَنْ لمْ يعبدِ اللهَ صارَ عبدًا لدنياهُ قالَ ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الخميصَةِ! تَعِسَ عبدُ الخميلةِ! إنْ أُعطيَ رضِيَ وإنْ لمْ يُعْطَ لم يرْضَ»(١).

وعبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له هي التي يحصلُ بها التمكينُ في الأرضِ، والأمنُ من المخاوفِ الدنيويةِ والأُخرويةِ، قالَ تعالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

أيُّهَا المسلمُ: إنكَ تعاهدُ اللهَ في كلِّ ركعةٍ من صلاتِكَ حينما تقرأُ قولَه تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] تعاهدُ اللهَ ألا تعبدَ إلاَّ إيَّاهُ، ولا تستعينَ إلاَّ به ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]. بارَكَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) من حديث أبي هريرة.

في وجوبِ طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمرنَا باتِّباعِ رسولِه، ومعرفةِ الهُدَى بدليلِهِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له فاعبدُوهُ واشكُروا له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومن سلكَ سبيلَه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: يقول اللهُ تعالَى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

عبادَ اللهِ: تَبْلُغُنَا أوامرُ اللهِ ورسولِهِ بطرقٍ متعددةٍ ووسائلَ متنوعةٍ: عن طريقِ تلاوةِ القرآنِ الكريمِ واستماعهِ، وقراءةِ الأحاديثِ الشريفةِ وسماعِها، وسماعِ الخطبِ والمواعظِ، وسماعِ البرامجِ الدينيةِ في وسائلِ الإعلامِ، ودراسةِ المقرراتِ الدراسيةِ في مراحلِ التعليمِ، تصلُ إلينا وتَبْلُغُنَا أوامرُ اللهِ وأوامرُ رسولِه عن طريقِ هذه الوسائلِ وغيرِها، ولكنْ لنسألْ أنفُسَنا وليسألْ بعضُنا بعضًا: أيْنَ الامتثال لهذه الأوامر، وأين أثرها فينا؟ هلْ غيَّرْنا من واقعِنا؟، وهل اتَّجهنا إلى العملِ الصالحِ وتزوَّدْنَا من الطاعاتِ؟ إنَّ الكثيرَ أو الأكثرَ منا بعكسِ ذلكَ، باقٍ على غيِّهِ، منساقٌ مع شهواتِهِ، مطاوعٌ لنفسِهِ وهواهُ، تمرُّ عليهِ هذه الأوامرُ الإلهيةُ وكأنّها حكاياتٌ تاريخيةٌ، أو قصصٌ خياليةٌ، كأنها لا تعنيهِ، هذا هو واقعُ الكثيرِ منا رجالاً ونساءً - إلاَّ مَنْ رحِمَ اللهُ - التهاونُ بالصلاةِ أصبحَ مألوفًا، كسبُ المالِ بالطرقِ المحرمةِ أصبحَ وسيلةً اقتصاديةً متبعةً، سماعُ

الأغاني والمزاميرِ والنظرُ إلى الأفلامِ الخليعةِ، وانتشارُ ذلكَ بينَ العوائلِ صارَ كأنَّه من الضرورياتِ التي تقومُ عليها البيوتُ والأسرُ، جلبُ الرجالِ والنساءِ الأجانبِ وخلْطُهمْ مع الأُسرِ باسم الخادمين والخادماتِ أو السائقينَ، بغضِّ النظرِ عن عقائدِهِمْ المحرفَةِ وأخلاقِهم الفاسدةِ ـ إلاّ مَنْ عصمَ اللهُ ـ وبغضِّ النظرِ عمَّا يحصلُ من الجرائمِ الخلقيةِ منهُمْ وبهِمْ، أصبحَ جلبُهمْ معَ هذه المفاسدِ مجالَ مفاخرةٍ ومنافسةٍ لدى المترفينَ منا، مع ما يعلمونَهُ في ذلكَ من حصولِ المفاسدِ، وما يسمعونَ من تحذيرِ الناصحينَ، فأيُّ عقلٍ ودينٍ عندَ مَنْ يجلبُ امرأةً أجنبيةً لا محْرمَ معها ويدخلُها في بيتِهِ وبينَ بنيهِ المراهقينَ؟ وقد تحصلُ منه أو منهُمْ الخلوةُ المحرمةُ بها، والنبيُّ ﷺ يقولُ: «**ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلاَّ كانَ ثالثَهُما الشيطانُ**»[1]، وأيُّ عقلٍ أو دينٍ فيمَنْ يجلبُ رجلاً أجنبيًّا سائقًا أو خديمًا ويتركُهُ معَ محارمِه، معَ زوجتِهِ أو معَ بنتِهِ في البيتِ أو في السيارةِ وثالثهما الشيطانُ؟! سبحانَك ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

عبادَ اللهِ: إنَّ المؤمنَ عندما يسمعُ أوامرَ اللهِ وأوامرَ رسولهِ يبادرُ بالامتثالِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أي: لا يحلُّ لِمَنْ يؤمنُ باللهِ أنْ يختارَ من أمرِ نفسهِ ما شاءَ، بلْ يجبُ عليهِ أنْ ينقادَ لقضاءِ اللهِ وإنَ كانَ خلافَ هواه؛ لأنَّ قضاءَ اللهِ خيرٌ له عاجلاً وآجلاً، وقدْ توعدَ اللهُ الذينَ يخالفونَ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولهِ بعدما يبلغهُمْ فقالَ تعالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٥) والترمذي (٢١٦٥) وابن ماجه (٢٣٦٣) من حديث عمر بن الخطاب.

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور: ٦٣]، فحذَّرَهُم من عقوبتينِ: عاجلةٍ في الدنيا وهي الفتنةُ، وآجلةٍ في الآخرةِ وهي العذابُ الأليمُ، والفتنةُ تعمُّ جميعَ أنواعِ الفتنِ من عمى القلبِ، والإصاباتِ في الأبدانِ والأموالِ، من القتلِ والزلازلِ، وتسلطِ الجبابرةِ وغيرِ ذلك، مما هو واقعٌ ومشاهدٌ في عالمِ هذا الزمانِ.

عبادَ اللهِ: لقدْ كانَ صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ وصدرُ هذه الأمةِ يبادرونَ إلى امتثالِ أمرِ اللهِ وأمرِ رسولهِ حالَ ما يسمعونَهُ ولا يؤخرونَ ذلكَ، وأنَا أذكُرُ لكُمْ وقائعَ من ذلكَ:

لَمّا حُوِّلَتِ القبلةُ في الصلاةِ من بيتِ المقدسِ إلى الكعبةِ بأمرِ اللهِ سبحانهُ بقولِهِ: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، كانَ أولُ صلاةٍ صلاَّها النبيُّ ﷺ إلى الكعبةِ صلاةَ العصرِ، وصلاَّها معهُ قومٌ، فخرجَ رجلٌ مِمّنَ كانَ صلّى معهُ فمرَّ على أهل مسجدٍ وهم راكعونَ فقالَ: أشهدُ باللهِ لقدْ صليتُ معَ النبيِّ ﷺ قبلَ الكعبةِ فداروا كَمَا هُمْ قِبلَ البيتِ وهُمْ في الصلاةِ[١]، وروَى أبو داودَ وغيرُه عنْ أمِّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنهَا قالتْ: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، خرجَ نساءُ الأنصارِ كأنَّ رؤوسهنَّ الغربانُ من السكينةِ، وعليهنَّ أكسيةٌ سودٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣، ٤٤٨٨، ٤٤٩٠، ٤٤٩١، ٤٤٩٣، ٤٤٩٤، ٧٢٥١) ومسلم (٥٢٦) من حديث ابن عمر.

يلبسْنَها[١] وعنْ أمِّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ: «رحِمَ اللهُ نساءَ الأنصارِ لمّا نزلتْ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨] الآية، شققْنَ مروطَهنَّ فاعتجَرْنَ بها، وصلَّينَ خلفَ رسولِ اللهِ ﷺ كأنَّما على رؤوسهنَّ الغربانُ»[٢]. وعن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: كنتُ ساقيَ القومِ يومَ حُرِّمتِ الخمرُ في بيتِ أبي طلحةَ، فإذا منادٍ ينادِي، قالَ: اخرجْ فانظرْ، فإذا منادٍ ينادِي: ألا إنَّ الخمرَ قد حُرِّمَتْ، فَجَرتْ في سككِ المدينة، قالَ: فقالَ لي أبو طلحةَ: اخرجْ فأهرقْها فأهرقتها، وفي روايةٍ فقالوا: يا أنسُ، اسكبْ ما بقي في إنائِكَ، فواللهِ ما عادُوا فيها[٣].

عبادَ اللهِ: هذا موقفُ المؤمن معَ أوامرِ اللهِ وأوامرِ رسولِهِ، إنه المبادرةُ بالامتثالِ من غيرِ تردُّدٍ، ولو كانَ في ذلكَ مخالفةُ هواهُ وتركُ مألوفِهِ. فاتقوا اللهَ وانظروا مواقفَكُم معَ أوامرِ اللهِ ورسولِه.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤]. ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٠١).
(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤١٠١).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠).

في بيانِ ما أنعَمَ اللهُ بهِ على هذِه البلادِ
من معرفةِ الحقِّ والعملِ بهِ

الحمدُ للهِ على نِعمهِ الظاهرةِ والباطنةِ، وأجلُّها نعمةُ الإسلامِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ، وتباركَ اسمُ ربكَ ذي الجلالِ والإكرامِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ إلى جميعِ الأنامِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ البررةِ الكرامِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا متواصلاً على الدوام.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واذكُروا نعمةَ اللهِ عليكم واشكروها، ولا تعرّضُوها للزوال، فإنَّ اللهَ لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يغيرُوا ما بأنفُسِهِمْ.

عبادَ اللهِ: لقدْ كانتْ هذه البلادُ ـ ولا تزالُ وللهِ الحمدُ ـ تنعمُ بالأمنِ والإيمانِ، حيثُ أظهرَ اللهُ فيها هذا الدينَ على يدِ الإمامِ المجدِّدِ شيخِ الإسلامِ الشيخِ محمدِ بن عبدِ الوهابِ رحمَهُ اللهُ وأعظمَ له الأجرَ والمثوبةَ، فقد قامَ بالدعوةِ إلى اللهِ، وتصحيحِ عقيدةِ المسلمينَ من الشِّرْكياتِ والبدعياتِ، وقيضَ اللهُ له أنصارًا من أمراءِ آلِ سعودٍ فآزَروهُ ونصَرُوهُ، فاجتمعتْ قوةُ العلمِ وقوةُ السلطانِ، فأصبحتْ هذِه البلادُ مضربَ المثلِ في توفُّرِ الأمنِ والاستقرارِ وصفاءِ العقيدةِ، وتوارثَ ذلكَ الأجيالُ اللاحقةُ من أبنائِهم وأحفادِهم إلى يومِنَا هذا، وامتدَّ هذا الخيرُ إلى البلادِ المجاورةِ، فظهرَ فيها من الدعاةِ إلى اللهِ وإلى توحيدِهِ أعلامٌ من أئمةِ الدينِ، صار لهم أكبرُ الأثرِ في تبصيرِ مَنْ وفقهُ اللهُ، وأثمرتْ هذِه الحركةُ الإصلاحيةُ للمسلمينَ خيرًا كثيرًا، حيثُ تربَّتْ عليها أَجيالٌ على عقيدةِ

التوحيدِ الخالصِ، وعُمِرَتْ مساجدُ المسلمينَ بتدريسِ العلومِ النافعةِ فخرَّجَتْ أفواجًا من العلماءِ العاملينَ، وتركتْ رصيدًا نافعاً من الكتبِ في الأصولِ والفروعِ.

لقد عاشتْ هذه البلادُ في ظلِّ هذهِ الدعوةِ المباركةِ آمنةً مطمئنةً، تُدرَّسُ فيها العلومُ النافعةُ، يُحْكَمُ فيها بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، تُقامُ فيها الحدودُ، يُؤْمَرُ فيها بالمعروفِ ويُنْهَى عن المُنْكَرِ، سليمةً في عقيدتِها، نزيهةً في معاملاتِها، لا شركياتِ ولا خلافاتِ، ولا بِدعَ ولا رياءَ، ولا تزالُ بحمدِ اللهِ على ذلكَ، ونسألُ اللهَ لها الثباتَ على الحقِّ والمزيد من الفضلِ.

ولكنْ في زمانِنا هذا انفتحَ على هذِه البلادِ أبوابٌ كانتْ مغلقةً نخْشَى أنْ تؤثِّرَ عليها فتقعَ فيما وقعتْ فيهِ البلادُ الأُخرى، فتغيِّر نعمة اللهِ فيغيِّر اللهُ عليها، فقد ازدهرت الدنيا عندَنا، وفاضَ المالُ في أيدِي الكثيرِ منا فتداعتْ علينا الأمم، وتوافدتْ علينا أنواعٌ من البَشَرِ بعاداتِها وتقاليدِها الفاسدةِ، وعقائدِها المنحرفةِ، ولا أقولُ: كل الوافدينَ بهذِه الصفاتِ ولكنَّ الكثيرَ منهم، ولا بُدَّ أنْ يكونَ لهم تأثيرٌ سيئٌ على أهلِ هذهِ البلادِ في عقائدِهِم وأخلاقِهِم، فمِن هؤلاءِ الوافدينَ مَنْ هو كافرٌ لا دينَ له، ومنهم مَنْ هو مسلمٌ متساهِلٌ، والقليلُ منهم مسلمٌ متمسِّكٌ بدينهِ، وقد خالطُونا في بيوتِنا ومتاجِرنا ومكاتِبنا ومدارسِنا، وكانَ الواجبُ أنْ نؤثِّرَ عليهِمْ بدعوتِهِم إلى الخيرِ وتوجيههم إلى الإصلاحِ، ولكنَّ الواقعَ بالعكسِ، فصارَ التأثيرُ منهُمْ علينا، تساهَلْنا في المنكراتِ، وتكاسَلْنا عنِ الواجباتِ، وتعاملَ بعضُنا بالرِّبا والمكاسبِ المحرمةِ، تناولَ بعضُنا المسكراتِ والمخدراتِ، تساهلَتْ نساؤنا بالحجابِ والتسُّرِ، كلُّ هذا حدثَ بسببِ مُخالطةِ أهلِ السوءِ من الوافدينَ علينا.

فالواجبُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ الحذرُ والتنبهُ لهذِه الأخطارِ، وإبعادُ أنفُسِنا وأولادِنا

وبيوتِنا عَنْ كلِّ ما يخلُّ بدينِنا وأخلاقِنا، ولا يتمُّ هذا إلاَّ بمُضاعفةِ الجهودِ، والتعاونِ على البرِّ والتقوى، وتنميةِ الخيرِ في نفوسِنا ونفوسِ شبيبتِنا، وإعطائِهم الحصانةَ الكافيةَ من العلمِ النافعِ والدينِ الصادقِ، والتمسُّكِ بما نحنُ عليهِ من الحقِّ، والحفاظِ على هذِه الدعوةِ المباركةِ التي غرسَ شجرتَها في هذِه البلادِ إمامُنا الشيخُ محمدُ بنُ عبدِالوهابِ رحمَهُ اللهُ، وتعاهدَها بالسقيِ والتنميةِ تلاميذُه وأحفادُه وأنصارُه من علماءِ المسلمينَ وملوكِهِمْ وأمرائِهِمْ.

فقد كُنَّا في هذِه البلادِ أمة واحدةً على الحقِّ، دستورُنا كتابُ اللهِ وسُنَّةُ نبيِّه، وعقيدتُنا عقيدةُ السلفِ الصالحِ، وقدوتُنا رسولُ اللهِ ﷺ وصحابتُه الكرامُ وأتباعُهم من القرونِ المفضلةِ. لا كما يوجدُ في البلدانِ الأُخْرى مِنْ تفرق المسلمين إلى فرق وجماعات وجمعيات، كل فرقة تعادي الفرقة الأخرى، وكل فرقة تُسمِّي نفسَها غيرَ اسمِ الفرقةِ الأُخْرى والجماعةِ الأُخْرى، وكُلُّ فرقةٍ وجماعةٍ تَخطُّ لنفسِها منهجًا غيرَ منهجِ الفرقةِ الأُخْرى، حتى شَوَّهُوا الإسلامَ، ونَفَّرُوا عنهُ مَنْ يريدُ الدخولَ فيهِ، ونخْشَى أنْ تسري عدوى هذِه الفرقِ المتفرقةِ إلى بعضِ شبابِنا فينخدِعُوا بها عن جهلٍ، ويقعُوا فيما وقَعَتْ فيهِ من تشتُّتٍ وضياعٍ.

فيا شباب المسلمين، إنّنا والحمدُ للهِ جماعةٌ واحدةٌ على عقيدةِ التوحيدِ ومنهجِ السلفِ الصالحِ في الأصولِ والفروعِ، فاحملوا هذه الدعوةَ المباركةَ، وتلقَّوها عن علمائِكُمْ بأمانةٍ وإخلاص، واحمِلُوها بجدٍّ ونشاطٍ ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، تفقَّهُوا في دينِ اللهِ، وتعلَّمُوا عقيدةَ التوحيدِ، ارجعُوا إلى المصادرِ الأصليةِ لهذا الدينِ، وهي كتابُ اللهِ وسُنَّةُ

رسوله، وما يُوضِّحُ هذينِ الأصلينِ ممَّا كتَبَهُ علماءُ السُّنَّةِ في تفسيرِ القرآنِ، وشرحِ الحديثِ، واستنباطِ الأحكامِ الفقهيةِ، وليكنْ ذلكَ على أيدِي علمائِكُمْ، فالعلمُ إنَّما يُؤْخَذُ من عالمٍ ناصحٍ، وكتابٍ مفيدٍ، معَ النيةِ الصالحةِ، والجدِّ والاجتهادِ.

ويا أيها الآباء، وجِّهُوا أولادَكُم الوجهةَ الصالحةَ، وربُّوهُم التربيةَ النافعةَ، واربطُوهُم بأهلِ الخيرِ، وراقبوا تحركاتِهِم، واعرِفُوا جلساءَهُم ومدرسيهِم، فإنَّ الدعاة إلى الشرِّ أكثرُ من الدعاةِ إلى الخيرِ، وإنَّ مِنْ دعاةِ الشرِّ مَنْ يدعُو باسمِ الدينِ ويظهرُ بمظهرِ الصلاحِ ليخدعَ الناسَ، وقديمًا قالَ فرعونُ لقومِهِ: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [غافر: ٢٩]، وقال: ﴿ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر: ٢٦]، وخدعَ إبليسُ - لعنهُ اللهُ - آدمَ وزوجه ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢١].

فاحذرُوا - يا شبابَ المسلمينَ - من دعاةِ الضلالِ ولو تسمَّوا باسمِ الدينِ وظهرُوا بمظهرِ المصلحينَ، لا تثقُوا إلاَّ بِمَنْ تعرفونَ دينَه وعلمَه ونُصْحَه، وأنتم والحمدُ للهِ نشأتُمْ في هذِه البلادِ على دعوةِ التوحيدِ والدينِ الخالصِ، عندَكم العلماءُ، ولديكُم الرصيدُ الكافي من الكتبِ النافعةِ، وأنتم وآباؤكُم وإخوانكُمْ من المسلمينَ جماعةٌ واحدةٌ، فتمسَّكُوا بجماعتِكُم، وسيروا على نهجِ سلفِكُم الصالحِ، إخوانًا في الدينِ وأعوانًا على الحقِّ، وتذكَّروا قولَ اللهِ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

* * *

مزايا دينِ الإسلامِ
وموقفُ أعدائِه مِنْهُ

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ ليُظْهرَه على الدينِ كلِّهِ، وكَفَى باللهِ شهيدًا، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، إقرارًا به وتوحيدًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليمًا مزيدًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واشكُروه على نعمِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فأجَلُّ نعمةٍ أنعمَ اللهُ بها على أهلِ الأرضِ عامةً، وعلى المؤمنينَ خاصةً: نعمةُ الإسلامِ، وبعثةُ نبيِّ الرحمةِ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، لقد كانَ أهلُ الأرضِ قبلَ مجيءِ الإسلامِ في ظلامٍ دامسٍ، وضلالٍ طامسٍ؛ فالمجوسيةُ القذرةُ تسيطرُ على أهلِ المشرقِ، والنصرانيةُ الضالةُ تسيطرُ على أهلِ المغربِ ومعظم بلادِ العربِ، واليهوديةُ البغيضةُ الحاقدةُ تنتشرُ في شرقِ البلادِ وغربها، تنشرُ الفسادَ، وتخرِّبُ البلادَ، والوثنيةُ تخيِّمُ على جزيرةِ العربِ، وتعمِّمُ عبادةَ الأصنامِ في الحاضرةِ والباديةِ، قد غيَّرتْ دينَ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السلامُ، وملأَتِ المسجدَ الحرامَ والبيتَ العتيقَ بالأصنامِ.

وهكذا انطمستْ أنوارُ الرسالاتِ السماويةِ، وتلاعبَ الشيطانُ بِبَنِي آدمَ؛ فاشتدتْ حاجةُ أهلِ الأرضِ إلى بعثةِ نبيٍّ من عندِ اللهِ يخرجُهُمْ من هذِه الظلماتِ إلى النورِ، فأدركَتْهُمْ رحمةُ أرحمِ الراحمينَ، وكانتْ بعثةُ محمدٍ خاتمِ النبيينَ،

فأشرقَتْ به الأرضُ بعدَ ظلماتِها، واجتمعتْ عليهِ الأمةُ بعدَ شتاتِها، وجاءَ هذا الإسلامُ العظيمُ يحملُ للبشريةِ كلَّ خيرٍ، ويزيحُ عنها كلَّ شرٍّ، واختارَ اللهُ له أنصارًا وأعوانًا هم صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ، أبرُّ الناسِ قلوبًا، وأغزرُهُم علمًا، وأقلُّهم تكلُّفًا، فجاهدُوا في اللهِ حقَّ جهادِه، ونشروا هذا الإسلامَ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها حتى أظْهَرَهُ اللهُ على الدينِ كُلِّهِ، فَأَخْمَدَ به نارَ المجوسيةِ القذرةِ، ودَحَرَ به كبرياء اليهوديةِ المتغطرسةِ، وكَشَفَ به ضلالاتِ النصرانيةِ التائهةِ، وحَطَّمَ أصنامَ الوثنيةِ الهمجيةِ، وملأَ الأرضَ عدلاً، والقلوبَ فِقْهًا وخشيةً ورحمةً وإيمانًا، وخرَّجَ قادةً وسادةً وأحبارًا فتحوا البلادَ بالجهادِ، والقلوبَ بالعلمِ والحكمةِ، وفجَّرُوا ينابيعَ العلمِ من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولهِ، حتى ملئُوا مدارسَ العالمِ ومكاتبَ الدنيا بعلومِهِمْ ومؤلفاتِهِم، مِمَّا لمْ يعرفِ العالمُ له نظيرًا من سائرِ الأديانِ. هذا هو دينُ الإسلامِ الذي شهدَ اللهُ له بالكمالِ فقالَ تعالَى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾ [المائدة: ٣].

عبادَ اللهِ: وماذا كانَ موقفُ الشيطانِ وحزبِهِ من هذا الدينِ، الذي عطَّلَ مسيرتَهُم وخلَّصَ الناسَ من أسرِهِمْ وعبوديتِهِم؟ لقدْ وقفَ الشيطانُ وحزبُه من هذا الدينِ ـ ولا يزالون يقفون ـ موقفَ العدوِّ اللدودِ، واستخدموا كلَّ ما يملكونَ من الوسائلِ للقضاءِ عليهِ، أو للصدِّ عنهُ أو لتشويهِهِ، حاربوهُ فانتصرَ عليهم، وحاولوا محاصرتَهُ في بلدِه ومَنْعَ انتشارِهِ، فاكتسحَ كلَّ الحواجزِ والسدودِ، وامتدَّ نورُهُ في المشارقِ والمغاربِ، فاعتنقتْهُ القلوبُ السليمةُ والفطرُ المستقيمةُ؛ لأنَّه دينُ الفِطْرةِ الذي يلائمُ كلَّ زمانٍ ومكانٍ. حاولوا الدسَّ فيهِ وإلقاءَ الشُّبهِ على تشريعاتِهِ وأحكامهِ، فانكشفَ تزييفُهُم، وارتدَّتْ سهامُهُم في

نحورهم، وبقيَ هذا الدينُ غضًّا طريًّا كما أُنزِلَ. لجئُوا إلى طريقةِ المخادعةِ، فدسُّوا على المسلمينَ أُناسًا يتسمَّونَ بالإسلامِ ظاهرًا، وهم على الكفرِ في باطنِ أمرِهم، فكان فريق المنافقين. ولكنْ سرعانَ ما كشفَ اللهُ في القرآنِ سريرتَهم، وفضحَ خطتَهُم، وحذَّرَ المسلمينَ منهم، ففشِلَتْ محاولتُهم، وعرفَهُم المسلمون، فأخذوا حذرَهُم منهم، ثُمَّ لمَّا فشلتْ كلُّ خططِهِم حاولوا تفريقَ المسلمينَ، وإلقاءَ العداوةِ بينهُم، وتمزيقَهُم إلى فِرقٍ؛ فكانتْ فرقةُ الخوارجِ، وفرقةُ الشيعةِ، وفرقةُ الجهميةِ والمعتزلةِ، وتفرَّعَ عن هذِه الفرقِ فِرَقٌ شتَّى، فكانَ ذلك مصداقَ ما أخْبرَ به النبيُّ ﷺ مِنْ أنَّ أمتَه ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً كلها في النارِ إلاَّ واحدةً، وهذه الواحدةُ هي مَنْ كانَ على مِثْلِ ما كانَ عليهِ النبيُّ ﷺ وأصحابُه، وهذه الفرقةُ هي الفرقةُ الناجيةُ أهلُ السُّنةِ والجماعةِ، وتزالُ ـ وللهِ الحمدُ ـ موجودةً إلى قيامِ الساعةِ، كما أخْبرَ بذلكَ النبيُّ ﷺ بقولهِ: «**لا تزال طائفةٌ من أمَّتِي على الحقِّ لا يضرُّهُم من خذلهُم، ولا من خالفهُم حتى يأتيَ أمرُ اللهِ تباركَ وتعالَى وهم على ذلكَ**»[1] وبهذه الفرقةِ يبقى دينُ الإسلامِ منتصرًا، ويبقى مَنْ تمسَّكَ به منصورًا، ومَنِ افترقَ مِنْ هذه الفِرَقِ إنَّما يضرُّ نفسَهُ، ولمْ يضر الإسلامَ ولا أهلَ الإسلامِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: ٨].

أيُّها المسلمونَ: وفي عصرِنا هذا يواصلُ أعداءُ الإسلامِ حربَهُم ضدَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠، ٧٣١١، ٧٤٥٩) ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة. وأخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٣٦٤١، ٧٣١٢، ٧٤٦٠) ومسلم (١٠٧٣) من حديث معاوية بن أبي سفيان. وفي الباب عن جمع من الصحابة، انظر تخريجها في نظم المتناثر في الحديث المتواتر للكتاني برقم (١٤٥).

الإسلامِ، فها هي الشيوعيةُ بحديدِها ونارِها، وها هي الماسونيةُ اليهوديةُ بإباحيتِها وخلاعتِها، وها هي القوميةُ العربيةُ بردَّتِها وانحرافِها، وها هي الصليبيةُ الحاقدةُ بدسائِسِها ومكرِها وإغرائِها، وكلُّها ضد الإسلامِ، ويبقى الإسلامُ طودًا شامخًا، وحصنًا منيعًا لا تصل إليه سهام الأعداء، ولا يؤثرُ فيه نبحُ الكلابِ، وتعودُ هذه السهامُ إلى صدورِ أصحابِها خاسئةً ذليلةً ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

عبادَ اللهِ: إنَّ الإسلامَ ليسَ بالتَّسَمِّي والانتماءِ، إنَّه قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، إنَّه دينٌ ودولةٌ، إنَّه عقيدةٌ وسلوكٌ، ينبنِي على أركانٍ خمسةٍ هي: شهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ، ويكملُ بفعلِ واجباتٍ ومستحباتٍ من الطاعاتِ. فأيُّ إسلامٍ لِمَنْ تركَ عمودَ الإسلامِ وهو الصلاةُ، وضيَّعَ الواجباتِ، ولم ينتهِ عن المحرماتِ؟ إنّ هذا الإسلامَ محفوظٌ بحفظِ اللهِ له، فإذا تولّى عنه قومٌ استبدَلَهُمُ اللهُ بخيرٍ منهم، ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

باركَ اللهُ لِي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ

* * *

ثمراتُ الإيمانِ، والفرق بينَ مواقفِ المؤمنين ومواقف المنافقينَ، كما جاءَ في القرآنِ الكريمِ

الحمدُ للهِ يمنُّ على مَنْ يشاءُ بهدايتهِ للإيمانِ، ويخذلُ أهلَ الكفرِ والطغيانِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المؤيدُ بالنصرِ والبرهانِ، صلى الله وسلم على عبدِه ورسولِه نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وأصحابه ومَنْ تبعهُمْ بإحسانٍ.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ، واسألوهُ الثباتَ على الإيمانِ، لا شكَّ أنَّ الإيمانَ نورٌ يقذفُهُ اللهُ في قلبِ العبدِ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥]. والإيمانُ مِنَّةٌ من اللهِ على العبدِ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، والإيمانُ اعتقادٌ وعملٌ؛ كما قالَ الإمامُ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ: «**ليسَ الإيمانُ بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكنَّهُ ما وقر في القلوبِ وصدقتْهُ الأعمالُ**»[1]. ولهذا عرَّفهُ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ بأنَّه: قولٌ باللسانِ، واعتقادٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارحِ، يزيدُ بالطاعةِ ويَنْقُصُ بالمعصيةِ، وهو بهذا

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦).

الاعتبارِ ضمانةُ الثباتِ في مواقفِ الامتحانِ، ومركبُ النجاةِ في طوفانِ الفتنِ وأمواجِ المحنِ.

وقد علَّقَ اللهُ على الإيمانِ خيراتٍ كثيرةً، عاجلة وآجلة، فرتَّبَ عليهِ توفُّرَ الأمنِ والهدايةِ في الدنيا والآخرةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]، كما رتَّبَ عليهِ حصولَ الحياةِ الطيبةِ وتوفُّرَ الأجرِ الحسنِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧]، وقد تكفَّلَ اللهُ بالدفاعِ عن أهلِ الإيمانِ خاصةً: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

والإيمانُ الذي هذهِ مميزاتهُ ذو أركانٍ ستةٍ، وذو شعبٍ تزيدُ على سبعينَ شعبةً؛ قالَ ﷺ: **«الإيمانُ أنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتُؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّه»**[1] وقالَ ﷺ: **«الإيمانُ بِضعٌ وسبعونَ شعبةً، أعلاها قولُ لا إلهَ إلا اللهُ، وأدْناها إماطةُ الأذَى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ»**[2] إنَّ الإيمانَ بأركانِه الستةِ وحدةٌ متكاملةٌ، يشملُ كلَّ ما يجبُ الإيمانُ بهِ، ولا يكفِي الإيمانُ ببعضِ هذهِ الأركانِ دونَ بعضٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٢﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢]. ومِنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٨) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب في مراتب الدين.
(٢) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة.

حكمةِ اللهِ سبحانهُ وتعالَى: أنَّه لا يتركُ عبادَهُ بدونِ اختبار يُميِّزُ الصادقَ في إيمانهِ من الكاذبِ المنافقِ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]، وهنا يظهرُ الفرقُ بينَ مواقفِ أهلِ الإيمانِ وأهلِ النفاقِ والكفرانِ، وسنعرِضُ هُنا جملةً من تلكَ المواقفِ كما بيَّنها القرآنُ الكريمُ:

فمِنْ ذلكَ موقفُ الفريقينِ عندما يُدْعَونَ إلى اللهِ ورسولهِ ليحكمَ بينهَمُ فيما تنازعُوا فيه، قالَ اللهُ تعالَى عَنْ موقفِ المنافقينَ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٥٠]، ثمَّ بيَّنَ سبحانَهُ موقفَ المؤمنينَ عندَما يُدْعَوْنَ إلى حُكمِ اللهِ ورسولهِ فقالَ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [النور: ٥١]. هذا موقفُ الفريقينِ عندَما يُدْعَيانِ إلى التحاكمِ إلى شريعةِ اللهِ، وهو موقفٌ لا يزالُ يتكرَّرُ كلَّما جدتْ قضيةٌ أو عرضتْ نازلةٌ، المؤمنونَ يريدونَ حُكْمَ اللهِ ورسولهِ فيها، سواءٌ كانَ لهُمْ أو عليهم، والمنافقونَ إنَّما يريدونَ حكمَ اللهِ ورسولهِ فيها إذا كانَ لهُمْ، أمَّا إذا كانَ عليهِمْ فإنهُمْ يهربونَ إلى حكمِ الطاغوتِ ليخلصَهُمْ من حكمِ اللهِ!.

ومن ذلكَ موقفُ الفريقينِ عندَ سماعِ القرآنِ وعندَ تلاوتِه، فالمؤمنونَ يزيدُهُم نزولُ القرآنِ وتلاوتُهُ إيماناً وهم يستبشرونَ، والمنافقونَ يزيدُهُم ذلكَ رِجْساً إلى رِجْسِهم، ويتحينونَ الفرص للانصراف عن سماعِهِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٧].

ومن ذلكَ موقفُ الفريقينِ عندَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فالمؤمنونَ يرغَبونَ إلى ربهِمْ عزَّ وجلَّ أنْ ينزلَ على رسولِه سورةً يأمرهُمْ فيها بقتالِ الكفارِ، حِرْصًا منهم على الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ونيلِ ما أعدَّهُ اللهُ للمجاهدينَ من جزيلِ الثوابِ، فلما نزلَ الأمرُ بالجهادِ بادَرُوا مغتبطينَ، فجاهدوا بأموالهم وأنفسهم. وأما المنافقون فإنَّهم عندما نزلَ الأمرُ بالقتالِ أصابَهُم الذعرُ والخوفُ، وصارُوا ينتحلونَ الأعذارَ تلْوَ الأعذارِ للتخلُّفِ عنهُ. قالَ اللهُ تعالَى عن موقف الفريقينِ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]، وقالَ تعالَى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

ومن ذلكَ موقفُ الفريقينِ عندَ مضايقةِ الكفارِ للمسلمينَ، فالمؤمنونَ يزيدونَ بذلكَ ثباتًا على دينهِمْ، وَيقْوَىٰ يقينُهُمْ بوعْدِ اللهِ ورسولِه لهُم بالنصرِ، وأمَّا المنافقونَ فإنَّهم يبلغُ منهُم الخوفُ كلَّ مبلغٍ، ويسوءُ ظنُّهُم باللهِ وبرسولِهِ؛ قالَ اللهُ تعالَى عن موقفِ الفريقينِ عندما أحاطَ أحزابُ الكفارِ بالمسلمينَ من

داخلِ المدينةِ وخارجِها، وزاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ من هولِ الموقفِ، فقالَ عنْ موقفِ المؤمنينَ عندَ ذلكَ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢، ٢٣]، وقالَ عَنْ موقفِ المنافقينَ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣]. إنَّه الاختبارُ القاسِي الذي تجلَّى عن نجاحِ المؤمنينَ وإخفاقِ المنافقينَ، وتلكَ سُنَّةُ اللهِ في خلْقِهِ، ولنْ تجدَ لسُنَّةِ اللهِ تبديلاً.

هذا ونسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يمُنَّ علينا بالإيمانِ، وأنْ يعيذَنا من النفاقِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ...

* * *

في فضلِ الإيمانِ بالغيبِ وبيانِ معْنَاهُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، مدحَ أهلَ الإيمانِ، ووعدَهُم الخلودَ في الجنانِ، ومنحَهُم منه المحبةَ والرضوانَ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أنَّ الإيمانَ هو الصفةُ المميِّزَةُ لأهلِ الربحِ من أهلِ الخسرانِ مِنْ بني الإنسانِ؛ قالَ اللهُ تعالَى بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ـ٣]، أربعُ صفاتٍ هي المنجيةُ من خسارٍ مُحقَّقٍ: الإيمانُ، والعملُ الصالحُ، والتواصِي بالحقِّ، والصبرُ عليهِ ومنْ أجلِهِ.

والإيمانُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ لا يحصلُ بالتمنِّي أو مجرد الدعْوَى والانتسابِ، ولكنَّهُ ما وقَرَ في القلوبِ وصدّقتْهُ الأعمالُ، إنَّه اعتقادٌ في القلبِ، وقولٌ باللسانِ، وعملٌ بالجوارحِ، يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصيةِ، ومِنْ أعظَمِ خصالِ الإيمانِ: الإيمانُ بالغيبِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣] الآيات. والغيبُ في كلامِ العربِ هو ما غابَ عنكَ، فتُصَدِّقُ بهِ اعتمادًا على الخبرِ الصادقِ من اللهِ ورسولِهِ؛ فتؤمنُ باللهِ، وملائكتِه، وكتبِهِ، ورسلِه، واليومِ الآخرِ، وتؤمنُ بالقدرِ خيرِه وشرِّه، وتؤمنُ بما

أخبرَ اللهُ ورسولُه عنهُ مِنَ الحوادثِ الماضيةِ والحوادثِ المستقبلةِ، مِنْ أخبارِ الرسلِ والأُممِ الماضيةِ، وما يحصلُ في آخرِ الزمانِ من علاماتِ الساعةِ، كظهورِ الدجَّالِ، ونزولِ عيسى بن مريمَ عليهِ السلامُ، وخروجِ يأجوجَ ومأجوجَ، وطلوعِ الشمسِ منْ مغربِها، وغيرِ ذلكَ ممَّا أَخْبرَ به النبيُّ ﷺ من أشراطِ الساعةِ ما حصلَ منها وما سيحصلُ، وتؤمنُ بما يكونُ في البرزخِ من عذابِ القبرِ ونعيمِهِ، وتؤمنُ بالبعثِ والحسابِ والميزانِ، والجنةِ والنارِ، وتعملُ مِنْ أجلِ ذلكَ وتستعدُّ له ولا تغفل عنهُ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

ومَنْ آمنَ بذلكَ حقَّ الإيمانِ، فإنَّه لا ينشغلُ عنهُ بالدنيا فيكون مِمَّنْ قالَ اللهُ فيهِمْ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]. لقد توعَّدَ اللهُ مَنْ هذه صفتُهُ بأشدِّ الوعيدِ؛ قالَ تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]. فالمؤمنُ بالآخرةِ لا يُؤْثِرُ الدُّنيا عليها، وإنَّما يجعلُ الدنيا مزرعةً لها ومطيةً إليها؛ لأنَّه يعلمُ أنَّه منتقلٌ عنها إلى الآخرةِ، فالمؤمنُ يجمعُ اللهُ له بينَ خيرَي الدُّنيا والآخرةِ؛ والكافرُ يخسرُ الدنيا والآخرةَ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. قالَ عبدُ الرحمنِ بنُ زيد بنِ أسلمَ: هو المنافقُ إنْ صلحتْ له دُنياهُ أقامَ على العبادةِ، وإنْ فسدتْ عليهِ دنياهُ وتغيَّرت انقلبَ، فلا يقيمُ على العبادةِ إلاَّ لما صلحَ من دنياهُ، فإنْ أصابتْهُ فتنةٌ أو شِدَّةٌ أو ضيقٌ تركَ دينَهُ ورجعَ إلى الكفرِ.

عبادَ اللهِ: ومِنَ الإيمانِ بالغيبِ أنْ يعملَ المؤمنُ بشريعةِ النبيِّ ﷺ ويطيعَهُ

وهو لمْ يرَهُ، فقدْ قالَ جماعةٌ من الصحابةِ للنبيِّ ﷺ: أيُّ قومٍ أعظمُ منَّا أجْرًا، آمنَّا باللهِ واتَّبعْناكَ؟! قالَ: «ما يمنعُكُمْ من ذلكَ ورسولُ اللهِ بينَ أظْهُرِكُمْ يأتيكم بالوحيِ من السماءِ، بلْ قومٌ بعدَكُم يأتيهم كتابٌ بينَ لوحين يؤمنونَ بهِ ويعملونَ بما فيهِ، أولئكَ أعظمُ منكُم أجرًا»(١) مرتينِ. وقدْ وردَ أنَّ المُتَمسِّكَ بدينهِ عندَ ظهورِ الفتنِ له أجرُ خمسينَ من الصحابةِ؛ فعن أبي ثعلبةَ الخشنيِّ رضيَ اللهُ عنه أنَّه سألَ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ هذهِ الآيةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقالَ ﷺ: «بل ائْتَمِرُوا بالمعروفِ، وتناهَوا عن المنكرِ، حتى إذا رأيتَ شُحًّا مُطَاعًا، وهوى مُتَّبَعًا، ودنيا مُؤْثَرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيهِ، فعليكَ بخاصةِ نفسِك، ودع العوامَّ، فإنَّ منْ ورائِكُم أيامًا الصبرُ فيهنَّ مثلُ القبضِ على الجمرِ، للعاملِ مثلُ أجرِ خمسينَ رجلًا يعملون مثل عملكم» قيل: يارسول الله، أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين رجلًا منكُم»(٢) رواهُ أبو داودَ، والترمذيُّ، والحاكمُ، وقالَ: صحيحُ الإسنادِ. وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «المتمسِّكُ بسنَّتِي عندَ فسادِ أمَّتِي له أجْرُ شهيدٍ»(٣) رواه الطبراني، وأبو نعيمٍ في «الحِليةِ».

عبادَ اللهِ: والإيمانُ بالغيبِ يشملُ أيضًا الذي يطيعُ اللهَ ويخلصُ العملَ له، سواءٌ كانَ معَ الناسِ أو كانَ منفردًا خاليًا؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾ [الملك: ١٢]، وقالَ تعالَى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٧٥) من حديث معاذ بن جبل.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤) والحاكم(٤/ ٣٢٢).
(٣) أخرجه الطبراني (٣٥٤٠) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٠٠).

بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق: ٣٣]. وهذا بخلافِ المنافقِ فإنَّه يُظْهِرُ الطاعةَ والإيمانَ إذا كانَ معَ الناسِ، أمَّا إذا خَلاَ فإنَّه يكفرُ بربِّهِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤].

والإيمانُ بالغيبِ يتميَّزُ به الإنسانُ العاقلُ عن الإنسانِ البَهيميِّ الذي لايؤمنُ إلاَّ بالمحسوسِ المُشَاهَدِ، وذلكَ الإيمانُ البهيميُّ ليسَ فيه ميزةٌ للإنسانِ عن الحيوانِ، ولا ينفعُ صاحبَهُ؛ قالَ تعالَى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وفرعونُ لمَّا أدركَهُ الغرقُ قالَ: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٠]، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩١]. فهذا حكْمُ اللهِ في كلِّ مَنْ تابَ عندَ معاينةِ العذابِ أنَّه لايُقْبَلُ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: «**إنَّ اللهَ تعالَى يقبلُ توبةَ العبدِ ما لمْ يُغرغِرْ**»(١) أي: فإذا غرْغرَ، بأنْ بلغت الروحُ الحنجرةَ وعاينَ المَلَك، فلا توبةَ حينئذٍ تُقْبَلُ.

فاتَّقُوا اللهَ عبادَ اللهِ. أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٥، ٦].

باركَ اللهُ لِي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر.

صفاتُ أهلِ الإيمانِ

الحمدُ للهِ ذي الفضلِ والإحسانِ، يَمُنُّ على مَنْ يشاءُ بهدايتِهِ للإيمانِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَهُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ بينَ يَدَيِ الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعياً إلى اللهِ بإذنهِ وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقوا اللهَ تعالَى، واعلمُوا أنَّ أعظمَ نعمةٍ ينالُها العبدُ هدايتُهُ للإيمانِ، فاسألُوا اللهَ أنْ يُحبِّبَ إليكُم الإيمانَ ويزيِّنَهُ في قلوبِكُم، ويُكَرِّهَ إليكُم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ.

إنَّ الإيمانَ ليسَ بالتحلِّي والتمنِّي، ولكنَّه ما وقرَ في القلوبِ وصدَّقتهُ الأعمالُ، إنَّ الإيمانَ قولٌ باللسانِ، واعتقادٌ بالقلبِ، وعملٌ بالجوارحِ، يزيدُ بالطاعةِ وينقصُ بالمعصيةِ، له أركانٌ ستةٌ هي: الإيمانُ باللهِ، ومَلائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، وبالقدرِ خيرِهِ وشرِّه. وللإيمانِ علاماتٌ، وهو بضعٌ وسبعونَ شعبةً، أعلاَها قولُ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ، وأدْنَاها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ شعبةٌ من الإيمانِ.

واللهُ تعالَى يُنادِي أهْلَ الإيمانِ في كثيرٍ من آياتِ القرآنِ فيأمرُهُم وينهاهُم، لأنَّ إيمانَهُم يدعوهُم إلى فعلِ الأوامرِ واجتنابِ المناهِي، فالذي يقولُ بلسانهِ: إنَّه مؤمنٌ، لكنَّهُ لا يفعلُ ما أَمَرَهُ اللهُ، ولا يجتنبُ ما نهاهُ اللهُ عنهُ، هو كاذبٌ في دعواهُ الإيمانَ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا

هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٨، ٩]. إنَّ الإيمانَ مُنطلَقٌ للأعمالِ الصالحةِ والصفاتِ الحميدةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٢، ٣].

والإيمانُ يصحّحُ الأعمالَ ويجعلُها مقبولةً عندَ اللهِ تعالَى؛ قالَ تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]. وعلى العكسِ، لا يُقبلُ معَ عدَمِ الإيمانِ أيُّ عملٍ مهما كثُرَ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. أهلُ الإيمانِ هُمُ الذينَ يتحاكمونَ عندَ النزاعِ والاختلافِ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]. أمَّا أهلُ الكفرِ والنفاقِ فإنَّهُم يُعرِضُونَ عنْ حكمِ اللهِ ورسولِه، ويأبونَ التحاكُمَ إليهِمَا، ويريدونَ التحاكمَ إلى الطواغيتِ والقوانينِ الوضعيةِ، وفيهِم يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُولَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور: ٤٧، ٤٨]. ويقولُ تعالَى فيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

عبادَ اللهِ: إنَّ في وقتِنا هذا مَنْ يريدُ إيمانًا بالتَّسمِّي فقط، فيريدُ إيمانًا بلا أعمالٍ، إيمانًا بلا صلاةٍ ولا زكاةٍ ولا صيامٍ ولا حج، بَلْ يريدُ إيمانًا بلا توحيدٍ ولا عقيدةٍ، يريدُ إيماناً معَ عبادةِ القبورِ والأضرحةِ والأولياءِ والصالحينَ، يريدُ إيمانًا مع تحكيمِ القوانينِ والطواغيتِ في فَكِّ المنازعاتِ والمخاصماتِ، معَ أنَّه لا بُدَّ لتحققِ الإيمانِ من الكفرِ بالطاغوتِ؛ قالَ تعالَى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ولا بُدَّ لصحةِ العبادةِ من الكفرِ بالطاغوتِ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]. وقالَ تعالَى: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ﴾ [النساء: ٣٦].

عبادَ اللهِ: وهناكَ معاصٍ دونَ ذلكَ لا تُبطِلُ الإيمانَ لكنَّها تنقصُه وتضعفهُ، فيجبُ على المؤمنِ تجنُّبُ سائر المعاصِي حفاظًا على إيمانِه، فلا يغشُّ في المعاملةِ، ولا يفجُرُ في الخصومةِ، ولا يكذبُ في الحديثِ، ولا يخلفُ في الوعدِ، ولا يخونُ في الأمانةِ، ولا يغدرُ في العهدِ، ولا يغتابُ، ولا يشتغلُ بالنميمةِ، يتجنبُ المكاسبَ المحرمةَ؛ فلا يأكلُ الرِّبا، ولا يأخذُ الرشوةَ، ولا يأكلُ مالَ اليتيمِ، يترفعُ عن الدنايا؛ فلا يشتمُ ولا يسبُّ، فليسَ المؤمنُ بالطعانِ، ولا باللعانِ، ولا الفاحشِ، ولا البذيءِ، يحبُّ لأخيهِ المؤمنِ ما يحبُّ لنفسِهِ، يُصلحُ ذاتَ البينِ عملاً بقولهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٠]. يتألَّمُ لألمِ إخوانهِ المؤمنينَ عملاً بقولهِ ﷺ: «**مثلُ المؤمنينَ في توادِّهِم وتراحمهِم كمثلِ الجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ**

الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى»[١].

ومن صفاتِ المؤمنينَ: الشكرُ في حالِ الرخاءِ والصبرُ في حالِ الضرَّاءِ؛ قالَ ﷺ: «عجبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أَمرَهُ كُلَّه له خيرٌ، وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلاَّ للمُؤمنِ، إنْ أصابتهُ سرَّاءُ شكرَ فكانَ خيرًا له، وإنْ أصابتهُ ضراءُ صبرَ فكانَ خيرًا له»[٢].

أيُّها المؤمنونَ، وكما أنَّ المعاصِي تنقصُ الإيمانَ وتضعِفُهُ فإنَّ الطاعاتِ تزيدُ الإيمانَ وتقويهِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح: ٤]. فالإيمانُ يزيدُ بتلاوةِ القرآنِ، ويزيدُ بفعلِ الطاعاتِ، ويزيدُ بمجالسةِ الصالحينَ، ويزيدُ بذِكْرِ اللهِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]. فعليكُم ـ يا عبادَ اللهِ ـ بما يُقوِّي إيمانكُم ويرفعُ درجاتِكُم.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان.

في بيانِ الأُخُوَّةِ في الدينِ ومُستَلزَماتِها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، جعلَ المؤمنينَ إخوةً متحابينَ في الدينِ، ونهاهُم عنِ التفرُّقِ وطاعةِ الحاسدينَ والمفسدينَ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ الملكُ الحقُّ المبينُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الصادق الأمين، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ كانوا يهدونَ بالحقِّ وبه يعدِلونَ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدينِ كَمَا سمَّاهُم اللهُ بذلكَ في كتابهِ المبينِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال النبيُّ ﷺ: **«كونوا عبادَ اللهِ إخوانًا»**[١]، وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«لا يُؤمنُ أحدُكُم حتى يُحبَّ لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسِهِ»**[٢] رواهُ البخاريُّ، ومسلمٌ، وفي روايةٍ لمسلمٍ: **«حتى يُحِبَّ لجارِهِ أو لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ»**[٣]، وفي روايةٍ لأحمدَ: **«لايبلغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يُحِبَّ للناسِ من الخيرِ ما يحبُّ لنفسهِ»**[٤]، وفي صحيحِ مسلمٍ من حديثِ عبدِ اللهِ ابن عمرِو بنِ العاصِ رضيَ اللهُ عنهما عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«مَنْ أحبَّ أنْ يُزَحزَحَ**

---

(١) جزء من حديث «إياكم والظن». أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك.

(٣) صحيح مسلم (٤٥).

(٤) مسند أحمد (١٢٧٣٤).

عن النارِ ويدخلَ الجنَّةَ، فلتدرِكهُ منيَّتُهُ وهو يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ، ويأتِي إلى الناسِ الذي يحبُّ أنْ يُؤتَى إليهِ»(١).

فهذِه الأحاديثُ وما جاءَ بمعناهَا تدلُّ على أنَّ المؤمنَ يسُرُّه ما يسُرُّ أخاهُ ويحزِنهُ ما يحزِنهُ، ويريدُ لأخيهِ المؤمنِ ما يريدُ لنفسهِ من الخيرِ، وهذا إنما يأتِي معَ سلامةِ المسلمِ من الغشِّ والغلِّ والحسدِ، فإنَّ الحسدَ يقتضِي أنْ يكرَهَ الحاسدُ أنْ يفوقَهُ أحدٌ في نعمةٍ أو يساويَهُ فيها؛ لأنَّه يحبُّ أنْ يمتازَ على الناسِ وينفردَ عنهُم بالنعمةِ، والإيمانُ يقتَضِي خلافَ ذلكَ، وهو أنْ يشاركَهُ المؤمنونَ كلُّهُم في مِثلِ ما أعطاهُ اللهُ من الخيرِ من غيرِ أنْ ينقصَ عليهِ منه شيءٌ، وقد مدحَ اللهُ تعالَى في كتابهِ مَنْ هذهِ صفتُهُ، منْ كانوا لا يريدونَ علُوًّا في الأرضِ ولا فسادًا؛ فقالَ تعالَى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣]، قالَ عكرمةُ وغيرُهُ في هذه الآيةِ: العلوُّ في الأرضِ: التكبُّرُ وطلبُ الشرفِ والمنزلة عندَ السلطانِ، والفسادُ: العملُ بالمعاصِي. وقالَ تعالَى في مدحِ المؤمنينَ أيضًا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ... ﴾ [الحشر: ١٠]. فمنْ صِفاتِ المؤمنينَ سلامةُ قلوبهِم وألسنتهِم لإخوانهِم المؤمنينَ السابقينَ واللاحقينَ، والثناءُ عليهِم والدعاءُ لهم بالمغفرةِ معَ الدعاءِ لأنفسِهم، ولا سيَّمَا السابقون الأولون منْ صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ من المهاجرينَ والأنصارِ والذينَ اتَّبعُوهُم بإحسانٍ، فمنْ وجدَ في نفسِه بُغضًا لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، أو تنقَّصَهُم فليس بمؤمنٍ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسِي

(١) صحيح مسلم (١٨٤٤).

بيدِه لو أنفقَ أحدكُم مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغَ مدَّ أحدِهِم ولا نصيفَهُ»(١) فقاتلَ اللهُ الروافضَ الذينَ يسبُّونَ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ وخلفاءَهُ الراشدينَ ويتنَقَّصُونَهُم، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقالَ تعالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ . . .﴾ إلى قولِهِ تعالَى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝﴾ [الفتح: ٢٩]. فهذا يدلُّ على أنَّه إنَّما يغتاظُ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ الكفارُ، وأمَّا المؤمنونَ فإنَّهُم يحبُّونَهُم ويتولونَهُم ويستغفرونَ لهم.

عبادَ اللهِ: ينبغي للمؤمنِ أن يحبَّ للمؤمنينَ ما يحبُّ لنفسِهِ، ويكرَهَ لهم ما يكرَهُ لنفسِهِ، فإنْ رأى من أخيهِ المسلمِ نقصًا في دينِهِ اجتهدَ في إصلاحِهِ، فلا يكونُ المؤمنُ مؤمنًا حقًّا حتَّى يرضَى للناسِ ما يرضاهُ لنفسِهِ، وإذا كانَ المؤمنُ لا يرْضَى أنْ يغتابَه أحدٌ، فكيفَ يغتابُ أخاهُ؟ وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. وإذا كان المؤمنُ لا يرْضَى أنْ يسعَى أحدٌ بينَه وبينَ أحبابِهِ بالنميمةِ، فكيفَ يسعَى هو بينَ إخوانِهِ المتحابينَ بالنميمةِ ليُفسِدَ ما بينَهم؟ وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١]، وقالَ النبيُّ ﷺ: **«لا يدخلُ الجنةَ نمامٌ»**(٢)، وإذا كانَ المؤمنُ لا يرْضَى أنْ يسخرَ منه أحدٌ أو يستهزِئَ به أحدٌ، فكيفَ يسخرُ من إخوانِهِ ويستهزِئُ بهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة، واللفظ لمسلم.

ويتنقصهم، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠]. إذا كانَ المؤمنُ لا يرضَى أنْ يغشَّهُ أحدٌ في بيعِهِ وشرائِهِ، فكيفَ يغشُّ إخوانَهُ ويخدعُهُم في معاملاتِهِ معهَم؟ إذا كانَ المؤمنُ لا يرْضَى أنْ يؤذِيَهُ جارُهُ فكيفَ يؤذِي هو جيرانَهُ؟ وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «واللهِ لا يُؤمِنُ، واللهِ لا يُؤمِنُ، واللهِ لا يُؤمِنُ، مَنْ لا يأمَنُ جارُه بوائقَهُ»[1]. إذا كانَ المؤمنُ لا يرضَى أنْ يُظلمَ، فكيفَ يظلمُ الناسَ؟

وإذا كانَ المؤمنُ لو خطبَ امرأةً أو باعَ سلعةً أو اشتراها لا يرضَى أنْ يُفسدَ عليهِ ذلكَ أحدٌ، فيخطبَ على خطبتِهِ أو يبيعَ على بيعِهِ أو يشتري على شرائِهِ، فكيفَ تصدرُ منه هذِه الأمورُ في حقِّ إخوانهِ المؤمنينَ؟! وقد قال النبيُّ ﷺ: «لا تحاسَدُوا، ولا تناجَشُوا، ولا تباغَضُوا، ولا تدابَرُوا، ولا يَبِعْ بعضُكُم على بيعِ بعضٍ، وكونوا عبادَ اللهِ إخْوانًا»[2]، وفي «الصحيحين» عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «لا يبع المؤمنُ على بيعِ أخيهِ، ولا يخطبْ على خطبةِ أخيهِ»[3].

لقدْ بيَّنَ النبيُّ ﷺ المقياسَ الصحيحَ للمؤمنِ الحقيقيِّ في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ وهي قولهُ ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكُم حتى يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ»[4] فإذا كان يحبُّ لنفسهِ الخيرَ فلْيُحِبَّهُ لإخوانهِ ويجتهد في جَلبهِ لهم، وإذا كان يكرهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٨١٨)، ومسلم (٤٦) من حديث أبي هريرة واللفظ لأحمد.
(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٤).
(٣) أخرجه البخاري (٢١٤٠) ومسلم (١٠٧٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥) من حديث أنس بن مالك.

لنفسِهِ الشرَّ فَلْيَكْرَهْهُ لإخوانِهِ فيصرف شرَّهُ عنهم، ويجتهد في صرفِ شرِّ غيرِهِ عن إخوانهِ، وتلكَ قاعدةٌ نافعةٌ ووصيةٌ جامعةٌ، نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يرزقَنا وإياكُم الاتِّصافَ بها، والبعدَ عمَّا يُضادُّها، إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ... ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١٢].

* * *

في التحذيرِ من الكِبرِ، وبيانِ آثارهِ السيئةِ

الحمدُ للهِ الذي منَّ علينا بِنِعَمِهِ التي لاتُحصَى، وأرانا من آياتهِ ما فيهِ عبرةٌ لأُولِي النُّهَى، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، لهُ الأسماءُ الحُسنَى، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذي لا ينطقُ عن الهَوى، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٤]، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابهِ، وكُلِّ منْ سارَ على طريقتِهِ المُثْلَى، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى بامتثالِ أوامرِهِ، واجتنابِ معاصيهِ، لعلَّكُم تفحلونَ.

أيُّها المسلمونَ، خصلةٌ ذميمةٌ وآفةٌ عظيمةٌ حذَّرَ منها اللهُ ورسُوله غايةَ التحذيرِ، يتصفُ بها كثيرٌ من الناسِ اليومَ، ألا وهي صفةُ الكِبْرِ، أعاذنا الله وإياكم منها. قال بعض السلف: أول ذنب عصي الله به: الكبرُ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وقدْ وضَّحَ النبيُّ ﷺ معنى الكِبْرِ في الحديثِ الذي رواهُ مسلمٌ عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**لايدخلُ الجنةَ مَنْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ من كِبرٍ**»، فقالَ رجلٌ: إنَّ الرجلَ يُحبُّ أنْ يكونَ ثوبُهُ حسنًا، ونعلُهُ حسنةً، قالَ: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحقِّ وغمطُ الناسِ**»[1] وبطرُ الحقِّ: دفعُهُ وردُّهُ على قائِلِهِ، وغمطُ الناسِ: احتقارُهُم. فقدْ بيَّنَ ﷺ أنْ التجمُّلَ في

---

(١) صحيح مسلم (٩١).

الهيئةِ واللباسِ أمرٌ محبوبٌ عندَ اللهِ وليسَ هو الكِبْر، وإنَّما الكِبْرُ صفةٌ باطنةٌ في القلبِ تظهرُ آثارُها في تصرفاتِ الشخصِ، فتحملُه على عدم قبول الحقِّ وعلى احتقارِ الناسِ، فإبليسُ لمَّا تكبَّرَ على آدمَ حملَهُ ذلكَ على أن امتنعَ منِ امتثالِ أمْرِ رَبِّهِ بالسجودِ له، وهو الذي حملَ الكفارَ على مخالفةِ الرسُلِ لمَّا جاءُوهُم بالآياتِ البيناتِ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

والكِبرُ يمنعُ المستكبرَ مِنْ أنْ يدعوَ ربَّهُ ويعبده؛ قالَ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]. والكِبْرُ: هو الذي يحملُ بعضَ الناسِ الذينَ أُعطُوا شيئًا من الثروةِ أو الرئاسةِ على تَركِ الصلاةِ في المساجدِ، فترى المسجدَ إلى جانبِ بيتِ أحدِهِمْ أو قريبًا منه، ويسمعُ الأذانَ كلَّ وقتٍ، فلا يدَعُهُ الكِبْرُ يذهبُ إلى المسجدِ، ويقفُ بينَ يدي ربِّهِ معَ المصلينَ؛ لأنَّه يرى نفسَهُ أكْبرَ من ذلكَ.

والكِبْرُ هو الذي يحملُ بعضَ الناسِ على ترك العمل بسُنَّةِ الرسولِ ﷺ، كما روَى مسلمٌ عن سلمةَ بنِ الأكوعِ رضيَ اللهُ عنهُ: أنَّ رجلاً أكلَ عندَ النبيِّ ﷺ بشمالِهِ، فقالَ: «كُلْ بيمينِكَ»، قالَ: لا أستطيعُ. قالَ: «لا اسْتَطَعتْ؛ ما منعُهُ إلاَّ الكِبْرُ» قالَ: فما رفَعَهَا إلى فيهِ[1].

والكِبْرُ: هو الذي يمنعُ من تعلُّمِ العلمِ النافعِ، كما قالَ بعضُ السلفِ: إنَّ هذا العلمَ لا ينالُهُ مستحٍ ولا مستكبرٌ. والكِبْرُ: هو الذي يحملُ بعضَ الناسِ على

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٢١).

إسبالِ ثيابِهِ تحتَ الكعبينِ والتبخْتُرِ في مشيتِهِ؛ ففي الحديثِ المتفقِ على صحتِهِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«بينما رجلٌ يمشِي في حلةٍ تعجبُهُ نفسُهُ، مُرَجِّلٌ رأسَهُ، يختالُ في مشيتِهِ، إذْ خسفَ اللهُ به فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرضِ إلى يومِ القيامةِ»**[1].

عبادَ اللهِ: إنَّ التكَبُّرَ عن الحقِّ، والتكَبُّرَ على الخلْقِ، يُوجِبانِ أنواعًا من العقوباتِ العاجلةِ والآجلةِ، ومِنْ أعظمِ ذلكَ أنَّ المستكبرَ يُصرفُ قلبُهُ عن الهُدَى؛ قالَ تعالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وقالَ تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وفي «الصحيحينِ» أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: **«مَنْ جَرَّ ثوبَهُ خيلاءَ لَمْ ينظر اللهُ إليهِ يومَ القيامةِ»**[2]، وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: **«يُحشرُ الجبارونَ والمتكبرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ يطؤُهُم الناسُ، يغشاهُم الذلُّ من كُلِّ مكانٍ»**[3] رواهُ الترمذيُّ، والنسائيُّ.

قالَ سفيانُ بنُ عيينةَ رحمَهُ اللهُ: مَنْ كانتْ معصيتُه في شهوةٍ فَارْجُ له التوبة؛ فإنَّ آدمَ عليهِ السلامُ عَصَى مشتهيًا فغفرَ له لمَّا تاب، فإذا كانتْ معصيتُهُ مِنْ كِبْرٍ فَاخْشَ عليهِ اللعنةَ؛ فإنَّ إبليسَ عَصَى مُستَكْبِرًا فلُعِنْ. وكيفَ لا تعظُمُ آفةُ الكِبْرِ وقدْ أخبَرَ النبيُّ ﷺ: **«أنَّه لا يدخلُ الجنةَ مَنْ كان في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ مِنْ كِبْرٍ»**[4]

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة. وأخرجه البخاري (٣٤٨٥، ٧٥٩٠) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٥) ومسلم (٢٠٨٥) عن ابن عمر.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠).

(٤) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود.

وإنَّما صارَ الكِبْرُ حجابًا دونَ الجنة ؛ لأنَّه يحولُ بينَ العبدِ وبينَ أخلاقِ المؤمنينَ ؛ لأنَّ صاحبَهُ لا يقدرُ أنْ يحبَّ للمؤمنينَ ما يحبُّ لنفسِهِ، ولا يقدرُ على التواضُعِ، ولا على ترْكِ الحقدِ والحسدِ والغضبِ، ولا على كظمِ الغيظِ وقبولِ النصحِ، ولا يسلمُ من الازدراءِ بالناسِ وتَنَقُّصِهم، فما مِنْ خُلقٍ ذميمٍ إلاَّ والكِبْرُ يجر إليه. وأشرُّ أنواعِ الكِبْرِ ما يمنعُ مِنْ قبولِ الحقِّ والانقيادِ لَهُ.

عبادَ اللهِ: إنَّ على الإنسانِ أنْ يدفعَ الكبرَ عن نفْسِهِ بأنْ يعرفَ أصلَهُ ونشأَتَهُ، وفقرَهُ وحاجتَهُ، ويعرفَ ربَّهُ وعظمتهُ ومقامَهُ بينَ يديهِ، يكْفِيهِ أنْ ينظرَ في أصلِ وجودِهِ من العدمِ، من ترابٍ ثم من نطفةٍ، ثم من علقةٍ، ثم من مضغةٍ، فقد صارَ شيئًا مذكورًا بعدَ أنْ كانَ جمادًا لا يسمعُ ولا يبصرُ، ولا يحسُّ ولا يتحركُ، فقدْ ابتدأَ بموتِهِ قبلَ حياتِهِ، وبضعفِهِ قبلَ قوتِهِ، وبفقرِهِ قبلَ غناهُ، ثمَّ يموتُ ويصيرُ ترابًا، يُعذبُ أو ينعمُ في قبره، ثم يبعثُ ويحاسبُ ويجازَى بعملِهِ، وقدْ أشارَ اللهُ تعالَى إلى ذلكَ بقولِهِ: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٣].

بارِكَ اللهُ لِي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ

* * *

في تحريمِ أَذِيَّةِ المسلمينَ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، حرَّمَ أذية المسلمينَ والتعدِّي على حرماتِهم، وتوعَّدَ مَنْ فعلَ ذلكَ بأشدِّ الوعيدِ، أحمدُه على نعمِهِ وقد وعَدَ الشاكرَ بالمزيدِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتمُ الرُّسُلِ وأشرفُ العبيدِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واحذرُوا من أذيةِ المسلمينَ فإنَّ عقوبتَها أليمةٌ، وعاقبتها وخيمةٌ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]. قالَ المفسرونَ في معنى هذِه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ أي: بأيِّ وجهٍ من وجوهِ الأذى، من قولٍ أو فعلٍ ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أيْ: لمْ يكنْ ذلكَ لسببٍ فعلوهُ يوجبُ عليهِم الأذيةَ ويستحقونَها به. فأمَّا الأذيةُ للمؤمنِ والمؤمنةِ بما كسَبَهُ ممَّا يوجبُ عليه حدًّا أو تعزيرًا فذلكَ حقٌّ أثبتَهُ الشرعُ. ثُمَّ أخبرَ سبحانَه أنَّ من آذى المؤمنينَ والمؤمناتِ بغيرِ حقٍّ فقدِ احتملَ بهتانًا وإثمًا يعاقبُ عليهِما أشدَّ العقوبةِ، وفي الحديثِ: «**كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ، دَمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ**»[1]، وعن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قيل: يا رسولَ اللهِ، إنَّ فلانة تُصَلِّي الليلَ وتصومُ النهارَ، وتؤذي جيرانَها

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٦٤).

بلسانِها، فقالَ: «لا خيرَ فيها، هيَ في النارِ»[(١)] صححهُ الحاكمُ، وابنُ حِبانَ وغيرُهُمَا.

عبادَ اللهِ: إنَّ أذيةَ المسلمينَ تكونُ بالقولِ وبالفعلِ:

فالقولُ: كالغيبة والنميمة والسب والشتم، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥]، وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

وأذيةُ الناسِ بالفعلِ لها أنواعٌ كثيرةٌ خطيرةٌ منها: أذيةُ الجيرانِ باستعمالِ ما يُؤذيهِم ويقلِقُهُم من الأصواتِ المزعجةِ أو المحرمةِ، كأصواتِ الأغانِي والمعازفِ والمزاميرِ، التي كَثُرتْ في هذا الزمانِ بواسطةِ الأجهزةِ الحديثةِ في البيوتِ والدكاكينِ، وصارَ أصحابُها لا يبالونَ بقلقِ جيرانِهِمْ منها وتأذِّيهِم بها ومنها ما يفعلُه بعضُ الجشعينَ الذينَ يلهثُونَ وراءَ جمعِ المادةِ، بحيثُ يؤجرونَ بيوتَهُم أو شققَهُم للعزَّابِ الذينَ يضايقونَ الجيرانَ، ويؤذونَهُم بالاطلاعِ على بيوتِهِم من السطوحِ أو مِنْ خللِ النوافذِ، وكثيرٌ منهم لا يصلونَ معَ المسلمينَ ولا يعرفونَ المساجدَ، وهمْ قريبونَ منها أو بجوارِها، فيشكلونَ خطرًا على المسلمينَ المجاورينَ لهم، بحيثُ يقتدِي بهِمْ غيرُهُم من الكسَالَى والأولادِ الصغارِ، والسببُ في ذلكَ هو المؤجِّرُ، وهو الذي يتحملُ كثيرًا مِنْ إثْمِهِم، وتصيبهُ دعواتُ المسلمينَ الذينَ تضرَّرُوا من هؤلاءِ المستأجرينَ، ودعوةُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٩٣٨٣) من حديث أبي هريرة.

المظلومِ مستجابة. فاتقوا الله، يا منْ تؤجرونَ لأمثالِ هؤلاءِ الفسقةِ أو الكفرةِ، إنكُم محاسَبُونَ على ذلكَ، وآثمونَ ومستحقونَ للعقوبةِ، فلا تُسَكِّنُوا بينَ المسلمينَ وقربَ المساجدِ إلاَّ مسلمًا يخافُ اللهَ ويتقيهِ، ويحترمُ حقوقَ المسلمينَ وحقوقَ المساجد.

ومِنْ أذيةِ المسلمينَ مضايقتُهُم في طرقاتِهِم وشوارعِهِم، بإلقاءِ الأَذى فيها من النفاياتِ والأوساخ والنجاساتِ، وبعضُ الناسِ لا يُبالِي بوضْعِ هذِه الأشياء في طرقاتِ المسلمينَ، وقد أَخْبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ إماطةَ الأذى عن الطريقِ صدقةٌ، وأنَّها من شُعَبِ الإيمانِ[1]، ممَّا يدلُّ على أنَّه مطلوبٌ من المسلمِ أنْ يزيلَ الأَذى عن طريق المسلمينَ، فكيفَ يلقيهِ هو فيهِ؟!

ومن أذية المسلمين في طرقاتهم: ما يفعلُه كثيرٌ من البنائين من وضعِ الحجارةِ والطوبِ والحديدِ أو حفرِ الحفرِ في الطريقِ، ويتركُ ذلك مدةً طويلةً يَحتجزُ به الطريقَ من غيرِ مبالاةٍ بحقِّ المسلمين، وفي ذلك إثمٌ عظيمٌ وظلمٌ كبيرٌ.

ومِنْ أذيةِ المسلمينَ في طرقاتِهِم إيقافُ السياراتِ فيها، أو مضايقةُ الناسِ أثناءَ السيرِ، أو ترويعُهُمْ بالسرعةِ الجنونيةِ، أو إزعاجُهُم بأصواتِ الأبواقِ من غيرِ حاجةٍ، كُلُّ ذلكَ يدخلُ في قولهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ومن أذيةِ المسلمينِ قضاءُ الحاجةِ بالتبوُّلِ أو التغوُّطِ في طريقهِمْ، أو مواردِهِم، أو الظلِّ الذي يجلسونَ فيهِ، فعَنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتقوا اللعانين: الذي يتخلَّى في طريقِ الناسِ أو في ظلِّهِمْ**»[2]

---

(١) حديث شعب الإيمان، أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة.
(٢) صحيح مسلم (٢٦٩).

رواهُ مسلمٌ، وزادَ أبو داودَ عن معاذٍ رضيَ اللهُ عنه: «والموارد» ولفظُه: «**اتقوا الملاعِنَ الثلاثة: البراز في المواردِ، وقارعةِ الطريقِ، والظلِّ**»[١]. والمرادُ باللاعنين والملاعن في الحديثينِ: الأمورُ التي تجلبُ اللعْنَ، وذلكَ أنَّ مَنْ فعلَ شيئًا منها لعنَهُ الناسُ وشتمُوهُ، وقدْ أخرجَ الطبرانيُّ بإسنادٍ حسن: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ آذى المسلمينَ في طرقِهِم وجبتْ عليهِ لعنتُهُمْ**»[٢]، وهذِه الأحاديثُ تدلُّ على استحقاقِهِ اللعنة.

ومِنْ أذيةِ المسلمينَ إفسادُ محلاتِ الوضوءِ التي تجعلُ عندَ المساجدِ وتوسيخُهَا، وتعطيلُ منفعَتها، أو تلويثُها بالنجاسةِ ممَّا يتسبَّبُ عنه تنجيسُ ثيابِ المسلمِ الذي يدخُلُها للوضوءِ، فيجبُ على المسلمِ أنْ يحترمَ إخوانَهُ المسلمينَ، ويحترم مرافقهم ويكفَّ أذاهُ عنهم، وينكِر على مَنْ يصدرُ منه أذى للمسلمينَ[٣].

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

---

(١) سنن أبي داود (٢٦)، وأخرجه ابن ماجه (٣٢٨) نحوه من حديث معاذ أيضا.

(٢) أخرجه الطبراني (٣٠٥٠) من حديث حذيفة بن أسد. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٢٣).

(٣) ومن أذية المسلمين: حبس معاملاتهم لدى بعض المسؤولين وعرقلة مصالحهم بغير حق ولا لشيء سوى عدم المبالاة، أو لتقديم غيرهم عليهم ممن لا يستحق التقديم، كل ذلك يدخل في أذية المسلمين وظلمهم بغير حق.

في الحثّ على التَّفكُّرِ في مخلوقاتِ اللهِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَهُ وبدأ خلْقَ الإنسانِ من طينٍ، وأمرَ بالتفكُّرِ في مخلوقاتِه ليستدلَّ بها على قدرةِ خالقِهَا وعظيمِ صفاتِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدُ

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أنزلَ عليهِ الذِّكْرَ ليبينَ للناسِ ما نزلَ إليهِمْ ولعلَّهُم يتفكرونَ، فبلَّغَ البلاغَ المبينَ، وبيَّنَ ما نُزلَ إليهِ من ربِّه غايةَ التبيينِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وصحابتِه والتابعينَ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقوا اللهَ، وتفكروا في مخلوقاته، وتدبروا آياته، فقد أثْنَى اللهُ على المتفكرينَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١]، وذمَّ سبحانهُ المعرضينَ الذينَ لا يتفكرونَ، فقالَ سبحانَهُ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقالَ تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]؛ ولهذا كانَ السلفُ الصالحُ يتفكرونَ في مخلوقاتِ اللهِ ويتدبرونَ آياتِهِ ويحثونَ على ذلكَ؛ قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنه: تَفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ. وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ رحمَهُ اللهُ: ما طالتْ فكرةُ امرئٍ

قطُّ إلاَّ فَهِمَ، وما فَهِمَ إلاَّ عَلِمَ، وما عَلِمَ إلاَّ عمِلَ. وقالَ بشرٌ الحافِي: لو تفكَّرَ الناسُ في عظمةِ اللهِ لما عصَوهُ؛ وذلكَ لأنَّ التفكُّرَ في عجائبِ الخلْقِ وأسرارهِ يثمرُ تعظيمَ الخالقِ ومخافتَهُ، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

إذا نظرَ الناسُ اليومَ إلى تلكَ المخترعاتِ العصريةِ بهرتهُم بدقةِ صنعَتِها ووفرةِ منجزاتِها فأعجبُوا بمخترِعِيها وصانِعِيها، وهي جزئياتٌ صغيرةٌ من أسرار الكونِ الذي خلَقَهُ اللهُ وسخَّرَهُ، وأطْلَعَ عبادَه على بعضِ أسرارهِ، وألهَمَهُم معرفةَ استخدامهِ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]. فهذهِ المخترعاتُ ومخترِعوها خلْقُ اللهِ تعالَى.

وقدْ وجَّهَ اللهُ عبادَهُ في آياتٍ كثيرةٍ من كتابهِ إلى التفكُّرِ في هذه المخلوقاتِ، كما في قوله تعالَى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية: ٣]؛ لأنَّ الإنسانَ إذا نظرَ إلى هذه المخلوقاتِ بعينِ الفكرةِ والبصيرةِ دلَّهُ فكرُهُ على الخالقِ، وعلى أنَّه الإلٰهُ الحقُّ المبينُ، الذي أقرَّتْ الفطرُ بربوبيتِهِ وإلهيتِهِ وحكمتهِ ورحمتهِ، وإمكانِ ما أخبرَ به منْ إحياءِ الموتى كما أحْيا هذه الأرضَ بعد موتِها.

وقد أمرَ اللهُ الإنسانَ أنْ يتفكَّرَ في خلْقِهِ هو؛ قالَ تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، وقالَ تعالَى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فدعا الإنسانَ إلى التفكُّرِ في مبدَأِ خلْقِهِ ووسطِهِ وآخرهِ؛ لأنَّ في ذلكَ أعظمَ الدلالةِ على خالقِهِ. ففي خلْقِ الإنسانِ من العجائبِ ما تنقَضِي الأعمارُ دونَ الإحاطةِ به، فانظرْ إلى النطفةِ وهي قطرةٌ من ماءٍ مهينٍ مُستقذرٍ كيفَ استخرجَها ربُّ الأربابِ من بينِ الصلبِ والترائبِ؟! وساقَها إلى مستقَرِّها، فلو اجتمعَ

الإنسُ والجنُّ على أنْ يخلقُوا لها سمعًا أو بصرًا أو عقلاً أو روحًا أو عظمًا لعجزُوا عن ذلكَ ؛ لأنَّ ذلكَ ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨].

ثمَّ انظرْ في ملكوتِ السمواتِ وعلوِّها، وسعَتِها وحُسنِ بنائِها، وعجائبِ شمسِها وقمرِها وكواكبِها، فهي أعظمُ من خلْقِ الإنسانِ، كما قالَ تعالَى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النازعات : ٢٧ ـ ٢٩]، وقالَ تعالَى : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر : ٥٧].

وإذا نظرتَ إلى الأرضِ رأيتَها من أعظمِ آياتِ اللهِ، حيثُ جعلَها فراشاً ومهاداً لعبادِه وذلَّلها لهم، وجعلَ فيها من المعادنِ المختلفةِ والنباتاتِ المتنوعةِ، والمخلوقاتِ ذواتِ الأرواحِ من الناسِ والبهائمِ الأليفةِ والمتوحشةِ والحشراتِ، ومن البحارِ والأنهارِ والجبالِ والرمالِ، وما بينَ السماءِ والأرضِ من الرياحِ والسحابِ المسخَّرِ والطيورِ السابحةِ في الهواءِ ﴿ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [الملك : ١٩].

وانظرْ إلى الليلِ والنهارِ وتعاقبِهما، وتقارُضِهما بالزيادةِ والنقصانِ بينهما. ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ : ٩ ـ ١١].

وكلُّ هذِه المخلوقاتِ مسخَّرةٌ بأمرِ اللهِ تؤدي وظائفَها الكونيةَ، وتنتجُ ثمراتِهَا المطلوبةَ، وهي تسبِّحُ بحمدِ ربِّها، وتنزِّهُهُ بلسانِ المقالِ ولسانِ الحالِ عنْ أنْ يكونَ له شريكٌ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤]، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن : ١]

﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٣]. ومعَ هذا عميتْ بصائرُ الكفارِ والمنافقينَ فلمْ يعتبروا بهذِه الآياتِ، ولمْ ينظرُوا فيها إلاَّ النظرةَ البهيميةَ المقصورةَ على التمتُّع بها في هذه الحياةِ، والانتفاعِ بخصائصِها، والانتفاعِ العاجلِ الزائلِ، وكفرُوا بخالقِها وجَحَدُوا نعمتَه، وظنُّوا أنَّم حصلُوا على ما حصلُوا عليهِ من التقنياتِ الحديثةِ، والصناعاتِ المختلفةِ بحولهم وقوتهم وتفكيرهم، فاغترُّوا بما توصلُوا إليهِ من الاختراعات، واستكْبَروا في الأرضِ بغيرِ الحقِّ، كما قالَ تعالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦، ٧]. ولمْ يعتبرُوا بمصيرِ منْ سبقَهُم من الملاحدَةِ والجبابرةِ والأممِ الكافرةِ ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يونس: ١٠٢].

نسألُ اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يرزقَنا التفكُّرَ في آياتِه والعملَ بطاعتِهِ، وأنْ يعيذَنا من شرورِ أنفُسِنا وسيئاتِ أعمالِنا.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴾ إلى قوله تعالَى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤ـ ٥٦].

* * *

في التذكيرِ بيومِ القيامةِ والحسابِ والردِّ على منْ أنكرَهُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ الجنَّ والإنسَ لعبادتِه، وأمرَهُم بتوحيدِه وطاعتِه، وأخبرَهُم أنَّ لهم موعدًا يجتمعونَ فيه عندَه لمجازاتِهم على أعمالِهم، وأمرَهُم بالاستعدادِ لذلكَ اليومِ، أحمدُه على نعمِهِ الظاهرةِ والباطنةِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه بعثَهُ بينَ يدي الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنهِ وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ، اتقوا اللهَ تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

عبادَ اللهِ: إنَّ الإيمانَ بالبعثِ والنشورِ، وقيامِ الناسِ من القبورِ، هو أحدُ أركانِ الإيمانِ الستةِ، وقد تكررَ ذكرُ ذلكَ اليومِ في القرآنِ الكريمِ، وعلى لسانِ النبيِّ ﷺ تحذيرًا لنا وإنذارًا، ولنستَعِدَّ لذلكَ اليومِ بالأعمالِ الصالحةِ؛ لأنَّه لا نجاةَ من أخطارِ ذلكَ اليومِ إلاَّ بالأعمالِ الصالحةِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. لقد توعد اللهُ المكذبينَ بهذا اليومِ العظيمِ فقالَ تعالَى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المطففين: ١٠ ـ ١٣]، وقالَ تعالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١] أخبر أنهم

سيدركون خطأهم، ويندمونَ حينَ لا ينفعُهُم الندمُ، فقالَ تعالَى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الصافات: ١٩ ـ ٢١]، وأخبرَ سبحانه أنَّ مَنْ نسيَ هذا اليومَ ولمْ يستعد له سيلقَى العذابَ الشديدَ، فقالَ سبحانَه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦]، وقالَ تعالَى: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [السجدة: ١٤].

لقدْ سَمَّى الله هذا اليومَ بأسماءٍ كثيرة مروعةٍ، فسماهُ يومَ القيامةِ لقيامِ الناسِ من قبورِهِم، ووقوفِهِم على أقدامِهِم في المحْشَر، وسماهُ بيوم الدينِ، والدينُ هو الجزاءُ والحسابُ؛ لأنَّ الناسَ يحاسبونَ ويجازونَ بأعمالِهِم في هذا اليومِ، وسماهُ باليومِ الآخرِ؛ لأنَّه يأتي بعدَ الدنيا ويستمرُّ؛ أهلُ الجنةِ يخلدونَ في الجنةِ، وأهلُ النارِ يخلدونَ في النارِ فيقالُ: «يا أهلَ الجنةِ خلودٌ ولا موت، ويا أهلَ النارِ خلودٌ ولا موت»، وسمَّى سبحانَه وتعالَى قيامَ الساعةِ بأسماءٍ مروعةٍ، فسماهُ الحاقةَ، والقارعةَ، والطامةَ الكبرى، والصاخةَ، والنبأَ العظيمَ، والفزعَ الأكبرَ؛ وذلكَ لشدَّةِ هولهِ، كما صوَّرَهُ في قولِه تعالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ١، ٢]، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان: ٣٣].

لقدْ تجرَّأَ بعضُ البشرِ فأنكرُوا هذا اليومَ واستبعدُوه، ونفوا قدرةَ اللهِ على

إحياءِ الموْتَى بعدَ أنْ صاروا تُرابًا وعِظامًا نخرةً، فردَّ اللهُ تعالَى عليهِم، وأقامَ البراهينَ القاطعةَ على وقوعِ ذلكَ:

منها أنَّ الذي خلقَهُم أولَ مرةٍ وأنشأَهُم من العدمِ قادرٌ من باب أَوْلَى على إعادتِهِم: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ٢٧]. ومنها قيامُ دليلٍ حسِّيٍّ يشاهدونَه بأعينِهِم وهو إحياءُ الأرضِ بالنباتِ الأخضرِ بعدَ موتِها وجدبِها، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت: ٣٩].

ومنها تنزيهُ اللهِ عن العبثِ؛ لأنَّه لو لمْ يكنْ هناكَ بعثٌ لِيُجَازَى فيهِ المحسنُ بإحسانِه، والمسيءُ بإساءتِه، فتظهر نتائجُ الأعمالِ التي قُدِّمتْ في دارِ الدنيا، لكانَ خَلقُ الناسِ عبثًا ليسَ له نتيجةٌ، واللهُ مُنزَّهٌ عن العبثِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ومنها تنزيهُ اللهِ عن الظُّلمِ، واتِّصافُهُ بالعدلِ، وهذا يقتضِي أنْ يُجازَىٰ كلُّ عاملٍ بعملهِ، ولا يُسوَّىٰ بينَ المؤمنِ والفاسقِ، ولا يكونُ هذا إلاَّ بالبعثِ والحسابِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢]؛ لذلكَ نرى كثيرًا من المفسدينَ يموتونَ ولا يُجازَونَ في الدنيا على إفسادِهم، ونرى كثيرًا من الصالحينَ يموتونَ قبلَ أنْ يُجَازوا بصلاحهم؛ لأنَّ هناكَ يومًا ينتظرُ الجميعَ ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟

فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ أخبرَ عنْ قربِ هذا اليومِ ليستعدَّ له العبادُ؛ قالَ تعالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: ٥٧]، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. بلْ إنَّ هناكَ قيامةً قريبةً لكلِّ شخصٍ بخاصتِهِ وهي الموتُ، فالموتُ هو القيامةُ الصغرى، وهو أقربُ إلى أحدِنا من شِراكِ نعْلِهِ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]. وحينَ يجيءُ الموتُ لا يستطيعُ الإنسانُ أنْ يتخلصَ منه، ولا يستطيعُ أنْ يغيِّرَ من عملِه إذا كانَ غيرَ صالحٍ، ولا أنْ يزيدَ فيهِ إذا كانَ صالحًا.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩] الآياتُ من آخرِ سورةِ المنافقون.

باركَ اللهُ لِي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ

* * *

في النَّهيِ عَن الابتداعِ في شهرِ رجب

الحمدُ للهِ الذي أَمرَنا باتِّباعِ رسولِه وسلوكِ سبيلِه، وأمرَنا بالاتِّباعِ، ونهانا عن الابتداعِ، فقالَ سبحانَه وتعالَى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله لا يقبل من الأعمال إلا ما شرع وكان خالصًا لوجهه، وأشهدُ أنْ محمدًا عبدُه ورسولُه، حذَّرَ من البِدَعِ فقالَ: «وإياكُم ومحدثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»[1]. صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ تمسَّكَ بسُنَّتِه ولمْ يحدثْ في الدينِ ما ليسَ منهُ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّها المسلمونَ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أن البدعَ والمحدثاتِ في الدينِ أصلُ كلِّ بلاءٍ وفتنةٍ، وأنَّ الشيطانَ يحرصُ كلَّ الحرصِ على صدِّ الناسِ عن الدينِ الصحيحِ، فإنْ رأَى منهم عدمَ رغبةٍ في الدينِ شجَّعَهُم على ذلكَ، وزيَّنَ لهم المعاصِي والشهواتِ، وفتحَ لهم أبوابَ الشبهاتِ، وإنْ رأَى منهُم محبةً للدينِ أَدْخلَ عليهِم من البِدَعِ والزياداتِ ما يُفْسدُه عليهِم، فتنبَّهُوا لذلك، واعلموا أنَّ الشريعةَ جاءتْ كاملةً لا تحتملُ الزيادةَ والنقصانَ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٣]، فلا مكان للبدعة في دين الله. قال الإمام مالك رحمه الله: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦/٤) وابن ماجه في سننه (٤٣)، بلفظ: «تركتكم على البيضاء».

الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فما لمْ يكنْ يومئذٍ دينًا فلا يكونُ اليومَ دينًا.

إنَّ المُبتدِعَ معاندٌ للهِ مشاقٌّ له؛ لأنَّ اللهَ حدَّدَ الطرقَ الموصلةَ إلى الخيرِ وحصرَها، وهذا المبتدعُ يريدُ أنْ يزيدَ عليها أو ينقصَ منها، فجعلَ نفسَه شريكًا للهِ في تشريعِه، وكَفَى بذلكَ ضلالا وإثمًا مبينًا، واللهُ أَمرَ باتِّباعِ ما شَرَعَه، فأَبَى المبتدعُ ذلكَ واتَّبعَ هواهُ بغيرِ هُدى من اللهِ.

عبادَ اللهِ: كُنَّا في هذهِ البلادِ في عافيةٍ من كثيرٍ ممَّا وقعَ فيه الناسُ من البِدَعِ، ولكنْ لمَّا تسهلتْ وسائلُ النقلِ، وتوفرتْ وسائلُ الإعلامِ، ووفدَ إلى بلادِنا كثيرٌ ممَّنْ نشئُوا على البِدَعِ، وربما جاءُوا بِبِدَعِهِمْ يزاولونَها عندنا، فربما يشتبهُ الأمرُ على كثيرٍ من عوامِّنا فوجبَ التنبيهُ على تلكَ البدعِ في أوقاتِها، حتى يكونَ المسلمُ على بصيرةٍ من دينهِ.

ومن هذه البدعِ ما يُفْعَلُ في شهرِ رجب من العاداتِ الجاهليةِ، والأمورِ البدعية التي يزعمُ مُرْتكبُوها أنَّ لشهرِ رجب خاصيةً على غيرِه، وليسَ الأمْرُ كذلكَ، فإنَّ شهرَ رجب أحدُ الأشهرِ الحُرُمِ، وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ إذا دخلَ شهرُ رجبٍ قالَ: «اللهُمَّ باركْ لنا في شهري رجبٍ وشعبان وبلِّغْنا رمضانَ»[1]، ولم يثبتْ عن النبيِّ ﷺ في فضلِ رجبٍ حديثٌ، بلْ عامةُ الأحاديثِ المأثورةِ فيه عن النبيِّ ﷺ كلُّها كذبٌ. قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحمَهُ اللهُ: وقد أَحْدَثَ الناسُ في هذا الشهرِ عباداتٍ لمْ يشرعْها اللهُ ولا رسولُه، من ذلكَ تعظيمُ أوَّلِ خميسٍ منه وليلةِ أوَّلِ جمعةٍ منه، فإنَّ تعظيمَ هذا اليومِ وتلك الليلةِ من

---

(١) رواه البيهقي في الدعوات الكبير، وضعفه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (١٣٦٩).

رجبٍ إنَّما حَدَثَ في الإسلامِ بعدَ المائةِ الرابعةِ، والحديثُ المرويُّ في ذلكَ كَذبٌ باتفاقِ العلماءِ، ولا يجوزُ تعظيمُ هذا اليومِ؛ لأنَّه مثلُ غيرِه من الأيامِ. وقالَ الحافظُ ابن رجب: فأمَّا الصلاةُ فلمْ يصحَّ في شهرِ رجب صلاةٌ مخصوصةٌ تختصُّ به، والأحاديثُ المرويةُ في فضلِ صلاةِ الرغائبِ في أَولِ ليلةِ جمعةٍ من شهرِ رجبٍ كَذبٌ وباطلٌ لا تصحُّ، وهذه الصلاةُ بِدْعَةٌ عندَ جمهورِ العلماءِ. قال: وأمَّا الصيامُ فلمْ يصحَّ في فضلِ صومِ رجبٍ بخصوصِهِ شيءٌ عن النبيِّ ﷺ ولا عَنْ أصحابه.

ورُوِي عَنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنه أنَّه كانَ يضربُ أكفَّ الرجالِ في صومِ رجبٍ حتى يَضَعُوها في الطعامِ، ويقول: ما رجب؟ إنَّ رجبًا كانَ يُعظِّمُه أهلُ الجاهليةِ، فلمَّا كانَ الإسلامُ تُرِكَ ـ وفي روايةٍ كُرِه ـ أن يكونَ صيامُه سُنَّة.

وأمَّا العمرةُ فلمْ يثبتْ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه اعتمرَ في رجبٍ، فلا فضلَ للعُمرةِ في رجبٍ على العمرةِ في غيرِه من الشهورِ كمَا يظنُّه بعضُ الناسِ.

ومن البدعِ المنكرةِ التي تُفْعَلُ في هذا الشهرِ بِدْعةُ الاحتفالِ بذكرى الإسراءِ والمعراجِ في الليلةِ السابعةِ والعشرينَ منه، يحتفلونَ في تلك الليلةِ ويخصِّصُونَها بأنواعٍ من العباداتِ ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان، فيخُصُّونَ تلكَ الليلةَ بأذكارٍ وأدعيةٍ وصلاةٍ، وتخصيصُ تلكَ الليلةِ خطأٌ من عدةِ وجوهٍ:

أولاً: أنَّ الإسراءَ لمْ يقمْ دليلٌ على تعيينِ ليلتِه التي وقعَ فيها، ولا على الشهرِ الذي وقَعَ فيه؛ فالعلماءُ مختلفونَ في زمانه، فتخصيصُ ليلةٍ من الليالي في رجبٍ أو غيرِه للإسراءِ تخصيصٌ لا دليلَ عليه.

ثانيا: لو ثَبتَ تعيينُ الليلةِ التي وقَعَ فيها الإسراءُ لمْ يَجزْ لنا أنْ نُخَصِّصَ تلكَ الليلةَ بشيءٍ لمْ يشرَعه اللهُ ولا رسولُه، فإنَّه لمْ يردْ أنَّ الرسولَ ﷺ احتفلَ في تلكَ

الليلةِ، ولا خصَّها بشيءٍ من العباداتِ، ولمْ يفعلْ ذلكَ خلفاؤُه الراشدونَ من بعدِه، ولا صحابتُه الكرامُ، ولا التابعونَ لهم بإحسانٍ؛ فلا يجوزُ لأحدٍ بعدَهم أنْ يُحدِثَ في الإسلامِ شيئًا لم يفعلُوه.

ثالثا: أنَّه يُفعَلُ في تلكَ الليلةِ وفي ذلكَ الاحتفالِ أمورٌ منكرةٌ؛ قالَ صاحبُ كتابِ «الإبداعِ في مضارِّ الابتداعِ»: «وقد تفنَّنَ الناسُ بما يأتُونَه في هذِه الليلةِ من المنكراتِ، وأحدثوا فيها من أنواعِ البدعِ ضُروبًا كثيرةً؛ كالاجتماعِ في المساجدِ، وإيقادِ الشموعِ والمصابيحِ فيها وعلى المناراتِ معَ الإسرافِ في ذلكَ». إلى أنْ قالَ: «وما أحسنَ سيرَ السلفِ الصالحِ، فإنَّهم كانوا شديدي المداومةِ على ما كانَ عليهِ الرسولُ ﷺ لا يخرجونَ عن الثابتِ قيدَ شعرةٍ، ويعتقدونَ الخروجَ عنه ضلالةً، لا سيما عصرُ الصحابةِ ومنْ بعدهم أهلُ القرونِ الثلاثةِ المشهودُ لهم بالخيرِ رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ» انتهى.

ومن العجيبِ أنَّ بعضًا من هؤلاءِ الذين يحتفلون بمناسبةِ الإسراءِ والمعراجِ، أو كثيرًا منهم، لا يهتمونَ بما شرعَ فيه من الصلواتِ الخمسِ، فبعضُهم لا يُصَلِّي أبدًا، وبعضُهم لا يحضرُ صلاةَ الجماعةِ في المساجدِ، وإنما ينشطُ في البدعِ، ويكسلُ عن السُّنَنِ والواجباتِ، ولا يحافظ على الجُمعِ والجماعاتِ.

عبادَ اللهِ: إنَّ البدعَ معَ أنَّها حدَثٌ في الدينِ، وتغييرٌ للمِلَّةِ، فهي آصارٌ وأغلالٌ، تُضاعُ فيها أوقاتٌ، وتُنْفَقُ فيها أموالٌ، وتتعبُ فيها أجسامٌ، وتبعدُ من الجنةِ وتَقربُ من النارِ، وتوجبُ سخطَ اللهِ ومقتَهُ، ولكنَّ أهْلَ الغيِّ والضلالِ لا يفقهونَ، وفي طغيانِهِم يعمهونَ، لا يزيدُهم عملُهُم عن اللهِ إلاَّ بُعْدًا، ولا اجتهادُهُم وتعبُهُم إلاَّ مَقْتًا وردًّا.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية : ٢ ـ ٧] .

بارَكَ الله لي ولكم في القرآن العظيم

* * *

في التهنئةِ بدخولِ شهر رمضانَ والحثِّ على اغتنامِهِ

الحمدُ للهِ على نِعَمِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ومن أجَلِّها نعمةُ الإسلامِ، الذي من جملتِهِ فريضةُ الصيامِ؛ لِمَا فيهِ من رفعةِ الدرجاتِ وتكفيرِ الآثامِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، القائلُ في مُحكَمِ تنزيلِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أتقى من صلَّى وصامَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه البررةِ الكرامِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واشكُروهُ إذْ بلَّغكُم شهرَ رمضانَ، واسألوهُ أنْ يوفقَكُم لاغْتنامِهِ بالصيامِ والقيامِ، وسائرِ خصالِ الإيمانِ، فإنَّه موسمٌ عظيمٌ لفعلِ الخيراتِ، وتكفيرِ السيئاتِ، فاعرفُوا قدْرَهُ، وعظِّموا أمره، وتزوَّدُوا فيه لأنفُسِكُم من صالحِ الأعمالِ، ما دُمتمْ في زمنِ الإمهالِ، فصومُ رمضانَ أحدُ أركانِ الإسلامِ، قد فرضَهُ اللهُ بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقوله: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فيجبُ على المسلمِ البالغِ العاقلِ الذي لا عُذْرَ له يمنعهُ من الصيامِ أنْ يصومَ هذا الشهرَ إذا أدْركَه وهو صحيحٌ مقيمٌ.

وإنْ أدركَه وهو مريضٌ لا يستطيعُ الصيامَ، أو مسافرٌ سفرًا مسافةَ القَصْرِ، فإنَّه يُفْطِرُ بنيةِ أنْ يصومَ إذا زالَ عذرُه، ويقضِي قدرَ الأيامِ التي أفطَرها في شهرٍ آخرَ؛ قالَ تعالَى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وكذا مَنْ أَدْرَكَه الشهـ رمٌ، أو مريضٌ مرضًا مزمنًا لا يُرْجَى

زوالُه، ولا ـ طعمُ عن كلِّ يومٍ مسكينًا ولا قضاء

ـ ةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

الكبيرِ أنْ يفطرَ ويطعمَ عن كلِّ

أو نصفُ صاعٍ من غيرِه.

عددَ الأيامِ التي أفْطَرتا

على عهدِ رسولِ اللهِ

ليهِ.

، إنْ كانَ يطيقُ

وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٨٧] فبيَّنَ لنا سبحانَه في هذِه الآيةِ الكريمةِ أنَّ بدايةَ الصيامِ تكونُ بطلوعِ الفجرِ، وأنَّ نهايتَه تكونُ بغروبِ الشمسِ، وحثَّ النبيُّ الكريمُ ﷺ على تأخيرِ السحورِ، وتعجيلِ الإفطارِ[١]، بحيثُ ينتهي السحورُ بطلوعِ الفجرِ، ويبدأ الإفطارُ بغروبِ الشمسِ امتثالاً لأمرِ اللهِ سبحانَه، والتزامًا لحُكْمِهِ، فيحرمُ تأخيرُ السحورِ عن طلوعِ الفجرِ، وتقديمُ الإفطارِ قبلَ غروبِ الشمسِ، ولا يصحُّ صومُ من تعمَّدَ ذلكَ، ولا ينبغي التبكيرُ بالسحورِ قبلَ آخرِ الليلِ، ولا تأخيرُ الإفطارِ عن غروبِ الشمس؛ لأنَّ ذلكَ مخالفةٌ لِمَا شَرَعَهُ اللهُ، قالَ تعالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٢٩].

عبادَ اللهِ: ويَبْطُلُ الصيامُ بالأكلِ والشربِ متعمِّدًا، ومثلُ الأكلِ والشربِ ما في حُكْمِهِما من تناولِ الحبوبِ، وحقنِ الإبرِ، والتقطيرِ في العينِ أو الأنفِ أو الأذنِ، أو استعمالِ البخاخِ في الأنفِ أو الحلقِ؛ لأنَّ هذه الأشياءَ تَنْفُذُ إلى الجوفِ والعروقِ، أو تصلُ إلى الدماغِ، فهي بمعنى الأكلِ والشربِ، وقد رخَّصَ بعضُ العلماءِ في حقنِ الإبرِ في العَضَلِ في أثناءِ الصيامِ، ولكنَّ الأحوطَ للمسلمِ تركُ ذلكَ وتأخيرُه إلى الليلِ؛ لقولِه ﷺ: **«دَعْ ما يُريبُكَ إلى ما لاَ يُريبكَ»**[٢]. والإبرُ وإنْ كانتْ في العضلِ يجدُ لها الإنسانُ تأثيرًا في جسمِه، أو تنشيطًا يوقعُ في الريبةِ. ومن مبطلاتِ الصومِ التقيؤُ متعمدًا، أمَّا إنْ غلَبَهُ القيءُ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٨٠٥) من حديث أبي ذر.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) والنسائي (٨/ ٣٢٧) من حديث الحسن بن علي.

وخرجَ بغيرِ اختيارِه فلا حرجَ عليهِ لقوله ﷺ: «**مَنْ ذرعَهُ القيءُ ـ أي غلبه ـ فليسَ عليه قضاءٌ، ومَن استقاءَ ـ أي استدْعَى القيءَ ـ عَمْدًا فَلْيَقْضِ**»[1]. رواهُ الخمسةُ إلاَّ النَّسائي.

ومن مُفْسِداتِ الصومِ الحجامةُ؛ لقولِه ﷺ: «**أفْطَرَ الحاجمُ والمحجومُ**»[2] رواهُ أحمدُ، والترمذيُّ، وابنُ حِبانَ، والحاكمُ وصَحَّحاهُ. ومِثْلُ الحجامة سحبُ الدمِ من الصائمِ إذا كانَ كثيرًا سواءٌ كانَ سَحْبُه للتبرُّعِ به، أو لإسعافِ مريضٍ أو غيرِ ذلكَ.

ومِنْ مبطلاتِ الصومِ الجماعُ في نهارِ رمضانَ، فالجماعُ مفسدٌ للصيامِ بالنصِّ والإجماعِ، ومَنْ فعلَهُ فعليه قضاءُ ذلكَ اليومِ الذي جامعَ فيه، وعليهِ أيضاً الكفارة وهي عِتْقُ رقبةٍ، فإنْ لمْ يجدْ فصيامُ شهرينِ متتابعينِ، فإنْ لمْ يستطعْ فإطعامُ ستينَ مسكيناً.

أَيُّها المسلمونَ: هذه المفطراتُ الحسيةُ التي يُؤْمَرُ فاعلُها بالقضاءِ، وهناكَ مفطراتٌ معنويةٌ تخلُّ بالصيامِ، وتجْرحُه، وتبطلُ ثوابه، أو تنقصُه، ولا يُؤْمَرُ فاعلُها بالقضاءِ، وهي الغِيبةُ والنميمةُ، وقولُ الزورِ، والشتمُ والسبابُ، والنظرُ إلى ما حرَّمَ اللهُ النظرَ إليه، واستماعُ ما حَرَّمَ اللهُ الاستماعَ إليهِ من الأغانِي والمزاميرِ والغِيبةِ والنميمةِ، عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم فلا يرفث يومئذٍ، ولا يصخب، فإنْ شاتمهُ أحد أو قاتلَه فَلْيَقُلْ: إنِّي امرؤٌ صائمٌ، والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِه لخُلوفُ فَمِ الصائمِ أطيبُ عندَ**

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٠٨٥) وأبو داود (٢٣٨٠) والترمذي (٧٢٠) وابن ماجه (١٦٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٤٠١) والترمذي (٧٧٤) وابن حبان (٣٥٣٥) والحاكم (١/٤٢٨) من حديث رافع بن خديج.

اللهِ من ريحِ المِسْكِ، وللصائمِ فرحتانِ: إذا أَفْطَرَ فرِحَ بفطرِهِ، وإذا لَقِي ربَّهُ فرِحَ بصومِه»[١]. متفقٌ عليه. وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لمْ يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به، فليسَ للهِ حاجةٌ في أنْ يَدَعَ طعامَه وشرابَه»[٢]. رواهُ البخاريُّ وغيره.

أَيُّهَا المؤمنونَ: واعلموا أنَّ مَنْ أَكَلَ أو شرِبَ ناسيًا فلا حرجَ عليه، ولا يبطلُ بذلكَ صومه؛ فعَنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَسِي وهو صائمٌ فأكلَ أو شربَ، فلْيُتِمَّ صومَه، فإنَّما أطعَمَهُ اللهُ وسقاهُ»[٣] رواهُ البخاري، ومسلم، وغيرُهُما. ويجوزُ للصائمِ أنْ يتطيَّبَ، وأنْ يشمَّ الطيبَ، ولا يؤثرُ ذلكَ على صيامِه. ويجوزُ للصائمِ أنْ يتبردَ بالماءِ بأنْ يصبَّه على رأْسِه أو جسمِه، وأنْ يدخلَ في مكانٍ باردٍ؛ لأنَّ ذلك يُعينُه على الصيامِ. وإنْ طارَ إلى حلْقِهِ غبارٌ أو ذبابٌ لمْ يضُره ذلكَ؛ لأنَّه بغيرِ اختيارِه. وكذا لو جُرح أو خلعَ ضرسًا فخرج منه دمٌ أو أصابَه رعافٌ، لم يؤثرْ ذلكَ على صيامِهِ.

أَيُّهَا المسلمونَ: حافظوا على صيامِكُم من المفسداتِ والمنقصاتِ، وأكثروا من فِعْلِ الطاعاتِ، وأكثروا من الدعاءِ والذِّكْرِ، وتلاوةِ القرآنِ في هذا الشهرِ المباركِ، وأخلصوا النيةَ، واسألوا اللهَ القبولَ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ . . . ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣ـ١٨٧].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٣، ٦٠٥٧) وأبو داود (٢٣٦٢) والترمذي (٧٠٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٣٣، ٦٦٦٩) ومسلم (١١٥٥).

فضائلُ شهرِ رمضانَ

الحمدُ للهِ يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ، وأَشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ الواحدُ القهارُ، وأَشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المصطفى المختارُ، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه المهاجرينَ منهم والأنصارِ، وسلَّم تسليما كثيرًا.

أمّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، عبادَ اللهِ، إنكُم الآنَ في شهرٍ عظيمٍ وموسمٍ كريمٍ، إنَّه شهرُ رمضانَ الذي خصَّهُ اللهُ من بينِ الشهورِ بفضائلَ عظيمةٍ، منها: أنه جعلَ صيامَه أحدَ أركانِ الإسلامِ، ولم يرخصْ في الإفطارِ فيه إلاَّ لمسافرٍ أو مريضٍ، على أنْ يقضِيَ كلٌّ منهما عددَ الأيامِ التي أفْطَرها منه في شهرٍ آخرِ، قالَ تعالَى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكذلكَ أباحَ الفِطرَ فيه للكبيرِ الهرمِ الذي لا يستطيعُ الصيامَ، ومثلُه المريضُ مرضًا لا يُرْجَى شفاؤُه، ولا يستطيعُ معه الصيامَ، على أنْ يطعمَ بدلَ كلِّ يومٍ أفْطَرَه مسكينًا؛ قالَ تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٤﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ مما يدلُّ على عظَمَةِ هذا الشهرِ، وأنَّه لايُسْمَحُ بترْكِ صومِه إلاَّ إلى بدلٍ، وإذا كانَ ذلكَ لعذرٍ شرعيٍّ.

ومن خصائصِ شهرِ رمضانَ المباركِ مشروعيةُ صلاةِ التراويحِ فيهِ جماعةً في

المساجدِ، قالَ النبيُّ ﷺ : «مَنْ قامَ معَ الإمامِ حتى ينصرفَ كُتِبَ له قيامُ ليلةٍ»(١)، وهي سُنَّةٌ مؤكدةٌ سَنَّها رسولُ اللهِ ﷺ، وأجمعَ عليها المسلمونَ، لا يَنْبَغِي للمسلمِ تَرْكُها؛ لأنَّه يَحْرِمُ نفسَه من ثوابِها وهو بحاجةٍ إليهِ.

ومِنْ خصائصِ شهرِ رمضانَ: أنَّه تُضاعَفُ فيهِ الأعمالُ الصالحةُ، فالفريضةُ [illegible] ...سواهُ، والنافلةُ فيهِ تعدلُ الفريضةَ في الأجرِ.

الليلةُ لا شكَّ في شهرِ رمضانَ؛ لأنَّ اللهَ أخبرَ أنَّه أَنزَلَ فيها القرآنَ، وقد أَخْبرَ أنَّه أنزلَ القرآنَ في شهرِ رمضانَ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]، وقالَ تعالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فإذا جُمعَ بينَ الآياتِ الكريمةِ تبيَّنَ أنَّ القرآنَ أُنزِلَ في ليلةِ القَدْرِ في شهرِ رمضانَ المباركِ، فكانَ هذا الشهرُ مشتملاً على هذِه الليلةِ العظيمةِ التي تعادلُ في الخيرِ عمرًا طويلاً يُسْتَنفدُ في الطاعةِ، وقد أَخْبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ هذِه الليلةَ في شهرِ رمضانَ، وكانَ يتحرَّاها فيه[1]، ويجتهدُ في قيامِ الليالي التي تُرْجَى فيها، ويعتكفُ أيامَها، وكانَ صحابتُه الكرامُ يقتدونَ به في ذلكَ.

ومن خصائصِ شهر رمضان: أنَّ اللهَ نَوَّعَ فيهِ الخيراتِ، فهو شهرٌ أوَّلُه رحمة وأوْسطُه مغفرةٌ، وآخره عِتْقٌ من النارِ، فالرحمةُ للمحسنينَ المتقينَ، والمغفرةُ للمذنبينَ المفرطينَ، والعتقُ لِمَنْ استوجبَ دخولَ النارِ بارتكابِ الكبائرِ، وذلكَ لاختلافِ أحوالِ المسلمينَ فمنهُمُ المحسنُ، ومنهُم المذنبُ، ومنهُم المستوجبُ لدخولِ النارِ، وكُلٌّ مِنْ هؤلاءِ ينالُه من فضلِ هذا الشهرِ ما يناسِبُه، فالمحسنُ تنالُه فيه الرحمةُ، والمذنبُ تنالُه المغفرةُ إذا تابَ من ذنبه، والمستوجبُ لدخولِ النارِ ينالُه الإعتاقُ منها إذا تابَ إلى ربه، ولن يخرجَ أحدٌ من المسلمينَ عن هذِه الأقسامِ الثلاثةِ.

ومن خصائصِ هذا الشهرِ أنَّه شهرُ الصبرِ كما سَمَّاهُ بذلكَ النبيُّ ﷺ[2]، والصبرُ حَبْسُ النَّفْسِ، وهو ثلاثةُ أنواعٍ: حبْسُ النَّفْسِ على طاعةِ اللهِ، وحبْسُها

---

(١) خصوصا العشر الأواخر كما في صحيح البخاري (٨١٣) وصحيح مسلم (١١٦٧) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٢٨) من حديث محبية الباهلية، والنسائي (٢٤٠٨) من حديث أبي هريرة.

عن محارمِ اللهِ، وحبْسُها عن الجزعِ من أقدارِ اللهِ المؤلمةِ، وكلُّ هذه الثلاثةِ تجتمعُ في الصيامِ الذي أوْجبَه اللهُ في هذا الشهرِ، ففيهِ حبْسُ النفْسِ على طاعةِ اللهِ بالصيامِ، وحبْسُها عما حرَّمَ اللهُ على الصائمِ في أثناءِ الصيامِ من الشهواتِ، وحبْسُها عن الجزعِ مما تُلاقِي في الصيامِ من الجوعِ والعطشِ وضعفِ النفسِ والبدنِ. وقد مدحَ اللهُ الصبْرَ في كتابهِ الكريمِ ووعدَ الصابرينَ بالثوابِ العظيمِ فقالَ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، وأخبرَ النبيُّ ﷺ عن اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّه يقولُ: «**الصومُ لِي وأنا أجْزِي به، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وأَكْلَهُ وشُرْبَهُ من أجلِي**»(١)، كما أخْبرَ أنَّ رائحةَ أنفاسِ الصائمِ وإن كانتْ متغيرةً متكرهةً عندَ الناسِ فهي أطيبُ عندَ اللهِ من ريحِ المسكِ؛ لأنَّها نشأتْ عن طاعتِه والصبرِ في سبيلِه، فهي ناشئةٌ عن الصومِ والصبرِ عليه.

ومن خصائصِ هذا الشهرِ: أنَّه تُفتحُ فيهِ أبوابُ الجنانِ، وتُغْلق أبوابُ النيرانِ؛ وذلكَ بسببِ إقبالِ المسلمينَ فيهِ على طاعةِ ربِّهم وتقرُّبِهم إليهِ بالأعمالِ الصالحةِ، وترْكِهم للمعاصي وابتعادِهم عنها، فهو فرصةٌ هيَّأَها اللهُ لعبادِه لطلبِ الجنَّةِ والبعدِ عن النارِ.

ومن خصائصِ رمضانَ: أنَّه تُغَلُّ فيهِ الشياطينُ فلا يتمكنونَ من إفسادِ أعمالِ المؤمنينِ، وإغرائِهمْ بالمعاصِي؛ ولهذا تقلُّ المعاصِي في شهرِ رمضانَ بشكلٍ ملحوظٍ نتيجةً لمنعِ الشيطانِ من مزاولةِ إضلالِ العبادِ، ففي هذا الشهرِ المباركِ انتصارُ المسلمينَ الصائمينَ على عدوِّهِم الشيطانِ وتخْليصُهم من أَسْرِهِ، وقد يكونُ خلاصًا إلى الأبدِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٢) من حديث أبي هريرة.

أَيُّهَا المسلمونَ: لقد أوصَانا النبيُّ ﷺ في هذا الشهرِ أنْ نستكثرَ من أربعِ خصالٍ: خصلتانِ نُرْضِي بهما ربَّنا، وخصلتانِ لا غِنَى لنا عنهما، أمَّا الخصلتانِ اللتانِ نُرْضِي بهما ربَّنا، فشهادةُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ والاستغفارُ، وأمَّا الخصلتانِ اللتانِ لا غِنَى لنا عنهما، فنسألُ اللهَ الجنَّةَ، ونعوذُ به من النارِ.

عبادَ اللهِ: مَنْ مَرَّ عليهِ هذا الشهرُ، ولم يستفدْ منه مغفرةَ ذنوبهِ، وتكفيرَ خطاياهُ، فهو عبدٌ شقي بعيدٌ من اللهِ، فقد صَعِدَ النبيُّ ﷺ المنبرَ فقالَ: «آمين، آمين، آمين» قالوا: عَلَامَ أَمَّنْتَ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: «جاءني جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ: يا محمدُ، رغِمَ أنفُ امرئٍ دخلَ عليهِ شهرُ رمضانَ ثُمَّ خرج ولمْ يُغْفَرْ له فأدخلَه اللهُ النارَ فأبعدَه اللهُ، قُلْ: آمين، فقلْتُ: آمين...»[1] الحديث. فمِنَ الأشقياءِ مَنْ لا يكُفُّ عن المعاصِي في هذا الشهرِ، ولا يشعرُ له بحُرمةٍ، ولا ينتبهُ لإنقاذِ نفْسِه من النارِ. ومنهم مَنْ يتركُ المعاصِي في هذا الشهرِ تَرْكًا مؤقتًا، لا تَرْكَ توبةٍ وندمٍ، بلْ في عزمهِ ونيَّتِه مزاولةُ المعاصِي، فهذانِ إنَّما يزيدانِ بدخولِ رمضانَ بعدًا من اللهِ، وهما سائرانِ في طريقِهما إلى النارِ إنْ لمْ يتُوبا.

وأمَّا المؤمنُ الذي انتبهَ لنفْسِه، وتابَ إلى اللهِ في هذا الشهرِ توبةً صادقةً، واستدركَ أمْرَه فاستغلَّ خيراتِ هذا الشهرِ، فهو الذي يحصلُ على خيراتِ هذا الشهرِ، فيكونُ مِمَّنْ صامَ الشهرَ واستكملَ الأجرَ وفازَ بجائزةِ الربِّ، جَعلَنا اللهُ وإياكُم من هؤلاءِ، إنه جوادٌ كريمٌ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) من حديث أبي هريرة.

بمناسبةِ انتهاءِ شهرِ رمضانَ

الحمدُ للهِ الواحدِ القهارِ، حَكَمَ بالفناءِ على هذه الدارِ، وبالبقاءِ في دارِ القرارِ، ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤]، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ العزيزُ الغفارُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المصطفى المختارُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه البررةِ الأطهارِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وتفكروا في أحوالِكُم وسرعة زوالكم، بالأمْسِ القريبِ كانَ المسلمونَ ينتظرونَ دخولَ شهرِ رمضانَ المباركِ انتظارَ قدومِ الضيفِ الغالي، والوافدِ الكريمِ، طمعًا فيما أعدَّه اللهُ فيهِ من الخيراتِ، ورغبةً في التنافسِ في الطاعاتِ، فهوُ موسمٌ تُعرضُ فيه أغلى السِّلعِ بأرخصِ الأسعارِ، وتُعْرَضُ فيه الجنَّةُ الغاليةُ، حيثُ تُفتحُ أبوابُها، وتُيسَّرُ أسبابُها، وتُعرضُ فيه المرابحُ العظيمةُ، بحيثُ يعدلُ فيهِ ثوابُ السُّنَّةِ ثوابَ الفريضةِ، وثوابُ الفريضةِ ثوابَ سبعينَ فريضةً فيما سِواهُ، موسمٌ تُسَدُّ فيهِ طُرقُ الهلاكِ، فتُغلقُ فيهِ أبوابُ النيرانِ، ويُصَفَّدُ فيه كلُّ شيطانٍ، تُهْجَرُ فيه المحرماتُ، ويسهُلُ فيه فِعْلُ الطاعاتِ.

موسمٌ يغلبُ فيه سلطانُ الصبرِ على سلطانِ الهوى والجزعِ، ويغلبُ فيه صفةُ الكرمِ والجودِ على صفةِ الشُّحِّ والبخلِ، يغلب فيه العقلُ والحكمةُ على الطيشِ والسفَهِ «**فإنْ سابَّه أحدٌ أو قاتلَهُ، فليقلْ إني صائمٌ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١).

موسمٌ كل وقتِه عظيمٌ مباركٌ؛ فنهارُه صيامٌ، وليلُهُ قيامٌ، أوَّلُه رحمةٌ، وأوْسطُه مغفرةٌ، وآخرُه عتقٌ من النارِ، موسمٌ يتغلَّبُ فيه المسلمُ على نزعاتِ النفسِ ونزعاتِ الشيطانِ، فإنْ كانَ الإنسانُ أسيرًا للنفسِ والشيطانِ قبلَ حلولِ هذا الشهرِ بحيثُ كانَ يصعبُ عليهِ تَرْكُ ما اعتادَه من المعاصِي بحُكْمِ ضعفِ النفسِ وقلةِ الإيمانِ، وبحُكمِ مخالطةِ الأشرارِ، فإنَّ شهرَ رمضانَ المباركَ يخلِّصُهُ من هذا الأسر، وينقله من المجتمع الفاسد إلى المجتمع الصالح، فلا يرى من حولِهِ إلا من هو صائمٌ قائمٌ، فرمضانُ في الحقيقةِ مدرسةٌ يتلَقَّى فيها المسلمُ دروسَ الخيرِ المتنوعةَ، ويتعوَّدُ فيها الابتعادَ عن الشرِّ وأسبابِهِ، فما ينتهي رمضانُ إلاَّ والمؤمنُ قد أَلِفَ الخيرَ وَنَفَرَ عن الشرِّ؛ مما يكونُ سببًا لاستمرارِه على الاستقامةِ في بقيةِ السَّنَةِ.

فمثلاً الذي كانَ يتكاسلُ عن الصلاةِ مع الجماعةِ ولمَّا حَلَّ عليه شهرُ رمضانَ التزمَ الصلاةَ مع الجماعةِ وأدركَ خطأَهُ فيما مضَى، وصحَّحَ خُطتَهُ في المستقبلِ، المدخنُ الذي فَتَكَ به تناولُ الدخانِ وأضرَّ بصحتِهِ، وهو يستصعبُ تَرْكَهُ، لما حَلَّ عليهِ شهرُ رمضانَ المباركُ خَلَّصَهُ من أَسْرِ هذا الخبيثِ الضارِّ ودَرَّبَهُ على تَرْكِهِ، فأصبحَ من السهلِ عليهِ مقاطعتُهُ نهائيًا، وهكذا بقية العادات السيئة، وإذا كانتِ الحكوماتُ تضعُ دوراتٍ تدريبيةً للعاملينَ فيها ليتمرنوا على مختلفِ الأعمالِ، فإنَّ شهرَ رمضانَ يعتبرُ من أعظمِ الدوراتِ التدريبيةِ على فِعْلِ الخيراتِ وتَرْكِ المنكراتِ.

أَيُّها المسلمونَ: بالأمسِ القريبِ كُنَّا نترقبُ حلولَ هذا الشهرِ المباركِ، واليومَ ـ بكلِّ مرارةٍ وأَسى ـ ننتظرُ انتقالَه ونهايتَه، كما هي سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ، أنَّ لكلِّ مقيمٍ في الدنيا ارتحالاً، ولكلِّ موجودٍ زوالاً، فلننظُرْ في واقعِنا مع أنفُسِنا،

ونوازنْ حالتَنا قبلَ دخولِ هذا الشهرِ وحالتَنا الحاضرةَ، هل صلحتْ أعمالُنا؟ هل تحسَّنتْ أخلاقُنا؟ هل استقامَ سلوكُنا؟ هل لانتَ قلوبُنا؟ هل زادتْ رغبتُنا في الخيرِ وكراهتُنا للشرِّ؟ إنْ كُنَّا كذلكَ فقد استفدْنا من رمضانَ، فلنحمدِ اللهَ على هذه النعمةِ، ولنحافظْ عليها في بقيةِ الأشهرِ، ولا نفرط فيها فنكونَ ﴿ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢].

ومَنْ لم يدركْ من نفسِه هذا الشعورَ بالخيرِ عندَ نهايةِ شهرِ رمضانُ، فليعلمْ أنَّه لم يستفدْ منه، وأنه لا يزالُ في غيِّهِ، ولكنْ لا ييأس من رحمةِ اللهِ، بلْ عليهِ أنْ يتوبَ إلى اللهِ، فإنَّ اللهَ يتوبَ على مَنْ تابَ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وليحسن الختامَ، فإنَّ الأعمالَ بالخواتيمِ.

عبادَ اللهِ: لئنِ انقضَى شهرُ رمضانَ المباركُ فإنَّ عملَ المؤمنِ لا ينقَضِي إلاَّ بالموتِ «ومَنْ كان يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لا يموتُ»[1]، ومِن علامةِ قبولِ الحسنةِ فِعْلُ الحسنةِ بعدَها.

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ شرعَ لكم في ختامِ هذا الشهرِ المباركِ أعمالاً مكملةً له زيادةً لكم في الخيرِ، فشرعَ لكم صدقةَ الفطرِ طُهرةً للصائمِ من اللغوِ والرفثِ، وطُعمةً للمساكينِ، وشكرًا للهِ على توفيقِه، وهي زكاةٌ عن البدنِ يجبُ إخراجُها عن الكبيرِ والصغيرِ والذَّكرِ والأنْثَى والحُرِّ والعَبْدِ، ويُستحبُّ إخراجُها عن الحملِ في البطنِ. يجبُ إخراجُها على كلِّ مسلمٍ غربتْ عليهِ الشمسُ ليلةَ العيدِ، وهو يملكُ ما يزيدُ عن قوتِ يومِه وليلتِه، ويجبُ عليه أنْ يخرجَ عن نفْسِه وعمَّنْ تلزمُه نفقتُه من زوجتِه ووالديْهِ وأولاده، وإنْ تبرعَ بنفقةِ شخصٍ في شهرِ رمضانَ

---

(١) ورد ذلك على لسان أبي بكر رضي الله عنه في حديث عائشة الذي أخرجه البخاري (١٢٤٢) وغيره.

استُحِبَّ له أنْ يفطرَ عنه. ويخرجُ زكاةَ الفطرِ في البلدِ الذي وافاهُ تمامُ الشهرِ وهو فيهِ، ويخرجُ زكاةَ من يلزمُه الإخراجُ عنهم مع زكاةِ نفْسِه، وإن وَكَّلَهُمْ أنْ يُخرجوا عنه وعنهم في بلدِهم أو وَكَّل غيرَهم جازَ ذلك. وتُدفعُ زكاةُ الفطرِ إلى مَنْ يَجوزُ دفعُ زكاةِ المالِ إليهِ كالفقراءِ والمساكين، فيدفعُها إلى المستحقِّ أو إلى وكيلِ المستحقِّ. وأمَّا ما يفعلُه بعضُ الناسِ من إيداعِ زكاةِ الفطرِ حتَّى يأتيَ المستحقُّ ويأخذها من المُودَعِ عنده وهو غيرُ وكيلٍ له، فهذا لا يجوزُ ولا يُعْتَبرُ إخراجًا لها في وقتِها؛ لأنَّه لا بُدَّ من وصولِها إلى المستحقِّ أو إلى وكيلِه في وقتِ الإخراجِ، ووقتُ الإخراجِ يبدأُ بغروبِ الشمسِ ليلةَ العيدِ، والأفضلُ ما بينَ صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العيدِ، وإنْ أخرجَها قبلَ العيدِ بيومٍ أو يومينِ جازَ، وإنْ أخَّرَهَا عن صلاةِ العيدِ أَثِمَ وأجْزأَتْ، وإنْ فاتَ يومُ العيدِ ولم يُخرجْها فإنَّه يقضِيها ولا تسقطُ عنه.

ومقدارُ صدقةِ الفطرِ صاعٌ من بُرٍّ، أو صاعٌ من شعيرٍ، أو صاعٌ من أَقِطٍ، أو صاعٌ من تمرٍ، أو صاعٌ من زبيبٍ، هذه الخمسةُ التي وردَ بها النَّصُّ، ويجزئُ بَدَلَهَا ما يغلبُ استعمالُ الناسِ له قوتًا في البلدِ كالأرزِ والذرةِ والدخنِ، ولا يجوزُ إخراجُ القيمةِ بأنْ يدفعَ دراهمَ بدلَ الإطعامِ وإنْ أفْتَى به بعضُ الناسِ؛ لأنَّه خلافُ النصِّ، ويجوزُ للفقيرِ إذا قبضَ صدقةَ الفطرِ أنْ يخرجَها عن نفْسِه.

أيها المسلمونَ: وممَّا شرَعَه اللهُ لكم في ختامِ الشهرِ التكبيرُ، قالَ تعالَى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فيسن التكبيرُ ليلةَ العيدِ والجهرُ به في المساجدِ والبيوتِ والأسواقِ تعظيمًا للهِ، وشكرًا له على تمامِ النعمةِ.

ومما شرعه اللهُ لكم في ختامِ هذا الشهرِ المباركِ صلاةُ العيدِ، وهي فرضُ

كفايةٍ، وهي من تمام ذِكْرِ اللهِ، قالَ تعالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، قالَ بعضُ السلفِ: أيْ أدّى زكاةَ الفطرِ ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ قيلَ: المرادُ صلاةُ العيدِ.

أَيُّهَا المسلمونَ: ودِّعوا شهرَكُم بالاستغفارِ والتوبةِ وكثرةِ الدعاءِ، لعلَّكم تُكْتبونَ من العتقاءِ من النارِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* * *

ما بعدَ رمضانَ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يُتيحُ لعبادِه مواسمَ المغفرةِ، ويُعرِّضُهم لنفحاتِ جُودِه، ليرفعَ درجاتِهم، ويُكفِّرَ عنهم سيئاتِهم، أحمدُه على فضلِه وإحسانِه، وأشكُرُه على توفيقِه وامتنانِه، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أوَّلُ سابقٍ إلى الخيراتِ، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه ذوي الفضائلِ والكراماتِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، أيُّها المسلمونَ، إنَّ التاجرَ إذا دخلَ موسِمًا من مواسمِ التجارةِ فتاجرَ فيهِ وباعَ واشترَى طلبًا للربحِ، فإنَّه بعدَ انتهاءِ هذا الموسمِ وتصفيةِ معاملتِه فيه، ينظرُ مبلغَ ربحِه وما حصلَ عليهِ من مكاسبَ، ينظرُ هلْ ربحَ أو خسِرَ؟ هلْ غنِمَ أو غرمَ؟ هذا الاهتمامُ البالغُ في تجارةِ الدنيا وعرضِها الزائلِ، تعتبرونَه حِذْقًا ورُشْدًا. ونحنُ قد مَرَّ بنا قريبًا موسمٌ من مواسمِ تجارةِ الآخرةِ الباقيةِ، تجارةٌ تنجيكم من عذابٍ أليمٍ، تجارةٌ لنْ تبورَ، قد مَرَّ بنا شهرُ رمضانَ المباركُ، تربحُ فيهِ السُّنةُ ثوابَ الفريضةِ، وتربحُ فيهِ الفريضةُ ثوابَ سبعينَ فريضةً، يربحُ فيه العملُ في ليلةٍ واحدةٍ ثوابَ العملِ في ألفِ شهرٍ، يفوزُ فيه أهلُ الاستقامةِ والصلاحِ برحمةِ اللهِ، ويحصلُ فيه المذنبونَ على مغفرةِ اللهِ، ويُعْتَقُ فيه المستحقونَ لدخولِ النارِ من أصحابِ الكبائرِ الموبقةِ يُعْتَقُونَ فيهِ من النارِ إذا تابُوا إلى ربِّهم، من صامَ أيامَه، وقامَ لياليه إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنْبِهِ، لقد مَرَّ بنا هذا الشهرُ بخيراتِه وعشْنَا أيامَه ولياليه فلنحاسبْ أنفُسَنا ماذا

ربحْنا فيهِ؟ ماذا استفَدْنا منه؟ ما أَثَرُه على نفوسِنا؟ وما مدى تأْثيرِه على سلوكِنا؟ هلْ ربحْنا فيهِ أو خَسِرْنا؟ هل تُقُبِّلَ منَّا ما عمِلْنا فيه، أوْ رُدَّ علينا؟ لقد كانَ السلفُ الصالحُ رحمَهُم اللهُ حينما ينتَهِي رمضانُ يُصيبُهُم الهَمُّ هلْ تُقُبِّلَ منهم أو لا؟ فيدْعُونَ اللهَ ستةَ أشهرٍ أنْ يتقبَّلَ منهُم رمضانَ، فَهُم كما وصفَهم اللهُ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١] يخافونَ أنْ تُردَّ عليهِم حسناتُهم أشدَّ مما يخافُ المذنبونَ أنْ يُعَذَّبُوا بذنوبِهم؛ لأنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

عبادَ اللهِ: إنَّ للقبولِ والربحِ في هذا الشهرِ علاماتٍ، وللخسارةِ والردِّ علاماتٍ واضحةً يعرفُها كلُّ إنسانٍ من نفْسِه، ففكِّروا في أنفُسِكم:

مَنْ كانَ حالُه في الخيرِ والاستقامةِ بعدَ رمضانَ أحسنَ من حالهِ قبلَهُ، ومَنْ حَسُنَ سلوكُه، وعظُمتْ رغبتُه في الطاعةِ، وابتعدَ عن المعاصِي، ونَفَرَ منها بعد رمضانَ ـ فهذا دليلٌ على قبولِ أعمالِه الصالحةِ في رمضانَ، ودليلٌ على ربحِ تجارتِه في رمضانَ.

ومَنْ كانَ بعدَ رمضان كحالِه قبلَه أو أسوأَ، مقيمًا على المعاصِي بعيدًا عن الطاعةِ، يرتكبُ ما حرَّمَ اللهُ، ويتركُ ما أوجبَ اللهُ، يتركُ الصلاةَ، ولا يحضرُ الجمعَ والجماعاتِ، يسمعُ النداءَ للصلاةِ فلا يُجيبُ، ويعْصِي فلا يتوب، لا يدخلُ معَ المسلمينَ في بيوتِ اللهِ، ولا يتْلُو كتابَ اللهِ، ولا يتأثرُ بالوعدِ والوعيدِ، ولا يخافُ من التهديدِ، سماعُه للأغانِي والمزاميرِ، ونطقُه قولُ الزورِ، وشرابُه الدخانُ والمخدراتُ والخمورُ، وَمَالُهُ من الرشوةِ والرِّبا وبيعِ السلعِ المحرمَةِ والكذبِ في المعاملةِ والغشِّ والخديعةِ والفجورِ، ماذا استفادَ

هذا من رمضانَ ومن مواسمِ المغفرةِ والرضوانِ؟ إنَّه لم يستفدْ سوى الآثامِ والخسرانِ، والعقابِ والنيرانِ، كما أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ قالَ له: «وَمَنْ أدركَهُ شهرُ رمضانَ فلمْ يُغْفَرْ له فماتَ فدخلَ النارَ فأبعدَه اللهُ، قُلْ آمين، فقلتُ: آمين»[1] فهذا خَبَرٌ عن محمدٍ ﷺ عن جبريلَ عليهِ السلامُ أنَّ من أدركَه رمضانُ فلم يُغْفَرْ له فيهِ وماتَ على هذِه الحالةِ أنَّه في النارِ، ودعَا عليهِ جبريلُ بالبعدِ عن رحمةِ اللهِ، وأمَّنَ على ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ، فيا عِظَمَ الخسارةِ، ويا فداحةَ المصيبةِ، ويا هَوْلَ العقوبةِ!.

يا مَنْ عرفتَ في رمضانَ أنَّ لكَ ربًّا، كيفَ نسيتَه بعدَ رمضانَ؟! يا مَنْ عرفْتَ في رمضانَ أنَّ اللهَ أوْجَبَ عليكَ الصلواتِ الخمسَ في المساجدِ، كيفَ جَهلْتَ ذلكَ أو تجاهلْتَه بعدَ رمضانَ؟! يا مَنْ عرفْتَ في رمضانَ أنَّ اللهَ حرَّمَ عليكَ المعاصِي، كيفَ نسيتَ ذلكَ بعدَ رمضانَ؟! يا مَنْ عرفْتَ في رمضانَ أنَّ أمامكَ جنةً ونارًا وثوابًا وعقابًا، كيفَ نسيتَ ذلكَ بعدَ رمضانَ؟! يا مَنْ كنتم تملؤون المساجدَ في رمضانَ، وتتلونَ كتابَ اللهِ فيها، كيفَ هجَرْتُم المساجدَ والقرآنَ بعدَ رمضانَ؟!

نعوذُ باللهِ من العَمَى بعدَ البصيرةِ، ومن الضلالةِ بعد الهُدَى، لقد كانتِ المساجدُ في رمضان تغصُّ بالمصلينَ في الأوقاتِ الخمسةِ برجالٍ لمْ ينزلُوا من السماءِ ولم يَقْدمُوا من سفرٍ، وإنَّما يسكنونَ بجوارِ المساجدِ طوال السنةِ ويملؤون البيوتَ، لكنهم لا يعرفونَ المساجدَ في غيرِ رمضانَ، ولا يخافونَ اللهَ في غيرِ رمضانَ، وأعجبُ من ذلكَ أنَّ هؤلاءِ لهم آباءٌ وإخوانٌ يحافظونَ على

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) من حديث أبي هريرة.

الصلاةِ طوال السَّنةِ لكنهم لا ينكرونَ عليهِم، بلْ يسكنونَ معهم وينبسطونَ بصحبتِهِم ويُؤاكلُونَهُم ويجالِسُونَهم، فإذا حضرت الصلاةُ قاموا إليها، وتركُوهم وأغْلقُوا عليهم البيوتَ مع النساءِ والأطفالِ، دونَ خوفٍ من اللهِ! أَلَمْ تنزل اللعنةُ والغضبُ على بني إسرائيلَ على مِثْلِ هذا الذي تصنَعُونَه، وأنتم تقرؤونَ هذا في كتابِ اللهِ تعالَى؟! ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، وقد فسَّرَ النبيُّ ﷺ ذلكَ بأنَّ أحدَهُم كانَ يرى الآخَرَ على معصيةِ اللهِ فينهاهُ عن ذلكَ، ثمَّ يراهُ مرةً أُخْرى، فلا يمنعُه ذلكَ أنْ يكونَ أكيلَه وجليسَه، فلمَّا رأَى اللهُ ذلكَ منهم ضربَ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ، ولعنَهُم على لسانِ داودَ وعيسى بنِ مريمَ، ثمَّ قالَ ﷺ: «كلا واللهِ لتأمُرَنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عن المُنكرِ، ولتأخُذُنَّ على يَدِ الظالمِ، ولتأطِرُنَّه على الحقِّ أَطْرًا، أو تَقْصُرنَّهُ على الحقِّ قَصْرًا»[1]، وفي روايةٍ: «أو ليضْرِبنَّ اللهُ قلوبَ بعضِكُم على بعضٍ، أو لِيلْعَنكُم كما لعنَهُم»[2]. إنني أعتقدُ أنَّ واحدًا من هؤلاءِ الذينَ يسكتونَ عن أبنائِهم ومَنْ في بيوتِهم إذا تركُوا الصلاةَ لو نقصه ابنهُ أو أخوهُ شيئًا من مالِه لن يسكُتَ عنه، لن يتركَه في بيتهِ، بلْ تظهرُ شهامتُه ورجولتُه وحزمُه وغيرتُه على الدنيا، وأمَّا الدينُ فلا يهمُّه أمْرُه.

فاتقوا اللهَ أيُّهَا المسلمونَ، واخشوا من العقوبةِ العاجلةِ والآجلةِ، فها هي الحروبُ الطاحنةُ تحيطُ بكُمْ من جميعِ الجوانبِ، في لبنانَ، وفي العراقِ، وفي أفغانستان، وفي الصومالِ، دُمِّرتْ مدنٌ بأكْمَلِها، وهلكَ الألوفُ من الناسِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦) من حديث ابن مسعود.
(٢) المصدر السابق رقم (٤٣٣٧).

وشُرِّدَ الملايينُ من ديارِهم، وأنتم تَنْعَمونَ بالأمنِ، وترفُلونَ في الغنى والثروةِ، وتَتمتَّعونَ بأحسنِ المآكلِ والمشتهياتِ، لكنَّكُم لمْ تشكُروا نعمةَ اللهِ، فاحْذرُوا من عقوبتِه، فقد قالَ سبحانَهُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، وقالَ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في التذكيرِ بالأعمالِ الصالحةِ بعدَ انتهاءِ موسمِ الحج

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يُوالِي على عبادِه مواسمَ الخيرِ، ويَحُثُّهُم على اغتنامِها بالطاعة؛ ليكفِّرَ عنهم سيئاتِهِم، ويرْفعَ من درجاتِهِم، تفضُّلاً منه وإحسانًا، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أَوَّلُ سابقٍ إلى الخيراتِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه الذينَ لا تَمُرُّ بهم فرصةٌ للخيرِ إلاَّ شَغَلُوها بالأعمالِ الصالحةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾[المؤمنون: ٦١].

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واغتنمُوا أعمارَكُم بالأعمالِ الصالحةِ، فإنَّها تنقَضِي سريعةً، واعلموا أنَّها تَمُرُّ بكم أوقاتُ الفضائِلِ، ومواسمُ الخيراتِ والنفحاتِ، فالسعيدُ مَنْ تنبَّهَ لها، واستفادَ منها، والشقيُّ مَنْ غفلَ عنها، وضيَّعَ نفْسَهُ، قالَ ﷺ: **«الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ ـ يعني حاسَبها ـ وعَمِلَ لِمَا بعدَ الموتِ، والعاجزُ من أَتْبعَ نفسَهُ هواها، وتَمنَّى على اللهِ الأماني»**[1].

عبادَ اللهِ: مضتْ أَشهُرُ الحجِّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ، وطُوِيَ بِمُضِيِّها صفحةٌ من صحفاتِ أعمارِنا قد سُجِّلَ فيها ما عمِلْناه في تلكَ الأشهرِ من خيرٍ أو شَرٍّ، لقد مضتْ أشهرُ الحجِّ بخيراتِها وبركَاتِها، فلْنُحاسبْ أنفُسَنا، ماذا عَمِلْنا فيها؟ فإنْ كانَ خيرًا حمدْنا اللهَ وسأَلْناه القبولَ والزيادةَ من الخيرِ، وإنْ كانَ شرًّا استغْفَرنا اللهَ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

منه، وأتبعْناه بالحسناتِ التي تمحوه.

أَجَلْ لقد مضتْ أشهرُ الحجِّ التي دعا اللهُ عبادَه فيها لزيارةِ بيتِه العتيقِ ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ [الحج: ٢٨]، فأَتَوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ: لبّيكَ اللّهُم لبّيكَ، ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج: ٢٩] فمَنْ تقبَّلَهُ اللهُ منهُم رجعَ بحجٍّ مبرورٍ، «**والحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنةَ**»[1]. «**ومنْ أتى هذا البيتَ، فلمْ يرفثْ، ولمْ يَفْسُقْ رجعَ كيومَ ولَدتْه أمُّه**»[2]. لقد مضتْ تلكَ الأيامُ، وأوقعَ المسلمونَ فيها الحجَّ، منهم المفترضُ ومنهم المتنفلُ، ورجعَ المقبولونَ منهم مغفورةً لهم خطاياهُم كيومَ ولدتْهُم أُمَّهاتُهم.

مضتْ تلكَ الأيامُ التي فيها عشرُ ذي الحجةِ التي قالَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أيامٍ العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى اللهِ مِنْ هذه الأيامِ**» يعني أيامَ العَشْرِ، قالوا: يارسولَ اللهِ، ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ؟ قالَ: «**ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ، إلاَّ رجُلاً خرجَ بِنَفْسِه ومالِه، ثم لم يرجعْ من ذلكَ بشيءٍ**»[3]، رواهُ البخاريُّ. وقد أقْسمَ اللهُ تعالَى بها في كتابهِ الكريمِ حيثُ يقولُ: ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الفجر: ٢]، وفي تلكَ العَشْرِ يومُ عرفةَ الذي فيهِ الوقوفُ بعرفةَ، وهو ركنُ الحجِّ الأعظم، قالَ النبيُّ ﷺ: «**الحجُّ عرفةُ**». ويومُ عرفةَ هو يومُ العتقِ من النارِ؛ ففي صحيحِ مسلمٍ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما مِنْ يومٍ أكثرُ من أنْ يُعتقَ اللهُ فيه**

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (٩٦٩) من حديث ابن عباس.

عبدًا من النارِ من يوم عرفةَ، وإنَّه ليدْنُو، ثم يُباهِي بهم الملائكةَ»[١]، وفي تلكَ العَشْرِ يومُ عيدِ الأضحى المباركِ الذي هو يومُ الحجِّ الأكبرِ، لمَّا انْتهَى يومُ عرفةَ، وأعتقَ اللهُ عبادَه المؤمنينَ من النارِ، اشتركَ المسلمونَ كلُّهم في العيدِ بعدَه، يتقربونَ إليهِ بذبحِ الهَدْيِ والأضاحي، فأهلُ الحجِّ في ذلكَ اليومِ يرمونَ الجمرةَ، ويكملونَ مناسِكَهم، وأهلُ الأمصارِ يجتمعونَ على ذِكْرِ اللهِ وتكبيرِه والصلاةِ له. ثُمَّ أعقبَ ذلكَ أيامُ التشريقِ التي هي أيامُ أَكْلٍ وشُربٍ وذِكرٍ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي الأيامُ المعدوادتُ التي قالَ اللهُ تعالَى فيها: ﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وهي ثلاثةُ أيامٍ بعدَ يومِ النحرِ.

عبادَ اللهِ: لقد انتهتْ تلكَ الأيامُ العظيمةُ والمواسمُ الجليلةُ بخيراتِها وبركاتِها، فماذا استفدْنا منها؟ ولْنُحاسِبْ أنفسنا، فمنْ قَدَّمَ خيرًا فَلْيحمدِ اللهَ، ويواصلْ أعمالَ الخيرِ، ومَنْ فَرَّطَ في تلك الأيامِ وضَيَّعَ تلكَ الفضائلَ فليستغفرِ اللهَ، ويحفظْ بقيةَ عمرِه، ويُصلحْ في مستقبلِه.

عبادَ اللهِ: لقد شرعَ اللهُ الاستغفارَ بعدَ انتهاءِ العباداتِ، وانقضاءِ مواسمِ الخيراتِ، فلنُكثرْ من الاستغفارِ؛ فإنَّه يَجْبرُ النقصَ، ويسدُّ الخللَ، ثم لنعلْم أنَّنا بعدَ أيامٍ قليلةٍ سنودِّعُ عامَنا هذا، ونستقبلُ عامًا جديدًا أَوَّلُه شهرُ اللهِ المحرم الذي قالَ فيه النبيُّ ﷺ: **«أفضلُ الصيامِ بعدَ شهرِ رمضانَ شهرُ اللهِ الذي تدْعونَه المحرمَ، وأفضلُ الصلاةِ بعدَ الفريضةِ قيامُ الليلِ»**[٢]، رواه مسلم، وهكذا لا ينتهي موسمٌ من مواسمِ الخيرِ إلاَّ ويعقُبهُ موسمٌ آخرُ، وهكذا فَضْلُ اللهِ يَتَوالَى على عبادِه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٨).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٣) من حديث أبي هريرة.

عبادَ اللهِ: لنتذكَّرْ بانتهاءِ الأيامِ والشهورِ انقضاءَ الأعمارِ، والرحيلَ إلى دارِ القرارِ، وأن الدنيا ليست بدارِ مُقامٍ، وإنَّما هي مَمَرٌّ إلى الآخرةِ، وسُوقٌ يتزودُ منه المسافرُ زَادَ سَفرِه، فتزوَّدُوا منها بالأعمالِ الصالحةِ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فما عِيبت الدنيا بأكثر من ذِكْرِ فنائِها، وتقلُّبِ أحوالِها، وهو أَولُ دليلٍ على انقضائِها وزوالِها، فتتبدلُ صحتُها بالسقمِ، ووجودُها بالعدمِ، وشبيبتُها بالهرمِ، ونعيمُها بالبؤسِ، وحياتُها بالموتِ، وعمارتُها بالخرابِ، واجتماعُها بفرقةِ الأحبابِ، وكلُّ ما فوقَ الترابِ ترابٌ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ...﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البقرة: ٢٠٠ـ٢٠٢].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

بمناسبةِ ختامِ العامِ الهجري

الحمدُ للهِ حكمَ بالفناءِ على هذه الدارِ، وأخْبرَ أنَّ الآخرةَ هي دارُ القرارِ، وهدمَ بالموتِ مَشِيدَ الأعمارِ، أحمدُه على نِعَمِه الغزارِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ الواحدُ القهارُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، حَذَّرَ من الركونِ إلى هذِه الدارِ، وأَمَرَ بالاستعدادِ لدارِ القرارِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه البررةِ الأطهارِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا ما تعاقبَ الليلُ والنهارُ.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وفكِّروا في دنياكُم وسرعةِ زوالِها، واستعدُّوا للآخرةِ وأهوالِها، كلُّ شهرٍ يستهلُّه الإنسانُ فإنَّه يُدْنيهِ من أَجَلِهِ ويُقرِّبُه من آخرتِه، وخيرُكُم منْ طالَ عمرُه وحَسُنَ عملهُ، وشرُّكُم من طالَ عمرُه وساءَ عملُه، إنَّه ما بينَ أنْ يُثابَ الإنسانُ على الطاعةِ والإحسانِ، أو يُعاقبَ على الإساءةِ والعصيانِ، إلاَّ إنْ يقالَ: فلانٌ قد مات، وما أقربَ الحياةَ من المماتِ! وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ، وأنتم اليومَ تُوَدِّعُون عامًا قد انتهى وانتقصَ من أعمارِكم، وتَستقبلونَ عامًا لا تدرونَ أتسْتكْمِلُونَه أم لا. فلْنُحاسبْ أنفُسَنا، ماذا عَمِلْنا في العامِ المنصرمِ؟ فإن كانَ خيرًا حمدْنا اللهَ، وأتبعناهُ بالخيرِ، وإنْ كانَ شرًّا تُبنا إلى اللهِ منه واستدْركْنا بقيةَ أيامِنا قبلَ فواتِها.

قالَ ميمونُ بنُ مِهرانَ: لا خيرَ في الحياةِ إلاَّ لتائبٍ أو رجلٍ يعملُ في الدرجاتِ. يعني: أنَّ التائبَ يمْحُو بالتوبةِ ما سلفَ من السيئاتِ، والعاملُ يجتهدُ في عُلُوِّ الدرجاتِ، ومَنْ عداهُما فهو خاسرٌ، كما قالَ تعالَى:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ـ٣]، فأَقسمَ اللهُ تعالَى بالعصرِ الذي هو الزمانُ الذي يعيشُ فيه الإنسانُ، أنَّ كلَّ إنسانٍ خاسرٌ إلا مَن اتَّصفَ بهذِه الأوصافِ الأربعةِ: الإيمانِ، والعملِ الصالحِ، والتواصي بالحقِّ، والتواصي بالصبرِ على الحقِّ، فهذِه السورةُ العظيمةُ ميزانٌ للأعمالِ يَزِنُ المؤمنُ بها نفسَه فيبينُ له بها رِبْحُه من خسر... مامُ الشافعيُّ رحمَه اللهُ: لو فكَّرَ

اللهِ أنْ يكونوا اليومَ على مثا

الأَّ بالزيادةِ من عملِ الخيـ

فالمؤمنُ لا يزدادُ بطو

، وفي دعاءِ النبيِّ ﷺ

ةً لِي منْ كلِّ شرٍّ»[1]

فوعًا: «ما مِنْ م

ئًا ندِمَ ألاَّ يـ

عبادَ اللهِ: الأعمالُ بالخواتيمِ، فمَنْ أصلحَ فيما بَقِيَ غُفِرَ له ما مضَى، ومن أساءَ فيما بَقِيَ أُخِذَ بما مَضَى وما بَقِيَ، الموتى يتحسرونَ على فواتِ أطماعِ الدنيا الفانيةِ، ما مَضَى من الدنيا وإنْ طالتْ أوقاتُه فقد ذهبتْ لذَّاتُه، وبقيتْ تَبِعاتُه، وكأنْ لمْ يكنْ إذا جاءَ الموتُ وميقاتُه؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧]، وفي صحيح البخاريِّ عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «**أَعْذَرَ اللهُ إلى مَنْ بَلَّغَهُ ستينَ من عمرِه**»[١]، وفي سُنَنِ الترمذيِّ: «**أعمارُ أُمَّتِي ما بينَ الستينَ إلى السبعينَ، وأقلُّهُم من يتجاوز ذلكَ**»[٢].

فيا مَنْ يفرحُ بكثرةِ مرورِ السنينَ عليه، إنَّما تفرحُ بنقصِ عمرِك. قالَ بعضُ الحكماءِ: كيفَ يفرحُ مَنْ يومُه يهدمُ شهرَه، وشهرُه يهدمُ سَنتَه، وسَنتُه تهدمُ عمرَه!، كيفَ يفرحُ مَنْ عمرُه يقودُه إلى أجلِه، وحياتُه تقودُه إلى موتِه! يُؤْتَى يومَ القيامةِ بأطولِ الناسِ أعمارًا في الدنيا مِنَ المترفينَ التاركينَ لطاعةِ اللهِ المرتكبينَ للمعاصِي، فيصبغُ أحدُهم في النارِ صبغةً، ثمَّ يُقالُ له: هلْ رأيتَ في الدنيا خيرًا قطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ نعيمٌ قطُّ؟ فيقولُ: لا ياربِّ، يَنْسَى كلَّ نعيمِ الدنيا عندَ أوَّلِ مَسٍّ من العذابِ، إنَّهم أولئكَ الذينَ أُعطوا أعمارًا فضيَّعُوها في اللهوِ والغفلةِ، وأُعطُوا أموالاً فبذَّرُوها في الشهواتِ المحرمةِ، عندما ذاقوا أوَّلَ جزائِهم نسوا كلَّ ما أُعطوا في الدنيا مِنَ الوقتِ والمالِ، وكلَّ ما ذاقوا من اللذةِ ونالوا من الشهوةِ. هؤلاءِ الذينَ صَرَفُوا عقولَهم وأعمالَهم واهتمامَهم للعملِ في دنياهُم، واتَّبعَوا شهواتِ بطونِهم وفروجِهم، وتركوا فرائضَ ربِّهم، ونسوا آخرتَهُم، حتى

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠) من حديث أبي هريرة.

جاءَهُم الموتُ، فخرجُوا من الدنيا مذمومينَ مُفْلسِينَ من الحسناتِ؛ فاجتمعتْ عليهِم سكرةُ الموتِ، وحسرةُ الفوتِ، فندموا حيثُ لا ينفعُهم الندمُ ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفجر: ٢٣ ـ ٢٥]. فتذكَّروا أيُّها الناسُ، بانقضاءِ العامِ انقضاءَ الأعمارِ، وتذكَّروا بالانتقالِ للعامِ الجديدِ الانتقالَ إلى دار القرار.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠].

* * *

فضائلُ شهرِ مُحَرَّمٍ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، القائلِ في كتابِه المبينِ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بَعثَهُ رحمةً للعالمينَ، وحجةً على الخلقِ أجمعينَ، صلى الله عليه وعلى آلِه وصحبِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وتأمَّلوا ما قَصَّهُ اللهُ في كتابِه المبينِ عنْ أنبيائِه وأتباعِهم، وما حصلَ لهم من النصرِ والتمكينِ، وما قَصَّهُ عَنْ أعدائِه الكافرينَ، وما حلَّ بهم من العقابِ والخسرانِ المبينِ؛ قالَ تعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

وإنَّ مِمَّا قَصَّهُ اللهُ علينا في كتابِه الكريمِ قصةَ موسى عليهِ الصلاةُ والسلامُ معَ فرعونَ، تلكَ القصةُ التي تُبيِّنُ انتصارَ الحقِّ على الباطلِ، وتبعثُ في قلوبِ المؤمنينَ الثباتَ أمامَ عدُوِّهِم مهما بلغَ من القوةِ الظاهرةِ، فإنَّ قوةَ الباطلِ لا تقاومُ قوةَ الحقِّ مهما بلغتْ؛ لأنَّ قوةَ الباطلِ مَبنيةٌ على أساسٍ فاسدٍ، وقوةُ الحقِّ مبنيةٌ على أساسٍ صحيحٍ، قالَ تعالَى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

إنَّ فرعونَ ـ على ما أُوتِي من القوةِ والجبروتِ ـ كانَ يتخوَّفُ من ظهورِ الحقِّ على يدِ خصومِه من بني إسرائيلَ، فعمِلَ كلَّ ما في وسْعِه من الاحتياطاتِ، فجعلَ يستضعفُ خصومَه، ويقتلُ أبناءَهُم ويسْتحْيِي نساءَهم، ولكنَّ مشيئةَ الله نافذةٌ، وقدرتَه قاهرةٌ، فشاءَ اللهُ أنْ يُولَدَ موسى عليهِ السلامُ في بني إسرائيلَ، وأنْ ينجوَ من القتلِ، وأنْ يتربَّى في بيتِ فرعونَ، تحرُسُه عنايةُ اللهِ، وتحوطُه القدرةُ الربانيةُ، حتى كَبِرَ، وبلغَ أشدَّه واستوى.

وقتلَ رجُلاً من قومِ فرعونَ، وتخوَّفَ من الطلبِ بدمِه فَفَرَّ هاربًا إلى أرضِ مَدْينَ، ولبثَ سنينَ في أهلِ مَدْيَنَ، تزوجَ في أثنائِها، ثم عادَ إلى أرضِ مصرَ، وفي طريقِه كَلَّمَهُ اللهُ بوحْيِهِ، وبعثَهُ برسالتِه إلى فرعونَ، وآتاهُ من الآياتِ ما يَدُلُّ على صِدْقِهِ، ولكنَّ فرعونَ عاندَ وكابرَ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢١ ـ ٢٤]، وادَّعى أنَّ ما جاءَ به موسى سِحْرٌ، وأنَّ عندَه من السحرِ ما يبطِلُه، وجمَعَ السحرةَ من جميعِ مملكتِه، فعرضُوا ما عندَهم من السحرِ، وعرضَ موسى ما عندَه من الآياتِ البيناتِ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١١٨ ـ ١٢٢]، وعندَ ذلكَ لجأَ فرعونُ إلى القوةِ والبطشِ، وهَدَّدَ وتوعَّدَ. فأوحى اللهُ إلى موسى عليهِ السلامُ أنْ يخرجَ بالمؤمنينَ، ويتوجَّه بهم إلى حيثُ أَمَرَهُ اللهُ؛ فعندَ ذلكَ استنفرَ فرعونُ جنودَه، وجَمَعَ قوتَه، وخرجَ في أثرِهم يريدُ إبادتَهُم عن آخرِهم، وسارَ في طلبِهم، فانتهى موسى بِمَنْ معه من المؤمنينَ إلى البحرِ، ولحقَ بهم فرعونُ وجنودُه، وهناكَ تزايدَ خوفُ المؤمنينَ، البحرُ أمامَهم، والعدُوُّ من خلفِهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ

مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فأمرَ اللهُ موسى أنْ يضربَ بعصاهُ ذلكَ البحرَ الهائجَ المتلاطمَ فضربه؛ فانفتحَ طُرقًا يابسةً على قَدْرِ القومِ، فسار [illegible] ا موسى وقومُه، لا يخافُ دَرَكًا ولا يخشى، ودخلَ فرعونُ وجنودُه في [illegible] املَ قومُ موسى خارجينَ من البحرِ، وتكاملَ قومُ فرعونَ داخلينَ [illegible]، وأغرقَهم أجمعينَ، وهكذا انتصرَ الحقُّ على [illegible]

[illegible] عليهِ السلامُ

وفي صحيحِ مسلمٍ عَنْ أبي قتادةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ عن صيامِ عاشوراءَ، فقالَ: «**أحتسِبُ على اللهِ أنْ يكَفِّرَ السَّنَةَ التي قبلَه**»[١]، وقد عزمَ النبيُّ ﷺ في آخرِ عمرِه على ألا يصومَه مُفرداً بلْ يضمُّ إليهِ يومًا آخرَ مخالفةً لأهلِ الكتابِ في صيامِه، ففي صحيحِ مسلمٍ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّه قالَ حينَ صامَ رسولُ اللهِ ﷺ عاشوراءَ وأمرَ بصيامِه، قالوا: يا رسولَ اللهِ: إنَّه يومٌ تعظِّمُه اليهودُ والنصارى، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فإذا كانَ العامُ المقبلُ إنْ شاءَ اللهُ صُمْنا اليومَ التاسعَ**» قالَ: فلمْ يأتِ العامُ المقبلُ حتى توفِّي رسولُ اللهِ ﷺ[٢]، وفي مُسْندِ الإمامِ أحمدَ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عن النبيِّ ﷺ قال: «**صُوموا يومَ عاشوراءَ، وخالِفوا اليهودَ، صوموا قَبْلَه يومًا وبعدَه يومًا**»، وفي روايةٍ: «**أو بعده يوماً**»[٣]، فيُستحبُّ صيامُه وصيامُ يومٍ قبلَه أو يومٍ بعدَه، اقتداءً بأنبياءِ اللهِ، وطلبًا لثوابِ اللهِ، وأكثرُ العلماءِ على استحبابِ صيامِه.

باركَ اللهُ لِي ولكُمْ في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة، وفيه: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي بعده والسنة التي قبله».
(٢) صحيح مسلم (١١٣٤).
(٣) مسند أحمد (٢١٥٥).

ما في قصةِ موسى عليهِ السلامُ معَ فرعونَ منَ الفوائدِ العظيمةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولا عدوانَ إلاَّ على الظالمينَ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، الملكُ الحقُّ لا إلٰهَ إلا هُوَ ربُّ العرشِ الكريم. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه جاءَ بالحقِّ المبينِ، وجاهدَ الكفارَ والمنافقينَ حتى أكملَ اللهُ به الدينَ، وأتمَّ به النعمةَ على المسلمينَ، صلَّى اللهُ وسلم عليهِ، وعلى آلِه وأصحابِه الذينَ آوَوْهُ ونصروهُ، وهاجروا وجاهدُوا معه بصدقٍ وإخلاصٍ ويقينٍ.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقوا اللهَ تعالَى، واعتبرُوا بما قَصَّهُ اللهُ عليكُم من أنباءِ الرُّسُلِ والأممِ الماضيةِ، فإنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، ومِنْ هذه الأنباءِ العظيمةِ نبأُ موسى وفرعونَ، فقد خَصَّهُ اللهُ بالذِّكرِ في قولِه سبحانَه لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٣ـ٦].

وقد كُنَّا في الخطبةِ الماضيةِ قد سُقنا شيئًا من تفاصيلِ هذه القصةِ العظيمةِ،

ونريدُ الآنَ أنْ نستخلصَ بعضَ العِبَرِ من هذه القصةِ، فمِنَ العِبَرِ فيها:

أنَّ المؤمنينَ يُبتلونَ بعدوِّهم من الكفارِ والمنافقينَ، فإذا صبروا وثبتوا على دينِهم وجاهدوا كانتْ لهم العاقبةُ الحميدةُ والنصرُ على عدوِّهم، فإنَّ فرعونَ لمَّا هَدَّدَ المؤمنينَ بقولِه فيما حكَاهُ اللهُ عنه: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧]ـ قابلَ موسى عليهِ السلامُ هذا الموقفَ بِحَثِّ المؤمنينَ على الاستعانةِ باللهِ والصبرِ على الابتلاءِ، ووعدَهم بنصرِ اللهِ، كما ذَكَرَ اللهُ ذلكَ عنه بقولِه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].

واستمرت الجولاتُ بينَ الحقِّ والباطلِ، وفي النهايةِ أَمَرَ اللهُ نبيَّه وكليمَه موسى عليهِ السلامُ أنْ يخرجَ بِمَنْ معه من المؤمنينَ من أرضِ مصرَ فرارًا بدينِهم، فجمع فرعونُ جنودَه وكيدَه وقوَّتَه، وخرجَ في أثرِهم ليبطشَ بهم، وقالَ محقرًا لشأنِهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: ٥٤ـ٥٦].

وعندَما أدركَهُم على ساحلِ البحرِ اشتدَّ الكَرْبُ بالمؤمنين، وظنُّوا أنَّه أدركَهم، وأنَّه سيُنَفِّذُ فيهم غَضَبَهُ وبَطْشَهُ الذي كانوا يعهدونَه من قبلُ، وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١]، عندَ ذلكَ وَطَّنَهُمْ كليمُ اللهِ ورسولُه عليه الصلاةُ والسلامُ بقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦] أي: لا يدركونكُم؛ لأن معي ربِّي سيدلُّني ويوفقُني لطريقِ النجاةِ.

وتحققَ لهم وعدُ اللهِ على لسانِ رسولِه، وفَلَقَ البحرَ لهم طُرُقًا يابسةً، فلمَّا

جاوزوهُ ودخله فرعونُ وقومُه عادَ إلى حالتِه، وأُطبقَ عليهم أمواجًا متلاطمةً، فأغرقَهم عن آخرِهم، وأصحابُ موسى ينظرونَ إليهم.

وانظروا يا عبادَ اللهِ، إلى مشابهةِ هذا الموقفِ من موسى عليهِ السلامُ وثقتِه بنصرِ اللهِ في أصعبِ الظروفِ وأشدِّ الكروبِ، بموقفِ نبيِّنا محمدٍ ﷺ حينما خرجَ هو وصاحبُه أبو بكر الصديق رضيَ اللهُ عنه، واختفيا في الغارِ، وخرجَ الكفارُ في أثرِهما للبطشِ بهما، والقضاءِ عليهما، حتى وقفوا عليهما، وقالَ الصديقُ عندَ ذلكَ: يارسولَ اللهِ، لو نظرَ أحدُهم إلى موضعِ قدمهِ لأَبصَرنا، فقالَ الرسولُ ﷺ واثقًا بنصرِ الله: «ما ظنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثهما»[1]، وقد أنزلَ اللهُ في ذلكَ قولَه تعالَى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠]. إنَّه نصرُ اللهِ يأتي مع الصبرِ، وفَرجُهُ يأتي مع الكَرْبِ، ويُسْرُه يأتي مع العُسْرِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «واعلم أنَّ النصْرَ معَ الصبْرِ، وأنَّ الفرجَ معَ الكرْبِ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسْرًا»[2].

ونستيفدُ من هذِه القصةِ عِبرةً أخرى: وهي أنَّ الباطلَ مهما ارتفعَ بالقوةِ الماديةِ فإنَّه لا يبقَى أمامَ الحقِّ إذا قامَ به أهلُه وصبرُوا عليهِ، فهذا طاغيةٌ جبارٌ معه قوةُ الرجالِ والسلاحِ، ورهبةُ السلطانِ والمُلكِ، خرجَ في طلبِ جماعةٍ قليلة العددِ والعُدَّةِ، لكنَّ معهم اللهَ، ثم معهم قوةُ الإيمانِ ورسولُ الرحمٰنِ، معهم ربُّهم بنصرِه وتأييدِه. وفي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) من حديث أنس عن أبي بكر.
(٢) جزء من حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس، أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٠٠).

لحظةٍ حاسمةٍ تحطمتْ قوةُ الباطلِ على صخرةِ الحقِّ، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

ونستفيدُ من هذه القصةِ أيضًا أنَّ سُنَّةَ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ هي الشكرُ للهِ عندَ الرخاءِ وحصولِ النصرِ، وذلكَ بأنَّ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ صامَ هذا اليومَ الذي أَعَزَّ اللهُ به الحقَّ، وخذلَ به الباطلَ؛ شكرًا للهِ، وصامَه نبيُّنا محمدٌ عليه الصلاةُ والسلامُ وأَمَرنا بصيامِهِ شكراً للهِ على انتصارِ الحقِّ على الباطلِ على يدِ أخيهِ موسى عليه السلامُ، وسُنَّةُ الأنبياءِ واحدةٌ، وهي جهادُ الكفارِ، وإعلاء كلمة اللهِ في الأرضِ، والنصرُ من اللهِ نعمةٌ تُقَابَلُ بالشكرِ والطاعةِ على طريقةِ الأنبياءِ، لا بالتفاخرِ والإعجابِ، وإحداثِ الأعيادِ البدعيةِ التي تُسَمَّى باليومِ الوطنيِّ أو عيدِ النصرِ، ولا الهتافِ بالشعاراتِ الباطلةِ، فهذا كلُّه من سُنَّةِ الجاهليةِ التي جاءَ الإسلامُ بالنَّهْي عنها، ومما أحدَثَه الشيعةُ فيهِ جَعْلُهُ يومَ حُزْنٍ ومَأتمٍ؛ حيث إنَّ الحسينَ بنَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهما قُتِلَ فيهِ، فخالَفُوا السُّنَّةَ في هذا اليومِ، وما يستحبُّ فيهِ من الطاعةِ، وأحدثوا فيه البدعةَ وفعلَ المحرماتِ من النَدْبِ والنياحةِ، وضَرْبِ أجسامِهِم إظهارًا للجزعِ على قَتْلِ الحسينِ رضيَ اللهُ عنه، ويجعلونَ ذلكَ ذِكْرى تتكرَّرُ كلَّ عامٍ، ولا شكَّ أنَّ قَتْلَ الحسينِ رضيَ اللهُ عنه مصيبةٌ نزلتْ بالمسلمينَ، ولكنَّ المصائبَ لا تُقَابَلُ بالجزعِ والبدعِ، والنياحةِ واللطمِ، فهذا من أمورِ الجاهليةِ؛ لقولهِ ﷺ: «ليس منا من ضربَ الخدودَ وشقَّ الجيوبَ، ودعَا بدَعْوى الجاهليةِ»[1]، وإنَّما تُقَابَلُ المصائبُ في

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ٣٥١٩) ومسلم (١٠٣) من حديث ابن مسعود.

وقتِها بالصبرِ والاحتسابِ، والرِّضَا بقضاءِ اللهِ وقدرِه، ولا يُجْعَلُ لها ذِكْرى تتكررُ كلَّ عامٍ، وقد قُتِلَ من خيارِ الصحابةِ في زمنِ النبيِّ ﷺ وبعدَه العددُ الكثيرُ، ومِنْ أعظمِهم عَمُّ النبيِّ ﷺ حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ سيِّدُ الشهداءِ، فما كانَ من النبيِّ ﷺ ولا من الصحابةِ إلاَّ الصبرُ والاحتسابُ، عملاً بقولِه تعالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] وخيرُ الهُدَى هُدَى محمدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ مُحْدثَاتُها، وكلُّ محدَثَةٍ بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ. وقُتلَ بعدَ النبيِّ ﷺ عمرُ وعثمانُ وعليٌّ رضيَ اللهُ عنهم، فما كانَ من المسلمينَ إلاَّ الصبرُ والاحتسابُ، ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ..

* * *

تحريمُ التشاؤمِ بشهرِ صَفرٍ وغيرِه

الحمدُ للهِ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وله الحمدُ في الآخرةِ وهو الحكيمُ الخبيرُ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه البشيرُ النذير، والسراج المنير، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنْ تبعَهُم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا. **أمَّا بعدُ:**

أيُّها الناسُ: اتقوا اللهَ تعالَى، وعَلِّقوا آمالَكُم به، وتوكَّلُوا عليه، وارْجُوا ثوابَه، وخافُوا من عقابِه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

مِنَ الناسِ مَنْ يتشاءمُ بالأشخاصِ والأزمانِ، ويظنُّ أنَّه يصيبُه منها شرٌّ لذاتِها لا بقضاءِ اللهِ وقدَرِه. وهذا هو الطيرةُ التي نَهَى عنها النبيُّ ﷺ وأخبرَ أنَّها شِرْكٌ[1]؛ لأن المُتَطَيِّرَ والمتشائمَ يعتقدُ أنَّ ما يُصيبُه من المكارِه إنَّما هو من شؤمِ المخلوقِ، من زمان، أو مكان، أو شخص، فيكرَهُ ذلكَ الشخصَ أو الزمانَ أو المكانَ، وينفِرُ منه ظنًّا منه أنَّه يجلبُ له الشرَّ، وينْسَى أو يتجاهلُ أنَّ ما أصابَه إنَّما هو بقضاءِ اللهِ وقدَرِه، وبسببِ ذنبِه، كما ذكرَ اللهُ عن الأممِ الكافرةِ أنَّهم تطَيَّروا بِمَنْ هو مصدرُ الخيرِ من الأنبياءِ والمؤمنينَ؛ قالَ اللهُ تعالَى عن قومِ فرعونَ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكذلكَ ثمودُ تطَيَّروا بنبيِّهم صالحٍ عليه السلامُ: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) من حديث ابن مسعود.

وكذلكَ مُشْرِكُو العربِ تطَيَّروا بمحمدٍ ﷺ ، كما قالَ اللهُ عنهُم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

فَرَدَّ اللهُ على هؤلاءِ بأنَّ ما يصيبُهم من العقوباتِ والمكارهِ إنَّما هو بقضاءِ اللهِ وقدَرِه وبسببِ ذنوبِهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩]، وهذا من انتكاسِ فِطَرِهِم، حيث اعتقدُوا الشرَّ بِمَنْ هو مصدرُ الخيرِ والصلاحِ.

عبادَ اللهِ: ومِنَ التشاؤمِ والتطَيُّرِ ما كانَ يعتقدُه أهلُ الجاهليةِ في شهرِ صفرٍ أنَّه شهرٌ مشؤومٌ؛ فيمتنعونَ فيهِ عن مزاولةِ الأعمالِ المباحةِ التي كانُوا يُزَاوِلُونَها في غيرِه، فأبْطلَ ذلكَ النبيُّ ﷺ بقولِه: «لا عدوى، ولا هامةَ، ولا صفر»[١]. رواهُ البخاريُّ، ومسلمٌ. وهو نَفْيٌ لِمَا كانَ يعتقدُه أهلُ الجاهليةِ مِنْ أنَّ الأمراضَ تُعدِي بطبعِها من غيرِ اعتقادِ تقديرِ اللهِ لذلكَ، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]. وقولُه ﷺ: «ولا هامةَ» الهامةُ: البومةُ، ومعناهُ نَفْيُ ما كانَ أهلُ الجاهليةِ يعتقدُونَه فيها أنَّها إذا وقعتْ على بيتِ أحدِهِم يتشاءمُ ويقولُ: نَعَتْ إليَّ نَفْسِي أو أحدًا من أهلِ داري، فيعتقدُ أنَّه سيموتُ هو أو بعضُ أهلِه تشاؤمًا بهذا الطائرِ، فَنفَى النبيُّ ﷺ ذلكَ وأبْطَلَه، ومعنَى قولِه ﷺ: «ولا صفرَ» على الصحيحِ أنَّ أهلَ الجاهليةِ كانوا يتشاءَمونَ بشهرِ صفرٍ، ويقولونَ: إنَّه شهرٌ مشؤومٌ، فأبطلَ النبيُّ ﷺ ذلكَ، وبيَّنَ أنَّه لا تأثيرَ له، وإنَّما هو كسائرِ الأوقاتِ التي جعلهَا اللهُ فرصةً للأعمالِ النافعةِ، وهذا الاعتقادُ الجاهليُّ لا يزالُ في بعضِ الناسِ إلى اليومِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٧، ٥٧١٧، ٥٧٧٠، ٥٧٧٣، ٥٧٧٥) ومسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة.

فمِنهُم من يتشاءَمُ بصَفرٍ، ومنهم مَنْ يتشاءَمُ ببعضِ الأيامِ، كيومِ الأربعاءِ، أو يومِ السبتِ، أو غيرِه من الأيامِ، فلا يتزوجونَ في هذِه الأيامِ؛ يعتقدونَ أو يظنُّونَ أنَّ الزواجَ فيها لا يُوفَّقُ، كما كانَ أهلُ الجاهليةِ يشاءَمونَ بشهرِ شوال؛ فلا يتزوجونَ فيه، وقد أبْطلَ النبيُّ ﷺ هذا الاعتقادَ فتزوجَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها في شوال[١]، وتزوجَ أمَّ سلمةَ رضيَ اللهُ عنها في شوالٍ[٢].

أيُّها المسلمونَ: إنَّ الخيرَ والشرَّ والنعمَ والمصائبَ كلها بقضاءِ اللهِ وقدرِه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]. فهو الذي يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ، وما يصيبُ العبادَ من الشرورِ والعقوباتِ فإنَّ اللهَ قدَّرَهُ عليهم؛ بسببِ ذنوبِهِم ومعاصِيهم ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. ليسَ للمخلوقِ يدٌ في تقديرِه وإيجادِه، قالَ النبيُّ ﷺ: «**واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أنْ يَنْفَعوكَ بشيءٍ لمْ ينفعوكَ إلاَّ بشيءٍ قد كتبَه اللهُ لكَ، وإن اجْتمعُوا على أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ لم يضرُّوكَ إلاَّ بشيءٍ قد كتبَه اللهُ عليكَ، رُفعتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصحفُ**»[٣]. رواهُ الترمذيُّ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وهذا لاينافي أنْ يجعلَ اللهُ بعضَ مخلوقاتِه سببًا للخيرِ أو الشرِّ، ولكنْ ليست الأسبابُ هي التي تُحدِثُ هذهِ الأمورَ، وإنَّما ذلكَ راجعٌ إلى مُسَبِّبِ الأسباب وهو اللهُ سبحانَه. ومَطلوبٌ من العبدِ أنْ يتعاطَى أسبابَ الخيرِ، ويتجنَّبَ أسبابَ الشرِّ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]. قالَ الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمَه اللهُ: وأمَّا

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٣) من حديث عائشة.
(٢) أخرجه ابن ماجه (١٩٩١) من حديث الحارث بن هشام.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

تخصيصُ الشؤمِ بزمانٍ دونَ زمانٍ ـ كشهر صفر أو غيرِهِ ـ فغيرُ صحيحٍ، وإنَّما الزمانُ كلُّه خَلْقُ اللهِ تعالَى، وفيهِ تقعُ أفعالُ بني آدمَ، فكلُّ زمانٍ شَغَلَهُ المؤمنُ بطاعةِ اللهِ فهو زمانٌ مُباركٌ عليهِ، وكلُّ زمانٍ شَغَلَهُ العبدُ بمعصيةِ اللهِ فهو شُؤْمٌ عليهِ. فالشؤمُ في الحقيقةِ هو معصيةُ اللهِ تعالَى، فالمعاصِي والذنوبُ تسخطُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وإذا سخطَ اللهُ على عبدِه شقِيَ في الدنيا والآخرةِ، كما أنَّ الطاعاتِ تُرضِي الله سبحانَه، وإذا رضيَ اللهُ عن عبدِه سَعِدَ في الدنيا والآخرةِ. والعاصي شُؤْمٌ على نفْسِه وعلى غيرِه، فإنَّه لا يأمنُ أنْ ينزلَ عليهِ عذابٌ فيعُم الناسَ، خصوصًا منْ لمْ ينكرْ عليه عملَه، فالبعدُ عنه مُتعينٌ، وكذلكَ أماكنُ المعاصِي يتعيَّنُ البعدُ عنها، والهربُ منها خشيةَ نزولِ العذابِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ لأصحابِه لمَّا مَرَّ على ديارِ ثمودَ بالحِجْرِ: «**لا تدخُلُوا على هؤلاءِ المعذبينَ إلاَّ أنْ تكونوا باكينَ خشيةَ أنْ يصيبَكُم ما أصابَهُم**»[1]. فَهَجْرُ أماكنِ المعاصِي وهجرانُ العُصَاةِ من جملةِ الهجرَةِ المأمورِ بها، فإنَّ المهاجِرَ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه. قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمَه اللهُ: من أرادَ التوبةَ فليخرجْ مِنَ المظالمِ، وليدَعْ مخالطةَ مَنْ كانَ يخالطُه ـ يعني من العُصاةِ ـ وإلاَّ لمْ يَنَلْ ما يريدُ. فاحْذَرُوا الذنوبَ؛ فإنَّها مشؤومةٌ، وعقوبتُها أليمةٌ. والأماكنُ والبقاعُ في الأصلِ طاهرةٌ نقيةٌ، ولكنْ ذنوبُ العبادِ تُدَنِّسُها وتُفْسِدُها بِشؤمِها، والأزمنةُ أوقاتٌ لعملِ الخيرِ، ولكن العبدَ يدنِّسُها بفعلِ الشر، كما قيلَ:

نَعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا ... وما لزمانِنا عَيبٌ سِوانا

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، واعمروا بيوتَكُم وأوقاتَكُم بطاعةِ اللهِ، وعلقوا قلوبَكُم

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣، ٣٣٨٠، ٤٤١٩، ٤٤٢٠، ٤٧٠٣) ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر.

باللهِ خوفًا ورجاءً ومحبةً، ولُومُوا أنفُسَكم، واعلمُوا أنَّ ما أصابكُم مِمَّا تكرهونَ؛ إنما هو بسببِ ذنوبِكم وبسوء عمل الإنسان لا بشؤم الزمان والمكان. ومَنْ تشاءَمَ بشهرٍ من الشهورِ، أو يومٍ من الأيامِ، أو ساعةٍ من الساعاتِ، أو سَبَّ شيئًا من ذلك فإنه يَسُبُّ اللهَ تعالَى ويُؤْذِيهِ، كما في الصحيحِ عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنهُ عَنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «قال اللهُ تعالَى: يؤذِيني ابنُ آدمَ بسَبِّه الدهرَ، وأنا الدهرُ أقلبُ الليلَ والنهارَ»[1]، وفي روايةٍ «لا تَسُبُّوا الدهرَ فإنَّ اللهَ هو الدهرُ»[2]. قالَ الإمامُ البغويُّ رحمَه اللهُ في شرحِ السُّنَّةِ: ومعناهُ أنَّ العربَ كانَ من شأنِها ذمُّ الدهرِ ـ أيْ سبُّه ـ عندَ النوازلِ؛ لأنهُم كانوا ينسبونَ إليهِ ما يصيبُهُم من المصائبِ والمكارِه، فيقولونَ: أصابتْهُم قوارعُ الدهرِ، وأبادَهم الدهرُ، فإذا أضافوا إلى الدهرِ ما نالَهُم من الشدائدِ سبُّوا فاعِلَها، فكانَ مرجعُ سبِّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، إذْ هو الفاعلُ في الحقيقةِ، وما يجْري في الدهرِ من خيرٍ أو شرٍّ فهو بإرادةِ اللهِ، الخيرُ تَفَضُّلٌ مِنَ اللهِ، والشرُّ بسببِ ذنوبِ العبادِ ومعاصِيهِم.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [النساء: ٧٨ـ٨٠].

بارَكَ اللهُ لنا في القرآنِ العظيمِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦، ٧٤٩١) ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجها مسلم في الموضع السابق.

في بيانِ حُكمِ الاحتفالِ بالمولدِ النبويِّ في شهرِ ربيعِ الأولِ

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ ليظهرَه على الدينِ كلِّه، وكَفَى باللهِ شهيدًا. وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له إقرارًا به وتوحيدًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه صلى الله عليه وسلم، وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقوا اللهَ تعالَى، واذكُروا نعمتَه عليكم إذْ هداكُم للإسلامِ، وخَصَّكم بنبيِّ الرحمةِ عليه الصلاةُ والسلامُ، فقد كانَ الناسُ قَبْلَ بعثتِه في جاهليةٍ جهلاءَ، وضلالةٍ عمياءَ، متفرقينَ في عباداتِهم، يعبدونَ الأحجارَ والأشجارَ والأصنامَ، يسفكونَ الدماءَ، ويهتكونَ الأعراضَ، ويغتصبون الأموالَ والحقوقَ، ويتحاكمونَ إلى الطواغيتِ، ويتسلطونَ على الضعفةِ والمساكينِ، وكانتْ تسيطرُ على العالمِ آنذاكَ دولتانِ غاشمتانِ: دولةُ الرومِ النصرانيةُ الضالةُ، ودولةُ الفرسِ المجوسيةُ الحاقدةُ المتجبرةُ، فكانَ العالمُ يعيشُ في ظلامٍ دامسٍ، وجهلٍ خانقٍ، حتى أَذِنَ اللهُ ببعثةِ محمدٍ ﷺ رحمةً للعالمينَ، أرسلَه بالهُدَى ودينِ الحقِّ، فهدَى به من الضلالةِ، وبَصَّرَ به من العَمَى، وأغْنَى به من العَيْلَةِ، وأخرَجَ به الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وأمرَهُم باتباعِه وطاعتِه، وتكريمِه وتوقيرِه، والصلاةِ والتسليمِ عليه، وَقَرَنَ اسمَه مع اسمِه في الشهادتينِ

والأذانِ والإقامةِ والخطبِ، وشرحَ له صدرَه، ورفعَ له ذِكْرَه، وجعلَ الذلةَ والصغارَ على مَنْ خالفَ أَمْرَه، وأوجبَ علينا أنْ نحبَّه بعدَ محبةِ اللهِ أعْظَمَ ممَّا نحبُّ أنفُسَنا ووالدينا وأولادَنا والناس أجمعينَ. صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ إلى يوم الدينِ.

عبادَ اللهِ: إنَّ هذا الرسولَ الكريمَ حَذَّرَنا أنْ نُحدِثَ في دينِه ما ليسَ منه فقالَ ﷺ: «وإيَّاكُم ومحدثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»[١]. وقالَ: «مَنْ عَمِلَ عملًا ليسَ عليهِ أمرُنا فهو رَدٌّ»[٢]، وفي روايةٍ: «مَنْ أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منه فهو ردٌّ»[٣]، ونهانا ﷺ أنْ نَغْلُو في حَقِّهِ، ونرفعَه فوقَ منزلتِه التي أكرمَه اللهُ بها، وهي العبوديةُ للهِ والرسالةُ، فقالَ ﷺ: «لا تُطْرُوني كما أطْرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، إنَّما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد اللهِ ورسوله»[٤]. لكنْ معَ هذا البيانِ والتحذيرِ تجاوزَ بعضُ الناسِ حدودَ اللهِ وشَرْعَه، فأحْدَثُوا البدعَ والخرافاتِ والمخالفاتِ وجعلوها من الدينِ، وصاروا يحرصونَ عليها، ويحيُونَها ويُنَمُّونَها، ويتركونَ الفرائضَ الشرعيةَ والسُّنَنَ النبوية، أو يتساهلونَ بها، ومن ذلِكُم ما يُكرِّرُونَه كلَّ عامٍ في هذا الشهرِ من الاحتفالِ بمولدِ الرسولِ ﷺ، حتى صارَ كأنَّه عيدٌ من الأعيادِ الشرعيةِ كعيدِ الفطرِ وعيدِ الأضْحَى، معَ أنَّ

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦/٤) وابن ماجه في سننه (٤٣)، بلفظ: «تركتكم على البيضاء».

(٢) أخرجه مسلم (١٨/١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧/١٧١٨) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة أيضا.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب مرفوعا. وأعاده مطولاً جدًا برقم (٦٨٣٠).

هذا الاحتفالَ مُحْدَثٌ في دين الإسلامِ، لم يفعلْه رسولُ اللهِ ﷺ، ولمْ يفعله خلفاؤُه الراشدونَ، وصحابتُه الأكرمونَ، ولمْ تفعلْه من بعدِهم القرونُ المفضلةُ التي هي أفضلُ قرونِ الأمةِ، وإنَّما حدثَ هذا الاحتفالُ في القرنِ السادسِ من الهجرةِ، وأحْدَثَه بعضُ الجهَّالِ أو الضُّلَّال مضاهاةً للنصارى في احتفالِهم بمولدِ المسيحِ عليهِ السلام.

ويا سبحانَ اللهِ! لو كانَ هذا الاحتفالُ حقًّا لَبيَّنَه الرسولُ ﷺ لأُمَّتِه، ولو بيَّنَه لمَا خَفَي على خُلفائِه وصحابتِه، ثم هلْ هؤلاءِ الذينَ أحْدَثوا هذا الاحتفالَ يحبونَ الرسولَ ﷺ أكثرَ من محبةِ خُلفَائِه وصحابتِه له؟ حاشا وكَلاَّ، لقد كانوا يحبُّونَ الرسولَ ﷺ أعظمَ من محبتِهم لأنفُسِهم، وكانوا يعظِّمُونَه تعظيمًا شديدًا يليقُ بمقامِه، حتى قالَ بعضُ مَنْ رآهُم من أعدائِهم يومَ الحديبيةِ حينما رجعَ إلى قومِه: أيْ قومِ، واللهِ لقد وفَدْتُ على الملوكِ، على كِسْرَى وقيصر والنجاشي، واللهِ ما رأيْتُ مِلكًا يعظِّمُه أصحابُه ما يعظِّم أصحابُ محمدٍ محمدًا[1]، فلماذا إذن تركُوا الاحتفالَ بمولدِه ﷺ؟! ما تركُوهُ إلاَّ لأنَّه ليسَ من الدين؛ ولأنَّه تَشَبُّهٌ بالنصارى، وقد حَذَّرَهُم النبيُّ ﷺ من التَّشَبُّهِ بالنصارى.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمَه اللهُ: وكذلكَ ما يُحْدِثُه بعضُ الناسِ إمَّا مضاهاةً للنصارى في ميلادِ عيسى عليهِ السلامُ، وإمَّا محبةً للنبيِّ ﷺ وتعظيمًا له، من اتِّخاذِ مولدِ النبيِّ ﷺ عيدًا معَ اختلافِ الناسِ في مولدِه، فإنَّ هذا لمْ يَفْعَلْه السلفُ مع قيامِ المُقْتَضِي له، وعدمِ المانعِ منه (يعني المانعَ الحسيَّ لا الشرعيَّ)، ولو كانَ هذا خيرًا محْضًا أو راجِحًا لكانَ السلفُ رضيَ اللهُ عنهم أحقَّ

---

(١) من كلام عروة بن مسعود الثقفي في حديث قصة الحديبية، أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان.

به منا، فإنَّهم كانوا أشدَّ محبةً لرسولِ اللهِ ﷺ وتعظيمًا له منا، وهم على الخيرِ أحْرَصُ، وإنَّما كمالُ محبَّتِه وتَعْظِيمِه في متابعتِه وطاعتِه، واتِّباعِ أمْرِه، وإحياءِ سُنَّتِه باطنًا وظاهرًا، ونشرِ ما بُعِثَ به، والجهادِ على ذلكَ بالقلبِ واليدِ واللسانِ، فإنَّ هذه طريقةُ السابقينَ الأولينَ من المهاجرينَ والأنصارِ، والذينَ اتَّبَعُوهُم بإحسانٍ، وأكثرُ هؤلاءِ الذينَ تجِدُونَهم حرصاءَ على أمثالِ هذه البدعِ تَجِدُونَهم فاترينَ في أمْرِ الرسولِ ﷺ وإنما نشطوا في أمرِ ما أمروا بالنشاط فيه، وإنَّما هم بمنزلةِ مَنْ يُحَلِّي المصحفَ ولا يقرأُ فيه، أو يقرأُ فيه ولا يَتَّبِعُه، وبمنزلةِ مَنْ يزخرفُ المسجدَ ولا يُصَلِّي فيه، أو يُصَلِّي فيه قليلاً.. انتهى.

أيُّهَا المسلمونَ: إنَّ الاحتفالَ بمولدِ الرسولِ ﷺ باطلٌ ومُحَرَّمٌ مِنْ عِدَّةِ وجُوهٍ:

أولاً: أنَّه بدعةٌ في الدينِ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، ولن يستطيعَ الذينَ يرونَ إقامتَه أنْ يُقِيمُوا عليه دليلاً من الشرعِ.

ثانيًا: أنَّه مشابهةٌ للنصارى في احتفالِهم بمولدِ المسيحِ عليه السلامُ، وقد نُهِينا عن التَّشَبُّهِ بهم.

ثالثاً: أنَّه كثيرًا ما يقعُ فيهِ منكراتٌ ومُحَرَّماتٌ أعظَمُها الشِّرْكُ باللهِ، من نداءِ الرسولِ ﷺ، والاستغاثة به، وإنشادِ القصائدِ الشِّرْكيةِ في مدْحِه، كقصيدةِ البُردةِ وأَمْثَالِها.

رابعاً: أنَّه ليسَ في الإسلامِ إلاَّ عيدانِ: عيدُ الأَضْحَى، وعيدُ الفطرِ المبارك، فمن أحْدَثَ عيدًا ثالثًا فقد أحدثَ في الإسلامِ ما ليسَ منه، وقد رَوى أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه قال: قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، ولهم يومانِ يلعبونَ فيهما، فقالَ: ما هذانِ اليومانِ؟ قالوا: كنا نعلب فيهما في الجاهليةِ، فقالَ

رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ قد أبْدَلَكُم بهما خيرًا منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر**»[١]، رواهُ أبو داودَ، وأحمدُ، والنسائيُّ، وإسنادُه على شرطِ مسلمٍ.

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، واحذروا البدعَ والمخالفاتِ، والزموا السُّنَنَ، واتبعوا، ولا تبتدعوا.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

باركَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٣٤) والنسائي (١٥٥٦) وأحمد (١١٥٩٥، ١٢٤١٦، ١٣٠٥٨).

في التحذيرِ من الاغترارِ بالدنيا

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ الموتَ والحياةَ ليبْلُوَكُم أيُّكُم أحسنُ عملاً وهو العزيزُ الغفورُ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، يُحْيي ويميتُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، البشير النذير، والسراج المنير، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه إلى يومِ البعثِ والنشورِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقوا اللهَ تعالَى ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣].

عبادَ اللهِ: تأمَّلُوا أحوالَكُم، وتَذَكَّروا مصيرَكُم، وانْظُروا في أعمالِكُم، فإنَّكم لمْ تُخلقُوا عبثًا، ولنْ تُتْرَكُوا سُدًى، واعلموا أنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، وأنَّ اليومَ عملٌ ولا حسابَ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ، تفكَّروا في الدنيا وسرعةِ زوالِها، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمَن: ٢٦، ٢٧]. كُلُّ حَيٍّ فيها يموتُ، وكلُّ قويٍّ يضعفُ، وكلُّ جديدٍ يبلَى، وكلُّ عامرٍ يخربُ، والآياتُ الواردةُ في القرآنِ الكريمِ في التحذيرِ من الاغترارِ بالدنيا، وبيانِ سرعةِ زوالِها، وضربِ الأمثالِ لها ـ كثيرةٌ، وقد أخبرَ اللهُ سبحانَه وتعالَى عن مصيرِ مَنْ قَصَر همَّه عليها، ورضِيَ بها، وأرادَها وحدَها، وأعرضَ عن الآخرةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

[يونس: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وفي صحيح مسلم عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «ما الدنيا في الآخرةِ إلاَّ كَمَثَلِ ما يجعلُ أحدُكُم أصبَعَه في اليمِّ فلْيُنْظُرْ بِمَ ترجعُ»(١)، وفي حديثٍ آخرِ: «الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنةُ الكافرِ»(٢)، رواه مسلمٌ، وفي حديثٍ آخرِ: «لو كانتِ الدنيا تعدِلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى منها كافرًا شربةَ ماءٍ»(٣)، رواهُ الترمذيُّ وصحَّحَه.

وكتبَ الحسنُ البصريُّ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ فقالَ: أمَّا بعدُ: فإنَّ الدنيا دارُ ظعنٍ، وليستْ بدارِ مقامٍ، وإنَّما أُنزِلَ إليها آدمُ عقوبةً، فاحذَرْهَا يا أميرَ المؤمنينَ، فإنَّ الزادَ منها تَرْكُها، والغِنَى فيها فقرُها، تُذِلُّ مَنْ أَعزَّها، وتُفْقِرُ مَنْ جَمَعَها، كالسُّمِّ يأكلُه مَنْ لا يعرِفُه وهو حَتْفُهُ، فاحذرْ هذهِ الدارَ الغرَّارة الخدَّاعةَ، وكُنْ أَسَرَّ ما تكونُ فيها أَحْذَرَ ما تكونُ لها، سُرورُها مشوبٌ بالحزنِ، وصفْوُها مشوبٌ بالكدرِ، فلو كانَ الخالقُ لمْ يخبرْ عنها خبرًا، ولم يضربْ لها مثلاً، لكانتْ قد أيقَظَتِ النائمَ، ونبهتِ الغافلَ، فكيفَ وقد جاءَ من اللهِ عزَّ وجلَّ عنها زاجرٌ، وفيها واعظٌ، ولقد عُرِضتْ على نبيِّنا ﷺ مفاتيحُها وخزائنها لا ينقصُه عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ فأبَى أنْ يَقْبَلَها، وكَرِهَ أنْ يحبَّ ما أبغضَه خالِقُه، أو يرفعَ ما وَضَعَهُ مليكُه، زواها اللهُ عن الصالحينَ اختيارًا، وبَسَطَهَا لأعدائِه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) من حديث المستورد بن شداد.

(٢) صحيح مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة.

(٣) سنن الترمذي (٢٣٢٠) من حديث سهل بن سعد.

اغترارًا، أَفَيظُنُّ المغرورُ بها المقتدرُ عليها أنَّه أُكْرِمُ بها، ونَسِي ما صنعَ اللهُ بمحمدٍ ﷺ حينَ شَدَّ على بطْنِه الحجر. واللهِ ما أحدٌ من الناسِ بُسِطَ له في الدنيا فلمْ يخفْ أنْ يكونَ قد مُكِرَ بِهِ، إلاَّ كانَ قد نقصَ عقلُه وعجزَ رأيُه.

عبادَ اللهِ: إنَّ ذمَّ الدنيا لاينصرفُ إلى ما خلقَ اللهُ فيها من المنافعِ والمآكلِ والمشاربِ والأموالِ، وإنما ينصرفُ الذمُّ والوعيدُ إلى تصرفاتِ بني آدمَ فيها، فمَن افتخرَ بها، وأُعجبَ بها، وشَغَلَتْهُ عن طاعةِ اللهِ، وأَنْسَتْهُ الآخرةَ ـ فهذا هو المذمومُ المعاقَبُ، كحالةِ عادٍ لَمَّا خَوَّفَهُم نبيُّ اللهِ هودٌ عليهِ السلامُ من عقوبةِ اللهِ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وكحالةِ فرعونَ لَمَّا أَنْذَرَه نبيُّ اللهِ موسى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١]، وكحالة قارون لما آتاه الله الكنوز ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨] أيْ: بسببِ حذقِي ومعرِفَتي، أو لأنِّي أستحقُّه، فالذي ينظرُ إلى الدنيا حينَ يتحصَّلُ على شيءٍ منها بهذا المنظارِ، وتحملُه على التكبُّرِ والإفسادِ في الأرضِ، وينْسَى الآخرةَ، فهو مذمومٌ معاقبٌ.

أمَّا مَنْ يأخذُ الدنيا من الوجوهِ المباحةِ، ويستعينُ بها على طاعةِ اللهِ، ولا تحملُه على الكِبْرِ، فإنَّه مثابٌ مأجورٌ «ونِعْمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ». وفي الحديثِ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّما الدنيا لأربعةِ نفرٍ: عبدٍ رَزَقَهُ اللهُ مالاً وعلمًا فهو يتَّقِي فيه ربَّه، ويصِلُ فيه رَحِمَهُ، ويعلمُ للهِ فيه حقًّا؛ فهذا بأفضلِ المنازلِ. وعبدٍ رزَقَه اللهُ عِلْمًا ولم يرزقْه مالاً فهو صادقُ النيةِ يقولُ: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعملِ

فلانٍ، فهو بنيَّتِه، فأجرهما سواءٌ. وعبدٍ رزَقَه اللهُ مالاً ولمْ يرزقْهُ علمًا فهو يتخبطُ في مالِه بغيرِ علمٍ لا يتَّقِي فيه ربَّه، ولايصلُ فيه رَحِمَه، ولا يعلمُ فيه للهِ حقًّا؛ فهذا بأخبثِ المنازلِ. وعبدٍ لمْ يرزقه اللهُ مالاً ولا عِلْمًا فهو يقولُ: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ فيه بعملِ فلانٍ، فهو بنيتِه، فوزرُهما سواءٌ»[1]. رواهُ الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ، وابنُ ماجه.

أيُّهَا المسلمونَ: كثيرٌ من الناسِ اليومَ شغلتْهُم الدنيا عن الآخرةِ، فمنهُم مَنِ اشتغلَ بِجَمْعِ الأموالِ وتنميتِها، وضيَّعَ ما أوجبَ اللهُ عليهِ من الصلواتِ والعباداتِ، ومنهم مَنِ اشتغلَ بالتمتُّعِ بها، وإعطائِه نفْسَه ما تشتَهِي من ملاذِّها وشهواتِها فأترفَ فيها، ونَسِيَ الآخرةَ، وصارَ يكْرَهُ ذكرها ويستثقلُ الحديثَ عنها، وهؤلاء يعتبرون التزهيدَ في الدنيا والترغيبَ في الآخرةِ من بابَ التغفيلِ لتمكُّنِ الدنيا من قلوبِهِم وغفلتِهِم عن الآخرةِ.

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، واستعدُّوا للقاءِ اللهِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾ [العنكبوت: ٥، ٦].

* * *

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٢٥) وابن ماجه (٤٢٢٨) وأحمد (١٧٥٧٠) من حديث أبي كبشة النماري.

في الحثّ على التَّزَوُّدِ من صالحِ الأعمالِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ الموتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُم أيُّكُم أحسنُ عملاً، وخلقَ العبادَ فلمْ يتركْهُم هملاً، بلْ بَيَّنَ لهم طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ وأرسلَ إليهم رُسُلاً، وَوَفَّقَ من شاءَ للعملِ الصالحِ إذا عَلِمَ منه صدقَ النيةِ وحبَّ الخيرِ، وحَرَمَ من أعْرضَ عن ذِكْرِه وتكبَّرَ عن طاعتِه، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، لا خيرَ إلاَّ دَلَّ أُمَّتَه عليهِ، ولا شرَّ إلاَّ حذَّرَها منه، صلّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه والذينَ اتَّبَعُوهُم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّها الناسُ: اتقوا الله تعالَى، وانظُروا في أعمالِكم ونياتِكم، فإنَّها هي سببُ سعادتِكم أو شقاوتِكم، فإنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى صُوَرِكُم وأموالِكم، وإنَّما ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالِكم، إنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، فكما تدينُ تُدانُ، روَى ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما عنْ رسولِ اللهِ ﷺ فيما يرْوِيه عن ربِّه تباركَ وتعالَى قال: **«إنَّ اللهَ كَتَبَ الحسناتِ والسيئاتِ ثم بيَّنَ ذلكَ، فمَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها كتَبَها اللهُ عندَه حسنةً كاملةً، وإنْ هَمَّ بها فعمِلَها كتبَها اللهُ عندَه عَشْرَ حسناتٍ إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ. وإنْ هَمَّ بسيئةٍ فلمْ يعملْها كتبَها اللهُ عندَه حسنةً كاملةً، وإنْ هَمَّ بها فعمِلَها كتبَها اللهُ سيئةً واحدةً»**[1]. رواهُ البخاريُّ، ومسلمٌ. فقد تضمَّنَ هذا الحديثُ أربعةَ أمورٍ: الأمرُ الأولُ: عمَلُ الحسناتِ،

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١).

الأمرُ الثاني: الهَمُّ بالحسناتِ، الأمرُ الثالثُ: عمَلُ السيئاتِ، الأمرُ الرابعُ: الهَمُّ بالسيئاتِ، وكلُّ أمْرٍ من هذهِ الأمورِ يترتبُ عليهِ حكمٌ خاصٌّ به:

فمَنْ عَمِلَ حسنةً فإنَّها تُضاعَفُ بعشر أمثالِها، وهذا لازمٌ لكلِّ الحسناتِ، كما قالَ تعالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وأمَّا زيادةُ المضاعفةِ على العَشْرِ فهي لِمَنْ شاءَ اللهُ أنْ يُضَاعِفَ له، وهو يختلفُ باختلافِ الأعمالِ، واختلافِ النياتِ، واختلافِ العاملينَ، واختلافِ الأوقاتِ والأمكنةِ، واختلافِ الأحوالِ، فالنفقةُ في سبيلِ اللهِ تُضَاعفُ بسبعمائةِ ضِعفٍ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]. فدلَّتْ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ النفقةَ في سبيلِ اللهِ تُضاعَفُ بسبعمائةِ ضِعفٍ، ومن الأعمالِ ما لا تنحصرُ مُضَاعفَتهُ بعددٍ قالَ تعالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]. وفي الحديثِ: «يقولُ اللهُ تعالَى: **كُلُّ عملِ ابنِ آدمَ له: الحسنةُ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ، إلاَّ الصيام فإنَّه لِي وأنا أجْزِي به**»[١]، وقد تُضَاعفُ الحسنةُ أضعافًا كثيرةً لشرفِ المكانِ، كما وردَ أنَّ الصلاةَ في المسجدِ الحرامِ بمائةِ ألفِ صلاةٍ، والصلاةَ في مسجدِ الرسولِ ﷺ بألفِ صلاةٍ[٢]، وقد تُضَاعَفُ لشرفِ الزمانِ، كما وردَ أنَّ «**مَنْ تطوَّعَ في رمضانَ بخصلةٍ من خصالِ الخيرِ كانَ كمَنْ أدَّى فريضةً فيما سِواهُ، ومَنْ أدَّى فيه فريضةً**

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١/ ١٦٤) من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم.
(٢) أخرجه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤) من حديث أبي هريرة.

كانَ كمَنْ أدَّى سبعينَ فريضةً فيما سِواهُ»(١).

ومَنْ عَمِلَ سيئةً كُتِبتْ بِمِثْلِها من غيرِ مضاعفةٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وفي هذا الحديثِ: «كُتِبتْ له سيئة واحدة» فالسيئةُ لا تُضاعفُ لكنَّها تعظمُ أحيانًا؛ لشرفِ المكانِ الذي فُعِلتْ فيهِ، أو لشرفِ الزمانِ، فتعظمُ عقوبتُها بسببِ ذلكَ، كالمسجدِ الحرامِ، والأشهرِ الحرمِ والإحرامِ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: ٢٥]، وقالَ في الأشهُرِ الحُرُمِ: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقالَ في الإحرامِ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقد يعظمُ إثمُ السيئةِ بالنسبةِ لمكانةِ فاعلِها عندَ اللهِ، قالَ اللهُ تعالَى لنبيِّه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]، وقالَ تعالَى لنساءِ نبيِّه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، ومعصيةُ العالِم أشدُّ إثمًا من معصيةِ غيرِه، وهكذا يعظمُ إثمُ السيئةِ بحسبِ الملابساتِ والأحوالِ.

وقولُه ﷺ: «فمَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها كتبَها اللهُ عندَه حسنةً كاملةً» يدلُّ على أنَّ اللهَ يثيبُ على نيةِ الخيرِ إذا نواهُ المسلمُ فلمْ يعمله لمانعٍ حالَ بينَه وبينَ فِعْلِه، فمَنْ نوى الجهادَ في سبيلِ اللهِ فلمْ يتمكَّنْ منه كُتِبَ له أجرُ المجاهدِ، ومَنْ

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٤٨٣) من حديث سلمان.

نوى قيامَ الليلِ فغلبتْه عيناهُ ولمْ يستيقظْ كُتِبَ له أجرُ القائمِ.

وفي قولِه ﷺ: «وإنْ هَمَّ بسيئةٍ فلْم يعملْها كَتَبَها اللهُ له عندَه حسنةً كاملةً» دليلٌ على أنَّ مَنْ نوَى فِعْلَ السيئةِ وقدرَ عليه ثم تركَه خوفًا من اللهِ، كُتِبَ له بذلكَ حسنةٌ، لأنَّ تَرْكَه المعصيةَ بهذا القصدِ عملٌ صالحٌ، فأمَّا إنْ كانَ تَرْكُ المعصيةِ لا خوفًا من اللهِ تعالَى وإنَّما تركَها لخوفِ المخلوقينَ أو مُراءَاتِهم فإنَّه لا يحصلُ على هذا الثوابِ، بلْ قيلَ: إنَّه يُعاقَبُ؛ لأنَّ تقديمَ خوفِ المخلوقينَ على خوفِ اللهِ مُحَرَّمٌ. وإنْ هَمَّ بالمعصيةِ وسَعَى في تحصيلِها ثُمَّ حالَ بينَه وبينَها القدرُ وفي نِيَّتِه أنْ يفْعلَها لو تمكَّنَ منها فإنَّه يُعاقبُ على نِيَّتِه وسَعْيِهِ للمعصيةِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «إذا التقى المسلمانِ بسيفيهِما فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ». قالوا: يا رسولَ اللهِ، هذا القاتلُ فما بالُ المقتولِ؟ قالَ: «إنَّه كانَ حريصًا على قَتْلِ صاحبِه»[1]، كما دلَّ الحديثُ الآخَرُ على أنَّ مَنْ هَمَّ بمعصيةٍ، وتحدّثَ بلسانِه بما هَمَّ به، فإنَّه يُؤاخذُ على ذلكَ، قالَ ﷺ: «إنَّ اللهَ يتجاوزُ لأُمَّتِي عمَّا حَدَّثتْ به أنفُسَها ما لمْ تتكلمْ به أو تعملْ»[2]، لأنَّ تكَلُّمَه بالمعصيةِ معصيةٌ.

فاتقوا اللهَ أيها المسلمونَ، وانظرُوا في أعمالِكم ونِيَّاتِكم، وتزوَّدوا من الأعمالِ الصالحةِ، وتوبوا من الأعمالِ السيئةِ والنِّياتِ الفاسدةِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٩٣) ومسلم (٢٨٨٨) من حديث الأحنف بن قيس.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة.

في الأمرِ بالتقوى، وبيانِ ثمراتِها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمرَ بتقواهُ، ووعدَ المتقينَ خيرًا كثيرًا، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا نعبدُ إلاَّ إياهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه كان أتْقَى الخلقِ للهِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى كما أمَرَكم اللهُ بتقواهُ في آياتٍ كثيرةٍ، وكما وصَّاكم بذلكَ النبيُّ ﷺ، فالتقوى وصيةُ اللهِ ووصيةُ رسولِه، ومعناها أنْ تجعَلُوا بينكم وبينَ ما يضرُّكم وقايةً تحولُ بينكم وبينَه، وتقوى اللهِ تعالى هي أنْ تفعلوا ما أَمَرَكُم به، وتَجْتَنِبُوا ما نَهَاكُم عنه، وقد أمَرَ اللهُ بتقواهُ في آياتٍ كثيرةٍ من كتابهِ الكريمِ، وعلقَ على التقوى خيراتٍ كثيرةً، عاجلةً وآجلةً، فعلقَ عليها حصولَ العلمِ النافعِ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي اتقوا اللهَ في فِعْلِ ما أَمَرَكُم به، وتَرْكِ ما نهاكُم عنه، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ ما تحتاجونَ إليهِ من العِلمِ. كما عَلَّقَ على التقوى حياةَ القلوب، وتمييزهَا بينَ الحقِّ والباطلِ، وتكفيرَ السيئات، ومغفرة الذنوبِ، قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩]. كما وعدَ المتَّقي بأنْ يجعلَ له مخرجًا من الشدائدِ والمحنِ، وحصولِ الرزقِ من وجهٍ لا يخطرُ ببالِه، قالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. كما وعَدَ سبحانَه من يتَّقِيهِ بأنْ يسهلَ عليه أمورَ الدنيا والآخرةِ، قالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ

مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الطلاق: ٤]. وقد أمرَ اللهُ العبادَ أنْ يتَّقوهُ حقَّ تُقَاتِه حسبَ طاقتِهم، فلا يتركوا تقوَاهُ وهم يستطيعونَها[1]، قالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]. فمعنى الآيتينِ: اتقوا اللهَ حقَّ تُقاتِه ما اسْتَطَعْتُم. كما أمرَ النبيُّ ﷺ العبدَ أنْ يتقي اللهَ دائمًا على أيِّ حالٍ، وفي أيِّ مكانٍ، وفي كلِّ شيءٍ؛ قالَ ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حيثُما كُنْتَ»[2]، بحيثُ لا يتظاهرُ الإنسانُ بالتقوى إذا كانَ معَ الناسِ، ويخالِفُها إذا غابَ عنهم؛ لأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليهِ في كلِّ أحوالِه.

أَيُّهَا المسلمونَ: وهناكَ أشياء أمرَ اللهُ أنْ تُتَّقى، منها الأرحامُ وهم القرابةُ، قالَ تعالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ [النساء: ١] أي اتقوا اللهَ، واتقوا الأرحامَ فلا تَقْطَعُوها، فإنَّها مِمَّا أمرَ اللهُ به أنْ يوصلَ، فصِلةُ الرحمِ واجبةٌ، وقطيعتُها مُحَرَّمةٌ، كما دلَّ على ذلكَ الكتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ أهلِ المِلَّةِ.

ومما أمرَ اللهُ سبحانَه أنْ يُتَّقَى: النارُ، قالَ تعالَى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤]. أخرجَ البيهقيُّ في «شُعبِ الإيمانِ» عنْ أنسٍ قالَ: تلا رسولُ اللهِ ﷺ هذه الآيةَ: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ قالَ: «أوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتى احمرَّتْ، وألفَ عامٍ حتى ابيضَّتْ، وألفَ عامٍ حتى اسودَّتْ، فهي سوداءُ مظلمةٌ لا يطفأُ لهبُها»[3]، واتقاءُ هذه النارِ يكونُ بتجَنُّبِ الأعمالِ التي توجبُ دخولَها.

---

(١) بحيث يتركون شيئا أوجبه عليهم وهم يستطيعون فِعْلَهُ، أو يفعلون شيئا مما حرَّمَه عليهم وهم يستطيعونَ تَرْكَهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر.

(٣) أخرجه ابن مردويه ـ كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٣٩١) في تفسير الآية ـ والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٨٧).

وممَّا أمرَ اللهُ سبحانَه أنْ يُتَّقَى: يومُ القيامةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، رُوِيَ أنَّ هذه آخرُ آيةٍ نَزَلتْ على رسولِ اللهِ ﷺ(١) وفيها الأمرُ باتِّقاءِ يوم القيامةِ الذي يُحْشَرُ فيه الخلْقُ من أوَّلِهم إلى آخرِهم في صعيدٍ واحدٍ أمامَ ربِّ العالمينَ لمجازاتِهم بأعمالِهم خيرِها وشرِّها، واتقاءُ هذا اليومِ يكونُ بالاستعدادِ له بالأعمال الصالحةِ، وتَجنُّبِ الأعمالِ السيئةِ، وبتذكُّرِه دائمًا وتَذَكُّرِ ما يحصلُ فيه من الأهوالِ.

ومما أَمَرَ اللهُ به أنْ يُتَّقَى الفتنُ والعقوباتُ العاجلةُ التي تنزلُ بالعُصَاةِ، وتعمُّ غيرَهم مِمَّنْ لمْ يُنْكِرْ عليهم فِعْلَهُم، قالَ تعالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٥] أي اتقوا فتنةً تتعدى الظالمَ، فتصيبُ الصالحَ والطالحَ، ولا تختصُّ إصابتُها بمَنْ يباشرُ الظلمَ منكم، بل تتعدى إلى غيرِ الظالمِ إذا لم يُنْكِرْ عليه، عَنِ ابنِ عباسٍ أنَّه قالَ في الآيةِ: أَمَرَ اللهُ المؤمنينَ ألا يُقِرُّوا المنكرَ بينَ أَظْهُرِهم فيعُمَّهم اللهُ بالعذابِ. وقد وردتِ الأحاديثُ الكثيرةُ الصحيحةُ بأنَّ هذه الأمةَ إذا لمْ يأمروا بالمعروفِ وينهوا عن المُنكرِ، عمَّهم اللهُ بعذابٍ من عندِه، وهذا الوعيدُ يتناولُ كلَّ من عَلِمَ بمنكرٍ فلمْ ينكِرْهُ ولو كانَ بعيدًا عنه، فكيفَ بمَنْ يتركُ المنكرَ في بيتِه وفي أولادِه؟! يراهم يتركونَ الصلاةَ ويقرُّهم على ذلكَ!!.

وممَّا أمرَ النبيُّ ﷺ باتِّقائِه: الظلمُ والشُّحُّ، فعنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**اتَّقوا الظلمَ، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واتقوا الشُّحَّ،**

---

(١) علقه البخاري في صحيحه، بصيغة الجزم، عن ابن عباس، في كتاب البيوع، باب مُوكِل الربا، قبل الحديث (٢٠٨٦).

فإن الشُّحَّ أهلكَ مَنْ قَبْلَكم؛ حملَهم على أنْ سفكوا دماءَهم، واستحلُّوا محارمَهم»[١] رواهُ مسلمٌ وغيرُه. وقالَ ﷺ: **«واتقِ دعوةَ المظلومِ، فإنَّه ليسَ بينَها وبين اللهِ حجابٌ»**[٢]، رواه البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما. والشُّحُّ: هو البخلُ والحرصُ، وقيلَ: الشُّحُّ هو الحرصُ على ما ليسَ عندَك، والبخلُ بما عندَكَ.

أيُّهَا المسلمونَ: يجبُ على المسلمِ أنْ يتجنبَ المحرماتِ عمومًا، ويتَّقي الوقوعَ فيها، ولكنَّ هذِه الأمورَ المذكورَةَ نُصَّ عليها بخصوصِها لعظيمِ خَطَرِها، فاتقوا ـ عبادَ اللهِ ـ ما أمرَكم اللهُ ورسولُه باتقائِه، وأطيعُوا اللهَ ورسولَه لعلَّكم تُرْحَمونَ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢]. باركَ اللهُ لي ولكم.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧) ومسلم (١٩) من حديث معاذ بن جبل.

تأملاتٌ في سورة الهُمَزَةِ

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ علينا القرآنَ فيه هُدىً ونورٌ، وشفاءٌ لِمَا في الصدورِ. وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، نَزَّلَ الفرقانَ على عبدِه ليكونَ للعالمينَ نذيرًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بعثَه بينَ يدي الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعياً إلى اللهِ بإذنِه وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وتدبَّرُوا القرآنَ العظيمَ ليدلَّكم على سعادةِ الدنيا والآخرةِ، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولا تُعرِضُوا عنه وتُشْغَلوا عنْ تدبُّرِه فتُحْرَمُوا من هدايتِه، كما قالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

عبادَ اللهِ، نودُّ أنْ نعيشَ هذهِ اللحظاتِ معَ سورةٍ قصيرةٍ من كتابِ اللهِ، نتدبَّرُ معانيها ونتفكَّرُ في آياتِها لعلَّ الله يوقظُ قلوبنَا بنورِها، ويهْدِي بصائِرَنا بهدايتِها، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: ١ ـ ٩].

توعَّدَ اللهُ سبحانَه بالويلِ ـ وهو كلمةُ عذابٍ، أو وادٍ في جهنَّم ـ مَنِ اتَّصَفَ بهذِه الصفاتِ وهي: الهمزُ، واللمز، وجمعُ المالِ وتعداده، والانشغال به عن ذِكْرِ

الموتِ وما بعدَه، ثُمَّ بيّنَ سبحانَه عاقبةَ مَنِ اتَّصَفَ بهذِه الصفاتِ ومصيرَه الذي ينتظِرُه، بأنَّه سيُطْرَحُ ويُلْقَى في نارِ حطمةٍ موقدةٍ شديدِ حرُّها، مغلقةِ الأبوابِ دائمًا وأبدًا لايمكنُ الخروجُ منها، بقي أنْ نعرفَ تفسيرَ هذه الصفاتِ التي رُتبتْ عليها هذه العقوباتُ الشديدةُ لنأخذَ حذَرَنا منها:

أما **الهُمَزَةُ**: فهو الذي يهمِزُ الناسَ بفِعْلِه، بمعنى أنَّه يشيرُ إليهم بيدِه وعينِه على وجْهِ التنقُّصِ والازدراءِ لهم. واللُّمَزَةُ: هو الذي يلمِزُ الناسَ بقولِه فيسلطُ لسانَه بِسَبِّهِم واغتيابِهم والكلامِ في أعراضِهم، ومِنْ صفاتِ هذا الهمَّازِ اللمَّازِ أيضًا أنَّه لا هَمَّ له سِوى جمعِ المالِ وتعديدِه والانشغالِ بتنميتِه، بالنهارِ يجمعُ هذا إلى هذا، وبالليلِ ينامُ كأنَّه جيفةٌ منتنةٌ، وقد أخذَ عليهِ كلَّ وقتِه ومعَ هذا لا رغبةَ له في الإنفاقِ في طُرقِ الخيراتِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨] ويظنُّ أنَّ هذا المالَ سيخَلِّدُه في الدنيا، ويزيدُ في عمرِه، ولمْ يَدْرِ أنَّ البخلَ يقصِّرُ العمرَ ويخرِّبُ الديارَ، وأنَّ البِرَّ يزيدُ في العمرِ، وقد حملَه إعجابُه بمالِه على تَنَقُّصِ غيرِه فصارَ همزةً لمزةً، إنْ مَنْ كانتْ هذه صفاتِه: الهمزُ واللمزُ والانشغالُ بجمعِ المالِ عن الاستعدادِ للآخرةِ، سيكونُ مصيرُه وخيمًا، وعذابُه أليمًا، سيَلْقَى أسوأَ مصيرٍ ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾، أي: في نارٍ تُحطِّمُ ما يُلْقَى فيها، وتهشمُه بقوةٍ. والحطمةُ: هي إحدى طبقاتِ النارِ. ثُم بينَ سبحانَه أنَّ هذِه النارَ لا تتصوَّرُها العقولُ ولا تبلغُ شدةَ هولِها الأفهامُ، فقالَ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾، استفهامٌ للتضخيمِ والتهويلِ، ثم بيَّنها بقولِه ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾، فإضافتُها إلى اللهِ لبيانِ عِظَمِ شأْنِها، وشدَّةِ هولِها، وأخْبرَ أنَّها موقَدَةٌ دائمًا وأبدًا لا تطفأ ولا تَبْردُ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾، أيْ: يصلُ حرُّها إلى القلوبِ، لا تقتصِرُ على ظاهرِ البدنِ أو أطرافِ الأعضاءِ، بلْ يعمُّ حرُّها

ظاهرَ البدنِ وباطنَه. ثمَّ أخبرَ سبحانَه أنَّ هذِه النارَ مغلقةُ الأبوابِ مسدودةُ المنافذِ، فقالَ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ والعَمَدُ: أوتادُ الأطباقِ التي تطْبقُ على أهلِ النارِ، وتُشَدُّ تلكَ الأطباقُ بالأوتادِ حتَّى يرْجعَ عليهِم غمُّها وحرُّها، فلا يدخلُ عليهم رَوْحٌ، ولا يخرجُ منها غمٌّ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّه إخبارٌ من أصدقِ القائلينَ، وتهديدٌ من عزيزٍ مقتدرٍ يقولُ للشيءِ: كُنْ، فَيَكُونُ؛ إنَّه وعيدٌ لِمَنْ أعجبتْهُ نفسُه، فاحتقَرَ الناسَ بالهَمزِ واللَّمْزِ، وأعجَبَهُ مالُه حتى صارَ عبدًا له، اشتغلَ به عن طاعةِ ربِّه وحَبَسَه عن واجبِه، وصارَ يظنُّ أنَّه سيبقى دائمًا لهذا المالِ، وسيبقى هذا المالُ له، لا يفكِّرُ في حسابٍ، ولا يخافُ من عقابٍ، ولا يطمعُ في ثوابٍ.

إن هذه السورةَ العظيمةَ الكريمةَ، تحذِّرُنا تحذيرًا مؤكَّدًا من هذِه الصفاتِ، وتحثُّنا على الاتصافِ بأضدادِها من صفاتِ الخيرِ: صفةِ التواضعِ واحترامِ المسلمينِ، والكفِّ عن أعْرَاضِهم، وإطابةِ المكاسبِ، وعدمِ الاغترارِ بالمالِ والغِنَى والانشغالِ به عمَّا أوجبَ اللهُ. إنَّ اللهَ لمْ يُحرِّمْ علينا جَمعَ المالِ من وجوهِه المباحةِ، ولكنَّه حَرَّمَ علينا الجَمْعَ الذي يصاحِبُه الغرورُ، وَمَنْعُ الحقوقِ الواجبةِ والمستحبةِ. إنَّه سبحانَه إنَّما ذمَّ ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢، ٣]، وأثنى على ﴿مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل: ٥، ٦] فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، واحذَرُوا أنْ تكونَ أموالُكم سببًا في هلاكِكُم وشقاوتِكُم.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ . . .﴾ إلى قولِه تعالَى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٢ـ٤٦].

في الحثّ على العملِ الصالحِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، لمْ يتخذْ ولدًا ولمْ يكُنْ له شريكٌ في المُلْكِ، ولمْ يكُنْ له وليٌّ مِنَ الذلِّ، وكبرْه تكبيرًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بعثَه بينَ يدي الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنِه وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أنَّ الأعمالَ هي حصيلةُ الإنسانِ التي يخرجُ بها من هذهِ الدُّنيا، ويترتَّبُ عليها مَصيرُه في الآخرةِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «**يتْبَعُ الميِّتَ ثلاثةٌ: أهْلُه ومالُه وعمَلُه، فيرجِعُ اثنانِ ويَبْقَى واحدٌ؛ يرجعُ أهْلُه ومالُه ويَبْقَى عمَلُه**»[1]، متفقٌ عليهِ. والعملُ هو رفيقُ الإنسانِ في قبرِه، وينعمُ به إنْ كانَ صالحًا، أو يُعَذَّبُ به إنْ كانَ سيئًا، فقدْ جاءَ في الحديثِ أنَّ العملَ الصالحَ يأتِي صاحبَه في القبرِ بصورةِ رجلٍ حسنِ الوجْهِ، حسنِ الثيابِ، طيِّبِ الريحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالذي يَسُرُّكَ، فيقولُ الميِّتُ: من أنتَ فوجهُكَ الوجهُ الحسنُ يجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُكَ الصالحُ. وأما العملُ السيِّئُ فيأتِي صاحبَه في القبرِ بصورةِ رجلٍ قبيحِ الوجْهِ، قبيحِ الثيابِ، مُنْتنِ الريحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالذي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٤) ومسلم (٢٩٦٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

يَسُوؤُكَ، هذا يومُكَ الذي كُنتَ تُوعَدُ، فيقولُ: مَنْ أَنْتَ، فوجهُكَ القبيحُ يجيءُ بالشَّرِّ، فيقولُ: أنا عملُكَ الخبيثُ، كُنْتَ بطيئًا عن طاعةِ اللهِ سريعًا في معصيتِه فجزاكَ اللهُ شرًّا.

عبادَ اللهِ: والعملُ الصالحُ هو الذي يتمَنَّاه المُحْتَضرُ وهو في سياقِ الموتِ، قالَ تعالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]. وهو الذي يتمَنَّاهُ أهْلُ النارِ حينَما يُلقَونَ فيها، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ونحنُ إذا تَدَبَّرْنا القرآنَ الكريمَ نجدُ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى، يوجهُنَا إلى العملِ في كثيرٍ من آياتِه، فتارةً يُعَلِّقُ الجزاءَ بهِ؛ كمَا في قولِه تعالَى: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤] وتارةً يُخبِرُنا باطلاعِه على أعْمَالِنا، كما قالَ تعالَى: ﴿ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٣] ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وتارةً يخبِرُنا أنَّه وَكَّلَ بنا حفظةً يسجِّلُون أعمالَنا ويُحْصُونَها، قالَ تعالَى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ١٢]، وتارةً يخبِرُنا أنَّنا سَنَلْقَى ما عَمِلْنَاه يومَ القيامةِ ونراهُ ونَقْرَؤُهُ، قالَ تعالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ٨]، ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، وتارةً يُخْبِرُنا أنَّ الإنسانَ يعملُ لنفسِه لا لغيرِه، قالَ تعالَى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت: ٤٦] ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

أُخۡرَىٰۗ﴾ [الإسراء: ١٥].

عبادَ اللهِ: وليسَ أمامَ الإنسانِ فرصةٌ للعملِ إلاَّ حياتَهُ في هذِه الدُّنيا، فاليوم عَمَلٌ ولا حسابَ وغدًا حسابٌ ولا عملَ، وعُمرُ الإنسانِ قصيرٌ، وأَجَلُهُ غائبٌ لا يدْري في أيِّ ساعةٍ يقْدَمُ، وإذا قَدِمَ لا يَقبلُ التأخيرَ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]. وهذه الأيامُ التي تَعيشُها ـ أيُّها الإنسانُ ـ في هذه الدُّنيا فرصةٌ نفيسةٌ لا تُقَدَّرُ بِثَمنٍ، وإنْ عَرفْتَ قيمتَها وحَفِظْتَها فيما ينفعُكَ فستُثمِرُ لكَ سعادةً دائمةً، وإن ضيَّعْتَها في اللهوِ والغفلةِ فَسَتُثْمِرُ لكَ خسارةً دائمةً، فالذينَ حفِظُوا حياتَهم الدنيويةَ بالعملِ الصالحِ يقالُ لهم يومَ القيامةِ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة: ٢٤]، والذينَ ضيَّعُوا أوقاتَهم في هذه الدُّنيا باللَّهْوِ واللعبِ والغفلةِ يُقالُ لهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف: ٢٠].

عبادَ اللهِ: إنَّ المعوقاتِ عن العملِ الصالحِ كثيرةٌ تحتاجُ إلى مقاومةٍ وجهادٍ، مِنْ ذلكَ النَّفْسُ الأمارةُ بالسوءِ، ومِنْ ذلكَ الشيطانُ وجنودُه، ومِنْ ذلكَ الشهواتُ والشُّبُهاتُ، فَمَنِ استعانَ باللهِ وتوجَّهَ إلى العملِ الصالحِ، أعانَه اللهُ على التغلُّبِ على هذِه المعوقاتِ فانْهَزَمتْ وانْدَحَرتْ أمامَه، ومَنِ اسْتَسلمَ لهذهِ المعوقاتِ، وتكاسلَ عن العملِ الصالحِ تَغلَّبَتْ عليه، وضاعتِ الفرصةُ من يدِه بانتهاءِ عُمْرِه وحضورِ أَجَلِه، قالَ النبيُّ ﷺ: «الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَه وعَمِلَ لِمَا بعدَ الموتِ، والعاجزُ من أَتْبعَ نفْسَه هواها، وتَمنَّى على اللهِ الأمانِي»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

ثُمَّ هناكَ معوقاتٌ عن العملِ وموانعُ، يجبُ على العبدِ المبادرةُ قَبْلَ حصولِها، منها المرضُ والفقرُ والهرمُ والفِتَنُ والموتُ، قالَ النبيُّ ﷺ: «بادِرُوا بالأعمالِ، فستَرَوْنَ فِتَنًا كقطعِ الليلِ المظلمِ، يصبحُ الرجلُ مؤمنًا، ويُمْسِي كافِرًا، ويُمْسِي مُؤْمِنًا ويصبحُ كافرًا، يبيعُ دِينَه بعَرَضٍ من الدُّنيا»[1]، رواهُ مسلمٌ، وقالَ ﷺ: «بادِروا بالأعمالِ سَبْعًا، هل تنتظرونَ إلاَّ فقرًا مُنْسِيًا، أو غنًى مُطْغِيًا، أو مَرَضًا مُفْسِدًا، أو هرَمًا مُفنِّدًا، أو موتًا مُجْهِزًا، أو الدجالَ فَشَرُّ غائبٍ يُنتظَرُ، أو الساعةَ فالساعةُ أَدْهى وأَمَرُّ»[2]، رواه الترمذِيُّ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ.

فاتَّقوا اللهَ عبادَ اللهِ، وبادِروا بصالحِ الأعمالِ قَبْلَ حلولِ الآجالِ.

أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

* * *

(١) صحيح مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٦) من حديث أبي هريرة.

في شرحِ حديثِ أبي ذرٍّ، وهو الحديثُ القُدسيُّ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ الجنَّ والإنسَ لِيَعْبدُوه، وبيَّن لهم طريقَ الخيرِ ليسْلُكُوه، وطريقَ الشَّرِّ ليجْتَنِبُوه، وجعلَ لهم مداركَ وحواسَّ يعرفونَ بها الضارَّ والنافعَ والخيرَ والشَّرَّ، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٢، ٣]. أحمدُه على نعمِهِ التي لا تُحْصَى، وأجلُّها نعمةُ الإسلامِ، وأشهدُ أنَّ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، القدوسُ السلامُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أزْكَى من صَلَّى وصامَ، وسعَى بينَ الصَّفا والمروةِ ووقفَ بالمشاعرِ وطافَ بالبيتِ الحرامِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه أئمَّةِ الهُدَى ومصابيحِ الظلامِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا على الدوامِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناس: اتقُوا اللهَ تعالَى، وتأملُوا ما في كلامِ اللهِ وكلامِ رسولِه من الحِكمِ والأحكامِ، فإن خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهُدىٰ هُدَىٰ محمدٍ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، وأنا أُسمِعُكُمْ حديثًا من كلامِ ربِّكم عزَّ وجلَّ، رواهُ عنهُ نبيُّه ﷺ، يخاطِبُكُم فيه ربُّكم ويأمرُكم وينهاكُم، فعنْ أبي ذر الغفاريِّ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ عن النبيِّ ﷺ فيما يرويهِ عن ربِّهِ عزَّ وجلَّ أنَّه قالَ: «**يا عبادِي إنِّي حرَّمْتُ الظُّلمَ على نفسِي، وجعلتُه بينكم مُحَرَّمًا فلا تظالمُوا، يا عبادِي كلكُم ضالٌّ إلا مَنْ هديتُه فاستهْدُونِي أهْدِكُم، يا عبادِي كلُّكُم جائعٌ إلاَّ مَنْ أطعمتُه فاستطْعِمُونِي أُطْعِمْكُم، يا عبادِي كلُّكم عارٍ إلاَّ مَنْ كسوْتُه فاستكْسُونِي أكْسُكُم، يا عبادِي إنَّكم**

تُخْطِئُونَ بالليلِ والنهارِ، وأنا أغفِرُ الذنوبَ جميعًا فاسْتغْفِرونِي أغفرْ لكم، ياعبادِي إنَّكم لنْ تبلغُوا ضُرِّي فتضرُّوني، ولنْ تبلغوا نفْعِي فتنفَعونِي، يا عبادِي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أتْقَى قلْبِ رجُلٍ واحدٍ منْكُم ما زادَ ذلكَ في مُلْكي شيئًا، يا عبادِي لو أنَّ أوَّلكُم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفْجَر قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم ما نَقَصَ ذلكَ من مُلْكِي شيئًا، يا عبادِي لوْ أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألونِي، فأعطيْتُ كلَّ واحدٍ مسْألَتَه، ما نَقَصَ ذلكَ مما عندِي إلاَّ كما يَنْقُص المخيطُ إذا أُدْخِلَ البحْرَ، يا عبادِي إنَّما هي أعمالُكُم أُحْصِيها لكُم، ثم أوفيكُم إيَّاها، فَمَنْ وجَدَ خيرًا فليحمدِ اللهَ، ومَنْ وجدَ غيرَ ذلكَ فلا يلومنَّ إلاَّ نفْسَه»[1]، رواهُ مسلمٌ.

عبادَ اللهِ: لقدْ كانَ السلفُ يعظمونَ هذا الحديثَ غايةَ التعظيمِ، كانَ الإمامُ أحمدُ يقولُ: هو أشرفُ حديثٍ لأهلِ الشامِ. وكانَ أبو إدريسَ الخولانيُّ إذا حدَّثَ بهذا الحديثِ جَثَا على رُكْبتيه؛ وذلكَ لأنَّ هذا الحديثَ خطابٌ من الربِّ جلَّ وعلاَ لعبادِه يتضمَّنُ معانيَ جليلةً، أوَّلُها تنزيهُ اللهِ سبحانَه عن الظُّلمِ، ونَهْيُ العبادِ أنْ يظلمَ بعضُهم بعضًا، وقد فَسَّرَ كثيرٌ من العلماءِ الظُّلمَ بأنَّه وضعُ الشيءِ في غيرِ موضِعِه، وفي «الصحيحينِ» عنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: **«إنَّ الظُّلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ»**[2]، وفي صحيحِ البخاريِّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«مَنْ كانتْ عندَه مظلمةٌ لأخيهِ فلْيتحَلَّلْ منها، فإنَّه ليسَ ثَمَّ دينارٌ ولا درهمٌ، من قبلِ أنْ يُؤْخذَ لأخيه من حسناتِه، فإنْ لمْ يكن له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ أخيهِ**

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).

فطُرِحَتْ عليهِ»[١].

وثاني هذه التوجيهاتِ الربانيةِ: بيانُ افتقارِ العبادِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في هدايتِهم من الضلالة، وإطعامِهم من الجوعِ، وكسوتِهم من العُرْيِ، ومغفرةِ ذنوبِهم، وأمْرِهِم بطلبِ هذه الأمورِ على وُجوبِ إفرادِه بالعبادةِ، فقالَ إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ لقومِه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢]، فإنَّ مَنْ تفرَّدَ بخلقِ العبدِ وهدايتِه ورزقِه وإحيائِه وإماتَتِه ومغفرةِ ذنوبِه في الآخرةِ، مُستحِقٌّ أن يُفردَ بالعبادةِ والسؤالِ والتضرُّعِ.

وثالثُ هذه التوجيهاتِ الربانيةِ: بيانُ أنَّ العبادَ لا يقدِرُونَ أنْ يوصِلُوا إلى اللهِ نفعًا ولا ضرًّا، فإنَّ اللهَ تعالَى غنيٌّ حميدٌ، لا حاجةَ له بطاعاتِ العبادِ، ولا يعودُ نفعُها إليهِ، وإنَّما يعودُ نَفعُها إليهم هُمْ، ولا يتضرَّرُ بمعاصِيهم، وإنَّما هم يتضرَّرونَ بها، قالَ تعالَى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الزمر: ٧]. فهو سبحانَه مع غِناهُ عن عبادِه يحبُّ منهم أنْ يطيعُوه ليُثيبَهم، وأنْ يستغْفِروه من ذنوبِهم ليغفرَ لهم تفضُّلاً منه وإحسانًا، والعبادُ معَ فقْرِهم إلى اللهِ وحاجتِهم إليهِ يبتعدونَ عنه، ويبارِزُونَه بالمعاصِي ويضرُّون أنفُسَهم، وهذا من جهْلِهم وغرورِهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩، ٦٥٣٤) من حديث أبي هريرة.

ثم أَكَّدَ سبحانَه وقرَّرَ غناهُ عن طاعاتِ عبادِه، وعظيمَ سلطانِهِ الذي لا يصلُ إليهِ الضررُ بحالٍ من الأحوالِ، وأنَّ مُلكَه تامٌّ لا تزيدُه طاعة المطيع، ولا تَنْقُصه معصيةُ العاصي، وأنَّ خزائِنَه لا تَنْقُصُ معَ كثرةِ الإنفاقِ، فلو أنَّ كلَّ الخَلْقِ كانوا تُقَاةً ما زادَ ذلكَ في مُلكِه، ولو كانوا كلُّهم فجرةً ما نَقَص ذلكَ من ملكِهِ، ولو سألوهُ كلُّهم فأعطَى كلَّ سائلٍ حاجتَه ما نقصَ ذلكَ ما عنده، فدلَّ ذلك على أنَّ مُلْكَه كاملٌ على أيِّ وجْهٍ، لا يُؤَثِّرُ فيهِ شيءٌ، وأنَّ خزائِنَه لا تَنْفَدُ ولا تَنْقُصُ بالعطاءِ ولو أَعْطَى الأولينَ والآخرينَ والجنَّ والإنسَ جميعَ ما سأَلُوه في مقامٍ واحدٍ، وفي ذلك حثُّ الخَلْقِ على طلبِ حوائِجهم منه سبحانَه.

وآخرُ هذه التوجيهاتِ الربانيةِ: أنَّ الله سبحانه وتعالى يُحْصِي أعمالَ عبادِه خيرَها وشَرَّها ثُمَّ يجازِيهِم عليها، فالشَّرُّ يجازِي عليهِ بمِثْلِه من غيرِ زيادةٍ إلاَّ أن يعفُوَ عنه، والخيرُ يضاعِفُ الحسنةَ بعَشْرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ لا يعلمُ قدرَها إلاَّ اللهُ، تفضُّلاً منه وإحسانًا. ثم بيّنَ سبحانَه أنَّ الخيرَ كلَّه فضلٌ من اللهِ على عبدِه من غيرِ وجوبِ استحقاقٍ له عليهِ، فيجبُ أنْ يحمدَ اللهَ عليهِ، وأنَّ الشَّرَّ كلَّه من عندِ ابنِ آدمَ قدر عليهِ بسببِ اتِّباعِ هوى نَفْسِه، كما قالَ تعالَى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وهذا هو الذي يقعُ في يومِ القيامةِ؛ فأهلُ الخيرِ يقولونَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وأهلُ الشَّرِّ ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠]، وذلكَ حينَ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر: ٥٦].

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وبادِروا بالأعمالِ الصالحةِ، وتوبوا من الأعمالِ السيئةِ

ما دمتُمْ في زمنِ الإمكانِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٨].

بارَكَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في وجوبِ شُكرِ اللهِ على نِعمِهِ في خَلْقِ الإنسانِ

الحمدُ للهِ الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه وبدأَ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ، ثمَّ جعلَ نسْلَه من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ، ثم سَوَّاهُ ونَفَخَ فيهِ من روحِه ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩] وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، الملكُ الحقُّ المبينُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتمُ النبيينَ وإمامُ الشاكرينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واذكُروا نِعْمَته عليكُم.

ابنَ آدمَ إنَّك لنْ تستطيعَ أنْ تحصيَ نِعمَ اللهِ عليكَ، كما قالَ تعالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وإنَّ أقربَ شيءٍ إليكَ جسمُكَ، لو تأمَّلْتَ فيه وتفكَّرْتَ في أعضائِه وتراكيبِه ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [الذاريات: ٢١] فما مِنْ عَظْمٍ فيكَ ولا عِرْقٍ ولا عَصَبٍ إلاَّ وعليهِ أثرُ صنعِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، وقالَ تعالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣ ﴾ [الملك: ٢٣]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨]، وقالَ تعالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠].

هذه نِعَمٌ ظاهرةٌ يُبيِّنُها اللهُ لكَ لِتَشْكُرَه عليها، وفي الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: **«كُلُّ سُلامى من الناسِ عليهِ صدقةٌ، كُلُّ يومٍ تطلعُ فيه الشمسُ تعدِلُ بينَ اثنينِ صدقةٌ، وتعِينُ الرجلَ في دابتِه فتحملُه عليها أو ترفعُ له عليها متاعَه، صدقةٌ، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وبكلِّ خطوةٍ تمشِيها إلى الصلاةِ صدقةٌ، وتميطُ الأذى عن الطريقِ صدقةٌ»**(١). والسُّلامى هي العظْمُ، وفي جسمِ ابنِ آدمَ ثلاثمائةٍ وستونَ عظمًا، يظْهرُ منها مائتانِ وخمسةٌ وستونَ عظْمًا والباقيةُ صغارٌ لا تظْهرُ، والحديثُ يدلُّ على أنَّ تركيبَ هذه العظامِ وسلامتِها من أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على عبدِه، فيحتاجُ كلُّ عَظْمٍ منها إلى صدقةٍ يُتَصدَّقُ بها عنه يوميًّا؛ ليكونَ ذلكَ شكرًا لهذه النعمةِ. ولَمَّا كانَ ذلكَ يسْتدْعِي صدقاتٍ كثيرةً بعدَدِ العظامِ، وقد لا يستطيعُ العبدُ الوفاءَ بهذه الصدقاتِ سَهَّل اللهُ له طُرُقَ الخيرِ، وفَتَحَ له أبوابَ البِرِّ، فجعلَ بكُلِّ تسبيحةٍ صدقةً، وكلِّ تحميدةٍ صدقةً، وكلِّ تهليلةٍ صدقةً، وكلِّ تكبيرةٍ صدقةً، وأَمْرٍ بالمعروفِ صدقةً، ونَهْيٍ عنِ المُنْكَرِ صدقةً، والعدلِ بينَ اثنينِ صدقةً، وإعانةِ الرَّجُلِ في إركابِه على دابتِه أو حمْلِ متاعِه عليها صدقةً، والكلمةِ الطيبةِ صدقةً، وكلِّ خطوةٍ يمشيها لأداءِ الصلاةِ مع الجماعةِ صدقةً، وإماطةِ الأَذى عن الطريقِ صدقةً، ويجزِي من ذلك كُلِّه ركعتانِ من الضُّحَى يرْكَعُهُما، وإنَّما كانتِ الركعتانِ مُجْزئتَينِ عن ذلكَ كلِّه؛ لأنَّ الصلاةَ استعمالٌ للأعضاءِ كلِّها في الطاعةِ والعبادةِ، فتكونُ كافيةً في الشكرِ على نعمةِ اللهِ بهذه الأعضاءِ؛ لأنَّ الصلاةَ تحتَوي على الحمدِ والشكرِ والثناءِ على اللهِ.

وهذه الأعمالُ التي أشارَ إليها النبيُّ ﷺ في الحديثِ منها ما نَفْعُهُ مُتَعَدٍّ؛

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٧، ٢٨٩١، ٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة.

كالإصلاحِ بينَ الناسِ، وإعانةِ ذي الحاجةِ، والكلمةِ الطيبةِ، وإزالةِ الأذى عن الطريقِ، والأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عن المُنْكَرِ. ومنها ما نَفْعُهُ قاصرٌ على الفاعلِ؛ كالتسبيحِ، والتكبيرِ، والتحميدِ، والتهليلِ، والمشي إلى الصلاةِ، وركْعتي الضُّحَى. وقد أرشدَ النبيُّ ﷺ مَنْ لا يستطيعُ شيئًا من هذِه العباداتِ أن يَكُفَّ شرَّه عن الناسِ؛ فقد جاءَ في الصحيحينِ: قالوا: فإنْ لمْ يفعلْ؟ قالَ: «فلْيُمْسِكْ عنِ الشَّرِّ فإنَّه صدقةٌ»[1]. فهذا يدلُّ على أنَّه يكفيهِ عنْ أداءِ تلك الصدقاتِ اليوميةِ المطلوبةِ على كلِّ عُضْوٍ منه، أنْ يُمْسِكَ عنِ الشرِّ؛ بمعنى: ألا يفعلَ شيئًا من المعاصِي، ولا يكونُ كذلكَ إلاَّ إذا كانَ مؤديًا للفرائضِ، ومُجْتَنِبًا للمحرماتِ؛ لأن ترْكَ الفرائضِ أو ارتكابَ المحرماتِ من أعظَمِ أنواعِ الشَّرِّ.

عبادَ اللهِ: ومِنْ نِعمِ اللهِ على العبدِ في جسمِه إلباسُه ثوبَ الصحةِ، قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنه: الصحةُ غَنَاءُ الجسمِ. وعنْ وهبِ بنِ منبهٍ قالَ: مكتوبٌ في حكمةِ آلِ داودَ: «العافيةُ المُلْكُ الخَفِيُّ»، وفي بعضِ الآثارِ: «كَمْ من نعمةٍ في عرق ساكنٍ»، وفي صحيحِ البخاريِّ عَنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «نِعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصحةُ والفراغُ»[2].

وهذه النعمُ يُسْأَلُ الإنسانُ عن شُكْرِها يومَ القيامةِ، ويُطَالبُ بها، كما قالَ تعالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ٨]. وروَى الترمذيُّ وابنُ حبانَ من حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أولَ ما يُسْألُ عنه العبدُ يومَ القيامةِ مِنَ النعيمِ أَنْ يُقَالَ له: ألمْ نُصِحَّ لكَ جِسْمكَ ونُرْوِكَ من الماءِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٥، ٦٠٢٢) ومسلم (١٠٠٨) من حديث أبي موسى الأشعري.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٢) والترمذي (٢٣٠٤) من حديث ابن عباس.

البارِدِ؟»(١). وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: النعيمُ الأمنُ والصحةُ. وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما في قولِه تعالَى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] قالَ: النعيمُ هو صحةُ الأبدانِ والأسماعِ والأبصار، يسألُ اللهُ العبادَ فِيمَ استعمَلُوها؟ وهو أعلمُ بذلكَ منهم، وهو قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

عبادَ اللهِ: مَنْ أرادَ أنْ يعرفَ نعمةَ اللهِ بالصحةِ فلْينظُرْ إلى المصابينَ بالأمراضِ فَقْدِ الأعضاءِ أو تشويهِها، لِيذهبْ إلى المستشفياتِ، فيرى كَمْ من مريضٍ يَئِنُّ، وجريحٍ مُثْخنٍ، ويرى كَمْ فاقدٍ للسمعِ والبصرِ، وكَمْ مِمَّنْ يتمنَّى هجعةً من نومٍ، أو هدأَةً من وَجَعٍ، حتَّى يعرفَ قدرَ نعمةِ اللهِ عليهِ؛

وبضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ

رَوَى أبو داودَ والنسائيُّ مِنْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ غنامٍ رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**منْ قالَ حينَ يُصْبحُ: اللهُمَّ ما أصبَحَ بي منْ نعمةٍ أو بأحدٍ من خَلْقِكَ فمنْكَ وحْدَكَ لا شريكَ لكَ، فلكَ الحمدُ، ولكَ الشكْرُ، فقد أدَّى شُكْرَ ذلكَ اليومِ، ومَنْ قالَها حينَ يُمْسِي أدَّى شُكْرَ ليلتِه**»(٢). فعَلَيْكُم بهذا الدعاءِ في كلِّ صباحٍ وفي كلِّ مساءٍ؛ لأنَّ فيه اعترافًا بنعمةِ اللهِ، وذلكَ يحملُ العبدَ على العَمَلِ بطاعةِ اللهِ ليلاً ونهارًا.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٥٨) وابن حبان (٧٣٦٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٧٣) والنسائي في الكبرى (٩٨٣٥).

في بيانِ أنَّ الجزاءَ مِنْ جِنسِ العملِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يُمهِلُ ولا يُهْمِلُ، ويحلمُ على العبادِ ولا يعجلُ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: ٣ـ٥]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حذَّرَ من عقوباتِ المعاصِي غايةَ التحذيرِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، فالأعمالُ الصالحةُ جزاؤها الخيرُ العاجلُ والآجلُ، قالَ تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]. فاللهُ سبحانَه جعلَ الحياةَ الطيبةَ والجزاءَ الحسنَ على العملِ الصالحِ، ورتَّبَ المعيشةَ الضنكَ على الإعْراضِ عن ذِكْرِه؛ فالمعرضُ عنه له من ضَنْكِ المعيشةِ بِحَسَبِ إعراضِه، وإنْ تَنَعَّمَ في الدُّنيا بأصنافِ النِّعَمِ ففي قلبِه من الوحشةِ والذلِّ والحسراتِ والعذابِ الحاضرِ ما لا يُحْصَى؛ فلذلكَ تجدُه يلتمسُ ما يُخفِّفُ عنه هذه الآلامَ ولَوْ بِتعاطِي المسكراتِ والمخدراتِ والتَّلَهِّي بالأغاني والمزاميرِ، والتَّنقُّلِ من بلدٍ إلى بلدٍ، فلا يقرُّ له قرارٌ، ولا يهدأُ له بالٌ، ولا يتَنَعَّمُ بعيشٍ، ولا تقرُّ عينهُ

بأهلٍ ولا ولدٍ، ولا يتلذَّذُ بمالٍ وثروةٍ، وهذه عقوبةٌ عاجلةٌ، والعقوبةُ الآجلةُ إذا لمْ يتبْ أشدُّ ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤]. قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمَهُ اللهُ: ولا تظنَّ أنَّ قولَه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] يختصُّ بيومِ المعادِ فقط بلْ هؤلاءِ في نعيمٍ في دورِهم الثلاثةِ (يعْنِي في الدُّنيا، وفي القبرِ، وفي يومِ القيامةِ)، وهؤلاءِ في جحيمٍ في دورِهم الثلاثةِ.

عبادَ اللهِ: مِنْ آثارَ الذنوبِ والمعاصِي أنَّها تُحْدِثُ في الأرضِ أنواعًا من الفسادِ في المياهِ والهواءِ والزروعِ والثمارِ والمساكنِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. فكُلَّما أحْدثَ الناسُ ذنبًا أحْدَثَ اللهُ لهم عقوبةً ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟﴾ ولَوْ أذاقَهُم كلَّ ما عَمِلوا لَمَا تركَ على ظهرِها من دابةٍ، فمِنْ تأثيرِ المعاصِي في الأرضِ: ما يحلُّ بها مِن الخسفِ والزلازلِ ومحقِ برَكَتِها، وكَمْ تسمعونَ يا عبادَ اللهِ منْ حدوثِ الزلازلِ المدمرةِ والانفجاراتِ المروعـةِ التي تهلكُ الآلافَ مـن الناسِ، وتشرِّدُ الآلافَ الآخرينَ، وتترُكُهـم بلا مأوى.

ومن تأثيرِ المعاصِي في المياهِ، ما ترونَ من حبْسِ الأمطارِ وغورِ المياهِ؛ قالَ تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠]. ومن تأثيرِ المعاصِي في المياهِ أيضًا: تسليطُها بالفيضاناتِ التي تُغرقُ البلدانَ والمزارعَ، وتُهلكُ الأنفُسَ والأموالَ إمَّا بفيضانِ الأنهارِ، أو بإرسالِ السحابِ بالماءِ الغزيرِ الذي يغرقُ الأوديةَ، أو يرسلُ البردَ الذي يقصفُ الزروعَ والمواشِي والأنفُسَ؛ قالَ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن

مَن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣]. وكَمْ حَدَثَ من أضرارِ السيولِ الجارفةِ وأضرارِ البرد القاصفِ في بلادِنا وغيرِ بلادِنا مما ذهبَ بكثيرٍ من الأنفسِ والزروعِ والأموالِ.

ومن آثارِ المعاصِي في الثمارِ: ما يسلِّطُ اللهُ عليها من الآفاتِ التي تُتْلِفُها، أو تنقصُ محاصيلها. ومِنْ آثارِ المعاصِي في الأنفُسِ: ما ترونَ من حدوثِ الأمراضِ المستعصيةِ، والآفاتِ الغريبةِ التي عَجَزَ الطبُّ عن معرفتِها وعلاجِها، معَ أنَّ اللهَ سبحانَه ما أَنْزلَ داءً إلاَّ وأنْزلَ له دواءً، ولكنَّ الناسَ لَمَّا عَصوا ربَّهم حُرِمُوا معرفةَ هذا الدواءِ عقوبةً لهم.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمَه اللهُ: ومِنْ آثارِ المعاصِي: أنَّها تقصِّرُ العمرَ، وتمحقُ بَرَكَتَه، فإنَّه كما يزيدُ العمرُ بالبِرِّ، فإنَّه ينقصُ بالفجورِ، وذُكِرَ أنَّ العلماءَ اختلفُوا في تفسيرِ ذلكَ على قولينِ: القولُ الأولُ: أنَّ المعاصِيَ تُنْقِصُ العمرَ بمعنى أنَّها تقلِّلُ مدَّتَه، فكما أنَّ العمرَ يزيدُ بأسبابٍ، فإنَّه يَنْقُصُ بأسبابٍ، فإنَّ اللهَ يقْضِي ما يشاءُ بأسبابٍ جعلَها موجبةً لمسبباتِها.

فمن العقوباتِ التي تُصِيبُ الأنفُسَ: ما يحصلُ من الحوادثِ المروعةِ في وسائلِ النقلِ من تحطمِ الطائراتِ والقطاراتِ والسياراتِ وعلى ظَهْرِها الجماعاتُ التي تذهبُ بأكمَلِها فجأةً، وقد يَبْقَى منهم على قيدِ الحياةِ مَنْ يفقِدُ بعضَ أعضائِه أو حواسِّه.

ومِنْ عقوباتِ المعاصي: تسليطُ الجبابرةِ والظَّلَمَةِ على العُصَاةِ والمذنبينَ فيسومُونَهم سوءَ العذابِ، ويُنَغِّصُونَ عليهم حياتَهم، أو ثوراتُ الحروبِ والفِتَنِ وضياعُ الأمنِ والاستقرارِ، وحدوثُ المجاعاتِ، قالَ تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ

فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

عبادَ اللهِ: ما أكثرَ الذنوبَ والمعاصِي اليومَ في بيوتِنا وفي أسواقِنا! تُرِكَتِ الواجباتُ، وفُعلَتِ المحرماتُ، وظهرتِ المنكراتُ. كثيرٌ من البيوتِ لا يُقيمُ أهْلُه الصلواتِ الخَمْسَ التي هي عمودُ الإسلامِ، والفارقةُ بينَ الكفرِ والإيمانِ، وبعضُ البيوتِ يُصلِّي بعضُ أهْلِه، ولا يُصَلي البعضُ الآخرُ، والذي يُصَلِّي لاينكرُ على الذي لا يُصَلِّي. النساءُ يتبرجْنَ في الأسواقِ بالزينةِ والطيبِ، ويخالطن الرجالَ من غيرِ حياءٍ ولا خوفٍ، وبعضُ الناسِ يتسامحُ بِتَرْكِ الرَّجُلِ الأجنبيِّ مع نسائِه بحجةِ أنَّه سائقٌ أو مُستخدَمٌ، والبعضُ الآخرُ يتركُ الفيديو بينَ نسائِه وأولادِه بأفلامِه الخليعةِ التي تُفْسِدُ الأخلاقَ، وتدعُو للفاحشةِ، فيها صورُ العُراةِ وصُورُ فعلِ الفواحشِ، وبعضُ الناسِ يتساهلُ مع أهْلِ بيتِه باستعمالِ الأشرطةِ التي فيها أغاني المجونِ والغزلِ والعشقِ والغرامِ، وكلُّ هذهِ الأمورِ هدمٌ للأخلاقِ ودعوةٌ إلى الرذيلةِ والهبوطِ.

وإذا ما تركنا هذا وانتقلنا إلى تعامُلِ الناسِ فيما بينَهم وجَدْنا ما يُدمِي القلوبَ من الغشِّ والخديعةِ، والمكْرِ والخيانةِ، وأكْلِ الرِّبا والرشوةِ والقمارِ، والخيانةِ في الأمانةِ، وهذه الأمورُ وغيرُها مِمَّا لا يدخلُ تحتَ الحَصْرِ مُتَفَشِّيةٌ في مجتمعِنا، وهي نذيرُ خطرٍ إنْ لم يَتَنَبَّهِ المسلمونَ لإصلاحِها، كُلٌّ على حَسَبِ مقدرتِه ومبلغِ طاقتِه، وإلاَّ فتعدادُ الذنوبِ والتلاوُمُ لا يُجْدِي شيئًا، وإذا وقعتِ العقوبةُ عَمَّتِ العاصِي وغيرَه مِمَّنْ لا يُنْكِرُ المُنْكَرَ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

* * *

في التحذيرِ من عقوباتِ المعاصِي

الحمدُ للهِ يَبْتَلِي عبادَه بالمصائبِ ليتوبوا إليه من الذنوبِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وهو علاَّمُ الغيوبِ وغفَّارُ الذنوبِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حَذَّرَ أُمَّته من أسبابِ الهلكاتِ، وبيَّن لها طرقَ النجاةِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، كانوا يخافونَ من ذنوبِهم أشدَّ مِمَّا يخافونَ عدُوَّهُم، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واحْذَروا عقابَه، فإنَّ عقابه أليمٌ، ولا تغْتَرُّوا بحِلْمِه، فإنَّه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، واعلموا أنَّكم إنَّما تُصابونَ بذنوبِكُم، وتُجازَوْن بأعمالِكُم، قالَ تعالَى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠]. كمْ هَلكَتْ مِنْ أُمَّةٍ، وكَمْ سقطتْ من دولةٍ، وكَمْ سُلِبتْ من نعمةٍ، وكَمْ حَلَّتْ مِنْ نقمةٍ، بسببِ الذنوبِ والمعاصِي، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٣]. وإنَّ لكم فيما يقعُ بينكم وحولَكم من النقمِ لأكْبَرَ زاجرٍ وأعظَمَ نذيرٍ، وقد نبَّهَ اللهُ عبادَه إلى أنْ يعتبروا بِمَا حَلَّ بغيرِهم من العقوباتِ لِيُقَوِّمُوا أعمالَهم، ويصحِّحُوا خطأَهُم، وإلاَّ فإنَّه سيحلُّ بهم مِثلُ ما شَهِدُوا وسمِعُوا من عقوباتِ غيرِهِم؛ قالَ تعالَى: ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦]. نعمْ لقد حلَّ في هذِه

الأرضِ أجيالٌ قبلَكُم، كانَ لهم من قوةِ الأبدانِ ووفرةِ المالِ وسعةِ السلطانِ والتمكينِ في الأرضِ ما لا يخطُرُ على البالِ، فلمَّا عَصَوا ربَّهم وعَتَوا عن أمْرِه قطعَ دابِرَهُم وأهْلَكَهُم عن آخرِهِم ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢].

وعقوباتُ الذنوبِ تتنوعُ، فقد تكونُ عامةً للمجتمعاتِ، وتهلكُ العبادَ، وتُخَرِّبُ البلادَ، كما حَلَّ في الأُمَمِ الكافرةِ من قومِ نوحٍ، ومَنْ بعدَهُم من القرونِ مِمَّا تقرؤونَ خبرَهُ في كتابِ اللهِ.

وقد تكونُ العقوبةُ خاصةً بقبيلةٍ أو أُسْرةٍ أو شخصٍ، كما تشاهدونَ فيما بينكُم، وتسمعونَ فيمَنْ حولَكم من وقوعِ العقوباتِ المفاجئةِ، والكوارثِ المروعةِ، من زلازلَ مدمرةٍ تجتاحُ الأقاليمَ؛ فتهلِكُ الألوفَ من النفوسِ، وتشرِّدُ آخرينَ، فيبقونَ بلا مأوى ولا طعامٍ ولا شرابٍ، وتُخرِّبُ المبانيَ؛ فتصبحُ المدنُ خاويةً على عروشِها، ومن حروبٍ طاحنةٍ تُهلِكُ الحرثَ والنسلَ، تُرمِّلُ النساءَ، وتُيتِّمُ الأطفالَ، وتُحلُّ الرعبَ في القلوبِ، ومن فيضاناتٍ تُغرقُ الحروثَ والزروعَ، وتَقْضِي على المحاصيلِ، وآفاتٍ تصيبُ الثمارَ والحبوبَ؛ فتُفسِدها وتعطِّلُ إنتاجَها، وحرائقَ تلتهمُ المخزوناتِ، وتتلفُ البضائعَ والنقودَ التي أحرزَها أهْلُها في المستودعاتِ والصناديقِ، وظنُّوا أنَّهم قادرونَ عليها، وحوادثِ المراكبِ البريةِ والبحريةِ والجويةِ وما أكثرَها، فهذهِ باخرةٌ تغرقُ بِمَنْ فيها، وهذِه طائرةٌ تسقطُ فيهلكُ فيها المئاتُ، وهذه سيارةٌ تُصابُ فيها العشراتُ، وبيوتٌ تنهدمُ على مَنْ فيها؛ فلا يَنجُو إلاَّ القليلُ، وقد يكونونَ اجتمعوا لاحتفالٍ بمناسبةٍ، وأظهروا الفرحَ والسرورَ، وفعلوا شيئًا من المحظورِ؛ فحلَّتْ بهم العقوبةُ، ونزلتْ بهم المصيبةُ، فتحوَّل سرورُهُم إلى

حزنٍ، واجتماعُهم إلى فُرقةٍ، لعلَّه يحصلُ بذلكَ عبرةٌ وعظةٌ للآخرينَ، فالسعيدُ من وُعِظَ بغيرِه.

فيجبُ على الملسمينَ أنْ يتجنَّبوا ويَبْتَعِدوا عن إقامةِ مِثلِ هذِه الاحتفالاتِ في مناسبةِ الزواجِ وغيره؛ لأنهَّا يحصلُ فيها مفاسدُ كثيرةٌ: مِنْ خروجِ النساءِ من بيوتِهِنَّ متبرجاتٍ بأنواعِ الزينةِ، واختلاطِهِنَّ معَ نساءٍ قد لايَكُنَّ محتشماتٍ، وقد يطمعُ فيهنَّ الذي في قلبِه مرضٌ من الرجالِ خصوصًا إذا اختلطوا بهنَّ، أو قَرُبوا مِنْهُنَّ، كما يحصلُ في الفنادقِ التي ينظِّمُها رجالٌ، أضِفْ إلى ذلكَ ما يحصلُ في هذا الاجتماعِ غيرِ المنضبطِ من اللَّهْوِ واللعبِ والغفلةِ وإضاعةِ الصلاةِ. ورُبَّما يتخلَّلُ ذلكَ شيءٌ من الملاهِي والمزاميرِ وأصواتِ المطربينَ، وكُلُّ هذِه مفاسدُ تُؤثِّرُ في الأخلاقِ والسلوكِ، ولا يرجعُ الإنسانُ إلى بيتِه سالمًا من شرِّها، معَ ما يبذلُ في ذلكَ من الأموالِ الكثيرةِ التي تذهبُ في سبيلِ الإسرافِ والتبذيرِ، وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

فالواجبُ على المسلمِ التَّحفُّظُ صيانةً لدينِه وعِرضِه ومالِه، وإذا حصلَ مناسبةُ زواجٍ فلْيكُنِ الاجتماعُ لها في بيتِ صاحبِ المناسبةِ أو قريبٍ منه، وليكن الاجتماعُ مقتصرًا على أقاربِ الزوجينِ والجيرانِ، وليكنْ خاليًا من المفاسدِ والمحظوراتِ، وليكن اجتماعُ المسلمينَ بعضِهم معَ بعضٍ على النزاهةِ والحياءِ والعفافِ.

عبادَ اللهِ: ومِنَ الناسِ مَنْ يفسِّرُ هذه الحوادثَ التي تقعُ بأنَّها ترجعُ إلى أمورٍ عاديةٍ، ولايعتبرُها عقوباتٍ من اللهِ وقعتْ بسببِ الذنوبِ، فيقولُ مثلًا: الطائرةُ أو السيارةُ عطبتْ لخللٍ فنيٍّ، البيتُ انهدمَ لخللٍ هندسيٍّ، الحريقُ اندلعَ لِمَاسٍ كهربائيٍّ، وهكذا يلتمسُ سببًا سواء كانَ صحيحًا أو غيرَ صحيحٍ، ولا ينظرُ إلى

ما وراءَ ذلكَ من تقديرِ اللهِ له عقوبةً على مخالفةِ أمرِه وارتكابِ نَهْيِهِ، فلذلكَ لا يحصلُ الاتعاظُ والاعتبارُ عندَ كثيرٍ من الناسِ عندَ وقوعِ هذه الكوارثِ، وقد قالَ اللهُ تعالَى في أمثالِ هؤلاءِ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤، ٩٥].

يقولُ تعالَى: ابْتَلَيْنَاهُم بهذا وهذا؛ ليتضرَّعُوا ويُنِيبُوا إلى اللهِ، فما نجعَ فيهم لا هذا ولا هذا، ولاانْتَهوا بهذا ولا هذا، وقالوا: قد مَسَّنا من البأساءِ والضراءِ، ثم بعدَه من الرخاءِ، مثلُ ما أصابَ آباءَنا في قديمِ الدهرِ، فالدهرُ تاراتٌ وتاراتٌ، ولم يَتَفَطَّنُوا لأمْرِ اللهِ فيهم؛ قالَ تعالَى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٥]. أيْ لَمَّا لمْ ينْزجِرُوا ويعْتبِروا ويتُوبوا، أنزلَ اللهُ بهم العقوبةَ المفاجئةَ، وهم لا يشعرونَ بها. صحيحٌ أنَّ كُلَّ شيءٍ له سببٌ ولكنْ لا يُنظَرُ إلى السببِ وحدَه، بلْ يُنظَرُ إلى مُسَبِّبِ الأسبابِ، وإذا أرادَ اللهُ عقوبةً رَتَّبَ المسبَّبَ على السببِ، والأسبابُ تتعدَّدُ: فمنها ما هو ظاهرٌ، ومنها ما هو خَفِيٌّ، لكنَّها لا تؤدِّي مفعولَها إلاَّ بأمْرِ اللهِ وتقديرِه.

رَزَقَنا اللهُ وإيَّاكُم الاعتبارَ والاتِّعاظَ والتوبةَ والرجوعَ إليهِ.

ونعوذُ باللهِ مِنَ الغفلةِ والإعراضِ، أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ لي ولَكُم.

* * *

في تربيةِ الأولادِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ على جزيلِ نِعمِه وواسعِ فَضْلِه، أَمَرَ وأوجبَ على الآباءِ تربيةَ أولادِهم على الخيرِ والفضيلةِ، وأوْجَبَ على الأولادِ طاعةَ آبائِهم في المعروفِ وبِرَّهُم والإحسانَ إليهم في مقابلِ تلكَ التربيةِ الحميدةِ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤] وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء: ٤٣]. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أُرسِلَ بينَ يدي الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنِه وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أنَّ صلاحَ الذريةِ كانَ مَحلَّ اهتمامِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ، فهذا خليلُ الله إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ يدعو اللهَ أنْ يرزُقَه ولدًا صالحًا فيقولُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، ويقولُ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ويقولُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ويقولُ هو وإسماعيلُ عندَ بناءِ البيتِ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ويقولُ زكريا عليهِ السلامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨]. وهذا اهتمامٌ من هؤلاءِ الأنبياءِ بشأنِ الذريةِ قَبْلَ وجودِها، أمَّا بعدَ وجودِها فكانتْ تتضاعفُ جهودُهم، ويعظُمُ اهتمامُهم بها لتوجيهها نَحْوَ الخيرِ، وإبعادِها عَنِ الشَّرِّ، وأوَّلُ ما يَنْصَبُّ

اهتمامُهم إليه: إصلاحُ عقائدِ أولادِهم، كما قالَ تعالَى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. حتى عندَ الوفاةِ نجدُ أنَّ يعقوبَ عليه السلامُ يريدُ الاطمئنانَ على عقيدةِ أبنائِه بعدَ وفاتِه: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وهذا لقمانُ يُوجِّهُ إلى ابنِه وصايا عظيمةً، فَيَنْهَاهُ عن الشِّركِ، ويُبيِّنُ له قُبْحَهُ لينفِرَ منه، ويأمُرُهُ بإقامةِ الصلاةِ، والأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عن المُنْكرِ، والصَّبْرِ على المصائبِ، ويَنهَاهُ عنِ الكِبْرِ واحتقارِ الناسِ، والفخْرِ والخيلاءِ. هذا ما قَصَّهُ اللهُ علينا في كتابِه من بيانِ مواقفِ الأنبياءِ مع أبنائِهم لنقْتَدِيَ بهم، وندركَ عِظَمَ مسؤوليةِ الأولادِ على آبائِهم.

عبادَ اللهِ: لقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الطفلَ حينَ يولدُ، يولدُ على الفطرةِ السليمةِ القابلةِ للخيرِ، فإذا بودِرَت بالخيرِ قَبِلتْهُ من غيرِ صعوبةٍ ولا كلفةٍ، وتلاءَمتْ معَه وألِفَتْهُ؛ لأنَّ اللهَ جعلَ فيها قابليةً له، ولأنَّه يوافقُ أصْلَها الذي فُطِرتْ عليهِ، وإنَّما تنحرفُ هذِه الفطرةُ وتتغيَّرُ عن خِلْقَتِها؛ بسوءِ التربيةِ والقدوةِ السيئةِ؛ قالَ ﷺ: **«كلُّ مولودٍ يولدُ على الفِطْرةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانِه، أو ينصرانِه، أو يمجسانِه»**[1]. أي: أنَّ تربيةَ الآباءِ المنحرفةَ هي التي تُحَوِّلُ الطفلَ من دينِ الفطرةِ الذي هو الإسلامُ إلى دينِ اليهودِ أو النصارى أو المجوسِ، فحافِظُوا على فِطَرِ أبنائِكم من التغييرِ أكثرَ ممَّا تحافظونَ على أرواحِكُم وأجسامِكُم من الإصابةِ بالأمراضِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨، ١٣٨، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

والجناياتِ، إنَّ الطفلَ في نَشْأتِه لا يدركُ عواقبَ الأمورِ، ولا يعرفُ الضارَّ من النافعِ، كما لا يستطيعُ أنْ يوفِّرَ لنفسِهِ القوتَ والملبسَ والمسكنَ، وإنَّما والداهُ هما المُكَلَّفانِ بتوفيرِ هذه الأشياءِ له؛ ولهذا أَمَرَ اللهُ الولدَ أنْ يشكُر لوالدَيهِ هذا المعروفَ ويرُدَّ عليهما هذا الجميلَ فيقولُ: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]. أَمَرَهُ اللهُ أنْ يدْعُوَ لهم بالرحمةِ مِنَ اللهِ كما رحِمَاهُ في صِغَرِهِ وضَعْفِهِ، فربياهُ خُلُقِيًّا وجِسْمِيًّا ودِينيًّا حتى استقامَ على دينِه واسْتَغْنَى بِنَفسِهِ عن غيرِه.

عبادَ اللهِ: ليستْ تربيةُ الأولادِ مقصورةً على التربيةِ الجسميةِ من توفيرِ الطعامِ والشرابِ والكسوةِ والمسكنِ لهم، أو إعطائِهم متطلباتِهم التكميليةَ من الدراهم والسياراتِ، فَتِلْكُم تربيةٌ حيوانيةٌ بهيميةٌ، ربما تضرُّهُم وتفسِدُهُم، إن التربيةَ الحقيقيةَ والضروريةَ هي تربيتهُم على الدينِ والأخلاقِ والمحافظةِ على فِطْرَتِهم عن التغيُّرِ والفسادِ، فيجبُ على الوالدِ أنْ يراقبَ أولادَه في البيتِ، ويراقبَهم في المدرسةِ، ويراقِبَهم في الشارعِ، فيكونُ بيتُه بيئةً صالحةً مُحافظةً على الدينِ، مُبتعدةً عَنْ وسائلِ الفسادِ، ليسَ فيه أغانٍ ولا مزاميرُ ولا فيديو ولا تلفازُ، ليس فيه عناصرُ أجنبيةٌ من خادمين وخادمات.

ويجبُ على الوالدِ أنْ يلْتَمِسَ لأولادِه المَدْرسةَ الصالحةَ بمديرِها ومدرِّسيها وطلابها، بلْ يجبُ على مجموعِ الآباءِ أنْ يتعاونوا مع المدرسةِ على تدريسِ أولادِهم وتربيتِهم، وإذا لَمَسُوا مِنْ بعضِ المدرسينَ أو المسؤولينَ في المدرسةِ انحرافًا وجب أنْ يتَّصَلوا بالمسؤولينَ للأخذِ على أيْدي هؤلاءِ المنحرفينَ واستبدالِهم بصالحينَ، فإنَّ المسؤولينَ عن التعليمِ يحثُّونكُم أيُّها الآباءُ على مراقبةِ سَيْرِ المدارسِ التي تُسَجِّلونَ فيها أولادَكُم، ويطلبونَ منكم موافاتَهُمْ بملاحظاتِكُم لِيسْتَرْشِدُوا بها، فلو قُمْتُم بما يجبُ عليكم من ذلكَ

لاستقامتِ الأمورُ، وصلَحَتِ المدارسُ، وخَلَتْ من العناصرِ الفاسدةِ.

ثمَّ يجبُ عليكم أيُّها الآباءُ ـ وفَّقَكُم اللهُ وأعانكم ـ أنْ تتعرفوا على الذينَ يخالطونَ أولادَكُم، ويُجَالسُونَهم، لتتأكدوا من سلامةِ سلوكِهم واستقامةِ أخلاقِهم، ولا تترُكُوا أولادَكم يخالطونَ مَنْ شاءوا، ويرافقوانَ مَنْ شاءوا، فإنَّ شبابَ المسلمينَ اليومَ يَتَخَطَّفُهُم تياراتِ خطيرانِ:

تيارُ التساهُلِ أو الانحلالِ من الدينِ والأخلاقِ، وهذا ذَهَبَ ضحيتَه كثيرٌ من أولادِ المسلمينَ، فأصبحوا لا دِينَ ولا خُلَقَ، بلْ أصبحوا لا دِينَ ولا دُنْيا.

والتيارُ الثاني: تيارُ التَّشَدُّدِ في الدينِ على جَهْلٍ، فهناكَ فئةٌ من الشبابِ عندها إقبالٌ على الدينِ، لكنَّها لمْ تُوجَّهْ توجيهًا سليمًا، فظهرَ عليهِم التشدُّدُ في بعضِ تصرفاتِهم وهيئاتِهم، ويخشَى أن يتزايدَ بهم ذلك إلى ما لا تُحْمدُ عقباهُ، وهذا كلُّه بسببِ ابتعادِهم عَنِ العلماءِ واقتصارهم على فَهْمِهم، أو التماسِهم العلمَ عندَ مَنْ لا عِلْمَ عندَه ولا بصيرَة، مِمَّنْ يتلمسُ شواذَّ المسائلِ وغرائبَ الأقوالِ، فالواجبُ على هؤلاءِ الشبابِ أنْ يتداركوا أَمْرَهُم، ويراجِعُوا علماءَ الشريعةِ ليأْخُذوا عنهم العلمَ النافعَ، ويبصِّرُوهم الطريقَ السليمَ، قالَ بعضُ السلفِ: «إنَّ هذا العِلْمَ دِينٌ فانظروا عَمَّنَ تأخذونَ دينكم»، وقالَ النبيُّ ﷺ: **«يَحْمِلُ هذا العِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُه»**[1]. وقالَ ﷺ: **«العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ»**[2].

فالواجبُ عليكم ـ أيُّها الآباءُ ـ مراقبةُ أولادِكم عن الوقوعِ في مِثْلِ هذهِ المحاذيرِ، فإنَّ الشيطانَ يأْتِي الإنسانَ من أَحَدِ بابينِ: إمَّا من بابِ التساهُلِ، وإمَّا

---

(١) أخرجه البيهقي (١٠/ ٢٠٩) من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء.

من بابِ التَّشَدُّدِ والغُلُوِّ ـ أعاذَنا اللهُ من الشيطانِ ـ ودينُ اللهِ بينَ الغالي والجافي، دينُ اللهِ هو الوسطُ المعتدلُ، وهو الصراطُ المستقيمُ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الخُطبة الثانية:

الحمدُ للهِ على فضلِه وإحسانِه حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقوا اللهَ تعالَى، واعلَموا أنَّ صلاحَ الذريةِ ينفعُ الآباءَ بعدَ موتِهم؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ: **«إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلاَّ من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعُو له»**(١). وإنَّ الذريةَ الصالحةَ تَقَرُّ بِهَا أعينُ الوالدين في الجنَّةِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ اللهُ: أيْ يجمعُ بينَهم وبينَ أحبابِهم فيها، من الآباءِ والأهلينَ والأبناءِ مِمَّنْ هو صالحٌ لدخولِ الجنَّةِ من المؤمنينَ لتقرَّ أعينُهم بهِم، حتَّى أنَّه تُرفعُ درجةُ الأدْنَى إلى درجةِ الأعْلى امتنانًا من اللهِ وإحسانًا من غيرِ تنقيصٍ للأعْلى عن درجتِه، كما قالَ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة.

عبادَ اللهِ: وإنَّ صلاحَ الذريةِ له أسبابٌ يفعلُها الوالدُ؛ من أهَمِّها: التربيةُ الصالحةُ، والقدوةُ الحسنة، ودعاءُ الوالدِ بصلاحِ ذُرِّيتهِ. كما أنَّ فسادَ الذُّريةِ له أسبابٌ؛ مِنْ أهَمِّها: إهمالُ الوالدِ لتربِيَتِهِم، وكَوْنُه قدوةً سيئةً لهم، فيجبُ على الآباءِ بَذْلُ أسبابِ الصلاحِ والابتعادُ عَنْ أسبابِ الفسادِ.

إنَّ خيرَ الحديثِ . . . إلخ.

* * *

في التعاونِ على البرّ والتقوى

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أمَرَ بالتعاونِ على البرِّ والتقوى؛ لِمَا في ذلكَ من الخيرِ العاجلِ والآجلِ، ونَهَى عن التعاونِ على الإثْمِ والعدوانِ؛ لِمَا فيه من الشَّرِّ العاجلِ والآجلِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه الذينَ هم أشداءُ على الكُفارِ رحماءُ بينَهم، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢]. في هذهِ الآيةِ الكريمةِ يأمُرنا اللهُ تعالَى: أنْ نتعاونَ فيما بينَنا على البرِّ وهو فِعْلُ الخيراتِ، وأنْ نتعاونَ على التقوى وهي تَرْكُ المنكراتِ، ويَنْهانا عن التعاونِ على الإثْمِ وهو المعاصِي، والعدوانِ وهو الاعتداءُ على الناسِ.

والتعاونُ على البرِّ والتقوى يشملُ فِعْلَ الخيراتِ كلِّها، فالأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ هو من التعاونِ على البِرِّ والتقوى؛ لِمَا في ذلك من إصلاحِ المجتمعِ، وإبعادِه عَنْ أسبابِ الدمارِ والفسادِ، وإيصالِه إلى الخيرِ العاجلِ والآجلِ. وتعليمُ العلمِ النافعِ هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى؛ لِمَا فيه من إزالةِ الجهلِ، والدعوةِ إلى الخيرِ، والتحذيرِ من الشَّرِّ، ومعرفةِ الحقِّ والعملِ به، وأداءِ حقوقِ اللهِ وحقوقِ المخلوقينَ.

والإنفاقُ على الأقاربِ والمحتاجينَ، وإنظارُ المدينِ المُعْسِرِ، وإقراضُ المحتاجِ: هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى. وبذْلُ الكفالةِ والضمانِ لِمَنْ يحتاجُ

إليهما؛ هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى. وبذْلُ الجاهِ والوساطةِ في قضاءِ حاجةِ المسلمِ عندَ ولاةِ الأمورِ وغيرِهم: هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى، وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «اشْفَعُوا تُؤْجَروا»[1]. وإقامةُ المشاريعِ الخيريةِ من بناءِ المساجدِ والمدارسِ الخيريةِ، وتأمينِ مياهِ الشربِ والوضوءِ: هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى. وإقامةُ المصانعِ التي تنتجُ للمسلمينَ ما يحتاجونَ إليهِ، ويستغنونَ به عن الكفارِ: هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى.

والإصلاحُ بينَ الناسِ وقطعُ الخصوماتِ والمنازعاتِ، والتأليفُ بينَ القلوبِ: هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى؛ فعن أبي الدرداء رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ألا أُخبِرُكم بأفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ؟» قالوا: بلىٰ، قال: «إصلاحُ ذاتِ البينِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ البينِ هي الحالقةُ»[2]، رواهُ أبو داودَ، والترمذيُّ، وابنُ حِبانَ في صحيحِه. وقيامُ الموظفينَ بأعمالِهم، وأداءِ واجبِهم الوظيفيِّ: هو مِنَ التعاونِ على البرِّ والتقوى؛ لأنَّ المسلمينَ بحاجةٍ إلى خَدَماتِهم وخِبْراتِهم.

ومجالُ البرِّ والتقوى واسعٌ، ولَما كانَ الإنسانُ عاجزًا عن الإحاطةِ به فضلاً عن القيامِ به كلِّه، صار التعاونُ على تحقيقِ المصالحِ، ودفْعِ المفاسدِ أمرًا ضروريًّا للمجتمعِ المسلمِ، وصارَ القيامُ به من أفضلِ الأعمالِ، وأَمَرَ اللهُ به ورسولُه، وتَرتَّبَ على فِعْلِه الخيرُ الكثيرُ والثوابُ الجزيلُ. وكُلُّ واحدٍ من المسلمينَ عُضْوٌ في المجتمعِ يبذلُ ما يستطيعُ: العالِمُ يعينُ الناسَ بعِلْمِه، والغنيُّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢) ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩) وابن حبان (٥٠٩٠).

يعينُ الناسَ بمالِه، والشجاعُ يعينُ بشجاعتِه في سبيلِ اللهِ، والمسلمونَ يدٌ على مَنْ سواهُم، ويَسْعَى بِذِمَّتِهِم أدْناهم، وقيامُ الوالدينِ بتربيةِ أولادِهم التربيةَ الإسلاميةَ وتَنشِئَتِهِمْ على الخيرِ: هو من التعاونِ على البرِّ والتقوى؛ لأنَّهما يُنْشِئَانِ جيلاً صالحًا يُكثر سواد المسلمين، ويقومُ بنصرةِ الدينِ.

أيُّها المسلمونَ: وإلى جانبِ الأمْرِ بالتعاونِ على البرِّ والتقوى، يَنْهَى اللهُ عن التعاونِ على الإثم والعداونِ، والإثْمُ جميعُ المعاصِي، والعدوانُ هو الاعتداءُ على حُرُماتِ اللهِ وحرماتِ خَلْقِه، والنَّهْيُ عن الإعانةِ على ذلكَ يَعْنِي النَّهْيَ عن فِعْلِه من باب أوْلَى، فلا يجوزُ للمسلمِ أنْ يرتكبَ المحرماتِ، ولا يجوزُ له أنْ يُعينَ مَنْ يَرْتَكِبُها لا بقَوْلٍ ولا بِفِعْلٍ، ولقد لعَنَ النبيُّ ﷺ آكِلَ الرِّبا، ومُوكِلَهُ، وشاهدَيهِ، وكاتبَه[(١)]؛ لتعاونِهم على الإثمِ والعدوانِ. ولعنَ النبيُّ ﷺ **«الراشي، والمُرتَشِي، والرائش»**[(٢)]. وهو الساعي بينهم؛ لتعاونِه على الإثمِ والعدوانِ، ومن التعاونِ على الإثم والعدوانِ الشفاعةُ لإسقاطِ إقامةِ الحدِّ على مَنْ وَجَبَ عليهِ؛ قالَ ﷺ: **«مَنْ حالتْ شفاعَتُه دونَ حَدٍّ من حدودِ اللهِ فقد ضادَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، ومَنْ خاصمَ في باطلٍ وهو يعلمُ لمْ يزلْ في سخط اللهِ حتَّى ينزِعَ»**[(٣)].

ومِنَ التعاونِ على الإثمِ والعدوانِ الإدلاءُ بشهادةِ الزورِ لينصرَ بها ظالمًا، أو يَردَّ بها حقًّا، قالَ ﷺ: **«عَدَلَتْ شهادةُ الزورِ الإشراكَ باللهِ عزَّ وجلَّ»** ثلاثَ مراتٍ، ثمَّ قرأَ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[(٤)] [الحج: ٣٠، ٣١]، وقال ﷺ: **«لو أنَّ أهْلَ السماءِ وأهْلَ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٩٧) من حديث ابن مسعود، وفي (١٥٩٨) من حديث جابر.
(٢) مسند أحمد (٢١٨٩٣).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧) من حديث عبد الله بن عمر.
(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٩٩) من حديث خريم بن فاتك.

الأرضِ اشتركوا في دمِ مؤمنٍ لأكبَّهم اللهُ في النارِ»[١] رَوَاهُ الترمذيُّ. وقالَ ﷺ: «مَنْ أعانَ على قتلِ مؤمنٍ بشَطْرِ كلمةٍ لَقِيَ اللهَ مكتوبٌ بينَ عينيهِ: آيسٌ من رحمةِ اللهِ»[٢] رواهُ ابنُ ماجه، والأصبهانيُّ، ورَوَاهُ البيهقيُّ من حديثِ ابنِ عمرَ[٣].

ثُمَّ ختمَ اللهُ الآيةَ بقولِه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] مؤكدًا بذلكَ ما أَمَرَ به في أوَّلِها من التعاونِ على البرِّ والتقوى، وما نَهَى عنه من التعاونِ على الإثمِ والعدوانِ، ومُحذِّرًا من عقوبتِهِ لِمَنْ خالفَ ذلكَ.

أَيُّهَا المسلمونَ: ما أحوجَ المسلمينَ اليومَ إلى التعاونِ على البرِّ والتقوى؛ وقد تداعتْ عليهِم الأُمَمُ، وتكالبتْ عليهِم قوى الشَّرِّ من كلِّ جانبٍ، ما أحْوجَهُم إلى التعارفِ والتآلفِ وإزالةِ الأحقادِ، ودفعِ الفسادِ عن مُجْتمَعِهِم، ما أحْوجَهُم إلى التعاونِ على تربيةِ أولادِهم ونسائِهم وإصلاحِ بيوتِهم، وإخراجِ أهلِ الشَّرِّ من بينِهم، وتنقيةِ مجتمَعِهم من عناصرِ الفسادِ والإفسادِ، ما أحْوجَهُم إلى الحذرِ من الدعاياتِ المضللةِ، والأفكارِ الخبيثةِ التي تُدْفَعُ إليهم عن طريقِ وسائلِ الإعلامِ المختلفةِ، ويُرَوِّجُها بينَهم أعداؤُهُم، إنَّ المسلمينَ اليومَ بِأَمَسِّ الحاجةِ إلى التعاونِ على جَلْبِ المصالحِ وتكميلِها، ودفعِ المفاسدِ وتقليلِها.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ...﴾ [الحج: ٧٧] إلى آخر سورة الحج.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠) وأبو نعيم الأصبهاني في أخبار أصبهان (١/ ٢٦٤) من حديث أبي هريرة. الضعيفة (٥٠٣).
(٣) سنن البيهقي (٨/ ٢٢).

في فضلِ عمارةِ المساجدِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمَرَ ـ برفعِ المساجدِ، وذِكْرِ اسمِهِ فيها ـ جميعَ المؤمنينَ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، المَلِكُ الحقُّ المبينُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الصادق الأمين، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناس: اتقُوا اللهَ تعالَى، وأطيعُوه.

عبادَ اللهِ: لقد عَظَّمَ اللهُ من شأنِ بيوتِه وأضافَها إليهِ إضافةَ تشريفٍ وتكريمٍ، وأثْنَى على الذينَ يسبحونَ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ، ووعَدَهُم بجزيلِ الثوابِ يومَ الحسابِ، قالَ تعالَى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨ ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨]. وشهدَ بالإيمانِ لِمَنْ عَمَرَها بإقامِ الصلاةِ فيها، وأكثرَ من اعتيادِها، قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨ ﴾ [التوبة: ١٨]، وتوعَّد سبحانَه مَنْ عَطَّلَ المساجدَ من ذِكْرِه، ومَنَعَ الناسَ من دخولِها لعبادَتِه فيها، وحاولَ هدْمَها وتخريبَها، قالَ تعالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ

وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ [البقرة: ١١٤].

وقد حَثَّ النبيُّ ﷺ على بناءِ المساجدِ فقالَ: «مَنْ بَنَى مسجدًا يبتَغِي به وجْهَ اللهِ، بَنَى اللهُ له بيتًا في الجنَّةِ»[١]، رَوَاهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما، وقالَ ﷺ: «مَنْ بنى للهِ مسجدًا يُذْكَرُ فيهِ بَنَى اللهُ له بيتًا في الجنَّةِ»[٢]، رواهُ ابنُ ماجه، وابنُ حِبانَ في صحيحِه.

ولَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ مهاجرًا كانَ أوَّلُ عملٍ قامَ به بناءَ المسجدِ؛ مِمَّا يدلُّ على أهميةِ المساجدِ ومكانتِها في الإسلامِ، فهي بيوتُ اللهِ، ومأوَى ملائِكَتِه، ومهابِطُ رحْمَتِه، ودورُ عبادَتِه، ومُلْتَقى عبادِه المؤمنينَ، لا تُبْنَى لأجلِ المُبَاهاةِ والزينةِ، ولا تُتَّخَذُ آثارًا ومتاحِفَ، ومظاهرَ للمفاخرةِ، وإنَّما تُبْنَى لإقامِ الصلاةِ وذِكْرِ اللهِ فيها، ولا تُبْنَى المساجدُ لتُغْلَقَ مُعْظَمَ الساعاتِ، كأنَّها مستودعاتُ أموالٍ، وإنَّما تُبنَى لِتَرْتَفِعَ فيها الدعواتُ والأذكارُ، ويَشِعَّ منها نورُ العبادةِ، ولتتوافدَ إليها جموعُ المسلمينَ وضيوفُ الرحمٰنِ، في كلِّ وقتٍ وأوانٍ.

المَشْيُ إليها تُكْتَبُ به الحسناتُ وتُمْحَى به السيئاتُ، قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ راحَ إلى مسجدِ الجماعةِ فخطوةٌ تمحو سيئة، وخطوةٌ تُكْتَبُ له حسنةٌ، ذاهبًا وراجعًا»[٣]، رواهُ أحمدُ بإسنادٍ حسنٍ، والطبرانيُّ، وابنُ حبانَ في صحيحهِ.

الجلوسُ في المساجدِ لانتظارِ الصلاةِ رباطٌ في سبيلِ اللهِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «ألاَ أدلُّكُم على ما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفعُ به الدرجاتِ؟» قالوا: بلىٰ يا رسولَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣) من حديث عثمان بن عفان.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٧٣٥) وابن حبان (١٦٠٨) من حديث عمر بن الخطاب.

(٣) أخرجه أحمد (٦٥٦٣) والطبراني ـكما في مجمع الزوائد (٢/٢٩)ـ وابن حبان (٢٠٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو.

اللهِ، قالَ: «إسباغُ الوضوءِ على المكارِه، وكثرةُ الخُطَا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ، فذلِكُم الرباطُ، فذلِكُم الرباطُ، فذلِكُمُ الرباطُ»(١). رواهُ مسلمٌ وغيرُه.

المشْيُ إلى المسجدِ في ظُلمةِ الليلِ يكونُ نورًا لصاحبِه يومَ القيامةِ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «بَشِّرِ المشائينَ في الظُّلَمِ إلى المساجدِ بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ»(٢). رواهُ أبو دوادَ، والترمذيُّ. واعتيادُ المَشْيِ إلى المساجدِ علامةٌ على الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخرِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «إذا رأيتُمُ الرجلَ يعتادُ المساجدَ فاشْهَدُوا له بالإيمانِ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]»(٣). رواهُ الترمذيُّ، وابنُ خزيمةَ، وابنُ حبانَ في صحيحيهما.

الذي يجلسُ في المسجدِ ينتظرُ الصلاةَ يُكْتَبُ له في انتظارِه أجرُ المُصَلِّي، وتستغفرُ له الملائكةُ مُدَّةَ انتظارِه، قالَ النبيُّ ﷺ: «لا يزالُ أحدُكُم في صلاةٍ ما دامتِ الصلاةُ تحْبِسُه لا يمنَعُه أنْ ينقلبَ إلى أهْلِه إلا الصلاةُ»(٤). رواهُ البخاريُّ، ومسلمٌ. وروى البخاريُّ: «إنَّ أحدَكم في صلاةٍ ما دامتِ الصلاةُ تحْبِسُه، والملائكةُ تقولُ: اللهُمَّ اغفرْ له، اللهُمَّ ارْحَمْه، ما لمْ يَقُمْ مِنْ مصلاهُ أو يُحْدِثْ»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥١) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه أبو داود (٥٦١) والترمذي (٢٢٣) من حديث بريدة.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٧، ٣٠٩٣) وابن ماجه (٨٠٢) وابن خزيمة (١٥٠٢) وابن حبان (١٧٢١).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٩) ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة.
(٥) صحيح البخاري (٣٢٢٩).

أَيُّهَا المسلمونَ: ومعَ هذِه الفضائلِ العظيمةِ التي يحصلُ عليها المُبَكِّرُ في الذهابِ إلى المساجدِ والذي يجلسُ فيها ينتظرُ إقامةَ الصلاةِ، مع هذا فإن كثيرًا من المصلينَ اليومَ يتأخرونَ عن الحضورِ للصلاةِ، فلا يأتونَ إلاَّ إذا أُقيمتِ الصلاةُ وربما يفوتُهم أوَّلُ الصلاةِ أو مُعْظَمُها، ويبخلونَ بأوقاتِهم أنْ يصرفوا شيئًا منها في المساجدِ، وهذا حرمانٌ عظيمٌ وتَعَرُّضٌ للوعيدِ الشديدِ؛ فقدْ قالَ النبيُّ ﷺ لمَّا رأى قومًا يتأخرونَ عن الحضورِ إلى المساجدِ، فقالَ: **«لا يزالُ قومٌ يتأخرونَ حتى يُؤَخِّرَهُم اللهُ»**[1]. رواهُ مسلمٌ، وأصحابُ السُّنَنِ إلا الترمذيَّ، وقالَ ﷺ: **«لا يزال قومٌ يتأخرونَ عن الصفِّ الأولِ حتى يُؤَخِّرَهُم اللهُ في النارِ»**[2]. رواهُ أبو داودَ، وابنُ خزيمَة، وابنُ حبانَ. إنَّ هذا العملَ يدلُّ على التكاسُلِ عن القيامِ للصلاةِ، وهو من صفاتِ المنافقينَ، قالَ اللهُ تعالى في وصْفِهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النِّساء: ١٤٢]، وقال عنهم أيضاً: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التّوبة: ٥٤]، قالَ ابنُ كثيرٍ رحمَهُ اللهُ: هذه صفةُ المنافقينَ في أشرفِ الأعمالِ وأفْضَلِها وخيرِها وهي الصلاة، وإذا قاموا إليها قاموا وهُم كُسالَى عنها؛ لأنَّهم لا نيَّةَ لهم فيها، ولا إيمانَ لهم بها ولا خشيةَ، ولا يعقلونَ معناها، ثُمَّ ساقَ بِسَنَدِه عنِ ابنِ عباسٍ ـ رضِيَ اللهُ عنهما ـ قالَ: يُكْرَهُ أنْ يقومَ الرجلُ إلى الصلاةِ وهو كسلانُ، لكنْ يقوم إليها طَلْقَ الوجْهِ عظيمَ الرغبةِ شديدَ الفرحِ، فإنَّه يناجي اللهَ، وإنَّ اللهَ تجاهَه يغْفِرُ له، ويجيبُه إذا دعاهُ، ثُمَّ يتلو هذِه الآيَةَ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٨) وأبو داود (٦٨٠) والنسائي (٧٩٥) وابن ماجه (٩٧٨) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه أبو داود (٦٧٩) وابن خزيمة (١٥٥٩) وابن حبان (٢١٥٦) من حديث عائشة.

كُسَالَىٰ﴾ [النِّساء: ١٤٢].

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ سبحانَه أَمَرَ بالتوجُّهِ إلى الصلاةِ والذهابِ إلى المسجدِ حينما يُنادَى لهَا، وأَمَرَ بتَرْكِ البيعِ والاتِّجارِ لأجْلِ ذلكَ؛ قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجُمُعَة: ٩]، وقال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]. قالَ ابنُ كثيرٍ رحمَهُ اللهُ: يقولُ اللهُ تعالَى: ويعلمونَ أنَّ الذي عندَه هو خيرٌ لهم وأنفعُ مما بأيدِيهم؛ لأنَّ ما عندَهم يَنْفَدُ وما عندَ اللهِ باقٍ، وعنِ ابنِ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّه رأى قوماً مِنْ أهْلِ السوقِ حيثُ نُودِيَ للصلاةِ المكتوبةِ تركُوا بيعهم ونهضُوا إلى الصلاةِ، فقالَ عبدُ اللهِ بنِ مسعودٍ: هؤلاءِ مِنَ الذينَ ذَكَرَ اللهُ في كتابهِ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٣٧]، وعَنِ ابنِ عمرَ ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه كانَ في السوقِ، فأُقيمتِ الصلاةِ، فأغلقُوا حوانيتَهم، ودخلوا المسجدَ، فقال ابنُ عمرَ: فيهم نَزَلَتْ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ [النُّور: ٣٧]، وقالَ مَطَرٌ الورَّاقُ: كانوا يبيعونَ ويشترونَ، ولكنْ كانَ أحدُهم إذا سمِعَ النداءَ وميزانُه في يدِه خفضَه وأَقْبَلَ إلى الصلاةِ.

أيُّها المسلمونَ: وقد حَثَّ النبي ﷺ على التبكيرِ بالحضورِ لصلاةِ الجُمعةِ واستماعِ الخُطبةِ؛ فقد رَوَى الإمامُ أحمدُ بِسَنَدِه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «مَنْ غَسَّلَ واغْتَسلَ يومَ الجمعةِ، وبكَّرَ وابْتكَرَ، ومشى ولم يركبْ، ودَنَا من الإمامِ، واسْتمعَ ولَمْ يلغُ ـ كانَ له بكلِّ خطوةٍ أَجْرُ سَنَةٍ صيامُها وقيامُها»[1]. قالَ ابنُ كثيرٍ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩١٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

رحمَهُ اللهُ: وهذا الحديثُ له طُرُقٌ وألفاظٌ، وقد أخرجَه أهْلُ السُّنَنِ الأربعةُ، وحسَّنَهُ الترمذيُّ. وكثيرٌ من الناسِ يُفرِّطونَ في هذا الأجْرِ العظيمِ، ويُضَيِّعونَه، ولا يحضرونَ لصلاةِ الجمعةِ إلاَّ عندَ الإقامةِ، أو فواتِ بعضِ الصلاةِ، ويتركونَ استماعَ الخطبةِ التي فيها توجِيهُهُمْ وإرشادُهُمْ وموعظتُهُمْ وتنبيهُهُمْ. قالَ ابنُ القيِّمِ رحمَهُ اللهُ: الثانيةُ والعشرونَ ـ من خصائصِ يومِ الجمعةِ ـ أنَّ فيه الخطبةَ التي يُقْصَدُ بها الثناءُ على اللهِ وتمجيدُه والشهادةُ له بالوحدانيةِ، ولرسولِه ﷺ بالرسالةِ، وتذكيرُ العبادِ بأيامِه، وتحذيرُهم من بأْسِه ونقمتِه، ووصِيَّتُهم بما يُقَرِّبُهم إليهِ وإلى جنتِه، ونهيُهُمْ عمَّا يقرِّبُهم من سخطِه ونارِه، فهذا هو مقصودُ الخُطبةِ والاجتماعِ لها، فالاستماعُ للخطبةِ أَمْرٌ مقصودٌ، وتَرْكُ استماعِها مخالفةٌ للسُّنةِ وتضييعٌ لفائدتِها، وذلكَ مِمَّا يُورِثُ قسوةَ القلوبِ والإعراضَ عن ذِكْرِ اللهِ، وفُشُوَّ الجهلِ والغَفْلة. نسألُ اللهَ العافيةَ.

فاتَّقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وانتبِهُوا لأنْفُسِكم، أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ... ﴾ [المنَافِقون: ٩] إلى آخرِ السورةِ.

* * *

في التحذيرِ من النارِ، وأسبابِ دخولِها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمَرَ بتقواهُ، وأخبرَ أنَّ مَنِ اتَّقاهُ وقَاهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحَده لا شريكَ له، ولا ربَّ لنا سِواهُ، ولا نعبدُ إلا إيَّاهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأكرَمُ الخلقِ على اللهِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، ومنِ اهْتَدى بهُداهُ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيها الناس، اتَّقُوا اللهَ تعالى، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التّحريم: ٦]. نِداءٌ مِنَ اللهِ لأهْلِ الإيمانِ، وأمرٌ وتحذيرٌ، وإخبارٌ عَنْ خَطَرٍ شديدٍ، يُنادِي اللهُ أهْلَ الإيمانِ؛ لأنَّهم هُمُ الذينَ يصغونَ لندائِه، ويمتثِلونَ أَمْرَه، وينتفِعُونَ بكلامِه، ويأْمُرُهم باتِّخاذِ الوقايةِ لأنْفُسِهم ولأهْلِيهم مِنْ خطرٍ أمامَهم ومَهلكةٍ في طريقِهم، لا يَنْجُو منها إلاَّ مَنْ تَنَبَّهَ لها قبلَ وصولِها، وأَخَذَ الحِيطةَ والحذَرَ من الوقوعِ فيها، هذه المَهلكةُ نارٌ عظيمةٌ ليستْ كالنارِ التي تعرفونَ: تُوقدُ بالحَطَبِ وتُطفأُ بالماءِ ويُمكنُ مكافحتُها والتغلبُ عليها، إنَّها نارٌ تُوقَدُ بجُثثِ الناسِ وبحجارةِ الأصنامِ أو حجارةِ الكبريتِ، ليست كنار الدنيا: مَنِ احترقَ بها ماتَ، وفارقَ الحياةَ، وانقطعَ إحساسُه بألمِها، بلْ ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النِّساء: ٥٦]، ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فَاطِر: ٣٦]، وليسَ القائمونَ على إيقادِها وتعذيبِ أهلِها مِمَّنْ يُدْركُهم العجزُ والتعبُ، أو تأخذُهم الشفقةُ

والرحمةُ، أو ينفعُ فيهم الاستعطافُ والاسترحامُ، أو تميلُ بهم المحاباةُ والعاطفةُ، أو يتساهلونَ في تنفيذِ الأوامرِ الصادرةِ إليهم بالتعذيبِ؛ إنَّهم ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التّحْريم: ٦].

أيُّها المسلمونَ: إنَّ تبعةَ المسلمِ في نَفْسِه وفي أهْلِه تبعةٌ ثقيلةٌ رهيبةٌ، فالنارُ هناكَ وهو متعرضٌ لها هو وأهْلُه، فعليهِ أنْ يَحُولَ دونَ نَفْسِه وأَهْله، ودونَ هذِه النارِ التي تَنْتَظِرُ مَنْ سارَ في طريقِها، إنَّها نارٌ فظيعةٌ مُسْتَعِرَةٌ معروضةٌ في طريقِه لا محيدَ له عنها، نارٌ وقودُها الناسُ والحجارةُ، الناسُ فيها والحجارةُ سواءٌ، في مهانةِ الحجارةِ وفي رُخْصِ الحجارةِ وفي قذفِ الحجارةِ، دونَ اعتبارٍ ولا عنايةٍ، ما أفْظَعَها نارًا هذه التي تُوقدُ بالحجارةِ، تأكلُ الحجارةَ الصلبةَ الصمَّاءَ، فكيفَ بجسمِ ابنِ آدمَ؟ عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ، تتناسبُ طبيعتُهم معَ طبيعةِ العذابِ الذي هم به موكَّلونَ، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التّحْريم: ٦]، فمِنْ صفاتِهم: طاعةُ اللهِ فيما يأْمُرُهم به، ومن صفاتِهم القدرةُ على تنفيذِ ما أَمَرَهُم به، لا يتركونَ منه شيئاً.

كيفَ يَقِي المؤمنونَ أنْفُسَهم وأهْلَهم من هذِه النارِ؟ إنَّ الله سبحانَه بيَّن لهم الطريقَ، وفتحَ لهم بابَ الرجاءِ والرحمةِ، والنجاةِ من هذه النارِ إنْ هم سلكُوا هذا الطريقَ الذي بيَّنَه لهم؛ قالَ سبحانَه وتعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

هذا هو الطريقُ، توبةٌ من الذنوبِ والسيئاتِ خالصةٌ للهِ، تتضمَّنُ تَرْكَ الذنوبِ، والندمَ على فعلِها، والعزم على عدمِ العودةِ إليها، وَرَدَّ مظالمِ العبادِ إليهِم،

وتدفعُ إلى العملِ الصالحِ، وتكونُ ثمرتُها تكفيرَ السيئاتِ، ودخولَ الجناتِ، والسلامةَ من الخِزْيِ الذي يصيبُ العصاةَ، واللحاقَ بالنبيِّ ﷺ والذينَ آمنوا معه في تَوَفُّرِ النورِ والخروجِ من الظلماتِ.

أيُّها المسلمونَ: إنَّنا بنصِّ هذِه الآياتِ مسؤولونَ عَنْ أنفُسِنا بأَنْ نُلْزِمَها بطاعةِ اللهِ ونبعدَها عن معصيةِ اللهِ، مسؤولونَ عن أولادِنا وزوجاتِنا، ومَنْ يسكنُ في بيوتِنا؛ أنْ نُلْزِمَهم بطاعةِ اللهِ، ونُجنِّبَهم معصيةَ اللهِ، وبذلكَ جاءتِ السُّنَّةُ الصحيحةُ عن رسولِ اللهِ ﷺ؛ حيثُ يقولُ: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ لسبعِ سنينَ، واضْرِبُوهم عليها لعشرٍ، وفرِّقُوا بينَهم في المضاجعِ»[١]، ويقولُ ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه»[٢].

أيُّها الآباءُ والأمهاتُ، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التّحريم: ٦] تعاوَنُوا على القيامِ بهذه المسؤوليةِ داخلَ بيوتِكم وخارجَها، تابِعوا أولادَكم أينما كانوا، مُرُوهُم بالمعروفِ، وانْهَوهُم عن المنكرِ، علموهم أمورَ دينِهم، اعزِلُوهم عن جُلَساءِ السوءِ وقُرَناءِ الفسادِ، طَهِّروا بيوتَكم من أدواتِ الفسادِ؛ من الفيديو، من الأفلامِ الفاسدةِ، من الأغاني، من الصورِ الخليعةِ، من الكتبِ المنحرفةِ، من الصحفِ والمجلاتِ الماجنةِ، من المربياتِ الأجنبياتِ، من الرجالِ الأجانبِ، سائقين أو خادمين.

عبادَ اللهِ: كيفَ يُنقِذُ نَفْسَه من النارِ مَنْ يتركُ الصلاةَ التي هي عمودُ الإسلامِ، والفارقةُ بينَ الكفرِ والإيمانِ؟ كيفَ يُنقِذُ نَفْسَهُ من النارِ مَنْ هَجَرَ المساجدَ، وتَرَكَ صلاةَ الجمعةِ والجماعةِ؟ كيفَ يُنقِذُ نَفْسَه من النارِ مَنْ تَجرَّأَ على المُحَرَّماتِ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣، ٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر.

واسْتَخَفَّ بالطاعاتِ؟ كيفَ يُنْقِذُ نَفْسَه من النارِ مَنْ يسيرُ في طريقِها ليلاً ونهاراً، وهو لا يدْرِي في أيِّ ساعةٍ يقفُ على بابِها؟ يقولُ النبيُّ ﷺ: «الجنةُ أدْنَى إلى أحَدِكم من شِراكِ نَعْلِه، والنارُ مثْلُ ذلكَ»[1]. يعني أنَّ مَنْ ماتَ على الطاعةِ دخلَ الجنةَ، ومَنْ ماتَ على المعصيةِ دخلَ النارَ، وهو الموتُ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمَان: ٣٤]. كيفَ يُنقِذُ نَفْسَهُ وأهْلَه من النارِ مَنْ فتحَ لهم بابَ الشرورِ؟ جلبَ الفيديو إلى بيتِه، جلبَ المربياتِ والخادمين والخادمات، وخَلطَهم معَ نسائِه وأولادِه، أو يسافرُ بزوجتِه وأولادِه إلى البلادِ الكافرةِ، يشاهدونَ فيها حياةَ الكفرِ والإباحيةِ، ويتحولونَ عن صفاتِ الحشمةِ والحياءِ والسترِ.

كيفَ يُنْقِذُ أهلَه من النارِ مَنْ تركَهم يعصونَ اللهَ، ويتركونَ ما أوْجَبَ اللهُ؟ كيفَ يُنْقِذُ أولادَه من النارِ مَنْ يخرجُ إلى المسجدِ، ويتركُهم على فُرُشِهم أو على لَهْوِهم ولَعِبِهم لا يصلونَ مع المسلمينَ؟ أيْ واللهِ إنَّنا نراهُم يملؤونَ الأسواقَ، ويُقْلِقُونَ الجيرانَ بأصواتِهم، ويَسدُّونَ الشوارعَ بسياراتِهم، ولا تُحَدِّثُهم أنْفُسُهم أنْ يذهبوا إلى المسجدِ، وآباؤهم يشاهدونَ ساكتينَ، يُوفِّرون لهم مطالبَهم، ويفْسَحُونَ لهم في بيوتِهم، ويَسْتقبلونَهم بالبشاشةِ والسرورِ، كأنَّهم يُقرُّونَهم على عملِهم السيِّئ، ويشجِّعونَهم على الاستمرارِ على ما هُم عليهِ وموقفُ الأمهاتِ أسوأُ من موقفِ الآباءِ، لا يُنْكِرْن، ولا يَغرْنَ، ولا يَخشينَ اللهَ، ولا يَخَفْنَ على أولادِهِنَّ من العقوبةِ ودخولِ النارِ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٨) من حديث ابن مسعود.

أيُّها الأمهاتُ، اتَّقينَ اللهَ في أولادِكنَّ، فإنكنَّ مسؤولاتٌ عنهم، لا تَترُكْنَهُمْ يجلسونَ معكُنَّ في البيوت، ويتركونَ الصلاةَ. أيُّها الآباءُ والأمهاتُ، تعاونوا على البِرِّ والتقوى، ولا تعاونُوا على الإثمِ والعدوانِ، تعاونوا على إنقاذِ أنفُسِكم وأهليكم من نارٍ وقودُها الناسُ والحجارةُ، واعلموا أنَّ ما أنتم عليهِ من إهمالِ الأولادِ في المعاصِي وتركِ الطاعاتِ، هو طريقٌ إلى النارِ، ومُوجبٌ لنزولِ العقوبةِ العاجلةِ، وما ديارُ المعذبينَ منكم ببعيدٍ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

* * *

في تحريمِ إضرارِ الإنسانِ بنفسِه

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خَلَقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ، وَمَنَحَهُ العقلَ والتفكيرَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه البشيرُ النذيرُ، والسراجُ المنيرُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ، واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

أيُّها المسلمونَ: لقد كرَّمَ اللهُ هذا الإنسانَ وفَضّلَه على كثيرٍ من مخلوقاتِه، وسَخَّر له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وحَرَّمَ الاعتداءَ على حياتِه، أو على بَدَنِه أو على عِرْضِه أو على مالِه، بغيرِ حقٍّ، فشرعَ القصاصَ مِمّن اعْتدى على حياتِه بالقتلِ، أو اعْتدَى على جسمِه بجرحٍ أو قطعِ طرفٍ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]، وحَرَّمَ الاعتداءَ على العِرْضِ بقذفٍ أو زنا، فشرعَ حَدَّ الزِّنا وحَدَّ القذفِ؛ صيانةً لأَعْراضِ بني آدمَ، وحرَّمَ

الاعتداءَ على أموالِ الناسِ، فشرع حَدَّ السرقِة، وحَدَّ قُطاعِ الطريقِ، وحَرَّمَ الاعتداءَ على العقل، فشرعَ حَدَّ المُسْكِرِ، شَرَعَ كُلَّ ذلكَ تكريماً لهذا الإنسانِ، وحمايةً لمُقَوِّماتِه في الحياةِ؛ ليعيشَ كريماً آمِناً مطمئناً، وأوْجَبَ عليهِ عبادَتَه وحدَه لا شريكَ له؛ ليواصلَ تكريمَه في الدنيا والآخرةِ، حينَ ينعمُ بجنَّتِه وينجُو من نارِه.

أيُّها المسلمونَ: وكما حمى اللهُ الإنسانَ من عدوانِ غيرِه عليهِ، كذلك حَمَاهُ من عدوانِه على نَفْسِه، فحرَّم على الإنسانِ أنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ، أوْ يَتَسَبَّبَ في قتلِها؛ قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النِّساء: ٢٩]، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥].

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ تردَّى من جبلٍ فقتلَ نَفْسَه فهو في نار جهنَّمَ يتردَّى فيها خالدًا مخلدًا أبدًا، ومَنْ تَحَسَّى سُمًّا فقتلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ في يدِه يتحسَّاهُ في نارِ جهنَّمَ خالداً مخلداً فيها أبدًا، ومَنْ قتلَ نَفْسَهُ بحديدةٍ فحديدتُه في يدِه يتوجَّأُ بها في نارِ جهنَّمَ خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»**[1]. رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما.

وعَنْ أبي هريرةَ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«الذي يَخْنُقُ نَفْسَهُ يخنُقُها في النارِ، والذي يَطْعَنُ نَفْسَهُ يطعنُ نَفْسَه في النارِ، والذي يَقْتَحِمُ يقتحمُ في النارِ»**[2]. رَوَاهُ البخاريُّ. ويدخلُ في هذا الوعيدِ مَنْ تَسَبَّبَ في قتلِ نَفْسِهِ بتناولِ مادةٍ تضرُّ بِصِحَّتِه وتُسبِّبُ له الأمراضَ القاتلةَ، كالذي يشربُ الدخانَ، فإنَّ الدخانَ ثبتَ ضررُه بالتواتُرِ والتجربةِ، وبشهاداتِ المختصينَ في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٥).

الطبِّ، وأنَّه يورثُ أمراضًا قاتلةً، فمَنْ تعاطاهُ فهو آثمٌ، ومَنْ ماتَ بسببِه فهو قاتلٌ لنفْسِه، فيجبُ على مَنِ ابتُلِيَ به أنْ يتوبَ وينقذ نفْسَه من خَطَرِه.

وكذلكَ حرَّم اللهُ على الإنسانِ أنْ يعتديَ على عقلِه بتعاطِي شيءٍ من المسكراتِ والمخدِّراتِ، فعنِ ابنِ عمرَ ـ رضي الله عنهما ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«لَعَنَ اللهُ الخمرَ وشارِبَها، وساقيَها، ومبتاعَها، وبائِعَها، وعاصِرَها، ومعتصِرَها، وحامِلَها، والمحمولةَ إليهِ»**[١]. رواهُ أبو داودَ، وابنُ ماجه وزادَ: **«وآكلَ ثمنِها»**. وعن ابنِ عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«اجتنبوا الخمرَ فإنَّها مفتاحُ كلِّ شرٍّ»**[٢]. رواه الحاكمُ، وقالَ: صحيحُ الإسنادِ.

والخمرُ اسمٌ لكلِّ مُسْكرٍ مِنْ أيِّ مادةٍ كانَ، سواءً سُمِّيَ خمرًا، أو كحولاً، أو شرابًا روحيًّا، أو كلونيا، أو غيرَ ذلك، فالأسماءُ لا تُغيِّرُ الحقائقَ، فَعَنْ أبي مالكٍ الأشعريِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّه سمِعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: **«يشربُ ناسٌ من أُمَّتِي الخمرَ، يُسَمُّونَها بغير اسمِها، يُضْرَبُ على رؤوسِهم بالمعازفِ والقيناتِ، يخسِفُ اللهُ بهم الأرضَ، ويجعلُ اللهُ منهم القردةَ والخنازيرَ»**[٣]. رواهُ ابن ماجَه، وابنُ حبانَ في صحيحِه.

فَيَحْرُمُ على المسلمِ تعاطي المُسْكِرِ بأيِّ اسمٍ سُمِّيَ، وعلى أيِّ شكلٍ كان، مائعًا أو جامدًا، خالصًا أو مخلوطًا معَ غيرِه. وسواء تعاطاهُ للشهوةِ واللذةِ، أو تعاطاهُ للتَّداوي؛ فعَنْ وائلِ بنِ حُجْرٍ أنَّ طارقَ بنَ سويدٍ الجعفيَّ سألَ النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٧٤) وابن ماجه (٣٣٨٠).
(٢) أخرجه الحاكم (٤/١٤٦) وهو في سنن ابن ماجه برقم (٣٣٧١).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٠) وابن حبان (٦٦٤٠) من حديث أبي مالك الأشعري. وهو في سنن أبي داود (٣٦٨٨) مختصرًا.

عن الخمرِ فنهاهُ عنها، فقالَ: إنَّما أصنَعُها للدواءِ، فقالَ: «إنَّه ليس بدواءٍ ولكنَّه داءٌ»[1]، رواهُ أحمدُ، ومسلمٌ، وأبو داودَ، والترمذيُّ وصحَّحَه. وفي السُّنَنِ: أنَّه ﷺ سُئلَ عن الخمرِ يُجْعَلُ في الدواءِ فقالَ: «إنَّها داءٌ وليستْ بشفاءٍ»[2]. رَوَاهُ أبو داودَ، والترمذيُّ.

ومن الاعتداءِ على العقلِ تعاطِي المخدراتِ التي تُفْسِدُ العقلَ، وتُورِثُ الخبالَ والتخليطَ، وتحوِّلُ الإنسانَ من صفاتِ الرجولةِ إلى صفاتِ الأنوثةِ، وتُسَهِّل فِعْلَ الفواحشِ والتعدِّي على الناسِ، سواءٌ كانتِ المخدراتُ من الحشيشِ والأفيونِ، أو على شكلِ حبوبٍ. قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية ـ رحمَهُ اللهُ ـ: والحشيشةُ المصنوعةُ من ورقِ القِنَّبِ حرامٌ أيضاً، يُجلدُ صاحبُها كما يُجْلَدُ شاربُ الخمرِ، وهي أخبثُ من الخمرِ من جهةِ أنَّها تُفْسِدُ العقلَ والمزاجَ حتى يصيرَ في الرَّجُلِ تَخَنُّثٌ ودياثةٌ وغيرُ ذلكَ من الفسادِ.

أيُّها المسلمونَ: كيفَ يليقُ بإنسانٍ أنعمَ اللهُ عليه بالعقلِ وفَضَّلَهُ به على كثيرٍ من الخَلْقِ، أنْ يَهْبِطَ إلى درجةِ الحيواناتِ، ويتعاطَى ما يُفْسِد عقْلَه من المسكراتِ والمخدراتِ، ويتعرضُ لسخطِ اللهِ وعقوبته؟ قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ ـ رحمه الله ـ في بيانِ مفاسدِ الخمرِ: هي كريهةُ المذاقِ، وهي رجسٌ من عملِ الشيطانِ، تُوقعُ العداوةَ والبغضاءَ بين الناسِ، وتَصُدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاةِ، وتدْعُو إلى الزِّنا، وربَّما دَعَتْ إلى الوقوعِ على البنتِ والأختِ وذواتِ المحارمِ، وتُذْهِبُ الغيرةَ، وتورثُ الخِزْيَ والندامةَ والفضيحةَ، وتلحقُ شاربَها بأنقصِ نوعِ الإنسانِ وهم المجانينَ، تُسهِّلُ قَتْلَ النفْسِ وإفشاءَ السرِّ الذي في إفشائِه مضَرّتُه

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣١٠) ومسلم (١٩٨٤) وأبو داود (٣٨٧٣) والترمذي (٢٠٤٦).
(٢) هو بعض ألفاظ حديث طارق بن سويد السابق.

أو هلاكُه، كَمْ أَهاجت من حَرْبٍ! وأفقرتْ من غَنيٍّ! وأذلَّتْ من عزيزٍ! ووَضَعتْ من شريفٍ! وسَلَبتْ من نعمةٍ! وجَلَبتْ من نقمةٍ! وكَمْ فرَّقتْ بينَ رجلٍ وزوجتِه! كَمْ أغْلَقَتْ في وجه شارِبها باباً من أبوابِ الخيرِ، وفَتَحَتْ له باباً من الشرِّ! فهي جِماعُ الإثمِ، ومفتاحُ الشرِّ، وسَلاَّبةُ النعمِ، وجلاَّبة النِّقَمِ، ولو لمْ يكنْ من رذائِلها إلاّ أنَّها لا تجتمعُ هي وخمرُ الجنَّةِ في جوفِ عبدٍ لكفى، كما ثبتَ عنه ﷺ أنَّه قالَ: «مَنْ شرِبَ الخمرَ في الدنيا لمْ يشربْها في الآخرةِ»[1].

اللهُمَّ أغْنِنا بحلالِك عن حرامك، واكْفِنا بفضْلِكَ عمّنْ سواكَ، أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المَائدة: ٩٠، ٩١].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٣٣) من حديث ابن عمر.

في النَّهْيِ عن المكاسبِ المحرَّمةِ

الحمدُ للهِ جعلَ في الحلالِ غُنْيةً عن الحرامِ، وأحلَّ البيعَ وحَرَّم الرِّبا، وأَمَرَ بطلبِ الرزقِ من الوجوهِ المباحةِ، وإنفاقِه في وجوهِ الخيرِ، أحمدُه على نِعَمِهِ الظاهرةِ والباطنةِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، أبانَ به المحجةَ، وأقامَ به الحجةَ على جميعِ الخَلْقِ، فمَنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّة، ومَنْ عصاهُ دَخَلَ النارَ، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمَّا بَعْدُ: أيها الناس، اتَّقُوا اللهَ تعالَى في جميعِ أعمالِكم وتصرفاتِكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّساء: ١].

أيُّها المسلمونَ: إنَّنا في زمانٍ طَغَى فيه طلبُ المالِ وحبُّ الدنيا، فَصَرَفَ ذلكَ كثيراً من الناسِ عن الآخرةِ حتى أضاعُوا الواجباتِ، وارْتكَبُوا المحرماتِ، وجَهِلوا أَمْرَ دينِهم، صارتِ الدنيا أكبرَ هَمِّهم ومبلغَ عِلْمِهم، لها يسعونَ، ومِنْ أجلِها يتعادونَ ويتقاطعونَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثُر: ١ ـ ٨].

عبادَ اللهِ: إنَّ طلبَ الرزْقِ والسَّعْيِ لتحصيلِ المالِ أمرٌ محمودٌ ومأمورٌ به شرعاً إذا رُوعِيتْ فيه الضوابطُ الشرعيةُ، وأُقيمَ على الموازينِ المرعيَّةِ؛ بأنْ يكونَ من الوجُوهِ المباحةِ والمكاسبِ الطيبةِ، وقد وَسَّع اللهُ لعبادِه أبوابَ الرزقِ المباحِ، ونهاهُم عن الأبوابِ المحرمةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟

أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النِّساء: ٢٩].

وأَكْلُ المالِ بالباطلِ يشملُ كلَّ المكاسبِ المحرَّمةِ: كالرِّبا، والسرقةِ، والرشوةِ والغشِّ في البيعِ، والغَبْنِ الفاحشِ، والغَصْبِ، ونقْصِ المكاييلِ والموازينِ، ومن ذلكَ نَقْصُ أكياسِ الأطعمةِ والسكرِ وصناديقِ الشايِ والخضارِ، بحيثُ يبيعُها على أنَّها وافيةٌ وعلى شَدِّ بلادِها، وهو قد أَخذَ منها ونَقَصَها نقصاً لا يشْعُرُ به المشتري؛ لأنَّه قد وَثِقَ به، ومن ذلك رَفْعُ القيمةِ على المشتري الذي لا يعْرِفُ أثمانَ السِّلعِ، ومن ذلك النَّجشُ المُحَرَّمُ، وهو أنْ يسومَ السلعةَ وهو لا يريدُ شراءَها، وإنما يريدُ إغلاءَها على المشتري، وقد يكونُ شريكاً للبائعِ، ومن ذلك التغريرُ بالجالبِ، بحيثُ يَتَّفِقُ أهلُ السوقِ أو أهلُ الصِّنْفِ على أنْ يسومَ السلعةَ المطلوبةَ واحدٌ منهم، ولا يزيدونَ عليهِ حتَّى يبيعَها صاحبُها بِرُخْصٍ يكونونَ شركاءَ فيها.

ومن ذلك التغريرُ بالجهاتِ الحكوميةِ والشركاتِ وأصحابِ الأعمالِ، عندما تُرسِلُ تلكَ الجهاتِ مندوباً لتأمينِ بعضِ المشترياتِ، فيتَّفِقُ ذلكَ المندوبُ معَ بعضِ أصحابِ المحلاتِ التجاريةِ على أنْ يشتريَ منه بسعرٍ، ويكتبَ في البيانِ سعراً أكثرَ منه، ويُوَقِّعُ معه صاحبُ المحلِّ؛ ليأخذَ المندوبُ الزيادةَ، وقد يشاركُه فيها صاحبُ المحلِّ، فيكونُ قد أَخَذَ مالاً حراماً، أو باعَ دِينَه بدُنيا غيرِه.

كُلُّ هذا يا عبادَ اللهِ، مِنْ أكْلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، فهو داخلٌ في هذا النهْيِ الربانيِّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النِّساء: ٢٩]، ومَنْ خالفَ هذا النَّهْيَ فأخذَ مالاً بطريقٍ باطلٍ فقد عَصَى اللهَ، وعَرَّضَ نَفْسَه للعقوبةِ العاجلةِ والآجلةِ.

عبادَ اللهِ: ولا يجوزُ للمسلمِ أنْ يشتغلَ بطلبِ المالِ عن أداءِ ما أوْجَبَ اللهُ عليه في وقتِهِ المُحَدَّدِ؛ كالصلواتِ الخَمْسِ؛ والجمعةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الجُمُعَة: ٩ـ ١١].

وقد أثْنَى اللهُ على الذينَ يُقبِلونَ على الصلواتِ في أوقاتِها، ولا يشتغلونَ عنها بتجارةٍ ولا بيعٍ، ووَعَدَهُم بجزيلِ الثوابِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النُّور: ٣٦ـ٣٨].

نداءاتٌ إلهيةٌ، وتوجيهاتٌ ربانيةٌ لأهلِ الإيمانِ، ليجمعوا بينَ الحُسْنَيَيْنِ: طلبِ الرزقِ في أوقاتِه، وأداءِ العبادةِ في أوقاتِها؛ لينالوا سعادةَ الدنيا والآخرةِ، وتهديدٌ ووعيدٌ لِمَنْ أخلَّ بهذا النظامِ، وصَرَفَ كلَّ وقتِه في طلبِ الحطامِ، وتَرَكَ ما أوْجَبَ اللهُ عليهِ ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النّجم: ٢٩]، وستفوتُه الدنيا والآخرةُ، ويكونُ من الخاسرينَ.

باركَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

الخطبةُ الثانيةُ:

الحمدُ للهِ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه، ورسولُه، صلَّى الله عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، وسلَّمَ تسليماً كثيراً. أمَّا بَعْدُ:

أيها الناس، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وأطيعوهُ تسْعَدُوا وتُفْلِحُوا في دنياكُم وآخرتِكم، واعلموا أنَّه مطلوبٌ من المسلم إذا جَمَعَ المالَ من وجهِ حلالٍ أنْ يُنفقَ منه في وجُوهِ الخيرِ والنفقاتِ المستحبةِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقَرة: ٢٥٤]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المنافِقون: ١٠، ١١]. وقد ذَمَّ اللهُ الذين يجمعونَ ويوعونَ، ويبخلونَ ولا ينفقون؛ قالَ تعالَى: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [المعَارج: ١٥ـ ١٨]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أيْ: لا يُخْرِجُونَ زكاتَها ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التّوبَة: ٣٤، ٣٥]، فالمالُ ليسَ مقصوداً لذاتِه، وإنَّما يُجْعَلُ وسيلةً يستعانُ بها على فعلِ الخيرِ والتقرُّبِ إلى اللهِ بالإنفاقِ في طاعتهِ وفي سبيلِه، فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، ولا يحملنَّكم الجشعُ والطمعُ على طلبِ الرزقِ من الوجوهِ المُحَرَّمةِ، ولا يحملنَّكم البخلُ والشُّحُ على تَرْكِ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ.

* * *

في المحافظةِ على الفرائض وتجنُّب المحرّماتِ

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، شرَعَ لنا ديناً قويماً، وهدانا صراطاً مستقيماً، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وكفى باللهِ عليماً، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، نبيٌّ شرحَ اللهُ له صَدْرَه، ورفَعَ له ذِكْرَه، وجَعَلَ الذلَّةَ والصغارَ على مَنْ خالفَ أمْرَه، وكانَ فضْلُ اللهِ عليه وعلى أُمَّتِه عظيمًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، وكلِّ مَنِ اتَّبَعَه، وسلَّم تسليماً. أمَّا بَعْدُ:

عبادَ اللهِ، اتَّقوا اللهَ تعالَى، فإنَّ بينَ أيدِيكُم ما إنْ تَمسَّكْتم به لنْ تَضِلُّوا، بينَ أيدِيكُم كتابُ اللهِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يديهِ ولا مِنْ خلْفِه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، وبينَ أيدِيكُم سُنَّةُ نبيِّهِ ﷺ التي هي تفسيرٌ للقرآنِ وتوضيحٌ له، وهي وحْيٌ من عندِ اللهِ، أوحاهُ إلى نبيِّه ﷺ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: ٣، ٤]. وسأُسْمِعُكُم حديثًا من أحاديثِه الكريمةِ، يرسمُ لكم فيه المنهجَ السليمَ، ويُرْشِدُكم إلى الصراطِ المستقيمِ، فقد رَوَى الدارَقُطْنيُّ وغيرُه، عن أبي ثعلبةَ الخشنيِّ ـ رضي الله عنه ـ عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ فرضَ فرائضَ فلا تضيِّعُوها، وَحَدَّ حدودًا فلا تَعْتَدُوها، وحَرَّمَ أشياءَ فلا تَنْتَهِكُوها، وسَكَتَ عن أشياءَ رحمةً لكم من غيرِ نسيانٍ، فلا تَبْحَثُوا عنها»[1].

فهذا الحديثُ من جوامعِ كَلِمِهِ ﷺ، وهو أصْلٌ كبيرٌ من أصولِ الدينِ وفروعِه، حيثُ قَسَّمَ أحكامَ اللهِ إلى أربعةِ أقسامٍ: فرائضَ، ومحارمَ، وحدودٍ،

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

ومَسْكُوتٍ عنه، وذلكَ يجمعُ أحكامَ الدينِ كلَّها، ولهذا قالَ بعضُ العلماءِ: مَنْ عَمِلَ بهذا الحديثِ فقدْ حازَ الثوابَ وأَمِنَ العقابَ؛ لأنَّ مَنْ أدَّى الفرائضَ، واجْتَنَبَ المحارمَ، ووَقَفَ عندَ الحدودِ، وتَرَكَ البَحْثَ عمَّا غابَ عنه ـ فقدِ اسْتوْفَى أقسامَ الفضلِ، وأَوْفَى حقوقَ الدينِ.

والمرادُ بالفرائضِ ما فَرَضَ اللهُ على عبادِه، وأَلْزَمَهُم القيامَ به؛ كالصلاةِ والزكاةِ والصيامِ والحجِّ، وأمَّا المحارمُ فهي حِمَى اللهِ الذي مَنَعَ من قُربِه وانتهاكِه، وهي كلُّ ما نهَى عنه وتوعَّدَ مَنِ ارْتَكَبَه، وأمَّا الحدودُ فيُرادُ بها جميعُ ما أَذِنَ اللهُ في فِعْلِه، سواء عن طريقِ الوجوبِ، أو عن طريقِ الندبِ، أو عن طريق الإباحة. واعتداؤها: تجاوُزُها إلى ارتكابِ ما نَهى اللهُ عنه، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ويُرادُ بحدودِ اللهِ أيضاً نَفْسُ المحرماتِ ا لتي حرَّمَها، وحينئذٍ ينهَى عن قُرْبها؛ كما قالَ تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فالحدودُ المأذونُ في فِعْلِها لا تُتعَدَّى، والحدودُ المَنْهِيُّ عنها لا تُقْرَبُ. وقد تُطْلَقُ الحدودُ، ويرادُ بها العقوباتُ المُقدَّرةُ الرادعةُ عن المحارمِ، فيقالُ: حَدُّ الزِّنا، وحَدُّ السرقةِ، وحَدُّ المُسكرِ، كمَا قالَ ﷺ لأسامةَ: «أتشفَعُ في حدٍّ من حدودِ اللهِ»[1] يعني القَطْعَ في السرقةِ. وأمَّا المسْكُوتُ عنه فهو ما لم يُذْكَرْ حُكْمُه بتحليلٍ ولا إيجابٍ ولا تحريمٍ؛ فيكونُ معفوًّا عنه لا حرجَ على فاعِله.

عبادَ اللهِ: لقد أوصَى النبيُّ ﷺ نحْوَ كلِّ واحدٍ من هذه الأمورِ الأربعةِ بوصيةٍ خاصةٍ، فأوْصَى بالفرائضِ ألا تُضَيَّعَ، وأوْصَى بالحدودِ ألا تُتَعَدَّى، وأوْصَى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة.

بالمحرماتِ ألا تُنتهَكَ، وأوْصَى بما سكَتَ عنه ألا يُبْحَثَ عنه، فيجبُ علينا التزامُ وصيةِ رسولِ اللهِ ﷺ فيها، فإنَّه كثيراً ما يقعُ الخللُ في الدينِ بسببِ إهمالِ هذِه الوصايا النبويةِ الشريفةِ.

تجبُ المحافظةُ على فرائضِ اللهِ التي فَرَضَهَا على عبادِه بأدائِها على وجْهِها، وفي طليعةِ ذلكَ الصلواتُ الخَمْسُ، وأداءُ الزكاة، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ الله الحرامِ؛ قالَ تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقد توعَّد اللهُ من ضَيَّعَ الصلاةَ بأشدِّ الوعيدِ فقالَ تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريَم: ٥٩، ٦٠]، والغيُّ وادٍ في جهنَّم شديدٌ حَرُّهُ، بعيدٌ قَعْرُهُ، ومَنْ ضَيَّعَ الصلاةَ فهو لما سِواهَا أضْيَعُ؛ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وكثيرٌ من الناسِ يَهْتَمُّ بالنوافلِ، وهو مُضيِّعٌ للفرائضِ، فَتَجِدُه مثلاً يعْتَمِرُ في رمضانَ وفي غيرِه، ويحجُّ مُتنفِّلاً، وهو لا يُصلِّي الصلواتِ الخَمْسَ، أو يَتْرُكُ الصلاةَ مع الجماعةِ، تجدُه يتبرعُ بالأموالِ للمشاريعِ، وهو لا يُؤَدِّي الزكاةَ المفروضةَ، والبعضُ الآخرُ يتقرَّبُ إلى اللهِ بالبِدَعِ والخرافاتِ، ويَتْرُكُ العباداتِ المشروعةَ، وكثيرٌ من الناسِ لا يَجِدُ في نَفْسِه حرجاً في انتهاكِ ما حرَّم اللهُ، وتَعَدِّي حدودِ اللهِ ما دامَ ذلك يوافقُ هَواهُ، ويطابِقُ شهوتَه، قد اتَّخَذَ إلٰهه هواهُ، وأَضَلَّه اللهُ على عِلْمٍ.

فالخيرُ يا عبادَ اللهِ، كل الخيرِ، في التزام ما شَرَعَ اللهُ، وتَرْكِ ما حَرَّمَ اللهُ، فإنَّ اللهَ لَمْ يُوجِبْ على عبادِه شيئاً إلاَّ وهو مَصْلَحةٌ لهم في دينِهم ودنياهم، فإذا أضَاعُوا ما فَرض اللهُ عليهِم فقد أضَاعُوا مَصْلَحَتَهم، ولمْ يُحرِّمْ سبحانَه شيئاً على

عبادِه إلاَّ وفيهِ مَضَرَّتُهم في الدنيا والآخرةِ، فإذا وقَعُوا فيما حَرَّمَ اللهُ فقد أوْقَعوا أَنْفُسَهم في الضررِ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البَقَرَة: ٢١٦] يَعْلَمُ المصالح والمضارَّ العاجلةَ والآجلةَ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعرَاف: ١٥٧].

وقد يَسْكُتُ سبحانَه وتعالى عن أشياءَ رِفقاً بعبادِه فلا يُحرِّمُها عليهم حتّى يُعَاقِبَهم على فِعْلِها، ولمْ يوجِبْها عليهم حتَّى يُعاقبَهم على ترْكِها، بلْ جَعَلَها عفواً إذا فعلوها فلا حرجَ عليهم، وإنْ تَرَكُوها فلا حَرَجَ عليهم، فهو سَكَتَ عنها لحِكمةٍ لا نسياناً منه سبحانَه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريَم: ٦٤]، فالسؤالُ عَنْ مِثْلِ هذا يكونُ مِنَ التَّنَطُّعِ والتَّكَلُّفِ وطلبِ التضييقِ على الناسِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «هلكَ المتنطعونَ». قالَها ثلاثاً. والمُتَنَطِّعُ هو المُتَعَمِّقُ البَحَّاثُ عما لا يعْنيهِ، وقد قالَ ابنُ مسعودٍ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ: «إياكَ والتَّنَطُّعَ، إياكم والتعمقَ، وعليكم بالعتيقِ»[1] يعني ما كانَ عليهِ الصحابةُ، رَضِيَ اللهَ عنهم. ويدخلُ في ذلكَ البحثُ في أمورِ الغيبِ التي أُمِرْنا بالإيمانِ بها، ولم تُبَيَّنْ لنا كيفيتُها، فالبحثُ عنها من التعمُّقِ المنهِيِّ عنه؛ لأنَّه يُفْضِي إلى الحيرةِ والشَّكِّ، ففي الوقوفِ عندَ حدودِ اللهِ وأداءِ ما أوْجَبَه، وتَرْكِ ما حَرَّمَه ـ سعادةُ الدنيا والآخرةِ.

وعَنِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ـ رَضِيَ اللهُ عنهما ـ أنَّ رجُلاً سألَ رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: أرأيتَ إذا صليتُ المكتوباتِ، وصُمْتُ رمضانَ، وأَحْلَلْتُ الحلالَ، وحَرَّمْتُ الحرامَ، ولم أزدْ على ذلكَ شيئاً أدخلُ الجنَّةَ؟ قالَ: «نعم»[2]. رواهُ مسلمٌ. فهذا

---

(١) أخرجه الدارمي (١٤٢، ١٤٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٥).

الحديث يَدُلُّ على أنَّ مَنْ قامَ بالواجباتِ، وَتَرَكَ المحرماتِ دَخَلَ الجنَّةَ، وقد تواترتِ الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ بهذا المَعْنَى، وقد قالَ النبيُّ ﷺ وهو يخطبُ في حَجَّةِ الوداعِ: «أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ، وصَلُّوا خَمْسَكُم، وصومُوا شهرَكُم، وأدُّوا زكاةَ أموالِكم، وأطيعُوا ذا أَمْرِكم؛ تدْخُلوا جنةَ ربِّكُم»[1] فَفِعْلُ الواجباتِ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ، وفِعْلُ المحرماتِ من موانعِ دخولِها، فَمَنْ فَعَلَ الأسبابَ وتجنَّبَ الموانعَ استحقَّ دخولَ الجنةِ، برحمةِ اللهِ ووعْدِه الصادِق.

والإنسانُ لمْ يُخْلَقْ عبثاً، ولنْ يُترَكَ سُدىً، إنَّما خُلِقَ لعبادةِ اللهِ ونُهِيَ عن معصيةِ اللهِ، وأُعِدَّتْ له دارُ جزاءٍ يَصيرُ إليها، إمَّا دارُ نعيمٍ، أو دارُ عذابٍ، فالجنَّةُ أُعِدَّتْ للمتقينَ، والنارُ أُعِدَّتْ للكافرينَ، والجزاءُ من جِنْسِ العملِ ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥٤]. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات: ٣٧ـ٤١].

باركَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٦١٦) من حديث أبي أمامة.

في بيانِ أسبابِ الفلاحِ

الحمدُ للهِ حَكَمَ بالفلاحِ لأهْلِ الإيمانِ، وبالخسارةِ لأهْلِ الكفرِ والطغيانِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، مَنِ اتَّقاهُ وقَاهُ، ومَنْ عاذَ به حَمَاهُ، ومَنْ أعْرَضَ عنه أذلَّهُ وأشْقَاهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، لا خيرَ إلاّ دَلَّ أُمَّتَه عليهِ، ولا شَرَّ إلا حَذَّرَها منه، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه ومَنْ تمسَّكَ بسُنَّتِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، كثيرٌ مِن الناسِ يَظُنُّ أنَّ الفلاحَ والسعادةَ في الحصولِ على حُظوظِ الدنيا العاجلةِ من وفرةِ المالِ وحصولِ الجاهِ والتمتُّعِ بالملذاتِ. وصِنْفٌ آخرُ يرى أنَّ السعادةَ والفلاحَ هي في السَّبْقِ في مجالِ الصناعةِ والاختراعِ، والتَّرَفُّعِ على الآخرينَ، وبناءً على هذِه النظريةِ، صرفُوا كلَّ أوقاتِهِم وأفْنَوا أعمارَهم وأنْهكوا قُواهُم، في السَّعْيِ وراءَ الحصولِ على تلكَ الأشياءِ التي هي في نظرِهِم مقوماتُ السعادةِ والفلاحِ، فهي شُغْلُهم الشاغلُ، وهَمُّهُم الذي مَلَكَ عليهِم كلَّ تفكيرِهم، وهي موضوعُ أحاديثِهِم، وهي مجالُ تنافُسِهِم. وايْمُ اللهِ لقد ضَلُّوا، وما كانوا مهتدينَ، فلقد هلكَ وشَقِيَ بالمالِ قارونُ الذي آتاهُ اللهُ مِنَ الكنوزِ ما إنَّ مفاتِحه لتنوءُ بالعصبةِ أُولي القوةِ، ولقد هلكَ بالمُلْك والسلطانِ فرعونُ الذي قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزّخرُف: ٥١]، ولقد هلكَ بالتَّرَفِ وتناولِ الملذَّاتِ القرونُ الأُولى ذاتُ الترفِ والنعيمِ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤]، ولقد شَقِيَ في مجالِ الصناعةِ والاختراعِ الأُمَمُ الحاضرةُ بحيثُ أصبحتْ كلُّ دولةٍ تهدِّدُ الدولةَ الأخرى بمخترعاتِها ومدمراتِها، فصار تَسَابُقُهم في وسائِلِ الدَّمارِ لا في وسائِلِ الاستقرارِ، وصارَ الجميعُ مُهدَّدينَ باندلاعِ حربٍ طاحنةٍ تأتي على الأخضرِ واليابسِ.

وهكذا يا عبادَ اللهِ، إذا لمْ يكنِ الإيمانُ هو الموجِّهَ، وإذا لمْ تَكُنِ العقيدةُ الصحيحةُ هي الأساسَ ـ فَسَدَتِ الدُّنيا وانهارَ البنيانُ، وأصبحتِ الأعمالُ كلُّها لا فائدةَ منها لا عاجلاً ولا آجلاً؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ ﴾ [النور: ٣٩]، وقالَ تعالَى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥]، وقد سَمَّى اللهُ ما يعيشُه الكفارُ في هذِه الدُّنيا بما فيه من الأموالِ والجاهِ والسلطانِ والقوةِ، والصناعاتِ والاختراعاتِ، سَمَّى ذلكَ كلَّه متاعًا مؤقتًا زائلاً تَعْقُبُه النارُ والخسار، قالَ تعالَى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. بلْ لقد حَكَمَ اللهُ على الكفارِ بما فيهم ملوكُهم ورؤساؤهم وعلماؤهم ومفكروهم، حَكَمَ عليهم كلِّهم بأنَّهم شرُّ الدوابِّ وشرُّ البريّةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٥]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ [البيّنة: ٦].

عبادَ اللهِ: يُعْجَبُ كثيرٌ من الناسِ بزهرةِ الدُّنيا ومتاعِها فيَتَعلّقُ بها وينْسَى الآخرةَ، قالَ تعالَى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقَرة: ٢١٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عِمرَان: ١٤]، فالكفارُ وبعضُ المسلمينَ الذينَ ضَعُفَ إيمانُهم، يغتَرُّونَ اليومَ إذا نَظَرُوا إلى ما بأَيْدِي الكفارِ من زهرةِ الدُّنيا وما تَوَصَّلوا إليه من مخترعاتٍ، فيذهبُ ذلكَ بهم إلى الإعجابِ بالكفارِ وتعظيمِهِم في نفوسِهِم، وإذا رأَوْا ما أصابَ المسلمينَ من ضَعْفٍ وتأَخُّرٍ في مجالِ الصناعةِ ظَنُّوا أنَّ هذا بسببِ الإسلامِ، فهانَ الإسلامُ والمسلمونَ في نفوسِهِم، ولمْ يعلموا أنَّ تَأَخُّرَ المسلمينَ لا يُنْسَبُ إلى الإسلامِ، وإنَّما يُنْسَبُ إلى تقصيرِ المسلمينَ وتكاسُلِهم وعدمِ عملِهِم بمُقْتَضَى الإسلامِ الذي يحثُّ على الأخْذِ بالأسبابِ واكتسابِ القوةِ، فالإسلامُ دينُ القوَّةِ والعزَّةِ، لكنَّه يحتاجُ إلى حَمَلَةٍ.

عبادَ اللهِ: لقد تحقّقَ إفلاسُ الكافرينَ وخسارتُهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّهم يفقدونَ مقوماتِ الفلاحِ والسعادةِ التي مِنْ أبْرزِها الإيمانُ باللهِ واليوم الآخرِ، فلقد حَكَمَ اللهُ بالفلاحِ للمؤمنينَ؛ قالَ تعالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١].

ومِنْ أسبابِ الفلاحِ التوبةُ إلى اللهِ من الذنوبِ، والإيمانُ باللهِ، والعملُ الصالحُ؛ قالَ تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾ [القَصَص: ٦٧]، ومِنْ أسبابِ الفلاحِ ملازمةُ ذِكْرِ اللهِ تعالَى؛ قالَ تعالَى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [الأنفَال: ٤٥]، ومن أسبابِ الفلاحِ تحليةُ النَّفْسِ بالصفاتِ الحميدةِ وإبعادُها عن الصفاتِ الذميمةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ [التّغَابُن: ١٦]، وقالَ تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

عبادَ اللهِ: سيأتي على الناسِ يومٌ يظهرُ فيه المفلحُ من الخاسرِ، ذلكم هو يومُ وزْنِ الأعمالِ، قالَ تعالَى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعرَاف: ٨، ٩]، إنَّ بإمكانِ الإنسانِ اليومَ أنْ يَسْتَعِدَّ لهذا الوزْنِ؛ فيُنسِّقَ أعمالَه، ويصلحَ ما فَسَدَ منها، ويكثرَ من الحسناتِ لِتَثْقُلَ موازينُه يومَ القيامةِ، بإمكانِه أنْ يقدِّمَ لهذا الميزانِ ما يُثْقِلُه ما دامَ على قيدِ الحياةِ وما دامَ يذْكُرُ هذا الميزانَ ويَتَذَكَّرُهُ، فإنْ نَسِيَهُ فليسَ بِمَنْسِيٍّ، وإنْ غَفَلَ فليس بمغفولٍ عنه، وكما تَدينُ تُدانُ، والأعمالُ بالخواتيمِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البَقَرَة: ١-٥].

باركَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في النَّهي عن الاغترارِ بالدُّنيا

(مُلخصةٌ من جامعِ العلومِ والحكمِ، لابنِ رجبٍ رحمَهُ اللهُ)

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليبلُوَكُم أيُّكم أحسنُ عملاً، وجَعَلَ الدنيا مزرعةً للآخرةِ، وحَذَّرَ عبادَه من الاغترارِ بالحياةِ الدنيا ونسيانِ الآخرةِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بَعَثَهُ بالهُدَى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدينِ كلِّه ولو كَرِهَ المشركونَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيها الناس، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وتَذَكَّرُوا مصيرَكُم، وانْظُروا ماذا قَدَّمْتُم له من أعمالِكم، ولا تَغرنَّكُم الحياةُ الدنيا، ولا يَغُرَّنكم باللهِ الغرور، عَنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما قالَ: أَخَذَ رسولُ اللهِ ﷺ بمنكبِي فقالَ: «**كنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ**»، وكانَ ابنُ عمرَ ـ رَضِيَ اللهُ عنهما ـ يقولُ: «إذا أَمْسَيْتَ، فلا تَنْتَظِرِ الصباحَ، وإذا أصْبَحْتَ فلا تنتظرِ المساءَ، خُذْ من صحتِكَ لِمَرضِكَ، ومِنْ حياتِكَ لموتِكَ»[1]. رَوَاهُ البخاريُّ. فهذا الحديثُ أَصْلٌ في قِصَرِ الأملِ في الدُّنيا، فإنَّ المؤمنَ لا يَنْبَغِي له أنْ يَتَّخِذَ الدُّنيا وطنًا ومسكنًا فَيَطْمَئِنَّ فيها، ولكِنْ يَنْبغِي له أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناحِ سَفَرٍ يُهَيِّئُ جهازَه للرحيلِ، وقَدِ اتَّفَقَتْ على ذلكَ وصايا الأنبياءِ وأَتْباعِهم، قالَ مؤمنُ آل فرعونَ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

وكانَ النبيُّ ﷺ يقولُ: «ما لي وللدُّنيا! إنَّمَا مَثَلِي ومَثَلُ الدُّنيا كمثلِ راكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتَركَها»[(١)]، ومن وصايا المسيحِ عليهِ السلامُ لأصحابِه: أنَّه قالَ لهم: «اعْبُروها ولا تعمُروها»، ورُوِي عنه أنَّه قالَ: «مَنْ ذا الذي يَبْنِي على موجِ البحرِ دارًا، تِلْكُم الدُّنيا فلا تَتَّخِذُوها قرارًا»، وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ يقولُ: «إنَّ الدنيا قَدِ ارْتَحلَتْ مُدْبِرةً، وإنَّ الآخرةَ قَدِ ارتحلتْ مقبلةً، ولكُلٍّ منهما بنونَ، فكونوا من أبناءِ الآخرةِ، ولا تكونوا مِنْ أبناءِ الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حسابَ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ»، وقالَ عمر بنُ عبدِ العزيزِ في خطبتِه: «إنَّ الدُّنيا ليستْ بدارِ قرارٍ، كَتبَ اللهُ عليها الفناءَ، وكَتبَ اللهُ على أهْلِها منها الظَّعنَ، فكَمْ من عامرٍ مُوَثَّقٍ عمَّا قليلٍ يخربُ، وكَمْ من مقيمٍ مغتبطٍ عمَّا قليلٍ يَظْعَنُ، فأحْسِنُوا رحمَكُمُ اللهُ منها الرحلةَ، بأَحْسَنِ ما يَحْضُرُكُم من النقْلَةِ، وتَزوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى».

وقَدْ قالَ النبيُّ ﷺ يومًا لأصحابِهِ: «إنَّما مثلِي ومثلُكُم ومثلُ الدنيا كقومٍ سلَكُوا مفازةً غبراءَ، حتَّى إذا لمْ يدْرُوا: ما سلَكُوا منها أكْثَرُ أو ما بَقِيَ، أَنْفَدوا الزادَ، وخسروا الظَّهْرَ، وبقوا بينَ ظهراني المفازةِ لا زادَ ولا حَمولةَ، فأيْقَنوا بالهلكةِ، فبينَما هم كذلكَ إذْ خَرجَ عليهِم رجلٌ يقْطُرُ رأسُه ماءً فقالوا: إنَّ هذا قريبُ عهدٍ بريفٍ، ما جاءَكُم هذا إلاَّ من قريبٍ، فلمَّا انْتَهى إليهِم قالَ: عَلامَ أنتم؟ قالوا: على ما تَرَى. قالَ: أرأيْتم إنْ هديتُكُم على ماءٍ رواءٍ ورياضٍ خضراءَ ما تَعْمَلونَ؟ قالوا: لا نَعْصِيكَ شيئًا، قالَ: عهودَكُم ومواثيقَكُم باللهِ، قالَ: فأعْطَوهُ عهودَهُم ومواثيقَهُم باللهِ لا يَعْصُونَه شيئًا، قالَ: فأوْرَدَهُم ماءً ورياضًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) من حديث ابن مسعود.

خضراءَ، فَمَكَثَ فيهم ما شاءَ اللهُ ثُمَّ قالَ: يا هؤلاءِ، الرحيلَ. قالوا: إلى أينَ؟ قالَ: إلى ماءٍ ليسَ كمائِكُم، وإلى رياضٍ ليستْ كرياضِكُم، فقال جُلُّ القومِ وهم أكْثَرُهم: واللهِ ما وجَدْنا هذا حتَّى ظَنَنَّا أنْ لنْ نَجِدَهُ، وما نَصْنَعُ بعيشٍ خيرٍ من هذا. وقالتْ طائفةٌ وهم أقلُّهُم: أَلَمْ تُعْطُوا هذا الرجلَ عهودَكُم ومواثيقَكُم باللهِ لا تَعْصُونَه شيئًا، وقد صَدَقَكُم في أوَّلِ حديثِه، فواللهِ لَيَصْدُقَنَّكُم في آخرِه! قالَ: فراحَ فيمَنْ تَبِعَهُ، وتخلَّفَ بَقِيتُهم، فنزلَ بهم عدوٌّ فأصْبحُوا بينَ أسيرٍ وقتيلٍ»[١].

رواهُ ابنُ أبي الدنيا، والإمامُ أحمدُ مُخْتَصرًا.

هذا المَثَلُ في غايةِ المطابقةِ بحالِ النبيِّ ﷺ معَ أُمَّتِهِ، فإنَّه أتاهُم والعربُ إذْ ذاكَ أذلُّ الناسِ وأَقَلُّهُم وأسوؤهُم عيشًا في الدُّنيا وحالاً في الآخرةِ، فدعَاهُم إلى سلوكِ طريقِ النجاةِ، وظَهَرَ لهم من براهينِ صِدْقِه كما ظَهَرَ من صدْقِ الذي جاءَ إلى القومِ الذينَ في المفازةِ، وقد نَفدَ ماؤُهُم وهلكَ ظَهْرُهُم، وقد رأَوْه في حُلَّةٍ مُتَرَجِّلاً يَقْطُر رأسُه ماءً، ودلَّهُم على الماءِ، والرياضِ المُعْشِبَةِ، فاستَدَلُّوا بهيئَتِهِ وحالِه على صِدْقِ مقاله فاتَّبَعُوهُ، ووعَدَ مَنِ اتَّبَعُوه بفتحِ فارسَ والرومِ، وأَخْذِ كنوزِهِما، وحذَّرَهُم مِنَ الاغترارِ بذلكَ والوقوفِ معه، وأَمَرَهُم بالتَّجزِّي من الدنيا بالبلاغِ، والجدِّ والاجتهادِ في طَلَبِ الآخرةِ والاستعدادِ لها، فوجدُوا ما وَعَدَهُم به كلَّه حقًّا، فلمَّا فُتِحَتْ عليهم الدنيا كما وَعَدَهُم اشْتَغَلَ أكثرُ الناسِ بجمْعِها واكتنازِها والمنافَسَةِ فيها، ورضوا بالإقامةِ فيها والتمتُّعِ بشهواتِها، وتركُوا الاستعدادَ للآخِرَةِ التي أمرَهُم بالجدِّ والاجتهادِ في طَلَبِها، وقَبِل قليل من الناسِ وصِيَّتَه في الجدِّ في طلبِ الآخرةِ، والاستعدادِ لها، فهذه الطائفةُ القليلةُ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، كما ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٣٨١).

نَجَتْ، ولَحِقَتْ بنبيِّها ﷺ في الآخِرَةِ حيثُ سَلَكَتْ طريقَتَه في الدُّنيا، وقَبِلَتْ وصِيَّتَه، وامتثلَتْ ما أَمَرَ به، وأمَّا أكثَرُ الناسِ فلمْ يزالوا في سَكْرَةِ الدنيا والتَّكاثُرِ فيها، فشغَلَهُم ذلكَ عن الآخرةِ، حتى فاجَأَهُم الموتُ بَغتةً على هذِه الغرَّةِ، فَهلَكوا، وأصْبحُوا ما بينَ قتيلٍ وأسيرٍ.

ومعنى قولِ النبيِّ ﷺ لابنِ عمرَ: «كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ» أيْ: كُنْ فيها على أَحدِ حالين: إمَّا أنْ تكونَ كأنَّكَ مقيمٌ في بلدِ غُرْبةٍ هَمُّكَ التزوُّدُ للرجوعِ إلى أرضِ الوطنِ، أو تكونَ كأنَّكَ في مواصلةٍ للسفرِ غيرُ مقيمٍ أصلاً بلْ تسيرُ دائمًا إلى بلدِ الإقامةِ، وفي كِلاَ الحالينِ لا تَنْشَغِلْ بالدنيا.

ووصيةُ ابنِ عمرَ التي في آخرِ الحديثِ: «إذا أمْسَيْتَ فلا تنتظرِ الصباحَ، وإذا أصْبَحْتَ فلا تَنتظِرِ المساءَ» مأخوذةٌ من أصْلِ الحديثِ، ومعناها: أنَّ الإنسانَ يُقَصِّرُ أملَه، فإذا أدْركَ أوَّلَ الليلِ لا ينتظِر آخِرَه، وإذا أدْركَ أوَّلَ النهارِ لا ينتظِر آخِرَه، بلْ يتوقَّعُ أنَّ أَجلَهُ يُدْرِكُهُ قَبْلَ ذلكَ، ولهذا أوْصَى النبيُّ ﷺ بكتابةِ الوصيةِ عندَ النومِ فقالَ ﷺ: «ما حقُّ امرئٍ مسلمٍ له شيءٌ يُوصِي فيهِ يبيتُ ليلتينِ إلاَّ ووصِيَّتُه مكتوبةٌ عندَه»[1]. متفقٌ عليه. زادَ مسلمٌ: قالَ ابنُ عمرَ: ما مَرَّتْ ليلةٌ منذُ سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول ذلك إلاَّ وعِنْدِي وصِيَّتِي. وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ إذا أرادَ أنْ ينامَ قالَ لأهْلِه: أستوْدِعُكُمُ اللهَ، فلعلَّها أنْ تكونَ مَنِيَّتِي التي لا أقُومُ منها.

وقولُه: «وخذْ مِنْ صحَّتِكَ لِسَقَمِكَ، ومِنْ حياتِكَ لموْتِكَ» معناهُ: اغتنمِ الأعمالَ الصالحةَ في الصحَّةِ قَبْلَ أنْ يَحُولَ بينَكَ وبينَها المرضُ، وفي الحياةِ قَبْلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧) من حديث ابن عمر.

أنْ يَحُولَ بينَك وبينَها الموتُ.

فالواجبُ على المُؤْمِنِ المبادَرةُ بالأعمالِ الصالحةِ قَبْلَ ألا يَقْدِرَ عليها، ويُحَالَ بينَه وبينها إمَّا بمرضٍ أو موتٍ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ. . . ﴾ [المنَافِقون: ٩] الآياتُ إلى آخِرِ السُّورةِ.

* * *

بمناسبةِ هُبوبِ الرِّياحِ الشديدةِ

الحمدُ للهِ الذي أحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه، وَبَدَأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [غافر: ٨١]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وسبحانَ اللهِ عمَّا يُشْرِكُونَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أعْلَمُ الناسِ بربِّه وأخْشَاهُم له، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ، واخشوا غَضَبَه ونِقْمَتَه، وتأمَّلُوا أحوالَكُم، وتفكَّرُوا في آياتِ اللهِ في الآفاقِ، وفي أنْفُسِكُم لعلَّكُم تَذَكَّرون، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٩].

تَمُرُّ بكم الأحداثُ الواحدُ تلوَ الآخرِ، وتحِلُّ النقماتُ في أنْفُسِكُم وأموالِكُم، وتَسْمَعونَ بِحُلولِ الكوارثِ فيما حَوْلَكُم من البلادِ القريبةِ والبعيدةِ، ولكنَّ المستفيدَ منا قليلٌ، والمُتَذَكِّر يَسِيرٌ، تَحْصُلُ إصاباتٌ كثيرةٌ بواسطةِ الأمطارِ التي تَذْهَبُ بكثيرٍ من الأنْفُسِ والأموالِ، وبواسطةِ الرياحِ التي تُثِيرُ الترابَ وتُظْلِمُ الجوَّ، وتُعطِّلُ السَّيْرِ، وتُسْفِي الأتربةَ العظيمةَ على بيوتِكُم ومزارِعِكم، ولا تَسْتَطِيعون رَدَّها ولا تَحْوِيلَها، بلْ لا يَسْتطيعُ الخَلْقُ كلُّهم بما أعْطاهُمُ اللهُ من قوةٍ ومخترعاتٍ، صَدَّ هذه الرياحِ ومُدَافعتَها، ثُمَّ يشاءُ اللهُ بِقُدْرَتِه الباهرةِ أنْ تَسْكُنَ هذِه الرياحُ، ويعْقبَها بالمَطَرِ الذي يُزِيلُ آثارَها، ويَدْفَعُ أضرارَها، تعلمونَ يا عبادَ اللهِ، أنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ شيئًا عبثًا، فلمْ يُرْسِلْ هذِه الرياحَ إلاَّ لِيُنبِّهَكُم، ويُذَكِّرَكُم بذنوبِكم، وبِقُدْرَتِه على عُقوبَتِكُم ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن

مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر: ١٣].

عبادَ اللهِ: إنَّ في تصريفِ الرياحِ عبرةً عظيمةً، وقدْ وجَّهَ اللهُ سبحانَه إليها الأنظارَ بالاعتبارِ في آياتٍ كثيرةٍ من كتابهِ الكريمِ، فالرياحُ تارةً تأْتي بالرحمةِ، وتارةً تأْتي بالعذابِ، وتارةً تأْتي مُبَشِّرَةً بينَ يدي السحابِ، وتارةً تسوقُ السحابَ، وتارةً تجْمَعُه، وتارةً تُفرِّقُه، وتارةً تَصْرِفُه، ثُمَّ تارةً تأْتي من الجنوبِ، وتارةً من الشمالِ، وتارةً من الشرقِ، وتارةً من الغربِ.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمَهُ اللهُ: وتأمَّلْ منفعةَ الريحِ، وما يَجْرِي له في البرِّ والبَحْرِ، وما هُيِّئَتْ له من الرحمةِ والعذابِ، وتأمَّلْ كَمْ سُخِّرَ للسحابِ من ريحٍ حتى أَمْطَرَ، فسُخِّرَتْ له المُثِيرةُ أولاً فَتُثِيرُه بينَ السماءِ والأرضِ، ثم سُخِّرَتْ له الحامِلَةُ التي تحْمِلُه على متْنِها كالجملِ الذي يحمِلُ الراويةَ، ثم سُخِّرَتْ له المُؤَلِّفَةُ فَتُؤَلِّفُ بينَ قِطَعِه، ثُمَّ يجتمعُ بعضُها إلى بعضٍ، فَتَصِيرُ طبقًا واحدًا، ثم سُخِّرَتْ له اللاقِحَةُ فَتَلْقَحُه بالماءِ، ولولاها لكانَ جِهَامًا لا ماءَ فيه، ثم سُخِّرَتْ له المُزْجِيةُ التي تُزجِيهِ وتسوقُه إلى حيثُ أُمِرَ، فَيُفْرِغُ ماءَهُ هنالكَ، ثم سُخِّرَتْ بعدَ إعْصارِه المُفَرِّقَةُ التي تبثُّهُ وتُفرِّقُه في الجوِّ، فلا ينزلُ مُجْتَمِعًا، ولو نزلَ جُملةً لأَهْلَكَ المساكنَ والحيوانَ والنباتَ، بلْ تُفرِّقُه فتجْعَلُه قَطْرًا. وكذلكَ الرياحُ التي تَلْقَحُ الشجرَ والنباتَ ولولاها لكانتْ عقيمًا، وبالجملةِ فحياةُ ما على الأرض من نباتٍ وحيوانٍ بالرياحِ، فإنَّه لولا تسخيرُ اللهِ لها لعبادهِ لَذَوَى النباتُ، وماتَ الحيوانُ، وفَسَدَتِ المطاعِمُ، وأَنْتَنَ العالَمُ وفَسَدَ. وتُسَمَّى رياحُ الرحمةِ: المبشراتِ، والنَّشْرَ، والذارياتِ، والمرسلات، والرَّخاءَ، واللواقحَ، وتُسَمَّى

رياحُ العذابِ: العاصفَ والقاصفَ؛ وهما في البحْرِ، والعقيمَ والصَّرْصَرَ؛ وهما في البَرِّ.

وإن شاء حَرَّكه بحركةِ العذابِ فجَعَلَه عقيمًا، وأَوْدَعَه عذابًا أليمًا، وجَعَلَه نِقْمةً على مَنْ يشاءُ من عبادِه، فيَجْعَلُه صَرْصَرًا ونَحْسًا وعاتيًا ومُفْسِدًا لِمَا يَمُرُّ عليه، وفي مَنْفَعتِها وتأثيرِها أعْظَمُ اختلافٍ، فريحٌ لينةٌ رطبةٌ تُغَذِّي النباتَ وأبدانَ الحيوانِ، وأُخْرى تُجَفِّفُه، وأُخْرى تُهْلِكُه وتُعْطِبُه، وأُخْرى تشدُّه وتُصَلِّبُه، ولهذا يُخْبِرُ سبحانَه عن رياحِ الرحمةِ بصيغةِ الجمعِ لاختلافِ منافِعِها، ولمَّا كانتِ الرياحُ مختلفةً في مهابِّها وطبائِعِها، جَعلَ لكُلِّ ريحٍ مُقَابِلَتَها، تَكْسِرُ سَوْرَتَها وحِدَّتَها، ويَبْقَى لينها ورحمَتها، فرياحُ الرحمةِ متعددةٌ، وأمَّا ريحُ العذابِ فإنَّه ريحٌ واحدةٌ تُرْسَلُ من وجهٍ واحدٍ لإهْلاكِ ما تُرسَلُ لإهْلاكِه، فلا تقومُ لها ريحٌ أُخْرى تُقَابِلُها، وتكْسِرُ سَوْرَتَها، وتدْفَعُ حِدَّتَها، بَلْ تكونُ كالجيشِ العظيمِ الذي لا يقاوِمُه شيءٌ، يُدمِّرُ كل ما أَتى عليهِ.

عبادَ اللهِ: قالَ النبيُّ ﷺ: **«الريحُ مِنْ روحِ اللهِ تعالَى تَأْتِي بالرحمة وتأتي بالعذابِ، فإذا رأَيْتُمُوها فلا تَسُبُّوها، واسْألوا اللهَ مِنْ خيرِها، واسْتَعِيذُوا باللهِ من شَرِّها»**[١]. رواهُ أبو داودَ. وفي صحيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عائشةَ قالتْ: كانَ النبيُّ ﷺ إذا عَصَفَتِ الريحُ قالَ: **«اللهُمَّ إني أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرْسِلَتْ به، وأعوذُ بك من شَرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرْسِلَتْ به»**[٢]. فيُسْتَحَبُّ للمسلمِ أنْ يقولَ هذا الدعاءَ عندَ هيجانِ الرياحِ، كما يَدُلُّ الحديثانِ على تحريمِ سَبِّ الريحِ وذَمِّها؛ لأنَّها جُنْدٌ من جُنْدِ اللهِ مُدَبَّرَةٌ مأْمُورةٌ، وآيةٌ من آياتِه الدالةِ على قُدْرَتِه

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٧) من حديث أبي هريرة.
(٢) صحيح مسلم حديث (٨٩٩).

وعظيمِ سلطانِه، وإنَّما يكونُ موقِفُ المسلمِ عندَ هيجانِ الريحِ الخوفَ من اللهِ تعالَى، والتوبةَ إليهِ من الذُّنوبِ، وسُؤالَ الله من خيرِها، والاستعاذةَ به من شَرِّها فإنَّه لا يَقْدِرُ على تصريفِها ودَفْعِ شرِّها وبذْلِ خيرِها إلاَّ اللهُ سبحانَه.

عبادَ اللهِ: هَلِ اعتبرنا بما شاهَدْنا؟ هَلْ حاسَبْنا أنْفُسَنا؟ هل تُبْنا من ذنوبِنا؟ إنَّ حالَ الكثيرِ منا لمْ يَتَغَيَّرْ من الفسادِ إلى الصلاحِ، ولم يَنْتَقِلْ من المعصيةِ إلى التوبةِ، وأقْرَبُ مثالٍ على ذلكَ أنَّ كثيرًا من جيرانِ المساجدِ لا يدرونَ أينَ أبوابُها، ولا يُفَكِّرونَ في دخولِها، كأنَّها بُنِيتْ لغيرِهِم، يسمعونَ الأذانَ يدْعُوهم فلا يُجِيبونَ، ويَعْصونَ اللهَ ولا يَتُوبُونَ، ويشاهِدُونَ آياتِه فلا يَعْتَبِرونَ، تُقامُ عليهِم الحُجَجُ وهم في غفلةٍ مُعْرِضونَ، فعمَّا قريبٍ سَيَنْدَمونَ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القَلَم: ٤٢ـ٤٥].

بارك اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في الاعتبارِ بما يجري من الحوادثِ

الحمدُ للهِ ذي العزة والإجلال ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرّعد: ١٢، ١٣]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، البشيرُ النذيرُ، والسراجُ المنيرُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ ومَنْ على هَدْيِه يَسيرُ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ: اتَّقُوا اللهَ تعالى، وتَفَكَّرُوا في أحْوالكُم، وما يَجْرِي حولَكُم من العِبَرِ لعلَّكُم تَذَكَّرونَ، إنكم في نِعْمةٍ من اللهِ تامةٍ: أمْنٌ في أوطانِكُم، وصحةٌ في أبدانِكُم ووفرةٌ في أموالِكُم، وبصيرةٌ في دينِكُم، فماذا أدَّيْتُم من شكرِ اللهِ الواجبِ عليكُم؟ فإنَّ اللهَ وَعَدَ مَنْ شَكَرَهُ بالمزيدِ، وتَوَعَّدَ مَنْ كفَرَ بِنِعْمَتِه بالعذابِ الشديدِ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧].

إنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى يُرِي عِبادَه من آياتِه، ليعْتَبِروا وَيتُوبوا، فالسعيدُ مَنْ تَنَبَّه وتابَ، والشَّقِيُّ مَنْ غَفَلَ واسْتَمَرَّ على المعاصِي ولم يَنتفعْ بالآياتِ، كَمْ تَسْمَعونَ من الحوادثِ، وتُشاهِدُونَ مِنَ العِبَرِ؟ حُروبٌ في البلادِ المجاورةِ أتْلَفَتْ أُمَمًا كثيرةً، وشَرَّدَتِ البقيةَ عن ديارِهِم، يتَّمَتْ أطفالاً، ورَمَّلَتْ نساءً، وأفْقَرَتْ أغنياءَ، وأذَلَّتْ أعزَّاءَ، ولا تزالُ تَتَوَقَّدُ نارُها، ويتطايرُ شَرَارُها على مَنْ

حولهَا، في لبنان، في فلسطينَ، في أرتيريا، في إفريقيا، في إيرانَ والعراقِ، في أفغانستانَ.

وغيرُ الحروبِ هناكَ كوارثُ يُنْزِلُها اللهُ بالناسِ؛ كالعواصفِ والأعاصيرِ التي تجتاحُ الأقاليمَ والمراكبَ في البحارِ، كالفيضاناتِ التي تُغْرِقُ القُرى والزُّروعَ، وهناكَ حوادثُ السَّيْرِ في البرِّ والبحْرِ والجوِّ، والتي يَنْجُمُ عنها موتُ الجماعاتِ من الناسِ في لحظةٍ واحدةٍ، وهناكَ الأمراضُ الفتاكةُ المستعصيةُ التي تُهدِّدُ البَشَرَ، كلُّ ذلكَ يُخوِّفُ اللهُ به عبادَه، ويُرِيهم بعضَ قوَّتِه وقُدْرَتِه عليهم، ويُعَرِّفُهم بِضَعْفِهم ويُذَكِّرُهم بذنوبِهم.

فَهَلِ اعْتَبَرْنا؟ هَلْ تَذَكَّرْنا؟ هَلْ غَيَّرْنا مِنْ أحوالِنا؟ هَلْ تابَ المُتَكاسِلُ عن الصلاةِ فحافظَ على الجُمعِ والجماعاتِ؟ هَلْ تابَ المُرابي والمُرْتَشي والذي يَغُشُّ في المعاملاتِ؟ هَلْ أصْلَحْنا أَنْفُسَنا وطَهَّرْنا بيوتَنا من المفاسدِ؛ كآلاتِ اللهْوِ، وآلةِ الفيديو والأفلامِ الخليعةِ، والخادمين الأجانبِ، والخادمات الأجنبيات؟ إنَّ أيَّ شيءٍ من هذِه الأحوالِ لمْ يَتَغَيَّرْ إلاَّ ما شاءَ اللهُ، بَلْ إنَّ الشَّرَّ يزيدُ، وإنَّنا نَخْشَى من العقوبةِ المُهْلِكَةِ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ، فإنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٢، ٥٣].

إنَّ اللهَ سبحانَه تَوَعَّدَ الذينَ لا يتَّعِظونَ بالمصائِبِ ولا تُؤَثِّرُ فيهم النوازلُ فيتوبوا مِنْ ذنوبِهم، تَوَعَّدَهُم بأنْ يَسْتَدْرِجَهم بالنِّعَمِ، ثُمَّ يأْخُذَهم على غِرَّةٍ، ويقْطَعَ دابِرَهم؛ قالَ تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٣، ٤٤]. عن عُقْبَةَ بن عامرٍ ـ رضيَ الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا رأَيْتَ اللهَ يُعْطِي العبدَ من الدُّنيا على معاصِيهِ ما يُحِبُّ، فإنَّما هو اسْتِدْراجٌ» ثم تلا رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1]. [الأنعام: ٤٤]. رواهُ الإمامُ أحمدُ.

أيُّها المسلمونَ: إنَّه واللهِ يُخْشى علينا اليومَ الوقوعُ في مِثْلِ هذا، مَعَاصِينا تزيدُ، ونِعَمُ اللهِ تتكَاثَرُ علينا، فاتَّقُوا الله، عبادَ اللهِ، واحْذَروا نِقْمَةَ اللهِ التي حَلَّتْ بِمَنْ قَبْلَكم ومَنْ حَوْلَكم أنْ تَحِلَّ بكم، الدُّنيا لدَيْنا معمورةٌ، والمساجدُ مهجورةٌ، أكثرُ الناسِ لا يأتونَ إليها، والذينَ يأتونَ إليها يأتونَ متأخرينَ، يأتونَ عندَ الإقامةِ، أو بعدما يفوتُهم أوَّل الصلاةِ أو كلُّها، وأشَدُّ ما يكونُ الناسُ كسلاً في يومِ الجمعةِ الذي هو أفضلُ الأيامِ، فلا يُصَلِّي الفجرَ في هذا اليومِ إلاَّ القليلُ من الناسِ، ولا يحضرونَ لصلاةِ الجمعةِ إلاَّ عندَ إقامةِ الصلاةِ، لا يَسْمَعونَ الخطبةَ، ولا يَنْتَفِعونَ بالذِّكْرِ والموعظةِ، مع أنَّ حضورَ الخطبةِ واسْتماعَها أمْرٌ مقصودٌ، وقد عابَ اللهُ على الذينَ ينصَرِفونَ عن سَماعِ الخُطْبةِ إلى طَلَبِ الدنيا فقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ٩ـ١١].

باركَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٨٦٠).

في أحوالِ الإنسانِ

(مُلخصةٌ من تُحفةِ الودودِ لابنِ القيِّمِ)

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خَلَقَ الخَلْقَ لعبادَته، وأَمَرَهُم بتوحيدِه وطاعتِه، وفَاوَتَ بينَهم في العقولِ والأخلاقِ والآجالِ والأرزاقِ، ليَدُلَّنا بذلكَ على قُدْرتِه وحِكْمتِه، وشدَّةِ عقوبتِه وسَعَةِ رحمتِه، أحمدُه على نِعَمِه التي لا تُحْصَى، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الأسماءُ الحُسْنى، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه لا نبيَّ بَعْدَه إلى أنْ تقومَ الساعةُ، وأوْجَبَ على جميعِ العالمينَ الانقيادَ له بالطاعةِ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، وعلى جميعِ آلهِ وصحابتِه وأتْباعِه.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وتأمَّلُوا أحوالَكم، وأصْلِحُوا أعمالَكم، وتَفَكَّروا في مصيرِكم، واعلموا أنَّكم في هذِه الحياةِ تَنْتقِلونَ من حالٍ إلى حالٍ، فتزَوَّدُوا منها للآخرةِ بصالحِ الأعمالِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾ [الانشقاق: ١٩] أيْ حالاً بَعْدَ حالٍ، فأوَّلُ أطباقِ الإنسانِ كَوْنُه نُطْفةً، ثم عَلَقةً، ثم مُضْغةً، ثم جنينًا، ثم مولودًا، ثم رضيعًا، ثم فطيمًا، ثم صحيحًا أو مريضًا، غنيًّا أو فقيرًا، يأخُذُ بالزيادةِ فيكونُ صبيًّا، ثم بالغًا إلى أنْ يصلَ إلى سِنِّ الأربعينَ، فيأخُذُ بالنقصانِ وضَعْفِ القُوَى على التدريجِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الرُّوم: ٥٤]. فَقُوَّتُه بينَ ضَعفَيْنِ، وحياتُه بَيْنَ موتينِ، فإذا تَغيَّرتْ أحوالُه وظَهَرَ نَقْصُه، فقد رُدَّ إلى أرذلِ العمرِ، حتى إذا بَلَغَ الأَجَلَ الذي قُدِّرَ له واستوْفَاهُ، جاءتْه رسلُ ربِّه عزَّ وجلَّ، يَنْقُلونَه من دارِ الفناءِ إلى دارِ البقاءِ، فينزلُ في القبرِ، وهو دارُ البرزخِ، فإذا وُضِعَ في لَحْدِه، وتولَّى عنه أصحابُه،

دخلَتِ الروحُ معه حتَّى إنَّه ليسْمَعُ قَرْعَ نِعالِهم على الأرضِ، فيأتيهِ حينئذٍ المَلَكَانِ فيُجْلِسَانِه ويسْألانِه: مَنْ ربُّكَ؟ وما دينُك؟ ومَنْ نبيُّكَ؟ فيقولُ المؤمنُ: رَبِّيَ اللهُ، وديني الإسلامُ، ونبيِّي محمدٌ، فَيُصَدِّقانِه، ويُبَشِّرانِه بأنَّ هذا هو الذي عاشَ عليهِ، وماتَ عليهِ، وعليهِ يُبْعَثُ، ثُمَّ يُفسَحُ له في قبرِه مَدَّ بَصَرِه، ويُفْرَشُ له من الجنَّةِ، ويُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنَّةِ.

وأمَّا الفاجرُ فإنَّه إذا سأله الملَكَانِ يَتَلَجْلَجُ ويقولُ: لا أدْري، فيضيقُ عليهِ قَبْرُه حتى تَخْتَلِفَ أضلاعُه، ثم يُفْرَشُ له نارٌ، ويُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ.

وهكذا يَنْعَمُ المؤمنُ في قبرِه حَسَبَ أعمالِه، ويُعَذَّبُ الفاجِرُ في قبرِه حسبَ أعمالِه، ويخْتَصُّ كُلُّ عُضْوٍ بعذابٍ يليقُ بجنايتِه، فتُقْرَضُ شفاهُ المُغْتابينَ الذينَ يُمَزِّقُونَ لحومَ الناسِ ويَقَعونَ في أَعْراضِهِم، بمقاريضَ من نارٍ، وتُسْجَرُ بطونُ أَكَلَةِ أموالِ اليتامى بالنارِ، وتُلْقَمُ أَكَلَةُ الرِّبا بالحجارةِ، ويَسْبَحُون في أنهارِ الدمِ، كما يَسْبَحُون في الكَسْبِ الخبيثِ، وتُرَضُّ رؤوسُ النائمينَ عن الصلاةِ المكتوبةِ بالحَجَرِ العظيمِ، ويُشَقُّ شِدْقُ الكذَّابِ الكذبةَ العظيمةَ بكلاليبِ الحديدِ إلى قَفَاهُ، ومِنْخَرُه إلى قفاه، وعيناه إلى قَفَاهُ، كما شَقَّتْ كلِمَتُه الكاذبةُ كلَّ النواحِي، ويُعَلَّقُ النساءُ الزواني بِثُدِيهِنَّ، وتُحْبَسُ الزناةُ والزواني في التَّنورِ المُحْمَى عليه، وتُسَلَّطُ الهمومُ والغمومُ والأحزانُ والآلامُ النَّفْسية على النفوسِ البَطَّالةِ التي كانتْ في هذِه الدُّنيا مشغولةً باللعبِ واللهْوِ والغَفْلةِ عن ذِكْرِ اللهِ، فتصْنَعُ الآلامُ في نفوسِهِم كما تَصْنَعُ الهوامُّ والديدانُ في لحومِهم.

ويَسْتمِرُّ عذابُ القبرِ أو نَعيمُه إلى أنْ تَنْقَضِي الحياةُ الدنيا، وينْتَهي أَجَلُ العالَمِ الدُّنْيَوِيِّ، فتُمْطَرُ الأرضُ مطرًا غليظًا كمَنِيِّ الرجالِ أربعينَ صباحًا، فينْبُتُونَ من قبورِهِم كما يَنْبُتُ الشجرُ والعشبُ، فإذا تكامَلتْ أجسادُهم، أَمَرَ اللهُ

سبحانَه إسرافيلَ، فَنفَخَ في الصورِ نفخةَ البَعْثِ ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزُّمَر: ٦٨] يقولُ المؤمنُ: الحمدُ للهِ الذي أحْيَانا بَعْدَ ما أماتَنا وإليهِ النُّشورُ، ويقولُ الكافرُ: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس: ٥٢].

ثمَّ يساقونَ إلى المَحْشَرِ حفاةً عُراةً غُرْلاً، حتى إذا تكَامَلَتْ عدَّتُهم، وصاروا جميعًا على وجهِ الأرضِ، تَشَقَّقَتِ السماءُ، وانْتَثَرَتِ الكواكبُ، ونَزلَتْ ملائكةُ السماءِ الدنيا فأحاطتْ بهم، ثم نَزلَتْ ملائكةُ السماءِ الثانيةِ، فأحاطَتْ بملائكةِ السماءِ الدُّنيا، ثم كُلُّ سماءٍ كذلكَ، فبينَما هم كذلكَ إذْ جاءَ اللهُ ربُّ العالمينَ لِفَصْلِ القضاءِ، فأشْرَقَتِ الأرضُ بنورِهِ، ونُصِبَ الميزانُ، وأُحْضِرَ الديوانُ، واسْتُدْعِيَ بالشهودِ، فَشَهِدتْ يومئذٍ الأيْدِي والألْسُنُ والأرجلُ والجلودُ، فيحْكُم اللهُ سبحانَه بينَ عبادِه بحُكْمِه الذي يحمدُه عليهِ جميعُ أهْلِ السمواتِ والأرضِ، وتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ، وهم لا يُظْلَمونَ، فإذا استقَرَّ أهلُ الجنةِ في الجنةِ، وأهْلُ النارِ في النارِ، أُتِيَ بالموتِ في صورةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُوقَفُ بينَ الجنةِ والنارِ، ثم يُقالُ: يا أهْلَ الجنَّةِ، فيَطلعونَ وجِلينَ، ثم يُقالُ: يا أهْلَ النارِ، فيطْلعونَ مُسْتبْشِرينَ، فيُقالُ: هل تعرفون هذا؟ فيقولونَ: نَعَمْ، وكلُّهم قد عَرَفَهُ، فيُقالُ: هذا الموتُ، فَيُذْبَحُ بينَ الجنةِ والنارِ، ثم يقال: يا أهْلَ الجنَّةِ خلودٌ ولا موتَ، ويا أهلَ النارِ خلودٌ ولا موتَ.

أيُّها المسلمونَ: هذِه أحوالُ الإنسانِ، وهذا مُنْتَهاهُ، فاتَّقُوا اللهَ في أنْفُسِكم، وفَكِّروا في عواقِبِكم، واسْمَعوا قولَ اللهِ لكم، أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ.. ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ١٨ ـ ٢١].

* * *

في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ

الحمدُ للهِ على فضْلِه وإحسانِه، جَعَلَ هذه الأمةَ خيرَ أمةٍ أخرِجَتْ للناسِ؛ لأنَّها تَأمُرُ بالمعروفِ وتَنْهى عن المُنكَرِ وتؤمنُ باللهِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يُؤتِي فَضْلَه مَنْ يشاءُ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البَقَرَة: ١٠٥]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حَثَّ أمَّتَه على القيامِ بالأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عن المنكرِ؛ لِمَا في ذلكَ مِنَ الخيرِ العظيمِ، والنَّفْعِ العميمِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيها الناس، اتقوا الله تعالى، واعْلَموا أن الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنكَرِ من أعْظَمِ صفاتِ المؤمنينَ، وتَرْكَهُما من أكْبَرِ صفاتِ المنافقينَ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٧١﴾ [التوبة: ٧١]. والأمْرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ من أعْظمِ أسبابِ النصرِ والتمكينِ في الأرضِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]. والأمْرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ من أعْظَمِ أسبابِ النجاةِ من العذابِ؛ قالَ اللهُ تعالَى عن بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ

وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هُود: ١١٦]. وفوائدُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكرِ وفضائله العاجلةُ والآجلةُ كثيرةٌ جدًّا.

عبادَ اللهِ: والمعروفُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللهُ ويرضاه من الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ، وهو كلُّ فِعْلٍ يُعْرَفُ بالعقلِ والشرعِ حُسْنُه. والمُنْكَرُ اسمٌ لكلِّ ما يَكْرَهُهُ اللهُ ويَنْهَى عنه، وهو كلُّ فِعْلٍ حَرَّمَه الشرعُ وكَرِهَهُ، واستَقْبَحَتْه العقولُ الصحيحةُ.

ويجبُ على المسلمِ أنْ يأمرَ بالمعروفِ ويَنْهَى عن المنكرِ حَسَبَ استطاعتِه ومَقْدرتِه؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكرًا فليُغَيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يستطعْ فبلسانِه، فإنْ لمْ يستطعْ فبقلبِهِ وذلكَ أضعفُ الإيمانِ»[1]. فدلّ هذا الحديثُ على أنّه يجبُ على المسلمِ إنكارُ المنكرِ بكلِّ حالٍ، ولا يجوزُ له الرِّضَا به والتعاطفُ معَ فاعِلِه. فإنْ كانَ من ذوي السلطةِ غيَّرَ المنكَرَ بيدِه وأزالَه وأدَّبَ العاصِي بما يناسِبُ، وذوو السلطةِ هم ولاةُ الأمورِ ونُوَّابُهم، فهم مسؤولونَ عمَّنْ تحتَ ولايتِهم، وصاحبُ البيتِ له سلطةٌ على مَنْ في بيتِه من أولاده ونسائِه، يستطيعُ أنْ يغيِّرَ المنكرَ الذي يحصلُ في بيتِه بيدِه؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ لِسَبعٍ، واضرِبوهم عليها لِعشْرٍ، وفرِّقوا بينَهم في المضاجعِ»[2]، وقال اللهُ تعالَى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التّحريم: ٦]. وقالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٩٥٦) ومسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري.
(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

النبيُّ ﷺ: «كُلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه»[١]. فيجبُ على صاحبِ البيتِ أنْ يأمُرَ مَنْ تحتَ يدِه بطاعةِ اللهِ، ويُلزِمَهُم بأداءِ الواجباتِ وتَرْكِ المنكراتِ.

ومَنْ لمْ تَكُنْ له سلطةٌ ولا قدرةٌ على إزالةِ المنكرِ بيدِه، وجَبَ عليهِ أنْ ينكِرَه بلسانِه، بأنْ يَنْهَى العاصِي ويُخَوِّفَه عقابَ اللهِ، ويُبيِّنَ له حُرْمةَ الفِعْلِ الذي ارْتكَبَه، فإنْ لمْ تُجْدِ فيهِ النصيحةُ، وجَبَ عليه رَفْعُ أمْرِه إلى ولاةِ الأمورِ، لإزالةِ منْكَرِه باليدِ والقضاءِ عليه بالسلطةِ.

فإذا لمْ يكنْ للإنسانِ سلطةٌ يزيلُ بها المنكرَ باليدِ، ولا يقدِرُ على إنكارِ المنكرِ بلسانِه، وجَبَ عليهِ أنْ يُنْكِرَه بقلبِه، فإنكارُ القلبِ لابُدَّ منه، فَمَنْ لمْ يُنكِرْ قلبُه المنكرَ دلَّ على ذهابِ الإيمانِ منه؛ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: «فمَنْ لم يعرفْ قلبُه المعروفَ ويُنْكِرِ المنكرَ، نُكِّسَ فجُعِلَ أعلاهُ أسْفَلَه». فإنكارُ المنكرِ باليدِ واللسانِ يكونُ بِحَسَبِ الطاقةِ. وأمَّا الإنكارُ بالقلبِ فلا يسْقُطُ عن أحدٍ، وهو فرضُ عينٍ على كُلِّ مسلمٍ، وعلى هذا فَمَنِ اقتصرَ على الإنكارِ بقلبِهِ وهو قادرٌ عليه بلسانِه فقد تَرَكَ الواجبَ عليه، ولم يَمْتَثِلْ أَمْرَ النبيِّ ﷺ حيثُ أَمَرَه بالإنكارِ بلسانِه، وكذلكَ مَنِ اقْتَصَر على الإنكارِ باللسانِ وهو قادرٌ على الإنكارِ باليدِ فقد تَرَكَ الواجبَ عليه، ولمْ يمتثلْ أمْرَ النبيِّ ﷺ حيثُ أمَرَه أنْ يُنْكِرَه بيدِه.

عبادَ اللهِ: وقَدِ ابْتُلِيَ كثيرٌ من الناسِ في هذا الزمانِ بالتلاومِ والتواكلِ، وتَرَكوا الأَمْرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكرِ، ولمْ يُؤَدِّ كلٌّ منهم ما يَجبُ عليه نحْوَه، وصارَ كلُّ واحدٍ يُلْقِي بالمسؤوليةِ على غيرِه ويُبَرِّئُ نَفْسَه، حتى إنَّ صاحبَ البيتِ يرى المنكراتِ في بيتِه ويرى أولادَه يتركونَ الصلاةَ ولا يحضُرونَ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣، ٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر.

الجُمعَ والجماعاتِ، ولا يُنْكِرُ! معَ أنَّ له السلطةَ على بيتِه، وبيدِه قُدرةٌ على مَنْ فيهِ، لكنَّه ينظرُ إلى الآخرينَ، وينْسَى أنَّه مسؤولٌ أمامَ اللهِ عن رعيتِه الخاصةِ «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه». ولرُبَّما فُقِدَتْ مراتبُ الإنكارِ كلُّها عندَ بعضِ الناسِ، فلا إنكارَ باليدِ ولا باللسانِ ولا بالقلبِ، فيحصلُ الانسجامُ التامُّ مع أهْلِ المعاصِي، وتُصْبِحُ المعاصِي مألوفةً عاديةً، وهذا أمرٌ شنيعٌ قد لَعَنَ اللهُ بني إسرائيلَ بِسَبَبِه، قالَ تعالَى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ [المَائدة: ٧٨، ٧٩] وفي المُسْنَدِ والسُّنَنِ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا وقَعَتْ بنو إسرائيلَ في المعاصِي نَهَتْهُم عُلَمَاؤُهم فلمْ ينتَهوا، فجالسُوهم في مجالسِهم، وواكَلُوهم وشارَبُوهم، فضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ، ولعَنَهُم على لسانِ داودَ وعيسى بنِ مريمَ ذلكَ بما عَصَوا وكانوا يَعْتدُونَ»، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ مُتَّكِئًا فجَلسَ فقالَ: «لا والذي نَفْسِي بيدِه حتى تَأْطُرُوهُم على الحقِّ أَطْرًا»[(١)]. وفي لفظِ أبي داودَ: «إنَّ أوَّلَ ما دخلَ النقصُ على بني إسرائيلَ كانَ الرجلُ يَلْقَى الرجلَ فيقولُ له: اتقِ اللهِ ودَعْ ما تَصْنَعُ فإنَّه لا يَحِلُّ لك، ثم يلْقَاه من الغدِ فلا يَمْنَعُه ذلكَ أنْ يكونَ أكِيلَه وشريبَه وقعيدَه، فلمَّا فَعَلوا ذلكَ ضَرَبَ اللهُ قلوبَ بعضِهم ببعضٍ»، ثم قالَ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ . . . ﴾[(٢)] [المَائدة: ٧٨] الآيات.

واليومَ يا عبادَ اللهِ، يجلسُ قيِّمُ البيتِ معَ أولادِه وإخوتِه وهم مُضيِّعونَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣٧٠٥) والترمذي (٣٠٤٧، ٣٠٤٨)، وابن ماجه (٤٠٠٦).

(٢) سنن أبي داود (٤٣٣٦).

للصلواتِ، تاركون للجُمَعِ والجماعاتِ، يجلسُ إليهم مُنبسِطًا، يُواكِلُهم ويُشارِبُهم ويُمَازِحُهم كَأَنَّهم ما عَصَوا اللهَ، كَأَنَّهم ما خالفوا أمْرَ اللهِ، ولو خالَفوهُ في أمْرٍ دُنْيَوِيٍّ أو أَخذُوا شيئًا من مالِه، لَتَنكَّرَ عليهم وتَغَيَّظَ وهَجَرَهم أو طَرَدَهم من بيته.

فاتقوا اللهَ، عبادَ اللهِ، ومُرُوا بالمعروفِ وانْهوا عن المنكرِ، كلٌّ في حدودِ مقدرتِه ودائرةِ اختصاصِه، تَنْجُوا من غضبِ اللهِ وعقابِه في الدنيا والآخرةِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

الخطبةُ الثانيةُ:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، رضيَ لنا الإسلامَ دينًا، وأنْزلَ إلينا نورًا مبينًا، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النِّساء: ١١٦] وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّها الناسُ: اتَّقُوا اللهَ تعالَى، فإنَّ تَقْواهُ مناطُ كلِّ خيرٍ، وسعادةٌ في الدُّنيا والآخرةِ.

قد يحتجُّ بعضُ الذينَ يتركونَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهْيَ عن المنكرِ في هذا الزمانِ بقولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المَائدة: ١٠٥] ولا حُجَّةَ لهم في الآيةِ؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ مَنِ اهْتَدى لا يضرُّه من ضَلَّ، ومِنَ الاهتداءِ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ، بلْ هما من أعظمِ أنواعِ الاهتداءِ، وتركُهُما من الضلالِ.

وأيضًا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ لا يسقطُ بحالٍ ولكنَّه درجاتٌ حَسَبَ الاستطاعةِ كما سبقَ، أقلُّها مرتبةُ الإنكارِ بالقلبِ، وهذه لا تسقطُ أبدًا، وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ وأهْلُ السُّنَنِ وغيرُهم، عن قيس بنِ أبي حازمٍ قالَ: قامَ أبو بكرٍ الصديق ـ رضيَ اللهُ عنه ـ فحمدَ اللهَ وأثْنَى عليهِ، ثم قالَ: أيُّها الناسُ، إنَّكم تقرؤون هذه الآيةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المَائدة: ١٠٥] إلى آخرِ الآيةِ، وإنَّكم تَضَعُونَها على غَيْرِ موضِعِها، وإنِّي سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ الناسَ إذا رَأَوا المُنْكرَ ولا يُغَيِّرُونَه أوشَكَ أنْ يَعُمَّهم اللهُ بعقابِهِ»(١). قالَ الترمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وصحّحَهُ ابنُ حِبّانَ. فدلَّ على أنَّ الآيةَ الكريمةَ لا تَعْني سقوطَ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكرِ.

إنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدْيِ هدْيُ محمدٍ ﷺ . . . إلخ.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١، ١٧، ٣٠، ٣١، ٥٤)، وأبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٢١٦٨، ٣٠٥٧) وابن ماجه (٤٠٠٥) وابن حبان (٣٠٤) وهذا لفظ ابن ماجه.

في بيانِ التجارةِ الرابحةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يدْعُو عبادَه ليغْفِرَ لهم من ذنوبِهم، ويُضاعِفَ لهم حَسَنَاتِهم، ﴿يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، لا ربَّ لنا سِواهُ، ولا نَعْبدُ إلاَّ إياهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه مبشرًا ونذيرًا، وداعياً إلى اللهِ بإذْنِه وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيها الناس، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصَّف: ١٠ـ١٣] في هذِه الآياتِ الكريمةِ يوجِّهُ اللهُ النداءَ لعمومِ المؤمنينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ويُعلِنُ لهم عن تجارةٍ رابحةٍ ويَدْعُوهم للمساهمةِ فيها، ويُبيِّنُ لهم مَنِ الذي يتولَّى هذِه التجارةَ، وشروطَ المساهمةِ فيها، ورأسَ مالِها، ومرابِحَها؛ ليُقْدِمَ الإنسانُ عليها وهو واثقٌ بنتائِجها، مُطْمَئِنُّ القلبِ على نصيبِه فيها، فالذي فتَحَ المساهمةَ في هذِه التجارةِ هو اللهُ الذي يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ، ولا يضيعُ عَمَلَ عاملٍ، بلْ يضاعِفُه أضْعافاً كثيرةً، الحَسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقَرة: ٢٦١]،

فلا تَخفْ من ضياعِ حقِّكَ لديْهِ، بلْ ثِقْ أنَّه سَيُوفِّيكَ إيَّاهُ مضاعفًا.

وأمَّا شروطُ المساهمةِ في هذِه التجارةِ المُعْلَنِ عنها، فهو أنْ يكونَ المساهمُ من أهلِ الإيمانِ، كما جاءَ في الإعلانِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأمَّا أهلُ الكفرِ والنفاقِ فلا يصِحُّ دخولُهم في هذِه المساهمةِ؛ لأنَّ أعمالَهم فاسدةٌ ورأسَ مالِهِم مزيَّفٌ.

وأمَّا رأسُ مالِ هذِه المساهمةِ فيتكوَّنُ من شيئينِ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

فأولهما: الإيمانُ باللهِ ورسولِه، وهو التصديقُ الجازمُ بالقلبِ، والنُّطْقُ بذلِكَ باللسانِ، والعملُ بالجوارحِ بأنواعِ الطاعاتِ الواجبةِ والمستَحَبَّةِ، وتَرْكُ المعاصِي والمحرماتِ.

وثانيهما: جهادُ أعداءِ اللهِ ورسولهِ باليدِ واللسانِ، وبذْلُ الأموالِ والأنْفُسِ في ذلكَ، حتى يَظْهَرَ دينُ اللهِ وتَعْلُوَ كَلِمَتُه، وينْدَحِرَ الكُفْرُ، وينْقَمِعَ الكفارُ، هذا رأسُ مالِ المساهمةِ.

وأمَّا أرباحُها فقد بيَّنَها اللهُ بقولِه: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ أيْ تُخَلِّصُكُم هذه التجارةُ وتُنْقِذُكُم من عذابٍ شديدٍ مؤلمٍ لا يَنْجُو منه إلاَّ مَنْ تنبَّهَ له واتَّخَذَ أسبابَ النجاةِ. ومِنْ مرابحِ هذِه التجارةِ حصولُ المغفرةِ للذنوبِ، وتكفيرُ السيئاتِ، ودخولُ الجنَّاتِ ذاتِ المسراتِ، والأنهارِ الجاريةِ، والنزولُ في المساكنِ الطيبةِ في جنَّاتِ عَدْنٍ لا تُخْرَجُونَ منها ولا تَتَحَوَّلون عنها أبداً؛ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾.

هذِه مرابحُ هذِه التجارةِ في الدارِ الآخرةِ، وهي مرابحُ باقيةٌ مستمرةٌ، وهناكَ

مرابحُ أُخرى عاجلةٌ في الدنيا: هي أنَّه يَنصُرُكم على أعدائِكم، ويَفْتَحُ لكم بلادَهم، تَستَوْلونَ عليها، وتَسْتَغِلُّون خيراتِها، وتَسُودُون أهْلَها، وتكونُ لكم العزَّةُ والغَلَبَةُ على أهْلِ الدنيا: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾. فهذا خيرُ الدنيا موصولٌ بنعيمِ الآخرةِ لِمَنِ استجابَ لهذا النداءِ الإلهيِّ، وساهَمَ في هذه التجارةِ.

عبادَ اللهِ: إنَّ الناسَ اليومَ يسرعونَ عندَما يسمعونَ إعلانًا عن مساهمةٍ في أرضٍ أو غيرِها، فيقدِّمونَ أموالَهم طَمَعًا في الرِّبْحِ، يخاطِرونَ بأموالِهم، وهم لا يعْلَمونَ نتائجَ هذِه المساهمةِ، ولا يَتَيقَّنونَ ثقةَ المُعْلِنِ وصِدْقَه وأمانتَه، ثم هو بَشَرٌ يعْتَرِيهِ النقصُ وعدمُ الخبرةِ، لكنْ مع هذا كلِّه، يتعامى الناسُ عن هذِه المخاطرِ والمحاذيرِ، ويُغلِّبون جانبَ الطَّمَعِ فَيُقَدِّمونَ أموالَهم التي هي من أعزِّ الأشياءِ عليهم؛ طلبًا لربحٍ قد يحصلُ وقد لا يحصلُ، وإذا حصلَ فلا تُعْلَمُ عواقِبُه وآثارُه. لماذا كلُّ هذا؟ إنَّه لحُبِّ المالِ والرغبةِ في التجارةِ، فلماذا يتأخَّرُ الكثيرُ من الناسِ عن الاستجابةِ لهذا الإعلانِ الربانيِّ؟ عن أعظمِ تجارةٍ وأوْفَرِ ربحٍ وأحْسَنِ عاقبةٍ، معَ أنَّ المُعْلِنَ عن هذِه المساهمةِ هو العليمُ الخبيرُ، الرحيمُ بعبادِهِ الذي يزيدُ الحسناتِ ويضاعِفُها بعَشْرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ويغْفِرُ الذنوبَ، ويسْتُرُ العيوبَ، الذي لا يظْلِمُ نَفْساً شيئاً ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النِّساء: ٤٠].

إنَّ سببَ التأخُّرِ عن المساهمةِ في هذِه التجارةِ التي أعْلَنَ عنها ربُّنا في كتابِه الكريمِ، هو ضَعْفُ الإيمانِ وقلَّةُ اليقينِ، وإيثارُ الدنيا على الدينِ. إنَّ الإنسانَ

بطبيعتِه البشريةِ يُحِبُّ التجارةَ، وهناك تجارتان: تجارةٌ عاجلةٌ فانيةٌ، وتجارةٌ آجلةٌ باقيةٌ، ولكلِّ تجارةٍ زبائنُ، فأهلُ الإيمانِ يُؤْثِرونَ التجارةَ الآجلةَ الباقيةَ ـ وهم القليلُ ـ وغيرُهم يُؤْثِرون التجارةَ العاجلةَ الفانيةَ وهم الكثيرُ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].. لكنْ مَنْ آثَرَ تجارةَ الآخرةِ أعطاه الله الدنيا والآخرةَ، ومَنْ أرادَ تجارةَ الدنيا فَقَطْ لمْ يأتِه في الدنيا إلاَّ ما كُتِبَ له، وحُرِمَ تجارةَ الآخرةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشُّورى: ٢٠].

ولمَّا ذَكَرَ سبحانَه مكاسبَ تجارةِ الآخرةِ، وهي النجاةُ من العذابِ الأليمِ، ومغفرةُ الذنوبِ، ودخولُ الجنةِ والمساكنِ الطيبةِ في جناتِ عَدْنٍ في الآخرةِ، قالَ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾، وهذا في الدنيا فتجارةُ الآخرةِ جَمَعَتْ بينَ خَيْرَي الدنيا والآخرةِ، وإنَّه لربحٌ ضخمٌ هائلٌ أنْ يُعطَى المؤمنُ الدنيا والآخرةَ، فالذي يتَّجِرُ بالدرهَمِ فيكسبُ عَشَرةً يغْبِطُه كلُّ مَنْ في السوقِ ويعْتَبِرونَه ربحاً هائلاً، فكيفَ بِمَنْ يتَّجرُ في أيامٍ قليلةٍ معدودةٍ في هذِه الدنيا فيكسبُ خلوداً في نعيمِ الجنةِ الذي لا ينتهي مَدَاهُ، ولا يعلمُ كميَّتَه إلاَّ اللهُ؟ إنَّ المساهمةَ في هذِه التجارةِ مُيَسَّرةٌ، وأبوابُها مفتوحةٌ لكلِّ راغبٍ، والإعلانُ عنها مُسْتَمِرٌّ كلما قُرِئ القرآنُ، والربُّ جلَّ وعلاَ يبسطُ يدَه بالليلِ ليتوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مُسِيءُ الليلِ، ينزلُ إلى سماءِ الدنيا حينَ يَبْقَى ثلثُ الليلِ الآخرُ فيقولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغفرٍ فأَغْفرَ له؟ هلْ من سائلٍ فأُعطيَه؟ هلْ من تائبٍ فأتوبَ عليه؟.

أعوذُ باللهِ من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

في ذمّ الحسد، وبيانِ أضرارِه

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يُفَضِّلُ بعضَ عبادِه على بعضٍ ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [البَقَرَة: ١٠٥]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، لا مانعَ لِمَا أعْطَى، ولا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أفضلُ الخَلْقِ وأعظَمُهم شُكْراً للهِ، ﷺ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنْ تمسَّكَ بِسُنَّتِهِ إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتقوا اللهَ تعالى، واشْكُروه على نِعَمِه، فقد فضَّلَكُم على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تفضيلاً.

عبادَ اللهِ: خصْلةٌ ذميمةٌ حذَّرَكُم اللهُ منها، فَطَهِّروا أنْفُسَكم من الاتصافِ بها، ألا وهي خصلةُ الحسدِ التي هي من أعْظَمِ خِصالِ الشَّرِّ، وقد حذَّرَ منها النبيُّ ﷺ فقالَ: «**لا تحاسَدُوا**»[١]، وقالَ ﷺ: «**دَبَّ إليكم داءُ الأممِ قبلَكم: الحسدُ والبغضاءُ**»[٢]. رواه الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ. ورَوَى أبو داودَ عَنْ أبي هريرةَ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**إيَّاكُم والحسدَ، فإنَّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ، أو قالَ: العُشْبَ**»[٣]. والحسدُ صفةُ شرارِ الخَلْقِ؛ قد اتَّصفَ به إبليسُ، فحَسَدَ آدمَ عليهِ السلامُ لَمَّا رآهُ فاقَ الملائكةَ، حيثُ خَلَقَهُ اللهُ بيدِه، وأسْجَدَ له ملائِكَتَه، وعلَّمَه أسماءَ كُلِّ شيءٍ، وأسْكَنَه في جنَّتِه، فما زالَ يسْعَى

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٤).
(٢) أخرجه أحمد (١٤١٥، ١٤٣٣) والترمذي (٢٥١٠) من حديث الزبير بن العوام.
(٣) سنن أبي داود (٤٩٠٣).

في إخراجِه من الجنَّةِ حتى خَرَجَ منها. والحسدُ هو الذي حَمَلَ أَحَدَ ابني آدمَ على قَتْلِ أخيهِ ظُلْمًا لَمَّا وَهَبَهُ اللهُ النعمةَ، وتَقَبَّلَ القربانَ، وقد قَصَّ اللهُ خَبَرهُما في القرآنِ تحذيرًا لنا من الحسدِ وبيانًا لعواقبِهِ الوخيمةِ.

والحسدُ صفةُ اليهودِ كما ذَكَرَ اللهُ في مواضعَ من كتابه، فقد حَسَدُوا نبيَّنا ﷺ على ما آتاهُ اللهُ من النبوَّةِ والمنزلةِ العظيمةِ، فكَفَروا به معَ عِلْمِهم بصدقه وتيقُّنِهم أنَّه نبيُّ اللهِ، وحَسَدُوا هذه الأُمَّةَ على ما مَنَّ اللهُ به عليها من الهدايةِ والإيمانِ، قالَ تعالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البَقَرَة: ١٠٩].

عبادَ اللهِ: والحسدُ هو كراهيةُ وصولِ النعمةِ إلى الغَيْرِ وتَمَنِّي زوالِها عنه، وله آثارٌ سيئةٌ:

منها: أنَّ فيه اعتراضًا على اللهِ في قضائِه، واتهاماً له في قِسْمَتِه بينَ عبادِه، لأنَّ الحاسدَ يَرى أنَّ المحسودَ غَيْرُ أهلٍ لِمَا آتاهُ اللهُ، وأنَّ غَيْرَه أوْلى منه. ومنها: أنَّ الحاسدَ مُنْكِرٌ لحِكْمَةِ اللهِ في تدبيرِه، فهو سبحانَه يُعْطِي ويَمْنَعُ لحكمةٍ بالغةٍ، والحاسدُ ينكِرُ ذلكَ.

ومن آثارِ الحسدِ السيئةِ أنَّه يُورثُ البغضاءَ بينَ الناسِ؛ لأنَّ الحاسدَ يبغضُ المحسودَ، وهذا يَتَنافَى معَ واجبِ الأخوَّةِ بينَ المؤمنينَ، قالَ ﷺ: «لا تحاسَدُوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تباغَضُوا، ولا تَدَابَروا، ولا يبِعْ بعضُكم على بيعِ بعضٍ، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً»[1]. ومن أضرارِ الحسد أنَّه يحملُ الحاسدَ على محاولةِ إزالةِ النعمةِ عن المحسودِ بأيِّ طريقٍ ولو بقَتْلِه، كما قَصَّ اللهُ تعالَى

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٤).

عَنِ ابنيْ آدمَ في قولِه: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المَائدة: ٢٧] وأخيرًا نَفَّذَ الجريمةَ، وباءَ بالإثمِ وخسارةِ الدنيا والآخرةِ، وصارَ عليهِ كِفْلٌ من دمِ كلِّ نفسٍ تُقتَلُ ظُلْمًا؛ لأنَّه أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ، وسببُ ذلكَ كلِّه والدافِعُ إليهِ هو الحسدُ.

ومن أضرارِ الحسدِ أنَّه يمنعُ الحاسدَ من قَبولِ الحقِّ إذا جاءَه عن طريقِ المحسودِ، ويحملُه على الاستمرارِ في الباطلِ الذي فيه هلاكُه، كما حصلَ مِنْ إبليسَ لمَّا حَسَدَ آدمَ وحَمَلَه ذلكَ على الفسْقِ عن أمْرِ اللهِ، والامتناعِ من السجودِ، فَسَبَّبَ له ذلكَ الطردَ واللَّعنةَ واليأسَ من رحمةِ اللهِ. ومن أضرارِ الحسدِ أنَّه يحملُ الحاسدَ على الوقوعِ في الغِيبةِ والنميمةِ، حيثُ يُقْدِمُ على غيبةِ المحسودِ والسعايةِ بالنميمةِ بينَه وبينَ غيرِه. والغيبةُ والنميمةُ خصْلتانِ قبيحتانِ وكبيرتانِ عظيمتانِ.

ومن أضرارِ الحسدِ أنَّه يدفعُ الحاسدَ إلى ارتكابِ ما نَهَى اللهُ عنه ورسولُه في حقِّ المسلمِ، مِنَ البيعِ على بَيعِه أو يزيدَ عليه في السَّوْمِ وهو لا يريدُ الشراءَ، أو يخطبَ على خِطْبتِه، أو يَسْعى لدى المسؤولينَ بِفَصْلِهِ عن وظيفتِه، أو مَنْعِه حقًّا من حقوقِه الوظيفيةِ، أو صرفِ نَظَرِهم عنه، ونَزْعِ ثِقَتِهم فيه، وغيرِ ذلكَ من أنواعِ المضارَّةِ، وكلُّ ذلكَ بدافعِ الحسد.

ومن أضرارِ الحسدِ على الحاسدِ أنَّه يُذْهِبُ حسناتِه وأعمالَه الصالحةَ التي هي رأسُ مالِه، كما قالَ النبيُّ ﷺ: **«إيَّاكُم والحسدَ، فإنَّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ، أو قالَ العُشْبَ»**[1].

---

(١) سنن أبي داود (٤٩٠٣).

ومِنْ أضرارِ الحسدِ أنَّه يجعلُ الحاسدَ دائماً في هَمٍّ وقَلَقٍ لما يرى من تَنَزُّلِ فَضْلِ اللهِ على عبادِه وهو لا يريدُ ذلكَ، ولا يَقْدِرُ على مَنْعِه، فَيَبْقَى في همٍّ وقَلَقٍ.

كالنارِ تأكلُ بعضَها ... إنْ لِمْ تَجِدْ ما تأكُلُهْ

ومن أضرارِ الحسدِ على المجتمع أنَّه يوقعُ فيه التَّخَلْخُلَ والتَّفَكُّكَ؛ ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ: «دَبَّ إليكم داءُ الأممِ قَبْلَكُم: الحسدُ والبغضاءُ»[١].

عبادَ اللهِ: مَن وجَدَ في نَفْسِه شيئًا من الحسدِ فلْيَسْعَ في إزالتِه؛ بأنْ يتذكَّرَ أنَّ الحسدَ ضَرَرٌ عليهِ هو في الدينِ والدنيا، وأنَّه لا يَضُرُّ المحسودَ، وأنْ يَتَذكَّرَ أنَّ الأمورَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ: لا مانِعَ لما أعْطَى ولا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ. وعليهِ أنْ يسألَ اللهَ من فَضْلِه؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النِّساء: ٣٢].

بارَكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١٤١٥، ١٤٣٣) والترمذي (٢٥١٠) من حديث الزبير بن العوام.

من جوامعِ كَلِمِ النبيِّ ﷺ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أرْسَلَ إلينا أفْضَلَ الرُّسُلِ، وأنزلَ علينا أفضلَ الكتبِ، وجَعَلَنا خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ، وأمرَنا بالاجتماعِ على الحقِّ والهُدَى، ونهانَا عن الافتراقِ واتباعِ الهَوى، أحمدُه وأشكرُه على نِعَمِه التي لا تُحْصَى، وأشهدُ أنْ لا إلَه إلا هُوَ له الأسماءُ الحُسْنَى، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، تَرَكَ أُمَّتَه على المَحَجَّةِ البيضاءِ، لا خيرَ إلاَّ دلَّها عليهِ، ولا شرَّ إلا حذَّرَها منه، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه الذينَ آمنوا به، وعزَّرُوه ونَصَرُوه واتَّبَعوا النورَ الذي أُنْزِلَ معه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا كما أَمَرَكُم، وبِمُقْتَضَى هذه الأخوَّةِ تَتَحَابُّونَ، وبِمُقْتَضَاها تتناصَرونَ على الحقِّ، وبِمُقْتَضَاها تَتَراحَمُونَ، وبِمُقْتَضَاها تَتَناصَحونَ، وتتآمَرونَ بالمعروفِ، وتَتَناهَون عن المنكرِ؛ فإنَّ الأخوَّةَ في الدينِ أعْظَمُ وأقْوى من الأخوَّةِ في النَّسَبِ.

رَوَى الإمامُ أحمدُ، ومسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ عن النبي ﷺ أنَّه قالَ: **«إنَّ اللهَ تعالى يَرْضَى لكم ثلاثًا ويَكْرَهُ لكم ثلاثًا: يَرْضَى لكم أنْ تَعْبدُوه ولا تُشْرِكوا به شيئًا، وأنْ تَعْتَصِموا بحبلِ اللهِ جميعًا ولا تَفَرَّقوا، وأن تُناصحوا مَنْ ولاَّه اللهُ أمْرَكم، ويَكْرَه لكم قيلَ وقَالَ، وكثرةَ السؤالِ، وإضاعةَ المالِ»**[1]. فاللهُ تعالَى غنيٌّ عن خَلْقِه، لا تَنْفَعُه طاعَتُهم، ولا تَضُرُّه معْصِيَتُهم، وإنما نَفْعُ ذلكَ أو ضَرَرُه عائدٌ إليهم، فهو يَرْضَى لعبادِه ما ينفعُهم، ويَكْرَه لهم ما

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٣٤، ٨٥٠١، ٨٥٨١) ومسلم (١٧١٥).

يضُرُّهم؛ رحمةً منه بهم وإحسانًا منه إليهم، فقد رَضِيَ لهم الإسلامَ دينًا، وكَرِهَ لهم الكُفْرَ؛ قالَ تعالَى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزُّمَر: ٧] وهو سبحانَه يَرْضَى عن المؤمنينَ، ولا يَرْضَى عن القومِ الفاسقينَ، ورضاهُ وكراهِيَتُه صفتانِ من صفاتِ كمالِه، تَلِيقَانِ بعزِّه وجلالِه.

وفي هذا الحديثِ الشريفِ يُخْبِرُنا النبيُّ ﷺ عن ربِّه عزَّ وجلَّ أنَّه يَرْضَى لنا أنْ نتَّصِفَ بثلاثِ خصالٍ تَجْمعُ لنا خيرَ الدنيا والآخرةِ:

الخصلة الأولى: أنْ نصلحَ عقيدتَنا، فنعبدَ اللهَ وحدَه ولا نشركَ به شيئًا؛ لأن العقيدةَ هي الأساسُ الذي تَنْبَنِي عليه جميعُ الأعمالِ، فإذا صَحَّتِ العقيدةُ صَحَّتْ جميعُ الأعمالِ وأفادَتْ، وإذا فَسَدَتِ العقيدةُ فَسَدَتْ جميعُ الأعمالِ، ولم يستفدْ منها صاحبُها؛ ولهذا كانَ جميعُ الرُّسلِ يطالبونَ قومَهم بإصلاحِ العقيدةِ قَبْلَ كلِّ شيءٍ، كما قالَ تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النّحل: ٣٦]، وكلُّ رسولٍ يقولُ لقومِه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهكذا يجبُ على كلِّ الدعاةِ والمصلحينَ أنْ يبدءُوا في دعوتِهم بإصلاحِ العقيدةِ، وتنقِيتِها من الشركِ، وقد ضلَّ عن هذِه الطريقةِ اليومَ كثيرٌ من الدُّعاةِ، فصاروا يطالبونَ بإصلاحِ جوانبَ من الأعمالِ والتَّصرُّفاتِ، ويتركونَ جانبَ العقيدةِ، وهم يشاهدونَ الناسَ يقعونَ في الشركِ الأكبرِ عندَ القبورِ والمزاراتِ فلا يَنْهَونَهم، ولا يُبينُونَ لهم ما هم عليهِ من ضلالٍ وشِرْكٍ، وهذا من جهلِ هؤلاءِ الدُّعاةِ أو تَجاهُلِهم طريقةَ الرسلِ في الدعوةِ. ومهما دَعَوا ومهما تَعِبوا فإنَّ دعْوتَهم لا تُفيدُ ولا تُجْدِي ما دامتْ تتجاهلُ أمْرَ العقيدةِ.

إنَّ أمْرَ الأمةِ لا يستقيمُ ولا يتوفَّرُ لها الأمنُ والرزقُ إلاَّ إذا صَلَحَتْ عقيدتُهم، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النُّور: ٥٥] فوعَدَ سبحانَه بحصولِ هذِه المطالبِ العظيمةِ: الاستخلافِ في الأرضِ، وتمكينِ الدينِ، وتوفُّرِ الأمنِ بعدَ الخوفِ ـ إذا صحّتِ العقيدةُ بالإيمانِ به وبعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، فإذا أوْفى العبادُ بذلكَ فإنَّ الله لا يُخْلِفُ وعْدَه.

الخصلة الثانية مِمَّا يرضاهُ اللهُ لنا: أنْ نعتصمَ بحبلِ اللهِ جميعًا ولا نتفرقَ، وحبلُ اللهِ هو القرآنُ والسُّنَّةُ، والاعتصامُ به هو التَّمَسُّكُ به والعملُ بما فيه بالرجوعِ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، فإنَّ ذلكَ ضمانٌ من افتراقِ الكلمةِ واختلافِ الآراءِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النِّساء: ٥٩]، ولَمَّا أَمَرَ ﷺ بالاعتصامِ بحبلِ اللهِ والاجتماعِ عليه نَهى عن التفرُّقِ بجميعِ أنواعِه، كالتفرُّقِ في الولاية والقيادةِ، والتفرُّق في الآراءِ، والتفرُّقِ في العملِ، فإنَّ التفرُّقَ مذمومٌ وهو من صفاتِ اليهودِ والنَّصارى؛ كما قالَ تعالَى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾ [البيِّنَة: ٤]. والتفرُّقُ يُفْضِي إلى تَمزُّقِ الأمَّةِ، ووقوعِ العداوةِ بينَ أفرادِها، ويُطمِعُ فيها أعداءَها، ودينُنا دينُ الجماعةِ فهو يأمُرُنا بالاجتماعِ تحتَ قيادةٍ واحدةٍ، ويأمُرُنا بالاجتماعِ لأداءِ الصلواتِ الخمسِ، والاجتماعِ لأداءِ صلاةِ الجُمُعةِ والأعيادِ، والاجتماعِ لأداءِ الحجِّ، ويأمرُ المسلمينَ في جميعِ أقطارِ الأرضِ أنْ يتجهوا إلى قِبلةٍ واحدةٍ؛ كلُّ ذلكَ

مما يَدلُّ على طلبِ الاجتماعِ في القلوبِ والأعمالِ، ولَمَّا كانَ حصولُ الاختلافِ متوقعًا؛ لأنَّه من طبيعةِ البشرِ، أَمَرَ بِحَسْمِهِ بالرجوعِ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النِّساء: ٥٩]. ولابُدَّ أنَّ في الكتابِ والسُّنَّةِ ما يحلُّ الإشكالَ ويُنْهِي النزاعَ، وهذا من رحمةِ اللهِ بعبادِه.

ومما يُؤْسَفُ له أنَّنا نرى اليومَ بعضَ مَنْ يَتَسَمَّونَ بالدُّعاةِ، وينتسبونَ لطلبِ العلمِ، نراهم متفرقينَ إلى جماعاتٍ أو جمعياتٍ، كلُّ جماعةٍ أو جمعيةٍ لها اسمٌ خاصٌّ ومنهجٌ خاصٌّ يختلفُ عن منهجِ الأُخرى، وهذا التفرُّقُ سيُفْضِي بهم إلى نتائج سيئةٍ، ولا نستبعدُ أنْ يكونَ ذلكَ من تخطيطِ أعداءِ الإسلامِ، ليكِيدوا للمسلمينَ، ويُشْغِلوا بعضَهم ببعضٍ، وقدْ حَذَّرَ اللهُ من ذلكَ بقولِه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفَال: ٤٦]. فالواجبُ على هؤلاءِ أنْ يتركوا التعصُّبَ، ويرجعوا إلى اجتماعِ الكلمةِ ووحدةِ الصفِّ، ويُوَحِّدوا مَنْهَجَهم على كتابِ ربِّهم وسُنَّة نبيِّهم، وإذا حصلَ بينَهم اختلافٌ في فَهْمِ بعضِ المسائلِ الفرعيةِ فلا يكونُ هذا سببًا في تفرُّقِهم، فقد كانَ السلفُ يختلفونَ في فَهْمِ بعضِ المسائلِ الفرعيةِ، ولا يُؤَثِّرُ ذلكَ في محبةِ بعضِهم لبعضٍ، وفي اجتماعِ كَلِمَتِهم.

الخصلةُ الثالثةُ مِمَّا يرضاهُ اللهُ لنا: مناصَحَة من ولاَّه اللهُ أمْرَنا، وهو إمامُ المسلمينَ، ومَنْ ينوبُ عنه من الولاةِ، وذلكَ بطاعتِهم بالمعروفِ، وعدم مُخَالفتِهم، وبالدعاءِ لهم، وإعانتِهم على ما فيهِ صلاحُهم وصلاحُ رعيتِهم.

ويجبُ على مَنْ فَوَّضَ إليهِ وليُّ الأمْرِ القيامَ بعملٍ من الأعمالِ أنْ يؤدِّيَه على الوجه المطلوبِ، فيجبُ على الموظفِ أنْ يقومَ بعملِ وظيفتِه على الوجهِ المطلوبِ: لا يَنْقُصُ منه شيئًا، ولا يُحَابي فيه قريبًا أو صديقًا، ولا يأخذُ عليهِ

رِشوة أو أيِّ مُقابلٍ سِوَى ما حدَّدَه له وليُّ الأمْرِ من المرتَّبِ الخاصِّ .

فالموظَّفُ الذي لا يقومُ بعملِ وظيفتِه على الوجهِ المطلوبِ ، أو يحاولُ أنْ يستغلَّ منصبَه لمضارَّةِ المسلمينَ ، ويبيعَ عليهم عملَه بالرشوةِ المُحَرَّمةِ الملعونِ من تعاطاها ، أو أعانَ عليها ـ الموظفُ الذي هذِه حالُه قد خانَ أمانته ، ولم ينصحْ لوليِّ الأمْرِ .

أيُّها المسلمونَ : وهكذا نَجِدُ في الحديثِ الشريفِ من جوامعِ كَلِم النبيِّ ﷺ ما يضْمَنُ لنا الفلاحَ والصلاحَ ؛ وذلك بالاجتماعِ على عقيدةٍ واحدةٍ ، وهي عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له ، وتَرْكُ عبادةِ ما سِواهُ من الأصنامِ والقبورِ بأيِّ شكلٍ من أشكالِ العبادةِ ، والاجتماعِ على الرجوعِ إلى مصدرٍ واحدٍ لحلِّ مشكلاتِنا وإنهاءِ خصوماتِنا ؛ هو كتابُ اللهِ وسُنَّةُ رسولِه ، والاجتماعِ تحتَ قيادةٍ واحدةٍ نطيعُها ونناصِحُها في كلِّ تصرفاتِنا ، إنَّنا بهذا نحصلُ على رِضَا اللهِ وحُسْنِ مثوبتِه عاجلاً وآجلاً .

وفَّقَ اللهُ المسلمينَ للتمسُّكِ بكتابِه وسُنَّةِ رسولِه ، وجنَّبَهم التفرُّقَ والاختلافَ ، إنَّه سميعٌ مجيبٌ .

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عِمرَان : ١٠٣] .

بارِكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في بيانِ فَضْل الصبرِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ على فَضْلِه وإحسانِه، أَمَرَ بالصبر وأَثْنى على الصابرينَ، وَوَعَدَهُم أجرًا عظيمًا، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وكَفَى باللهِ عليمًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه وسلَّم تسليمًا.

أمَّا بَعْدُ: عبادَ اللهِ، اتقوا اللهَ تعالَى في جميعِ أحوالِكم، واصْبِروا على ما ينالُكم، فإنَّ الإنسانَ في هذِه الدنيا يُبْتَلى بالخيرِ والشرِّ، فهو بحاجةٍ إلى الصبْرِ الذي يستطيعُ به اجتيازَ مواقفِ الامتحانِ، وقد جاءَ ذِكْرُ الصبْرِ في القرآنِ في تسعينَ موضعًا، وهو نِصْفُ الإيمانَ، فإنَّ الإيمانَ نصفانِ: نصفٌ صَبْرٌ ونصفٌ شُكْرٌ. والصبرُ هو حبسُ النفسِ، وهو ثلاثةُ أنواعٍ: صبرٌ على طاعةِ اللهِ، وصبرٌ عن معصيةِ اللهِ، وصبرٌ على أقدارِ اللهِ المُؤْلِمَةِ:

فأمَّا الأولَ: وهو الصبرُ على طاعةِ اللهِ، فمِمَّا لا شكَ فيه أنَّ في الطاعةِ مَشَقَّةً، ففي الصلاةِ إتعابٌ للبدَنِ وحرمانٌ من النومِ، وفي الصومِ مشقَّةُ الجوعِ والعطشِ ومنعُ النفسِ من تناوُلِ شهواتِها، وفي الصَّدَقَةِ بذْلٌ للمالِ المحبوبِ إلى النفوسِ، وفي الجهادِ تَعَرُّضٌ للخطرِ بالقتلِ والجراحِ، وهذه المشاقُّ لا تلائمُ رغبةَ النفْسِ؛ لأنَّها مَيَّالةٌ إلى الراحةِ، شحيحةٌ بالمالِ، حريصةٌ على الحياةِ والبقاءِ، والشيطانُ يُخذِّلُها ويُكَسِّلُها، فهي بحاجةٍ إلى الصبرِ الذي تستطيعُ به الثباتَ على الطاعةِ، وتحمُّلِ المَشَقَّةِ، كما أنَّها بحاجةٍ إلى الإيمانِ الذي تُدرِكُ به حُسْنَ عاقبةِ الطاعةِ، فيسهلُ عليها تحمُّلُ المشاقِّ طمعًا بحُسْنِ العاقبةِ، وربما يعتادُ الطاعةَ بعد ذلكَ، ويألفُها ويتلَذَّذُ بها، ولا يصبرُ عنها، بعد أنْ كانَ في الأوَّلِ ينفِرُ منها،

ويحتاجُ إلى الصبرِ عليها، والصبرُ على طاعةِ اللهِ ينقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامَ:

* صبرٌ قَبْلَ فِعلِ الطاعةِ، وهو الصبرُ على إخلاصِ النيةِ للهِ وتَرْكِ الرياءِ فيها.

* وصبرٌ في أثناءِ أداءِ الطاعةِ، بأنْ يؤَدِّيَها على الوجهِ المشروعِ بأركانِها وواجباتِها وسُنَنِها، بحيثُ يُتْقِنُها ولا يَنْقُصُ شيئًا من أحكامِها.

* وصبرٌ بعد أداءِ الطاعةِ، بأنْ يصبرَ على كتمانِها، وعدمِ إفشائِها طلبًا للرياءِ والسُّمعةِ، وعن إتْبَاعِها بما يُبطلها، كإِتْبَاعِ الصدقةِ بالمَنِّ والأذَى.

وأمَّا الصبرُ عن معصيةِ اللهِ، فمِنَ المعلومِ أنَّ النَّفْسَ أمارةٌ بالسوءِ إلاَّ ما رحمَ ربِّي، فهي ميالةٌ إلى تناوُلِ شهواتِها ولو كانَ في ذلكَ مضرَّتُها وسوءُ عاقبتِها، والشيطانُ يزيِّنُ لها ذلكَ، فإذا لمْ يُمْسِكْها صاحبُها بزمامِ الصبرِ جَمَحَتْ به إلى حظيرةِ المُحَرَّماتِ، وحينئذٍ يصعبُ عليهِ استرجاعُها، فَحَبْسُهَا عن المعصيةِ من الأوّلِ ـ وإنْ كانَ فيهِ مشقَّةٌ ـ أسْهَلُ من استرجاعِها بعد أنْ ترتَعَ في الشهواتِ واقتلاعِها بعد أنْ تغوصَ في أوحالِها.

ومما يُعينُه على الصبرِ عن المعصيةِ شيئانِ:

الأول: النظرُ في العاقبةِ وسوءِ المصيرِ؛ فإن الصبرَ عن لذةٍ عاجلةٍ أسْهَلُ من الوقوعِ في نارٍ حاميةٍ، فإذا قارنَ العاقلُ بينَ اللذةِ العاجلةِ الفانيةِ وبينَ الخسارةِ والحسْرةِ الآجلةِ الباقيةِ، فإنَّه يدركُ الفَرْقَ الذي يحمِلُه على الكَفِّ عن المعصيةِ.

الشيءُ الثاني: الحياءُ من اللهِ تعالَى الذي خَلَقَهُ، وأنْعَمَ عليهِ، ونَهَاهُ عن معصيتِهِ، فكيفَ يبارزُه بِفِعْلِ ما نَهَاهُ عنه، وهو مُطَّلِعٌ عليهِ في كلِّ أحوالِه، وجميعِ تصرفاتِه، فإنَّ العبدَ إذا استحْضَر ذَلكَ تَرَكَ المعصيةَ حياءً من اللهِ، كما قالَ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾ [النَّازعَات: ٤٠، ٤١]. ثم لو تأمَّلَ العبدُ أحوالَ العُصَاةِ في الدنيا، وما هم فيه

من ذلَّةٍ وانحطاطٍ نَفْسيٍّ وفكريٍّ، ونَظَرِ الناسِ إليهم بعينِ الاحتقارِ، لكفَاهُ ذلكَ زاجِرًا عن الوقوعِ في المعاصِي.

وأما الثالثُ من أنواعِ الصبرِ، فهو الصبرُ على أقدارِ اللهِ المؤلمةِ بما يجري على العبدِ من المصائبِ، وهو حبْسُ النَّفْسِ عن الجزعِ، وحبسُ اللسانِ عن التَّشَكِّي والنَّدْبِ والنياحةِ، وحبسُ الجوارحِ عن الأفعالِ المُحَرَّمةِ، كلطْمِ الخدودِ، وشقِّ الجيوبِ، ودَعْوى الجاهليةِ. والصبرُ على ذلكَ يكونُ فورَ نزولِ المصيبةِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «الصبرُ عندَ الصدمةِ الأُولى»[1]. وقالَ تعالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]. فواجبُ المؤمنِ أنْ يصبرَ على ما يصيبُه.

ويُسَهِّلُ عليه الصبرَ على ذلك أمورٌ: منها إيمانُه بقضاءِ اللهِ وقدرِه، وأنَّ ما أصابَه لمْ يكُنْ ليخطِئَه، وما أخطَأَهُ لمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ؛ قالَ تعالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]. ومنها طمعُه في الجزاءِ الحسنِ من عندِ اللهِ وحُسْنِ العاقبةِ؛ فقد وعَدَ اللهُ الصابرينَ على المصائبِ بعظيمِ الجزاءِ فقالَ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ـ ١٥٧]. وقالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ»[2]. ومن الأمورِ التي تُعينُ على الصبرِ على المصائبِ انتظارُ الفرجِ بزوالِها؛ قالَ تعالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٣، ١٣٠٢) ومسلم (٩٢٦) من حديث أنس.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦).

مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]. وقالَ النبيُّ ﷺ: «واعْلَمْ أنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ، وأنَّ معَ العُسْرِ يسرا»(١).

ومما يُستعانُ به على الصبرِ على المصائبِ تَذَكُّرُ نِعَمِ اللهِ على العبدِ؛ فإنَّ الله أنعمَ على العبد من النعمِ أكثرَ وأكثرَ مما فقدَ في المصيبةِ، فإذا تَفكَّرَ في ذلكَ هانَتْ عليه المصيبةُ، وعَرَفَ فَضْلَ اللهِ عليه.

كما أنَّ على المُصابِ أنْ يعلمَ أنَّ ما أصابَه: بسببِ ذنوبه؛ قالَ تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، فإذا تذكَّر ذلكَ أوْجَبَ له التوبةَ والخوفَ من عقوبةٍ أشدَّ، فإنَّ عذابَ الدنيا أهونُ من عذابِ الآخرةِ.

وعلى كُلٍّ فالصبرُ شأنُه عظيمٌ وفضلُه كبيرٌ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عِمران: ١٨٦]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزُمَر: ١٠]. وقد أمَرَ اللهُ به، وأثنَى على أهْلِه وبَشَّرَهُمْ، ووعَدَهُم أنْ يوفيهم أجْرَهم بغيرِ حسابٍ، ووعَدَهُم بالنَّصْرِ والإمامةِ في الدينِ، قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمَهُ اللهُ: «بالصَّبْرِ واليقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدينِ» ثم تلا قولَه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: ٢٤].

اللهُمَّ اجعلْنا عندَ البلاءِ من الصابرينَ، وعندَ النعماءِ من الشاكرينَ، اللهُمَّ آمينَ. أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ لي ولكم ولجميعِ المسلمينَ...

* * *

---

(١) جزء من حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس، أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٠٠).

في الحثّ على أداءِ الصلواتِ في أوقاتِها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، جَعَلَ الصلاةَ على المؤمنينَ كتابًا موقوتًا، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ وسلَّمَ عليهِ، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى.

عبادَ اللهِ، إنَّ اللهَ سبحانَه أوْجَبَ عليكم خَمْسَ صلواتٍ في اليومِ والليلةِ، تُؤَدُّونَها في أوقاتٍ مخصوصةٍ، لا يجوزُ تأخيرُها عنها ولا تقديمُها عليها؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النِّساء: ١٠٣]. قالَ ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهم: إنَّ للصلاةِ وقتًا كوقْتِ الحجِّ. وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ: «موقوتًا» أيْ مُنَجَّمًا؛ كلما مضَى نجمٌ جاءَ نجمٌ، فمعنى الآيةِ الكريمةِ: أنَّ الصلاةَ كانتْ ولمْ تزلْ على المؤمنين «كتابًا» أيْ شيئًا مكتوبًا عليهِم واجبًا حَتْمًا «موقوتًا» أيْ له أوقاتٌ يجبُ بدخولِها.

وهذِه الأوقاتُ بَيَّنَتْهَا آياتٌ أُخرى، وأحاديثُ ثابتةٌ عن النبيِّ ﷺ، قالَ تعالَى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسرَاء: ٧٨]. ودلوكُ الشمسِ هو زوالُها عن كَبِدِ السماءِ، وهو إشارةٌ إلى وقتِ الظهرِ والعصرِ. وقولُه: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ وهو ظلامُ الليلِ بغروبِ الشمسِ، وهو إشارةٌ إلى وقتِ صلاةِ المغربِ والعشاء. وقولُه تعالَى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ﴾ إشارةٌ إلى وقتِ صلاةِ الفجرِ، وسَمَّى صلاةَ الفجرِ قرآنًا لأنَّها تطولُ فيها قراءةُ القرآنِ، وقالَ تعالَى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ

تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الرُّوم: ١٧، ١٨]. فالمرادُ بالتسبيحِ في هذِه الآيةِ: الصلاةُ، وأشارَ بقولِه: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى صلاةِ المغربِ والعشاءِ، وبقولِهِ: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى صلاةِ الصبحِ، وبقولِه: ﴿وَعَشِيًّا﴾ إلى صلاةِ العصرِ، وبقولِه: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ إلى صلاةِ الظهرِ.

وقد بيَّنَتِ السُّنَّةُ النبويةُ مواقيتَ الصلواتِ في أحاديثَ كثيرةٍ، منها حديثُ جابرِ بنِ عبدِاللهِ ـ رَضيَ اللهُ عنهما ـ أنَّ النبيَّ ﷺ جاءَه جبريلُ عليهِ السلامُ فقالَ له: «قُمْ فَصَلِّه»، فصلَّى الظهرَ حينَ زالتِ الشمسُ، ثم جاءَه العصرَ فقالَ: «قُمْ فَصَلِّه»، فصلَّى العصرَ حينَ صار ظلُّ كلِّ شيءٍ مِثْلَه، ثم جاءَه المغربَ فقالَ: «قُمْ فَصَلِّه»، فصلَّى المغربَ حينَ وجبتِ الشمسُ، ثم جاءَه العشاءَ فقالَ: «قُمْ فَصَلِّه»، فصلى العشاء حين غاب الشفق، ثم جاءَه الفجرَ فقالَ: «قُمْ فَصَلِّه»، فصلَّى الفجرَ حينَ برقَ الفجرُ أو قالَ: سطعَ الفجرُ»[1]. الحديثُ رواهُ أحمدُ، والنسائيُّ، والترمذيُّ.

عبادَ الله: إنَّه يجبُ على كلِّ مسلمٍ أداءُ هذِه الصلواتِ في مواقيتِها، لا يُقَدِّمُها عليها ولا يُؤَخِّرُها عنها إلاَّ في حالةِ الجمعِ للمسافرِ والمريضِ ونحوِهما مِمَّنْ يجوزُ له الجَمْـعُ شرعًـا، أمَّا مَنْ أَخَّرَ الصلاةَ عن وقتِها من غيرِ عذرٍ شرعيٍّ فهو مُضَيِّعٌ لها وساهٍ عنها؛ قالَ تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [المَاعون: ٤، ٥]. وقال تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، قالَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٣٧٦) وأبو داود (٣٩٥) والنسائي (٥٠٤).

ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما: «ليسَ معنى أضَاعُوها: تَرَكُوها بالكليةِ، ولكنْ: أخَّرُوهَا عن أوقاتِها». وقالَ سعيدُ بنُ المُسَيَّبِ إمامُ التابعينَ رحمَهُ اللهُ: «هو ألا يُصَلِّيَ الظهرَ حتى يأْتِيَ العصرُ، ولا يصلِّيَ العصرَ إلى المغربِ، ولا يصلِّيَ المغربَ إلى العشاءِ، ولا يصلِّيَ العشاءَ إلى الفجرِ، ولا يصلِّيَ الفجرَ إلى طلوعِ الشمسِ». فمَنْ ماتَ وهو مُصِرٌّ على هذِه الحالةِ ولمْ يتُبْ، وعَدَه اللهُ بـ«غيٍّ» وهو وادٍ في جهنَّمَ بَعيدٌ قَعْرُهُ خَبيثٌ طَعْمُهُ. وقالَ سعدُ بنُ أبي وقاص ـ رضيَ اللهُ عنه ـ: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عَن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [المَاعون: ٥]. قال: «هو تأخيرُ الوقتِ»(١)، أيْ تأخيرُ الصلاةِ عن وقتِها، سَمَّاهُم مُصلينَ لكنَّهم لَمَّا تهاونوا بها وأَخَّرُوها عنْ وقتِها تَوَعَّدَهم بـ«ويلٍ» وهو شدَّةُ العذاب، وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافِقون: ٩] قالَ المُفسِّرونَ: المرادُ بذِكْرِ اللهِ الصلواتُ الخَمْسُ، فمَنِ اشتَغَل بمالِه ـ بيعًا وشراءً ـ وبأولادِه عنْ أداءِ الصلاةِ في وقتِها فهو من الخاسرين، ولمْ يَنْفَعْه المالُ والأولادُ.

عبادَ اللهِ: إنَّ الخطرَ في هذا عظيمٌ، وبعضُ الناسِ يتساهلُ فيه، فينشغلُ عن أداءِ الصلاةِ في وقتِها إمَّا بعملٍ دُنيويٍّ من بيعٍ وشراءٍ، أو عملٍ وظيفيٍّ، أو عملٍ بدنيٍّ من بناءٍ أو زراعةٍ أو غيرِ ذلك، أو يشتغلُ بلهوٍ ولعبٍ، أو يتعمَّدُ النومَ عن الصلاةِ حتى يُخْرِجَها عن وقتِها، بلْ لقد بلغَ الأمْرُ ببعضِ الناسِ أنْ يجمعَ الصلواتِ الخَمْسَ في وقتٍ واحدٍ إذا فرغَ من أشْغالِه، وبعضُهم يجمعُ صلواتِ الأسبوعِ في يومِ الجمُعَةِ، أو يقتصرُ على صلاةِ الجُمُعَةِ ويظنُّ أنَّها تكْفِيهِ، وكُلُّ

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٨٢٢).

هذا من التلاعبِ في دينِ اللهِ، وعدمِ المبالاةِ بالصلاةِ التي هي عمودُ الإسلامِ، والفارقةُ بينَ المؤمنِ والكافرِ، فَلْيَتُبْ إلى اللهِ مَنْ هذا صنيعُه، وإلاّ فإنَّه مادام على هذِه الحالةِ فهو مُضيِّعٌ للصلاةِ، ساهٍ عن الصلاةِ، إنَّه من الخاسرينَ، ومن أهْلِ الويلِ والغيِّ، فاتَّقُوا اللهَ عبادَ اللهِ.

ومَنْ فاتَتْهُ صلاةٌ بنومٍ أو نيسانٍ فَلْيُبَادِرْ بقضائِها؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ نَسِيَ صلاةً فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها، لا كفارةَ لها إلاَّ ذلكَ»[1]. متفقٌ عليه. وإذا كانَ الفائِتُ عدة صلواتٍ وَجَبَ قضاؤُها سردًا في الحالِ، وتكونُ مُرتبةً تُقَدَّمُ صلواتُ كُلِّ يومٍ على اليومِ الذي بَعْدَه، وتُقَدَّمُ كُلُّ صلاةٍ من الصلواتِ الخَمْسِ على التي بَعْدَها؛ الفجرُ قبلَ الظهرِ، والظهرُ قبلَ العصرِ، والعصرُ قَبْلَ المغربِ، والمغربُ قَبْلَ العشاءِ، وبعضُ الناسِ يغلطُ في هذا، فإذا كانَ عليه عدةُ صلواتٍ أَخَّرَ قضاءَها، وقضاها كلَّ صلاةٍ مع نظيرَتِها من الصلواتِ المستقبلةِ، وهذا لا يجوزُ وهو خطأٌ فاحشٌ، وبعضٌ آخرُ من الناسِ يغلطُ في صلاةِ الفجرِ إذا لم يستيقظْ إلاَّ عندَ طلوعِ الشمسِ فيُؤخِّرُها إلى ارتفاعِ الشمسِ، وهذا خطأٌ سيِّئٌ؛ لأنُّه يُخرجُ الصلاةَ عن وقتِها، والواجبُ أنْ يصلِّيها في الحالِ حينما يستيقظُ ولو معَ طلوعِ الشمسِ؛ لأنَّ هذا الوقتَ وقتُ نَهْيٍ عن النوافلِ لا عن صلاةِ الفريضةِ، فالفريضةُ الفائتةُ ليسَ لها وقتُ نَهْيٍ بلْ تُصَلَّى مهما أمْكَنَ في أيِّ وقتٍ؛ عملا بقولِه تعالَى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤]، ولقولِه ﷺ: «مَنْ نَسِيَ صلاةً أو نامَ عنها فلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَهَا»[1].

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، في دينِكم عامةً وفي صلاتِكم خاصةً.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس بن مالك.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾ [البقَرَة: ٢٣٨، ٢٣٩].

باركَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في التحذيرِ من استقدامِ الأجانبِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، حذَّرنا من الثقةِ بالكفارِ، وقالَ: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هُود: ١١٣]. وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وهو اللهُ الواحدُ القهَّارُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المصطفى المختار، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه البرَرَةِ الأطهارِ، المهاجرينَ منهم والأنصار، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناس، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واحْذَروا من الفِتَنِ المُضِلَّةِ، وتجنَّبوا أسبابَ الشرِّ، فإنَّ الفِتَنَ تكْثرُ في آخرِ الزمانِ، ويجبُ على المسلمِ أنْ يعرفَها ليتجَنَّبَها. قالَ حذيفةُ بنُ اليمانِ رضيَ اللهَ عنْهُ: كان الناسُ يسألونَ النبيَّ ﷺ عن الخيرِ، وكنتُ أسألُه عن الشرِّ مخافةَ أنْ أَقَعَ فيهِ[1]. وقدْ أخبرَ النبيُّ ﷺ عن كثرةِ وقوعِ الفِتَنِ في آخرِ الزمانِ، وحذَّرَ أُمَّتَه منها. فيجبُ على المسلمِ أنْ يهْتَمَّ بهذا الأمْرِ غايةَ الاهتمامِ، ويخافَ من الوقوعِ في الفتنِ غايةَ الخوفِ، ويسألَ اللهَ السلامةَ منها.

والفتنةُ قد تكونُ في الخيرِ، وقد تكونُ في الشرِّ؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. أيْ نَخْتَبِرُكم بالشدَّةِ والرخاءِ لِنَنْظُرَ كيفَ شُكْرُكُم وصَبْرُكُم. ومِنَ الخيرِ الذي ابْتُلِيَ به المسلمونَ في هذِه البلادِ كثرةُ الأموالِ، ممَّا حَمَلَ الكثيرَ منهم على الأشَرِ والبطَرِ والإسرافِ والتبذيرِ، فعرَّضوا أنْفُسَهم وعرَّضوا بلادَهم لأسوإِ العقوباتِ، فمِمَّا سَبَّبَهُ الغِنَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) ومسلم (١٨٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان.

تساهُلُ المسلمينَ بشأنِ الكفارِ، وتناسِي خَطرِهم وعَداوتِهم، فصارَ الكثيرُ من الأغنياءِ والمُتْرَفينَ يسافرُ إلى بلادِ الكفارِ بعوائِلهم، لا لشيءٍ إلاَّ للنُّزهةِ وقضاءِ الوقتِ، وقد يكونُ لأسوأ من ذلكَ، وهو فسادُ الأخلاقِ، ومشاركةُ الكفارِ في لهوِهم ومجونِهم، والابتعادُ عن بلادِ المسلمينَ وأخلاقِ المسلمينَ؛ لأنَّهم لا يحصلونَ فيها على ما تَشْتَهي نفوسُهم الأمارةُ بالسوءِ.

والسفرُ إلى بلادِ الكفارِ، لا يجوزُ إلاَّ لغرضٍ مباحٍ من تجارةٍ أو علاجٍ أو دراسةٍ لا يمكِنُ الحصولُ عليها في بلاد المسلمينَ، مع تَمَكُّنِ المسلمِ من إظهارِ دينِه، والمحافظةِ على عقيدتِه، وابتعادِه عن مواطنِ الشَّرِّ وأهلِ الشرِّ؛ حتى يعودَ إلى بلادِه كما ذهبَ منها متمسكًا بدينهِ وعقيدتهِ، مُبْغِضًا للشرِّ وأهلِه، محبًّا للخيرِ وأهلِه.

ومِمَّا سَبَّبَهُ تَوَفُّرُ المالِ بأيدِي بعضِ الناسِ جَلْبُ الكفارِ إلى بلادِ المسلمينَ، باسْمِ عمالٍ أو مُسْتَخْدَمينَ أو سائقينَ أو مُربِّينَ، مما كَثَّرَ عددَ الكفارِ في بلادِ المسلمينَ معَ اختلاطِهِم بهم، واطِّلاعِهم على أسرارِ المسلمينَ؛ وسبَّبَ سريانَ عاداتِ الكفارِ وأخلاقِهم، وربما أديانِهم الكفريةِ بينَ المسلمينَ، وتأَثَّرَ الشبابُ والأطفالُ والجُهَّالُ بتلكَ الأخلاقِ، وتلكَ العقائدِ الفاسدةِ، وبعضُ المسلمينَ يأْتَمِنُ الكافرَ على مالِه وعلى مَحَارمِه وأولادِه ناسيًا أو متناسيًا قولَ اللهِ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [آل عِمرانَ: ١١٨] ففي هذِه الآيةِ الكريمةِ يَنْهَى اللهُ سبحانَه وتعالَى عبادَه المؤمنينَ عن اتِّخاذِ الكفارِ بطانةً، وبطانةُ الرجلِ هم خاصةُ أهلِه الذينَ يَطَّلِعُونَ على داخلِ أمْرِه، ويُبيِّنُ سبحانَه ما يُكِنُّه هؤلاءِ الكفارُ ويُضْمِرونَه في أَنْفُسِهم من عداوةٍ للمؤمنينَ، وأنَّهم يسعونَ للإضرارِ بهم بكُلِّ مُمْكِنٍ، وبما يستطيعون من المكرِ

والخديعةِ، وأنَّهم يَوَدُّون أنْ يَشُقُّوا على المسلمينَ ويضايقُوهم كلما سَنَحَتْ لهم الفرصةُ، وقد ذُكِرَ لأميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ غلامٌ من أهلِ الحيرةِ حافظٌ كاتبٌ، وطُلِبَ منه أنْ يتَّخِذَه كاتبًا، فامْتَنَع من ذلكَ وقال: قَدِ اتَّخَذْتُ إذن بطانةً من دونِ المؤمنينَ.

قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمَهُ اللهُ: ففي هذِه الآيةِ معَ هذا الأثَرِ دليلٌ على أنَّ أهلَ الذِّمَّةِ لا يجوز استعمالُهم في الكتابةِ التي فيها استطالةٌ على المسلمين، واطِّلاعٌ على دواخلِ أمورِهِم التي يُخْشَى أنْ يفْشُوها إلى الأعداءِ.

وهذا جانبٌ من جوانبِ ضررِهم على المسلمينَ. وهناكَ جوانبُ كثيرةٌ من أهمِّها تأثيرُهم على المسلمينَ بجلْبِ المذاهبِ الكفريةِ، والأفكارِ الإلحاديةِ، وتَلْقِينِها لأوْلادِ المسلمينَ خصوصًا إذا تَوَلّوا تَرْبيتَهم. ومنها جَلْبُهُم لوسائِلِ الإفسادِ الخُلُقِي من الخمورِ والمخدراتِ والمسكراتِ عن طريقِ الخِفْيةِ، وإيصَالُها إلى أيدِي شبابِ المسلمينَ وسُفَهائِهم، ومنها إفسادُهُم للنساءِ وللعوائلِ والبيوتِ إذا استُخدموا سائقينَ أو خدَمًا أو طباخينَ، ومنها أنَّهم يسحبونَ ثروةَ المسلمينَ، ويتقَوونَ بها على الكفرِ، وعلى محاربةِ المسلمينَ، فلا يجوزُ للمسلمِ أنْ يجلبَ كافرًا إلى بلادِ المسلمينَ، لِمَا في ذلكَ من الأضرارِ البالغةِ على المُسْتَقْدِمِ، وعلى المجتمعِ الإسلاميِّ، لكنْ إذا اضْطرَّ صاحبُ العملِ إلى جَلْبِ عمالٍ أجانبَ فعليه أنْ يختارَ عُمَّالاً مسلمينَ، وهم والحمدُ لله كثيرٌ، ومن صَلَحتْ نِيَّتُه وبَذَلَ الأسبابَ النافعةَ يَسَّرَ اللهُ له، وكانَ قدوةً في الخيرِ، هذا معَ أنَّ البعضَ أو الكثيرَ من الذينَ يَسْتَقْدِمونَ الأجانبَ يستقْدِمونَهم من غير حاجةٍ، وإنَّما يستقدِمونَهم من بابِ المباهاةِ والمفاخرةِ ومجاراةِ الآخرينَ، ليظْهَرَ أمامَ الناسِ أنَّ لدَيْهِ سائقاً أو لَدَيهِ خادمينَ لِيَفْتَخِرَ بذلك، والأمْرُ الفظيعُ

الذي لا يُمْكِنُ السكوتُ عنه أنَّ بعضَهم يستقدِمُ امرأة وليسَ معها مَحْرَمٌ، ويُسكِنُها في بيتِه كأنَّها من مَحَارِمِه، وقد تكونُ شابةً جميلةً فيها كلُّ أسبابِ الفتنةِ، ورُبَّما يَبْلُغُ الأمْرُ ببعضِهم إلى أنْ يجعلَ هذهِ المرأةَ الفاتنةَ تَستقبلُ الزوارَ من الرجالِ، وتَصُبُّ لهم القهوةَ، فانظروا إلى أيِّ حَدٍّ بَلَغَ التَّرَفُ والاستهانةُ بالقِيَمِ والأخلاقِ بهؤلاءِ الذينَ هم من أشباهِ الرجالِ، وليسوا رجالاً، والبعضُ منهم يَتْرُكُ امرأتَه تَرْكبُ وحدَها مع السائقِ، وهو ليسَ مَحْرَمًا لها، فيذهبُ بها حيثُ شاءَ أو حيثُ شاءَتْ ـ الله أعلم ـ والبعضُ الآخرُ من هؤلاءِ المستقدِمينَ يأتِي بقطعانٍ من الأجانب الكفارِ ويُسَكِّنُهم أو يَستأْجِرُ لهم مساكنَ بينَ محارمِ المسلمينَ وعوائِلِهِم، فيضايقُ بهم الجيرانَ، ويُؤذِي بهم المسلمينَ، وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

فاتَّقُوا الله، عبادَ اللهِ، ومَنْ رَزَقَهُ اللهُ مالاً فَلْيُحسِنِ التصرُّفَ فيه، ولْيُحْسِنْ كما أَحْسنَ اللهُ إليهِ، ولا يَبْغِ الفسادَ في الأرضِ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المفسدينَ.

أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ اللهَ. . .

* * *

في محاسبةِ النّفسِ

الحمدُ للهِ على فضلهِ وإحسانِه، خَلَقَ هذه الحياةَ بما فيها من خيرٍ وشرٍّ، وخَلَقَ هذا الإنسانَ، وبصَّرَه بِمَخاطرِها وخيرِها وشرِّها ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾ [الإنسَان: ٢، ٣]. وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، خَلَقَ كُلَّ شيءٍ فَقَدَّرَه تقديرًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرْسَلَهُ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإِذْنِه وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واعْلَموا أنَّكم لمْ تُخْلَقُوا عبثًا، ولن تُتْرَكُوا في هذه الحياةِ سُدًى، لقد خَلَقَ اللهُ هذا الإنسانَ في هذِه الأرضِ، وجعَلَه يعيشُ هذِه الحياةَ، ويجتازُ مخاطِرَها وخيرَها وشرَّها، وبيَّن له طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ، ومَكَّنَهُ من أسبابِ النجاةِ وأَمَرَه بالأَخْذِ بها، واسْتَرْعَاه على نَفْسِه وائْتَمَنَه عليها، وبيَّن له نزَعاتِها الجامحةَ وشهواتِها المهلكةَ؛ ليأْخُذَ بزمامِها، ويحْبِسَها عن غيِّها ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يُوسُف: ٥٣].

عبادَ اللهِ: لقد أَمَرَنا اللهُ عزَّ وجلَّ بحفْظِ نُفوسِنا عن المهالِكِ، واسْتَرْعانا عليها؛ قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝ ﴾ [النساء: ٢٩: ٣٠]، فالمُؤْمِنُ مأمورٌ بحفْظِ حياتِه من الخطرِ

الذي ليسَ من ورائِه مصلحةٌ راجحةٌ، فيجبُ عليه أنْ يُجنِّبَ نَفْسَهُ جميعَ أسبابِ الهلاكِ، فَيَحْرُمُ عليهِ أنْ يقتلَ نَفْسَهُ قتلاً مباشراً، أو يتعاطى ما يُفْضِي إلى الهلاكِ، ويسبِّبُ الأمراضَ كالدخانِ والمسكراتِ والمخدراتِ وأنواعِ السمومِ، وكذلكَ المُؤْمنُ مأمورٌ بحفْظِ نَفْسِهِ من الوقوعِ في المحرماتِ وتناول الشهواتِ المُحَرَّمَةِ؛ لأن عاقبتَها العذابُ وسوءُ الحساب، وبيَّنَ أنَّ مَنْ فَعَلَ ذلكَ فقد ظَلَمَ نَفْسَهُ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلاق: ١]؛ لأنَّه بذلكَ يعرِّضُها لعقابِ اللهِ.

كما أنَّه يَجِبُ على المؤمنِ حينما يَأْمُرُ بخيرٍ أو يَنْهَى عن شرٍّ أنْ يبدأَ بِنَفْسِه، فيحمِلَها على فِعْلِ الخَيْرِ وتَرْكِ الشرِّ؛ لتفوزَ بالثوابِ وتَنْجُو من العقاب؛ قالَ تعالَى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التّحريم: ٦]. فَأَمَرَ بأَمْرِ النفْسِ بالبِرِّ قبلَ أَمْرِ غيرِها به، ووقايتِها من النارِ بفِعْلِ الطاعاتِ وتَرْكِ المُحرَّماتِ قَبْلَ وقايةِ غيرِها من الأهْل؛ لأنَّ نَفْسَ الإنسانِ أَولى بِبِرِّه ونُصْحِه؛ و لأنَّه يُقْبَلُ النُّصحُ والتوجيهُ مِمَّنْ لا يبدأُ بنَفْسِه ويكونُ قُدْوةً صالحةً.

وقد أَمَرَنا اللهُ سبحانَه حينما نَرَى الناسَ يَضِلُّونَ عن سبيلِ اللهِ ويُوقِعونَ أنْفُسَهُم في المهالكِ، فيتركونَ ما أوْجَبَ اللهُ عليهم ويرتكِبونَ ما حرَّمَ عليهم، ولا يَقْبَلونَ النُّصحَ والإرشادَ، أَمَرَنا عندَ ذلكَ أنْ نُنْقِذَ أنْفُسَنا، فنلزمَ طاعةَ اللهِ، ونتركَ معصيتَه، ولا نَغْتَرَّ بهؤلاءِ ولا نُتَابِعهم، كما قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المَائدة: ١٠٥]. فإذا كانَ الناسُ على خطأٍ، فعلى الإنسانِ أنْ

يُلْزِمَ نَفْسَه طريقَ الصوابِ، ويدْعُو الناسَ إليه، ولا يُتابِعَهم على ما هم عليه وهو يَعْلَمُ أنَّه خطأٌ وهلاك، بلْ يَثْبُتُ على الحقِّ ولو بَقِي عليهِ وحدَه، كما أَمَرَ اللهُ سبحانَه عندَما يكونُ هناكَ فريقانِ من الناسِ: فريقٌ على الباطلِ ومعهم شيءٌ من زهرةِ الحياةِ الدنيا من الغِنى والجاهِ وغيرِ ذلك، وفريقٌ على الحقِّ وليسَ معهم من زهرةِ الدنيا شيءٌ: أنْ نكونَ معَ أهْلِ الحقِّ ونَصْبِرَ على ضيقِ المعيشةِ وفقدانِ زهرةِ الحياةِ الدنيا؛ قالَ تعالَى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]. وذلكَ نظر للعواقبِ لا إلى الدنيا العاجلةِ والزينةِ الزائلةِ.

كما أخبَرَ اللهُ سبحانَه أنَّ العاقبةَ الطيبةَ والنعيمَ في الدارِ الآخرةِ إنَّما يحصلانِ لِمَنْ أحْسنَ رعايةَ نَفْسِهِ في الحياةِ الدنيا، فاسْتَعْمَلَها في الخيرِ وكَفَّهَا عن الشَّرِّ؛ قالَ تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات: ٣٧ـ ٤١].

وقالَ النبيُّ ﷺ: «**الكيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ، وعَمِلَ لِمَا بعدَ الموتِ، والعاجِزُ مَنْ أتبعَ نَفْسَهُ هواها، وتَمَنَّى على اللهِ الأماني**»[١]. فبيَّنَ ﷺ أنَّ الحازمَ هو الذي يحاسبُ نَفْسَهُ على عَمَلِها في هذِه الدنيا، فيُلْزِمُها بفِعْلِ الطاعاتِ وتركِ المُحَرَّماتِ والتوبةِ من السيئاتِ، وأنَّ العاجزَ هو الذي يَترُكُ نَفْسَه ويُهْمِلُها تأْخُذُ ما تشتهي من المحرماتِ، ثم يرْجُو النجاةَ وهو لمْ يأْخُذْ بأسبابِها، وإنَّما أَخَذَ بأسبابِ الهلاكِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

وقالَ تعالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝﴾ [الشّمس: ٧ـ ١٠] فأَخبرَ سبحانَه أنَّه خَلَقَ النَّفْسَ الإنسانيةَ مستقيمةً على الفِطْرةِ القويمةِ، وبيَّنَ لها طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ، ثم اسْترْعَى صاحِبَها عليها، فَمَنْ أَحْسَنَ رعايتَها وطَهَّرَها من الأخلاقِ الدنيئةِ، فإنَّه يحصلُ على الفلاحِ العاجلِ والآجلِ، ومَنْ أساءَ رعايتَها ودنَّسَها بالمعاصِي، فإنَّه يحصلُ على الخيبةِ العاجلةِ والآجلةِ. وقد وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ إذا قرأَ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝﴾ [الشّمس: ٨] وقَفَ ثم قالَ: «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْواها، وزكِّها أنْتَ خيرُ من زكَّاها، أنْتَ وليُّها ومولاها**»[١]، وفي «صحيحِ مسلمٍ» أنَّه ﷺ كانَ يَدْعُو بهذا الدعاءِ[٢].

وقد دلَّتْ هذه الآياتُ الكريمةُ على أنَّ الطاعةَ تُزَكِّي النفسَ، وتُطَهِّرُها، وترتَفِعُ بها، وأنَّ المعاصِي تُدَسِّي النَّفْسَ، وتَقْمَعُها، فتنخَفِضُ بها، وتصيرُ كالذي يُدَسُّ في الترابِ. وقالَ النبيُّ ﷺ: «**كلُّ الناسِ يغْدُو، فبائعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها أو مُوبِقُها**»[٣]. فدلَّ الحديثُ على أنَّ الإنسانَ لابُدَّ أنْ يَسْعى إمَّا في هلاكِ نَفْسِهِ أو في فَكَاكِها، وذلكَ من خلالِ تَصَرُّفاتِهِ في هذه الحياةِ، فمَنْ سَعَى في طاعةِ اللهِ فقد باعَ نَفْسَهُ للهِ وأعْتَقَها من عقابِه، ومَنْ سَعَى في معصيةِ اللهِ فقد باعَ نَفْسَهُ بالهوانِ وأهلكها بالآثامِ الموجبةِ لغضبِ اللهِ وعقوبتِه.

قالَ الحَسَنُ رحمَهُ اللهُ: «ابنَ آدمَ، إنَّكَ تَغْدو وتَرُوحُ في طلبِ الأرباحِ، فلْيَكُنْ هَمُّكَ نَفْسَكَ، فإنَّك لنْ ترْبَح مِثْلَها أبداً». فالمؤمنونَ يبيعونَ أنْفُسَهم للهِ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٩١) من حديث ابن عباس.
(٢) صحيح مسلم (٢٧٢) من حديث زيد بن أرقم.
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري.

بثمنٍ عظيمٍ وهو الجنَّةُ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. قالَ محمدُ بنُ الحنفيةِ رحمَه اللهُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، جَعَلَ الجنَّةَ ثمنًا لأنفُسِكُمْ فلا تَبيعُوها بغيرِها.

فاتَّقُوا اللهَ، عباد اللهِ، فإنَّ الخاسرَ مَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ، وباعَها بالدنيا الفانيةِ واللذةِ العاجلةِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمَر: ١٥].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

بارَكَ اللهُ لي ولكم في القرآن العظيم

* * *

في الحثّ على الإصلاحِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يُؤْتِي المصلحينَ أجرًا عظيمًا، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ تبعَهُم بإحسانٍ.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناس، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وكونُوا دعاةَ خيرٍ وإصلاحٍ، ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مفسدين، فَمِنَ الناسِ مَنْ يكونُ مفتاحًا للخيرِ مغلاقًا للشرِّ، ومنهم مَنْ يكونُ مفتاحاً للشرِّ مِغلاقًا للخيرِ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البَقَرَة: ١١، ١٢]. وشتانَ بينَ الفريقينِ ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٠] وسَيُجَازِي كلاًّ بعملِه، ويوفيهِ حسابَه.

عبادَ اللهِ: إنَّ سُبُلَ الإصلاحِ كثيرةٌ، وكلُّ مسلمٍ يُطْلَبُ منه أنْ يُساهِمَ بما يَستطيعُه منها: فالدعوةُ إلى الخيرِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهْيُ عن المنكرِ، وتعليمُ العِلْمِ النافعِ: من أعظمِ سُبُلِ الإصلاحِ، ووجودُ مَنْ يقومُ بذلكَ في الأُمَّةِ أمانٌ لها من العذابِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هُود: ١١٦، ١١٧]. يقولُ تعالَى: هَلاَّ وُجِدَ في القرونِ الماضيةِ بقايا من أهْلِ الخير ينْهَوْنَ عمَّا كانَ يقعُ بينَهم من الشرورِ والمنكراتِ والفسادِ في الأرضِ ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ أيْ: قد وُجِدَ من هذا الصنفِ

الخَيِّرِ قليلٌ، وقد أنْجَاهُمُ اللهُ عندَ حلولِ غَضَبِه، والكثيرُ استَمَرُّوا على ما هم عليهِ من المعاصِي والمنكراتِ، ولم يَلْتفِتوا إلى إنكارِ الأخيارِ الذينَ نَهَوهم عن الفسادِ، ففاجَأَهُم العذابُ فأَهْلَكَهم. ثم أخْبرَ تعالَى أنه لم يُهلِكْ قريةً إلاَّ وهي ظالمةٌ لنفْسِها، ولمْ يُهلِكْ قريةً مُصْلِحَةً قَطُّ؛ ولهذا أَمَرَ اللهُ هذه الأمةَ أنْ يكونَ فيها مَنْ يأمرُ بالمعروفِ وينْهى عَنِ المنكرِ؛ فقالَ تعالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمرانَ: ١٠٤]؛ وذلكَ لِيَسلَموا مِمَّا أصابَ الأُمَمَ قَبْلَهم بسببِ إهمالِ هذا الجانبِ. والذي يتمسَّكُ بالكتابِ، ويُؤدِّي ما أَوْجَبَ اللهُ عليه يُسَمَّى مُصْلِحًا؛ قالَ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠]؛ وذلكَ لأنَّ الأرضَ تعمرُ بالطاعةِ، وتكثرُ خيراتُها، ويكونُ هؤلاءِ الصالحونَ قُدْوةً لغيرِهم في الخيرِ.

ومن أنواعِ الإصلاحِ: الإصلاحُ بينَ المتعادِينَ المتقاطِعِينَ من المسلمينَ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفَال: ١]. عَنْ أبي الدرداءِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ألاَ أُخبِرُكُم بأفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ؟**» قالوا: بَلَى: قالَ: «**إصلاحُ ذاتِ البينِ، فإنَّ فسادَ ذاتِ البينِ هو الحالقةُ**»(١). رواهُ أبو داودَ، والترمذيُّ، وابنُ حِبانَ في صحيحِه، وقالَ الترمذيُّ: حديثٌ صحيحٌ، وفي روايةٍ أنَّه قالَ: «**هي الحالقةُ، لا أقولُ: تحلقُ الشَّعرَ، ولكنْ تحلقُ الدينَ**»(٢).

وقالَ اللهُ تعالَى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وابن حبان (٥٠٩٢).
(٢) سنن الترمذي (٢٥٠٩).

مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النِّساء: ١١٤]. أي: لا خيرَ في كثيرٍ مِمَّا يُسِرُّهُ القومُ ويتناجونَ به في الخفاءِ، إلاَّ إذا تناجوا في صدقةٍ يُعْطونَها سرًّا، أو أَمْرٍ بطاعةِ اللهِ، أو إصلاحٍ بينَ المتخاصمينَ في الدماءِ والأموالِ والأعراضِ وكلِّ ما يقعُ فيه التداعي بينَ الناسِ ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ أي: مَنْ فَعَلَ هذِه الخصالَ الطيبةَ بعدَما أَمَرَ بها الناسَ، فجَمَعَ بينَ الأَمْرِ بالخيرِ وفِعْلِه مخلصًا للهِ في ذلكَ، فَلَه الأجْرُ العظيمُ عندَ اللهِ، وفي هذا ترغيبٌ في الإصلاحِ بينَ الناسِ، حتَّى أنَّه تُسومِحَ فيه بالكذبِ إذا كانَ فيهِ تَوَصُّلٌ إلى الصلحِ؛ فقد قالَ النبيُّ ﷺ: «ليسَ الكذابُ الذي يصلحُ بينَ الناسِ فيُنْمِي خيرًا أو يقولُ خيرًا»[1]. متفقٌ عليهِ. ومعنى «يُنْمِي خيرًا» أيْ ينقلُ خبرًا فيه خيرٌ. وقد جَعَلَ النبيُّ ﷺ من جملةِ الصدقاتِ التي يُطالَبُ بها الإنسانُ كلَّ يومِ العدلَ بينَ الاثنينِ المتخاصمينِ، حيثُ قالَ ﷺ: «كلُّ سُلامى من الناسِ عليهِ صدقةٌ»، «وكلُّ يومٍ تطلعُ فيه الشمسُ تعدلُ بينَ اثنين صدقةٌ. . .»[2] الحديثُ.

ومِنْ أنواعِ الإصلاحِ: الإصلاحُ بينَ الزوجينِ المختلفينِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النِّساء: ١٢٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩]. وذلكَ لأنَّ الإصلاحَ بينَ الزوجينِ تَنْبني عليهِ البيوتُ، وتترابطُ به الأُسَرُ التي هي أُسُسُ المجتمعاتِ البشريةِ، والفسادُ ما بينَ الزوجينِ يترتَّبُ عليهِ فسادُ البيوتِ وتَفَكُّكُ الأُسَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) ومسلم (٢٦٠٥) من حديث عائشة.
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٧، ٢٨٩١، ٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة.

ومن أنواعِ الإصلاحِ المطلوبةِ: الإصلاحُ بينَ الطوائفِ المقتتلةِ من المسلمينَ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحُجرَات: ٩]. أَمَرَ اللهُ المؤمنينَ أنْ يَسْعَوا بالصلحِ بينَ المتقاتلينَ، ويقْضُوا على أسبابِ الفتنةِ بالعدلِ الذي يُعْطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه؛ حتّى يَستتبَّ الأمنُ، وتُحقنَ الدماءُ، ويُؤخذَ على يدِ المُعْتدي، ويُنْصَفَ المُعْتَدىٰ عليهِ، ولَمَّا بلغَ رسولَ اللهِ ﷺ ما حصلَ بينَ بعضِ طوائفِ المسلمينَ من النزاعِ، خَرَجَ إليهم بِنَفْسَهِ ومعه بعضُ أصحابِه، وتأَخَّرَ عن الصلاةِ بالناسِ بسببِ ذلكَ حتى سَوَّى ما بينهم من نزاعٍ.

عبادَ اللهِ: بعضُ الناسِ يتكاسلُ عن القيامِ بمهمةِ الإصلاحِ، ويَتْرِكُ النزاعَ يُفْسِدُ ما بينَ المسلمينَ، وعندَه القدرةُ على تسويتِه، ولكنَّ الشيطانَ يُخَذِّلُهُ، ويقولُ له: لا تُكَلِّفْ نَفْسَكَ أنت في عافيةٍ، فيتركُ ما أَوْجَبَ اللهُ. والبعضُ الآخرُ يُوقِدُ الفتنةَ، ويُحَرِّشُ بينَ المتنازعينَ، ويكونُ من جُنْدِ الشيطانِ، وهذا هو الذي يكونُ مِغْلاَقًا للخيرِ مِفتاحًا للشرِّ، يُحَرِّضُ المتنازعينَ على النزاعِ، ويُلَقِّنُ كلَّ طرفٍ ما يَتَّخِذُه ضدَّ الآخرِ. فاحْذروا هؤلاءِ، وابْتَعِدوا عنهم، وانْصَحوا إخوانكم بالحذرِ منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٩﴾ [المجَادلة: ١٩].

بارَكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

فِي وجوبِ شكرِ النِّعمِ

الحمدُ للهِ على نعمهِ الظاهرةِ والباطنةِ، ولا نُحْصِي نِعَمَهُ، ولا نستطيعُ الوفاءَ بشُكْرِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واذْكُروا نعمةَ اللهِ عليكم، وقَيِّدُوها بِشُكْرِها، فإنَّ اللهَ ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]. إنَّكم تعيشونَ في نِعَمٍ عظيمةٍ لم تُذْكَرْ في تاريخِ الأُمَمِ قَبْلَكم: أمنٌ في الأوطانِ، وصحةٌ في الأبدانِ، ووفرةٌ في الأموالِ، وراحةٌ في كلِّ مُتطلباتِ الحياةِ، ومخترعاتٌ باهرةٌ قَرَّبَتْ لكم كُلَّ بعيدٍ، ووَفَّرَتْ لكم كُلَّ جديدٍ، تأكلونَ أصنافَ الملذَّاتِ، وتَلْبَسونَ أفخرَ الثيابِ، وتركبونَ المراكبَ الفخمةَ المريحةَ التي تقطعُ بكم المسافاتِ البعيدةَ في أسرعِ وقتٍ، وتَسْكنونَ القصورَ المشيدةَ التي تتوَفَّرُ فيها كلُّ وسائلِ الراحةِ، من تبريدٍ وماءٍ عَذْبٍ متدفقٍ، وإنارةٍ واضحةٍ، وأثاثٍ فخمٍ، وفُرُشٍ وثيرةٍ، ووسائلَ مواصلاتٍ تتصلونَ بواسطتِها بِمَنْ تريدونَ في أقصى الأرضِ وأدناها، وتملكونَ الأموالَ الطائلةَ، والثرواتِ الضخمةَ. هذا بعضُ النِّعَمِ الظاهرةِ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

لكنْ بماذا قابلْنا هذه النِّعَمَ؟ هلْ أَدَّيْنا شُكْرَها؟ هلْ عَرَفْنا حقَّها؟ إنَّ نِعَمَ اللهِ إذا شُكِرَتْ قرَّتْ وزادتْ؛ كما قالَ تعالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإنْ لمْ تُشْكَرْ كانتْ بينَ أَمْرينِ: إمَّا أنْ تُسْلَبَ في الحالِ، وإمَّا أنْ تَبقى للاستدراجِ، ليغْتَرَّ المجرمون بها، ويَزْدادوا من الإثْمِ، كما

قالَ تعالَى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٨]. اقرءُوا القرآنَ الكريمَ، وطالِعوا في كُتُبِ التاريخِ، وسِيروا في الأرضِ تروا مَا حَلَّ بالأُمَمِ التي كَفَرتْ بأَنْعُمِ اللهِ ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النّحل: ١١٢] والذينَ ﴿ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، واقرءُوا أخبارَ عادٍ وثمودَ وفرعونَ وما كانَ لِسَبأٍ في مَسْكَنِهم، كيفَ سُلِبُوا ثوبَ النعمةِ ولَبِسوا ثوبَ النقمةِ لمَّا لمْ يَشْكُروا نِعَمَ اللهِ عليهم، معَ أنَّ ما عندَكم من النِّعَمِ لمْ يكنْ عندَهم مِثْلُه فيما حدَّث التاريخُ، بلْ ما عندَكم يَخْتلفُ عمَّا عندَهم اختلافًا كثيرًا.

عبادَ اللهِ: كانتْ هذه البلادُ وكما تَعْلَمونَ إلى عهدٍ قريبٍ في حالةٍ من الفقرِ والحاجةِ، وكانَ أهْلُها يَتفرَّقونَ في البلادِ المجاورةِ طلبًا للرزْقِ، وهربًا من الفقرِ والحاجةِ، لكنَّها كانتْ مع ذلكَ بلادًا محافِظةً على دينِها وعفَّتِها وحيائِها متمسكةً بعقيدتِها، كانَ رجالُها ونساؤُها وشيوخُها وشبابُها على غايةٍ من الدينِ والأخلاقِ الفاضلةِ، كُلٌّ يُؤَدِّي لِنَفْسِه ولمُجْتَمَعِه من العملِ ما يليقُ به، فكانَ الرجالُ يقومونَ بأعمالٍ تليقُ بهم، وكانت النساءُ يقُمْنَ بأعمالٍ تَليقُ بِهِنَّ في البيوتِ وفي المزارعِ، وكانَ الشبابُ يُقلِّدونَ آباءَهُم في الخيرِ والأخلاقِ الحميدةِ، ويَنْشَؤونَ على مزاولةِ الأعمالِ المفيدةِ، فكانَ ابنُ التاجرِ يزاولُ معَ أبيهِ التجارةَ، وكانَ ابنُ الفلاَّحِ يزاولُ مع أبيهِ الفِلاحةَ، وكانَ ابنُ الحدادِ أو النجارِ يزاولُ مع أبيهِ تلكَ المِهَنَ المفيدةَ، وكانَ ابنُ العالِمِ يَتلَقَّى عَنْ أبيهِ العِلْمَ، وهكذا تَنْشَأُ طبقةٌ على

مُختلفِ المِهَنِ تَخلُف طبقةٌ سَبقَتْها، لا تَرى فيهم العاطِلَ المُضَيِّعَ لوقتِه.

ولمَّا أفاءَ اللهُ على هذِه البلادِ كثيرًا من المالِ والرخاءِ، تغيَّرَتِ الأوضاعُ وساءَتِ الأحوالُ، واختَفَى في هذا المجتمعِ كثيرٌ من الصفاتِ الحميدةِ، وأغرقَ الناسُ في التَّرفِ، وصارَ مجتمعًا يستهلكُ ولا يُنتجُ، يأْخذُ ولا يُعْطِي، خَفَّ على الناسِ أَمْر الدينِ، واسْتَهانوا بالقِيَمِ، واسْتَوْردوا كثيرًا من عاداتِ الكفارِ وتقاليدهم. فالآباءُ انشَغَلوا بجَمْعِ المالِ، وأَلْهَاهُمُ التكاثرُ، فَتَركُوا تربيةَ أولادِهم، والنساءُ كَفَفْنَ أَيْدِيَهُنَّ عَنِ العملِ المفيدِ في البيوتِ، فصارتِ المرأةُ لا تُرْضِعُ، ولا تُرَبِّي ولَدَها، ولا تَغْسِلُ ثيابَها، ولا تَعمل حوائجَ بيتها، حتَّى آلَ الأمْرُ إلى استجلابِ المربياتِ والخادمات للقيامِ بهذِه الأعمالِ دونَ تفكيرٍ بعواقبِ ذلكَ ونتائجِه على الأطفالِ والبيوتِ، وانْفَصلَ الشبابُ عن آبائِهم، وعن مزاولةِ الأعمالِ، وَوَفَّرَ لهم آباؤهم كُلَّ مطالِبهم بدونِ تَعَبٍ، وتَوَفَّرَتْ لهم كلُّ أسبابِ الضياعِ: من شبابٍ، وفراغٍ، وجِدَةٍ، فصارَ لا هَمَّ لهم إلاَّ متابعةُ النوادِي الرياضيةِ، أو البرامجِ المُلْهِيةِ في وسائلِ الإعلامِ، أو الأفلامِ الخليعةِ في الفيديو، أو العبثُ بالسياراتِ في الشوارعِ، ومضايقةُ المسلمينَ في طرقاتِهم، وتَحَدِّي رجالِ المرورِ، وحتَّى غالبُ المُتَدَينينَ منهم فَهِموا الدينَ فهمًا خاطئًا، فَنَحَوا مَنْحى التطرُّفِ والغُلُوِّ، وتَتَبُّعِ المسائِلِ الشاذةِ؛ كُلُّ هذا من سوءِ التربيةِ وقرناءِ السوءِ، وانشغالِ الآباءِ عن أبنائِهم وبناتِهم.

فاتقوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وراجِعوا حسابَكم معَ نِعَمِ اللهِ عليكم، واعْلَموا أنَّكم سَتُسْأَلونَ عنها، وتُحَاسَبون عليها، واعْلَموا أنَّكم بِتَصَرُّفِكم هذا تُعَرِّضُونَ نعمةَ اللهِ للزوالِ؛ يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ

وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج: ٤٨].

بارَكَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

بمناسبةِ نهايةِ موسمِ الحجِّ المباركِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ على فَضْلِه وإحسانِه، شَرَعَ لعبادِه من الأعمالِ ما يُكَفِّرُ به سيئاتِهم، ويَرْفَعُ به درجاتِهم، وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في عبادتِه، كما أنَّه ليسَ له شريكٌ في مُلْكِهِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أَرْسَلَه رحمةً للعالمينَ، وحُجَّةً على الخَلْقِ أجمعينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واعْلَموا أنَّكم مُلاقُوهُ، وبَشِّرِ المؤمنينَ.

عبادَ اللهِ، قد مَرَّ بنا قريبًا موسمٌ من مواسمِ الآخرةِ، هو عَشْرُ ذي الحجةِ، ويومُ عَرَفَةَ ويومُ الحجِّ الأكبرِ، وأيامُ التشريقِ. وقد شَرَعَ اللهُ في تلكَ الأيامِ أنواعًا من العباداتِ يَشْتَرِكُ فيها الحاجُّ وغيرُه: من صيامٍ، وتكبيرٍ، وتلبيةٍ، ومناسكِ حجٍّ وعمرةٍ، وذبحِ قرابينَ. فَلْنَنْظُرْ ماذا قَدَّمْنا لأنْفُسِنا من الأعمالِ الصالحةِ في تلكَ الأيامِ المباركةِ، ولْنُتابعْ فِعْلَ الخيراتِ في بقيَّةِ الأيامِ، فإنَّ حياةَ المسلمِ كلَّها مجالٌ للعملِ الصالحِ، وإنَّما خُصِّصَتْ بعضُ الأيامِ بمزيدِ فضيلةٍ؛ لتُتاحَ الفرصةُ للمسلمِ كي يحصلَ على مزيدٍ من الأعمالِ الصالحةِ؛ نظرًا لِقِصَرِ عُمْرِه، وشدَّةِ حاجتِه للحسناتِ وتكفيرِ السيئاتِ.

عبادَ اللهِ: صَحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ روايةِ البخاريِّ ومسلمٍ وغيرِهما أنَّه قالَ: «**مَنْ حَجَّ فلمْ يَرْفُثْ ولمْ يفسُقْ، رَجَعَ من ذنوبِه كيومَ ولَدَتْهُ أُمُّهُ**»[1]. وأنَّه

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠) من حديث أبي هريرة.

قالَ: «العمرةُ إلى العمرةِ كفارةٌ لِمَا بينَهُما، والحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنةَ»(١)، والحجُّ المبرورُ قيل: هو الذي لا يَقَعُ فيه معصيةٌ، وقيلَ: هو الذي تكونُ حالةُ الإنسانِ في الطاعةِ بَعْدَه أَحْسَنَ منها قَبْلَه، ورَوَى البخاريُّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «أفضَلُ الجهادِ حجٌّ مبرورٌ»(٢).

ومِنْ أسبابِ كونِ الحجِّ مبرورًا: أنْ تكونَ النفقةُ فيه من كسبٍ حلالٍ؛ فعَنْ أبي هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا خَرَجَ الحاجُّ حاجًّا بنفقةٍ طيبةٍ، ووَضَع رِجْلَه في الغرزِ فنادَى: لَبَّيكَ اللهُمَّ، ناداهُ مُنَادٍ من السماءِ: لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، زادُك حلالٌ، وراحلتُكَ حَلالٌ، وحجّكَ مبرورٌ غيرُ مأزورٍ. وإذا خَرَجَ بالنفقةِ الخبيثةِ فَوضَعَ رِجْلَه في الغرزِ فنادى: لبَّيكَ، ناداهُ مُنَادٍ من السماءِ: لا لبيَّكَ ولا سَعْدَيْكَ، زادُك حرامٌ، ونفقَتُكَ حرامٌ، وحجُّكَ مأزورٌ غير مبرورٍ»(٣). رواهُ الطَّبَراني.

ومِنْ أسبابِ كونِ الحجِّ مبرورًا: أنْ يَتَجَنَّبَ الحاجُّ المعاصِي؛ قالَ تعالَى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البَقَرة: ١٩٧]. ومِنْ أسبابِ كونِ الحجِّ مبرورًا: التواضعُ فيهِ في المركبِ والمنزلِ والتعامُلِ مع الناسِ، فَعَنْ أنسِ بنِ مالكٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: حَجَّ النبيُّ ﷺ على رَحْلٍ رَثٍّ وقطيفةٍ خَلِقَةٍ تُساوي أربعةَ دراهمَ أو لا تساوي، ثم قالَ: «اللهُمَّ حجةً لا رياءَ فيها ولا سُمعةَ»(٤). رواهُ الترمذيُّ في الشمائِلِ، وابنُ

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه البخاري (١٥٢٠)، ١٨٦١، ٢٧٨٤) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٢٢٨).
(٤) أخرجه الترمذي في الشمائل ـ كما في الترغيب والترهيب (٢/ ١١٦) ـ وهو عند ابن ماجه في السنن (٢٨٩٠).

ماجه. وعَنْ قدامةَ بنِ عبد اللهِ قالَ: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَرْمي الجمرةَ يومَ النحرِ على ناقةٍ صهباءَ لا ضربَ ولا طردَ، ولا إليك إليكَ[1]. رواهُ ابنُ خزيمةَ في صحيحِه.

ومن علاماتِ كون الحجِّ مبرورًا: أنْ تكونَ حالُ الحاجِّ بعدَه في الطاعةِ والاستقامةِ أحْسَنَ منها قَبْلَه، فإنَّ من علامةِ قبولِ الحسنةِ فِعْلَ الحسنةِ بَعْدَها. ومن أسبابِ كونِ الحجِّ مبرورًا: أَنْ يُؤَدَّى على الوجْهِ المشروعِ لا نقصَ فيه ولا بِدَعَ ولا مخالفات، وبعضُ الحُجَّاجِ يتلاعبُ بِحجِّه، ولا يصبرُ على أدائِه على الوجهِ المشروعِ، لا يتأكدُ من حدودِ المشاعرِ فيقفَ داخلها، بلْ يقفُ خارجَ عَرفَةَ، ويبيتُ خارجَ مزدلفةَ، وينصرفُ من عَرفَةَ قبلَ الغروبِ، وَيرمي الجمراتِ في غيرِ وقتِ الرمي، ولا يَستقرُّ في مِنَىٰ أيامَ التشريقِ وليالِيها، ويَنفِرُ من مِنَى قبلَ وقتِ النفرِ. حتى إنَّ من الحجاجِ مَنْ يرجعُ إلى أهلِه في يومِ العيدِ أو في اليومِ الحادي عشرَ، ويُوكِّلُ مَنْ ينوبُ عنه في بقيةِ أعمالِ الحجِّ، ومن الحجاجِ مَنْ لا يطوفُ للوداعِ، ومن الحجاجِ مَنْ لا يتجنَّبُ محظوراتِ الإحرامِ، وهكذا تَقَعُ مِنْ بعضِ الحجاجِ مخالفاتٌ كثيرةٌ قد تكونُ مبطلةً للحجِّ، وهذا نتيجةُ عدمِ المبالاةِ بأحكامِ الحجِّ، ومِثْلُ هذا لا هو حَجَّ فاستفادَ، ولا هو تَرَكَ الحجَّ فاستراحَ.

عبادَ اللهِ: إنَّ الحجَّ هو الركنُ الخامسُ من أركانِ الإسلامِ، وإنما يَجبُ على المُسْلمِ مرةً واحدةً في العمرِ إذا كانَ مستطيعًا، وما زادَ فهو تَطَوُّعٌ.

وقبلَ الحجِّ لابُدَّ أنْ يُحَقِّقَ أربعةَ أركانٍ للإسلامِ هي: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢٨٧٨)، والحديث في مسند أحمد (٢٧٥٥٣).

وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ. فالركنُ الأولُ ـ وهو الشهادتانِ ـ هو ركنُ العقيدةِ، وهو الأساسُ، ويلازمُ المسلمَ في كلِّ لحظاتِ حياتِه، ومَنْ كانَ آخِرُ كلامِه «لا إلهَ إلا اللهُ» دخلَ الجنَّةَ. والركن الثاني: وهو الصلوات الخَمْسُ يتكرَّرُ على المسلمِ في اليومِ والليلةِ خَمْسَ مراتٍ. والركنُ الثالثُ: وهو الزكاةُ، يتكرَّرُ على المسلمِ كلَّ عامٍ، وهو قرينُ الصلاةِ في الأهميةِ. والركنُ الرابعُ: صيامُ رمضانَ، ويتكرَّرُ على المسلمِ كلَّ عامٍ.

فمَنْ حافظَ على هذِه الأركانِ وحقَّقَها فهو المسلمُ الذي يَصِحُّ حجُّه وعُمْرتُه ومن ضَيَّعَهَا أو ضَيَّعَ بعضَها فلا حجَّ له ولا عُمْرةَ له، وبعضُ الناسِ يحجُّ وهو فاسدُ العقيدةِ، يحجُّ إلى المشاهدِ الشركيةِ، ويتقرَّبُ إلى قبورِ الأولياءِ والصالحينَ بأنواعِ العبادةِ، فهذا مشركٌ لا يجوزُ أنْ يَقْرَبَ المسجدَ الحرامَ؛ لقولِه تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾[التوبة: ٢٨]، والبعضُ الآخرُ لا يُصلِّي الصلواتِ الخَمْسَ، وهذا لا حَجَّ له؛ لأنَّه تاركٌ للصلاةِ وهو كافرٌ، والكافرُ لا يُقْبلُ منه عملٌ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «بينَ العبدِ وبينَ الكفرِ تَرْكُ الصلاةِ»[١]. والبعضُ الآخَرُ يحجُّ وهو لا يُزَكِّي، والزكاةُ قرينةُ الصلاةِ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والبعضُ الآخرُ يحجُّ وهو لا يصومُ رمضانَ، والصومُ آكَدُ من الحجِّ، وفريضَتُه سابقةٌ لفريضةِ الحجِّ.

إنَّ مثلَ هؤلاءِ الذينِ يهتمونَ بالحجِّ، ويضيِّعونَ بقيةَ أركانِ الإسلامِ كمثلِ مَنْ يعالجُ عُضْوًا من جسمٍ مقطوعٍ رأسُه. فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وأقيموا الدينَ كلَّه.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢) والترمذي (٢٦٢٠) من حديث جابر بن عبد الله، واللفظ للترمذي.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ. . .﴾ إلى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠ـ ٢٠٩].

* * *

في الأمرِ بالإحسانِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمَرَ بالإحسانِ وأخبرَ أنَّه يُحِبُّ المحسنينَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، المَلِكُ الحقُّ المبينُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الصادق الأمين، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أنَّ اللهَ أَمَرَ بالإحسانِ في آياتٍ كثيرةٍ، وأَخْبرَ أنَّه يُحِبُّ المحسنينَ، وأنَّه معَ المحسنينَ، وأنَّه يَجْزِي المحسنَ بالإحسانِ، وأنَّه يَجْزِي المحسنينَ بالحُسْنَى وزيادةٍ، وأنَّه لا يُضِيعُ أجْرَ المحسنينَ، ولا يُضَيعُ أَجْرَ من أحْسنَ عملاً، ووَرَد ذِكْرُ الإحسانِ في مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ الكريم، تارةً مقرونًا بالإيمانِ، وتارةً مقرونًا بالإسلام، وتارةً مقرونًا بالتقوى أو بالعملِ الصالحِ. كلُّ ذلكَ مِمَّا يدلُّ على فَضْلِ الإحسانِ، وعظيمِ ثوابِه عندَ اللهِ تعالَى.

والإحسانُ على ثلاثةِ أنواعٍ: إحسانُ العملِ وهو إتقانُه وإتمامُه، وإحسانٌ إلى الغيرِ وهو بمعنى الإنعامِ عليهِ، والإحسانُ فيما بينَ العبدِ وبينَ ربِّه وهو أعْلى مراتبِ الدينِ، وقد فَسَّرَهُ النبيُّ ﷺ بـ**«أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ»** ومعنى ذلكَ أنَّ العبدَ يعبدُ اللهَ تعالَى على استحضارِ قُربِه منه، وأنَّه بينَ يديهِ كأنَّه يراهُ، وذلكَ يوجِبُ الخشيةَ والخوفَ والتعظيمَ، ويُوجِبُ النصحَ في العبادةِ وتَحْسينَها وإتمامَها.

وقد أَمَرَ اللهُ بالإحسانِ إلى الخَلْقِ تارةً أَمْرَ وجوبٍ؛ كالإحسانِ إلى الوالدين

والأقاربِ بمقدارِ ما يحصلُ به البرُّ والصلةُ، والإحسانِ إلى الجارِ، والإحسانِ إلى الضيفِ، والإحسانِ إلى مِلْكِ اليمينِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النِّساء: ٣٦]، وتارةً يأمُرُ اللهُ بالإحسانِ إلى الخَلْق أَمْرَ استحبابٍ ونَدْبٍ، كالإحسانِ بصدقةِ التطوُّعِ، وقد أَمَرَ بالإحسانِ إلى الناسِ حتى بالكلامِ فقالَ تعالَى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَة: ٨٣] أي قولوا لهم قولاً حسنًا، وأَمَرَ سبحانَهُ مَنْ عليهِ حقٌّ لأَحدٍ أنْ يؤدِّيه بإحسانٍ مِنْ غيرِ مُماطلةٍ ولا تنكيدٍ؛ قالَ تعالَى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨] بلْ من الإحسانِ في ذلك الزيادَةُ على الحقِّ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «خيرُكم أَحْسَنُكُم قضاءً»[1]، وأَمرَ النبيُّ ﷺ بالإحسانِ إلى القتيلِ حالَ قتلِه، وإلى الذبيحةِ حينَ ذَبْحِها، فقالَ: «إنَّ اللهَ كَتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ، فإذا قَتَلْتُم فأَحْسِنوا القِتلةَ، وإذا ذَبحْتُم فأحسنِوا الذِّبْحَة، وليحدّ أحدُكم شفرتَه، ولْيُرِحْ ذبيحتَه»[2]. رواهُ مسلمٌ. والإحسانُ في قتلِ مَنْ يجوزُ قتلُه من الناسِ، وفي ذبحِ ما يجوزُ ذبحُه من البهائِم: إزهاقُ نَفْسِه على أسرعِ الوجوهِ وأسهلِها من غيرِ زيادةٍ في التعذيبِ؛ ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ يَنْهى عن المُثْلَةِ[3]. وقد ثَبَتَ عنه ﷺ أنَّه نَهى عن صبرِ البهائِمِ، وهوَ أنْ تُحْبَسَ البهيمةُ ثم تُضرَبَ بالنبلِ ونحْوِه حتى تموتَ؛ ففي الصحيحينِ عن أنسٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ نَهى أنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٥) ومسلم (١٦٠١) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس.
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٧٤، ٥٥١٦) من حديث عبد الله بن يزيد الأنصاري.

تصْبَرَ البهائمُ[١]. وفيهما أيضًا عَنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما: أنَّه مرَّ بقومٍ نَصَبوا دجاجةً يَرْمُونها، فقالَ ابنُ عمرَ: مَنْ فَعَلَ هذا؟ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هذا[٢]. كما أنَّه يَحْرُمُ حبسُ البهيمةِ حتى تموتَ عطشًا أو تموتَ جوعًا، فقد أخْبرَ النبيُّ ﷺ «**أنَّ امرأةً دخلتِ النارِ في هِرَّةٍ حَبَسَتْها فلا هي أطْعَمتْها، ولا هي تَرَكَتْها تأكلُ من خشاشِ الأرضِ**»[٣]. وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على الإحسانِ إلى البهائمِ ولو لمْ تكنْ في ملكِ الإنسانِ، فَعَنْ أبي هريرة ـ رضيَ اللهُ عنه ـ عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «**دَنا رجلٌ إلى بئرٍ فنزلَ فشربَ منها، وعلى البئرِ كلبٌ يلْهثُ، فرحمَه فنزعَ أحدَ خُفيهِ فسقاهُ، فشكَرَ اللهُ له فأدْخلَه الجنَّةَ**»[٤]. رواهُ ابنُ حبانَ في صحيحِه. ووجوهُ الإحسانِ كثيرةٌ، وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**سَبْعٌ تجري للعبدِ بعد موتِه وهو في قبرِه: من عَلَّمَ علمًا، أو كرى نهرًا ـ يعني حَفَرَهُ ـ أو حَفَرَ بئرًا، أو غرسَ نخلًا، أو بَنى مسجدًا، أو ورَّثَ مصحفًا، أو تَركَ ولداً يستغفرُ له بعد موته**»[٥].

أيُّها المسلمونَ: إنَّ دينَنا دينُ الرحمةِ والإحسانِ؛ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**الراحِمونَ يرحَمُهُم الرحمنُ، ارحَمُوا مَنْ في الأرضِ يرحمْكُم مَنْ في السماءِ**»[٦]. رواهُ أبو داودَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥١٣) ومسلم (١٩٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥١٥) ومسلم (١٩٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢) ومسلم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر.

(٤) أخرجه ابن حبان (٥٤٣) والحديث في صحيح البخاري (١٧٣، ٢٣٦٣، ٢٤٦٦، ٦٠٠٩) ومسلم (٢٢٤٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٤) من حديث أنس.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤).

والترمذيُّ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وقالَ اللهُ تعالَى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يُونس: ٢٦]، وقد ثبتَ في صحيحِ مسلمٍ تفسيرُ الزيادةِ بالنظرِ إلى وجهِ اللهِ تعالَى في الجنةِ(١)، وهذا مناسبٌ لجَعْلِه جزاءَ أهلِ الإحسانِ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يعبدَ المؤمنُ ربَّه في الدنيا كأنَّه يراهُ وينظر إليهِ في حالِ عبادتِه، فكانَ جزاءُ ذلكَ النَّظَرَ إلى وجهِ اللهِ عيانًا في الآخرةِ، وهذا بعكسِ حالِ الكفارِ، كما قالَ تعالَى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ﴾ [المطفِّفين: ١٥] جَزاءً لحالِهم في الدنيا لما تراكمَ الرانُ على قلوبِهم حتى حُجبتْ عن معرفتِه ومراقبتِه في الدنيا، فكانَ جزاؤهم على ذلكَ أن حُجِبوا عن رؤيتِه في الآخرةِ.

فاتّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وأَحْسِنوا في عبادتِكم وأعمالِكم وفي معاملاتِكم إلى إخوانِكم، وإلى البهائمِ، يُحْسِنِ اللهُ إليكم، فإنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ ﴾ [الرَّحمن: ٦٠] ويقولُ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦ ﴾ [يُونس: ٢٦].

* * *

(١) صحيح مسلم (١٨١).

في التفكيرِ في العواقبِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرهُ تقديرًا، خَلَقَ هذا الإنسانَ وفَضَّلَهُ على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تفضيلاً، وسَخَّرَ له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وأمدَّهُ بالعقلِ والتفكيرِ، وبيَّن له طريقَ الخيرِ وطريقَ الشرِّ، ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

أحمدُه على فَضْلِه وإحسانِه، وأسأَلُه أنْ يمدَّنا بتوفيقِه وامتنانِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه وأتْباعِه إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بعْدُ: عبادَ اللهِ: اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واعْلَموا أنَّكم في هذِه الدنيا لَسْتُم بدارِ إقامةٍ، وإنَّما مَرَرْتُمْ وأنتم في طريقِكم إلى الآخرةِ، لتتزوَّدوا منها بالأعمالِ. فالعبدُ من حينَ استقرتْ قَدَمُهُ في هذهِ الدنيا، فهو مسافرٌ إلى ربِّه، ومُدَّةُ سَفَرِه هي عمرُه، وقد جُعِلَتِ الأيامُ والليالي مراحلَ لِسَفَرِه؛ فكلُّ يومٍ يقطعُ مرحلةً من المراحلِ، ولا يزالُ يَطْويها مرحلةً مرحلةً حتى يَنْتَهِيَ السفرُ. فالعاقلُ من اغتنمَ تلكَ المراحلَ فقطعَها بالأعمالِ الصالحةِ حتى يطويَ مراحلَ عُمرِهِ كلَّها، فَيَحْمَدُ سَعْيَه، ويبتهجُ بما أعدَّهُ ليومِ فاقتِه وحاجتِه، فإذا طَلَعَ عليهِ صُبْحُ الآخرةِ، وانْقَشعَ عنه ظلامُ الدنيا حمدَ سُراهُ، وانجابَ عنه كَراهُ.

وأمَّا الأشقياءُ فإنَّهم قطعوا تلكَ المراحلَ بما يسخطُ اللهَ، فهم يسيرونَ إلى النارِ، وكُلَّمَا قطعوا من هذِه الدنيا مرحلةً قَرُبوا إلى النارِ مصحوبينَ بالشياطينِ

الموكلةِ بهم يسوقونَهم إليها، كما قالَ تعالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريَم: ٨٣]، أيْ تزعِجُهُم إلى المعاصِي والكفرِ إزعاجًا، وتَسوقُهُم سوقًا.

واللهُ سبحانَه خَلَقَ في الآخرةِ للناسِ دارينِ: دارًا للعاملينَ بطاعتهِ وهي الجنةُ، وقد جَعَلَ فيها كلَّ شيءٍ مَرْضِي، ومَلأَهَا من كلِّ محبوبٍ، وجَعَلَ الخيرَ بحذافيرِهِ فيها. وخَلَقَ دارًا للعاملينَ بمعاصيهِ وهي النارُ، وأوْدَعَها كلَّ شيءٍ مكروهٍ، وجَعَلَ الشرَّ بحذافيرِهِ فيها، فهاتان الداران هما دارَا القرارِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [غافر: ٣٩].

وخَلَقَ سبحانَه وتعالَى دارَ الدنيا، وجَعَلَها محلَّ تَزَوُّدٍ واستعدادٍ للدارِ الآخرةِ، فأوْجَدَ سبحانَه في هذِه الدارِ من آثارِ رحمتِه من الثمارِ والفواكِه والطيباتِ والملابسِ الفاخرةِ، ما هو نفحةٌ من نفحاتِ الدارِ الآخرةِ التي جَعَلَ كلَّ ذلكَ فيها على وجْهِ الكمالِ، فإذا رآهُ المؤمنونَ ذَكَّرَهُم بما هناكَ من السرورِ والعيشِ الهنيءِ، فَشَمَّروا إليهِ وقالوا: «اللهُمَّ لا عَيْشَ إلا عيشُ الآخرةِ»، وعمَّا قليلٍ يصلونَ إلى هذِه الملذاتِ في دارٍ لا تَفْنَى ونعيمٍ لا يزولُ. كانَ بعضُ السَّلفِ إذا رأَى ما يعجِبُه في هذه الدنيا، وهو لا يستطيعُ الحصولَ عليهِ قال: موعِدُكَ الجنَّةُ. واجتهدَ في الطاعةِ والعبادةِ.

وَأَوْجدَ سبحانَه وتعالَى في هذِه الدارِ من آثارِ غَضَبِه ونقمتِهِ، من العقوباتِ والآلامِ والمحنِ والمكروهاتِ، ما يُسْتَدَلُّ بجنسهِ على ما في النارِ من العذابِ والنكالِ، ومِنْ أمثلةِ ذلكَ ما يأتي في الصيفِ من شدَّةِ الحرِّ، وما يأتِي في الشتاءِ من شدَّةِ البردِ؛ فإنَّهما من آثارِ تَنَفُّسِ جهنَّمَ، حيثُ أَذِنَ اللهُ لها بنَفَسٍ في الصيفِ ونَفَسٍ في الشتاءِ، وفي ذلكَ أعظمُ عبرةٍ. ومِنْ أمثلةِ ذلكَ نار الدنيا، فإنَّها تُذَكِّرُ

ـ بِحَرِّها وإحراقِها وآلامِها ـ بنارِ الآخرةِ، وقد أشارَ سبحانَه إلى هذا المَعْنى ونبَّه عليهِ بقولِه: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٧١ـ ٧٣]. فأَخْبرَ سبحانَه أنَّه جَعَلَ نارَ الدنيا لفائدتينِ عظيمتينِ:

الأولى: أنَّه يُذكِّرُ بها عبادَه نارَ الآخرةِ حتَّى يَخافوا منها، ويَجْتَنِبوا الأعمالَ الموصلةَ إليها.

والثانية: أنَّها تنفعُ المقوينَ؛ وهم المسافرونَ؛ سُمُّوا بالمقوينَ؛ لأنَّهم ينزلونَ بالقَوى، وهي الأرضُ الخاليةُ. قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ: وخَصَّ المقوين بالذِّكْرِ وإنْ كانتْ منفعَتُها عامةً للمسافرينَ والمقيمينَ تنبيهًا لعبادِه على أنَّهم كلهم مسافرونَ، وأنَّهم في هذِه الدارِ على جناحِ سفرٍ ليسوا مقيمينَ ولا مُستوطنينَ، والمقصودُ أنَّه سبحانَه أَشْهَدَ في هذِه الدارِ ما أعَدَّ لأوليائِه وأعدائِه في دارِ القرارِ، وأَخْرَجَ إلى هذِه الدارِ من آثارِ رحمتِه وعقوبتِه ما هو عِبْرةٌ ودلالةٌ على ما هناكَ من خيرٍ وشرٍّ، وقد جَعَلَ سبحانَه هذِه الدنيا دارَ اختلاطٍ وامتزاجٍ، يختلطُ فيها الأخيارُ بالأشرارِ، والمؤمنونَ بالفجارِ، ابتلاءً وامتحانًا؛ ليحصلَ بذلكَ الجهادُ والأمرُ بالمعروفِ والنهْيُ عن المنكرِ ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفُرقان: ٢٠]، ﴿ لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ [محمَّد: ٤]، وجعلَ الدارَ الآخرةَ دارَ تمايُزٍ وافتراقٍ، قالَ تعالَى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرُّوم: ١٤ـ ١٦]. كثيرٌ من الناسِ تَعَلَّقَتْ همَّتُه في الحياةِ الدنيا، ونَسِيَ الآخرةَ، فأتْعَبَ نَفْسَهُ واستهلكَ وقتَه في جَمْعِ الدنيا وملاحقتِها، وفي النهايةِ

يترُكُها لغيره، ويمْضِي للدارِ الآخرةِ على غيرِ استعدادٍ، ويسافرُ بغيرِ زادٍ ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحَجّ: ١١]. وقليلٌ من الناسِ نَظَرَ في العواقبِ وعرفَ قيمةَ الدنيا وقيمةَ الآخرةِ، فَجَعلَ الدنيا مطيةً للآخرةِ، تَزَوَّدَ منها الأعمالَ الصالحَة، فأتاهُ الموتُ وهو على استعدادٍ، وانتقلَ للآخرةِ بأحْسَنِ الزادِ، فاستفادَ من دنياهُ وآخرتِه، وقد قالَ اللهُ تعالَى في الفريقينِ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسرَاء: ١٨، ١٩].

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، فإنَّ كثيرًا من الناسِ اليومَ لمَّا بُسطَتْ عليهم الدنيا، اغْتَرُّوا بها، وانْسَاقوا معها، ونَسُوا الآخرةَ، فأضَاعوا الصلاةَ، واتَّبَعُوا الشهواتِ، وصارَ هَمُّهُم إعطاءَ أنْفُسِهم ما تَشْتَهِي، فانْحَطُّوا عن درجةِ الآدميينَ العقلاءِ إلى درجةِ البهائمِ، بلْ هم أضَلُّ سبيلاً من البهائمِ؛ لأنَّ البهائمَ لمْ تَعْصِ ربَّها، وهؤلاءِ عَصَوا ربهم، وظَلَموا أنْفُسَهم.

باركَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

بمناسبةِ ظهور بعضِ الأمراض الغريبةِ في بلادِ الكفار بسببِ ارتكابِ فاحشةِ الزّنا

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، حَرَّمَ الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ رحمةً بعبادِه، وحمايةً لهم مِمَّا يَضُرُّهُم، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، خَلَقَ الإنسانَ فربَّاهُ بِنِعَمِهِ، وأحلَّ له الطيباتِ وحرَّمَ عليه الخبائثَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، لا خيرَ إلاَّ دلَّ أُمَّتَه عليهِ، وأَمَرَها به، ولا شرَّ إلاَّ حَذَّرَهَا منه، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى، وتَفَكَّروا في تشريعاتِه الحكيمةِ، وما فيها من الخيرِ العاجلِ والآجلِ، فإنَّ ذلكَ مِمَّا يزيدُكُم محبةً لها وتَمَسُّكاً بها، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسرَاء: ٣٢]، ويقولُ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧] فاللهُ سبحانَه وتعالَى خَلَقَ شَهْوةَ الاتصالِ الجِنْسيِّ في الإنسانِ لحِكمةِ بقاءِ النَّسْلِ، وجَعَلَ لها مَصْرِفًا وموضِعًا صالحًا هو الزوجةُ أو مِلكُ اليمينِ، وسَمَّى هذا الموضِعَ بالحَرْثِ، كما قالَ تعالَى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٣]، ووعدَ سبحانَه من اسْتَغْنى بذلكَ عن الحرامِ بجزيلِ الأجْرِ والثوابِ؛ حيثُ قالَ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ ... ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ ... ﴾ إلى قولِه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ

ﭐلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ١ـ ١١]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «**وفي بضعِ أحدِكم صدقةٌ**» قالوا: يا رسولَ اللهِ أيأتي أحدُنا شَهْوَتَه ويكونُ له فيها أجرٌ؟! قالَ: «**أرأيتُم لو وضَعها في حرامٍ أكانَ عليهِ وزرٌ؟ فكذلكَ إذا وضَعَها في الحلالِ كانَ له أجْرٌ**»[١]. رواهُ مسلمٌ.

ووَضْعُ الشهوةِ في غيرِ موضعِها المباحِ من الزوجةِ أو مِلكِ اليمينِ سمَّاه اللهُ عُدْوانًا وزنًا وفاحشةً وساءَ سبيلاً، ونَهَى المسلمين أنْ يَقْرَبُوهُ، ورتَّبَ عليهِ أشنعَ العقوباتِ العاجلةِ والآجلةِ؛ لأنَّه يُدَمِّرُ الأخلاقَ، ويخلطُ الأنسابَ، ويسبِّبُ حدوثَ الأمراضِ المُستعصيةِ والمُهلكةِ، وفي الحديثِ الذي رواهُ ابنُ ماجه: «**ما ظهرتِ الفاحشةُ في قومٍ حتّى أعْلَنوا بها إلاَّ ابْتُلوا بالطواعينِ والأوجاعِ التي لمْ تكُنْ في أسلافِهم الذينَ مَضوا**»[٢].

ومِصْداقُ ذلكَ يا عبادَ اللهِ، ما حدثَ في البلادِ الإباحيةِ في أوروبا وشرقِ آسيا هذه الأيامَ من هذا المرضِ الخطيرِ، وهو المرضُ المُسَمَّى (بالهربسِ)، وقد نَوَّهَتْ عنه الصحفُ والمجلاتُ، وتقرَّرَ أنَّه حدثَ بسببِ الزِّنا واللواطِ، وهو عبارةٌ عن قروحٍ تنشأُ في الأعضاءِ التناسليةِ، وفي أجسامِ الرجالِ والنساءِ، ويتَهَرَّأُ منها الجسمُ ثم تُؤَدِّي إلى الوفاةِ، أو يبقى المصابُ مُشوَّهَ الجسمِ مُنَغَّصًا بالأوجاعِ والأسقامِ، وهو مرضٌ تنتشرُ عدْواهُ بإذنِ اللهِ على مَنْ جَالَسَ المصابَ أو مَسَّ شيئًا من جِسْمِه، ولمْ يُعْثَرْ لهذا المرضِ على علاجٍ، وذكرتِ التقاريرُ الدقيقةُ أنَّ سببَ الإصابةِ بهذا المرضِ هو السفرُ إلى البلادِ الإباحيةِ، أو قدومُ الوافدينَ من تلكَ البلادِ واختلاطُهُم بالأَصحَّاءِ، وأنَّ هناكَ أعدادًا من المصابينَ

---

(١) صحيح مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) من حديث ابن عمر.

بهذا المرضِ يرقدونَ في المستشفياتِ، أو يراجعونَ العياداتِ الخارجيةَ بدونِ جَدْوى، وصدَقَ اللهُ ورسولُه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٣٢]، وإذا كانَ هذا نوعًا من عذابِ الزُّناةِ في الدنيا فإنَّ عذابَهم في الآخرةِ أشَدُّ، فقد روَى البخاريُّ في صحيحه من حديثِ رؤيا النبي ﷺ: **«فانْطَلَقْنا فأتينا على مثلِ التنورِ، وإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ قالَ: فاطَّلعْنا فيه فإذا فيهِ رجالٌ ونساءٌ عراةٌ، وإذا هم يأْتِيهم لهبٌ من أسفلَ منهم، فإذا أتاهم ذلكَ اللهبُ ضَوضَوا»** أيْ صاحوا. ولمَّا سألَ عنهم أُخْبِرَ أنَّهم الزناةُ والزواني[١].

عبادَ اللهِ، لمَّا كانَ الزِّنا مُنْتَهى القبحِ والشناعةِ حَرَّمَهُ اللهُ وحَذَّرَ منه، وتوعَّدَ فاعِلَه بأشَدِّ العقوباتِ العاجلةِ والآجلةِ، وحَرَّمَ الوسائلَ والأسبابَ التي تُوصلُ إليه.

ومِنْ أشَدِّ الأسبابِ التي توقعُ في الزِّنا السفرُ إلى البلادِ الإباحيةِ في الشرقِ أو الغربِ في بلادِ العربِ أو بلادِ العجمِ، وكما تَقَرَّرَ أنَّ هذا المرضَ الغريبَ الذي تَحَدَّثَتْ عنه الصحفُ والمجلاتُ، أنَّه إنَّما فَشَا في الذينَ يسافرونَ إلى تلكَ البلادِ أو يَفِدونَ منها، وهذا خطرٌ واحدٌ من أخطارِ السفرِ إلى بلادِ الكفارِ. وهناكَ أخطارٌ كثيرةٌ، من أعظَمِها الخطرُ على العقيدةِ والدينِ، ولكنْ ويا للأسفِ! أصبحَ السفرُ إلى بلادِ الكفارِ اليومَ مَحَلَّ تسابُقٍ وتفاخُرٍ بينَ الناسِ، فالمُتَزوجُ يسافِرُ بزوجتِه لقضاءِ الشهرِ الأولِ بَعْدَ الزواجِ في بلادِ الكفارِ، والتاجرُ يسافرُ بعائلتِه للسياحةِ في بلادِ الكفارِ، والموظفُ يسافرُ لقضاءِ عطلتِه في بلادِ الكفارِ، والطلابُ يسافرونَ أو يُسَافَرُ بهم في رحلةٍ استطلاعيةٍ إلى بلادِ الكفارِ، وماذا في

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب.

بلادِ الكفار؟! إنَّه الكفرُ والإلحادُ، إنَّه الإباحيةُ والفسادُ، إنَّه الأمراضُ الفتَّاكةُ والحياةُ البهيميةُ، إنَّه إضاعةُ المالِ وتَبْذِيرُه، وكلُّ هذِه مفاسدُ خطيرةٌ تكْفِي واحدةٌ منها لقومٍ يعقلونَ، وأما الذينَ لا يعلقونَ فإنَّهم إذا حُذِّرُوا منها قالوا: هذا من تَشْديدِ المتدينينَ وقُصورِ نَظَرِهم، والآنَ لمَّا ظَهَرَ هذا المرضُ الخبيثُ ظَهَرَ صدقُ الناصحينَ، كما قالَ الشاعرُ:

أَمَرْتُهُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوى ... فلمْ يستبينوا الرُّشْدَ إلاَّ ضُحَى الغدِ

عبادَ اللهِ: ومِنَ الأسبابِ التي تُوقِعُ في الزِّنا: النظرُ إلى ما لا يجوزُ النظر إليه، مِنْ نَظَرِ الرجالِ إلى النساءِ، ونَظَرِ النساءِ إلى الرجالِ؛ قالَ تعالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النُّور: ٣١].

ومِنَ الأسبابِ المُوقِعةِ في الزِّنا: النَّظَرُ إلى الصورِ الخليعةِ في أفلامِ الفيديو وفي الصُّحفِ والمجلاتِ الماجنةِ.

ومِنْ أسبابِ الوقوعِ في الزِّنا: الاستماعُ إلى الأغاني الخليعةِ في الإذاعاتِ والأشرطةِ المفسدةِ.

ومِنَ الأسبابِ الموقعةِ في الزِّنا: اختلاطُ النساءِ مع الرجالِ، وخلوةُ الرجلِ بالمرأةِ في سيارةٍ أو مكتبٍ أوبيتٍ لأيِّ غَرَضٍ، سواء كانَ لعملٍ وظيفيٍّ أو بيعٍ وشراءٍ أو لتعليمٍ أو لعلاجٍ، فالشهوةُ موجودةٌ في الرجلِ والمرأةِ، والشيطانُ لا يتركُ الفرصةَ تَذْهَبُ.

ومِنَ الأسبابِ التي تُوقعُ في الزنا: سُفورُ المرأةِ عندَ الرجالِ بكشفِ وجهها أو شيءٍ من جِسْمِها؛ ولذلكَ أَمَرَ اللهُ بالحجابِ، ونَهَى عن التَّبرُّجِ في مواضعَ من كتابهِ الكريمِ.

ومِنَ الأسبابِ التي تُوقعُ في الزنا: خروجُ المرأةِ من بيتِها متزينةً بأنواعِ الزينةِ في ملابِسِها وبدنِها، وكلُّ هذِه الأسبابِ كَثُرَ تعاطِيها بينَ نسائِنا بدونِ وازعٍ ولا رادعٍ.

فاتَّقُوا اللهَ، أيُّها المسلمونَ في أنفُسِكم، وفي نِسائِكم، خُذُوا على أيديهِنَّ وخوِّفُوهُنَّ من العقوباتِ، أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ...﴾ الآية [التحريم: ٦].

باركَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ الكريمِ.

* * *

في بيانِ معنى العبادةِ وأهميتِها

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خَلَقَ الجنَّ والإنْسَ لعبادتِه، وأَمَرَهُم بتوحيدِه وطاعتِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه، لا شريكَ له في عبادتِه كما أنْ لا شريكَ له في مُلْكِه، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، قامَ على قَدَمَيْهِ في صلاةِ الليلِ حتَّى تَفَطَّرَتا، وقالَ: «إنِّي أُحِبُّ أنْ أكونَ عبدًا شكورًا»[1] ﷺ وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالى، وتَفَكَّروا لماذا خُلِقْتُم؟ إنَّكم خُلِقْتُم لتعبدوا اللهَ ولا تُشْرِكوا به شيئًا، والعبادةُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه اللهُ ويَرْضاه من الأعمالِ والأقوالِ الظاهرةِ والباطنةِ، وهي بهذا التعريفِ تشملُ كلَّ ما يَفْعَلُه العبدُ بجوارحِه، وكلَّ ما يقولُه بلسانِه، وكلَّ ما يَنْويهِ بقلبِه مِمَّا شَرَعَهُ اللهُ تَقَرُّبًا إليه، فالصلاةُ والزكاةُ والصيامُ والحجُّ والجهادُ في سبيلِ اللهِ، والأمرُ بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المنكرِ، كلُّ ذلكَ عبادةٌ بدنيةٌ وماليةٌ. وذِكْرُ اللهِ بالتسبيحِ والتهليلِ والتكبيرِ والتحميدِ، وسائرِ الأذكارِ المشروعةِ، كلُّ ذلكَ عبادةٌ قوليةٌ. واعتقادُ القلبِ ونِيَّتُه وإخلاصُهُ عبادةٌ قلبيةٌ. وإذا صلَحَتْ نيةُ العبدِ أصبحتْ كلُّ أفعالِه عبادةً حتى الأمورُ العاديةُ تنقلبُ إلى عبادةٍ، فالنومُ إذا نَوَى به التَّقَوِّي على القيامِ ولمْ يتركْ بسببِهِ واجبًا من الواجباتِ يُصْبِحُ عبادةً، وإنفاقُه على نَفْسِه وعلى زوجَتِه وأولادِه إذا نوى به الكفافَ والتَّقويَ على عبادةِ اللهِ يُصْبِحُ عبادةً.

فيجبُ على المسلمِ أنْ يَبْتَغِي وجْهَ اللهِ في كلِّ تَصَرُّفاتِه وفي كلِّ ما يأتي وما

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة.

يذَرُ؛ لأنَّه عبدٌ للهِ ولأنَّه فقيرٌ إلى اللهِ، وقد أمرَ اللهُ بذلكَ نبيَّه ﷺ حيثُ يقولُ جلَّ وعلاَ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٢ـ١٦٤].

وبهذا يتَّضِحُ أنَّه مطلوبٌ من المسلمِ أنْ يصرفَ كلَّ عباداتِه للهِ؛ لأنَّه ربُّ كلِّ شيءٍ، فلا يصرِفُ من عبادتِه شيئا لغيرِ اللهِ، لا لصنمٍ ولا لبشرٍ حيٍّ ولا ميتٍ، ولا لملكٍ ولا لِهَوىٰ نَفْسِه، ولا لطمعٍ من أطماعِ الدنيا، ولا لرياءٍ ولا سمعةٍ؛ لأنَّ العبادةَ متى خَالَطها شيءٌ من الشركِ بَطَلَتْ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٥].

وكما أنَّ المسلمَ مطالبٌ بحفظِ عَمَلِه من الشركِ فإنَّه مطالبٌ بِحفْظِ وقتِه وعمرِه من الضياعِ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]؛ وذلكَ لأنَّ وقتَ المؤمنِ ثمينٌ وعُمره غالٍ ومحدودٌ لا تجوزُ إضاعَتُه فيما لا يفيدُ، وإذا نظرْنا في واقِعنا وواقعِ الناسِ وجَدْنا الكثيرَ لم يرفعْ بذلكَ رأسًا، وإنَّما يعيشُ في هذِه الدنيا عيشةَ البهائمِ، بلْ هو أضلُّ سبيلاً؛ لأنَّ البهائمَ أدَّتْ مُهمَّتها في الحياةِ، وهذا الإنسانُ لم يُؤَدِّ مهمَّتَه فيها؛ ولأنَّ البهائِم ليسَ لها حياةٌ أُخرى تُحَاسَبُ وتجازَىٰ فيها كما لهذا الإنسانِ.

الكثيرُ من بَنِي آدمَ تَرَكَ العبادةَ نهائيًا، وعاشَ في هذِه الدنيا إباحيًا مُلْحِدًا لا يعرفُ ربَّهُ ولا يُؤْمِنُ بيومِ الحسابِ، والبعضُ الآخرُ أتْعَبَ نَفْسَهُ بعبادةٍ تَضُرُّهُ ولا تَنْفَعُهُ؛ حيثُ عبدَ غيرَ اللهِ ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢، ١٣]. وكثيرٌ مِمَّنْ ينتسبُ إلى الإسلامِ اليومَ، ويعيشُ

بينَ أظْهُرِ المسلمينَ، وقد يكونُ من أبناءِ المسلمينَ، يُضَيِّعُ أهَمَّ أنواعِ العبادةِ بعد الشهادتينِ وهي الصلاةُ التي هي عمودُ الإسلامِ، فبعضُهم لا يُصَلِّي أبداً أو يُصَلِّي بعضَ الصلواتِ ويتركُ البعضَ، وهؤلاءِ لاَ حَظَّ لهم في الإسلامِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ: «بينَ العبدِ وبينَ الكفرِ تَرْكُ الصلاةِ فَمَنْ تَرَكَها فقد كَفَرَ»[1]، والأدلةُ على ذلكَ كثيرةٌ. وبعضٌ منهم يُضَيِّعُ أوقاتَ الصلاةِ بحيثُ يُصَلِّي الصلاةَ في غيرِ وقتِها كمَنْ يُؤَخِّرُ الفجرَ إلى ما بعدَ طلوعِ الشمسِ أو يجمعُ الأوقاتَ الخمسةَ في وقتٍ واحدٍ، وقد قالَ اللهُ تعالَى في هؤلاءِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [المَاعون: ٤، ٥]، وقال: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريَم: ٥٩، ٦٠]. وتضييعُ الصلاةِ والسَّهْوُ عنها هو تأخيرُها عن وقتِها من غيرِ عذرٍ شرعيٍّ، وقد توعَّدَ اللهُ عليهِ بالويلِ والغيِّ إلاَّ مَنْ تابَ منه.

والبعضُ من هؤلاءِ يُضَيِّعُ صلاةَ الجماعةِ ـ وهم كثيرٌ ـ لا يحضرونَ مع المسلمينَ لإقامةِ الصلواتِ في المساجدِ ولو كانَتِ المساجدُ إلى جانبِ بيوتِهم، وأصواتُ المؤذنينَ تُدَوِّي في عُقْرِ بيوتِهم كأنَّها لا تَعْنِيهم، وكأنَّ داعيَ اللهِ لا ينادِيهم، قد مردوا على النفاقِ، واسْتَمْرَءوا الانشقاق عن الجماعة، واسْتكْبَروا عن عبادَةِ ربِّهم في بيوتِه التي أذِنَ أنْ تُرفَعَ ويُذكَر فيها اسْمُهُ.

عبادَ اللهِ: إنَّ عبادةَ الله هي أوْجَبُ الواجباتِ، وآكدُ الحقوقِ، فحقُّ اللهِ على العبادِ أنْ يعبدوهُ ولا يُشْرِكوا به شيئًا، وكلُّ رسولٍ أوَّلُ ما يُطَالِبُ قومه: بعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له؛ كمَا قالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢)، وأبو داود (٤٦٧٨)، والترمذي (٢٦١٨، ٢٦٢٠)، وابن ماجه (١٠٧٨) من حديث جابر بن عبد الله.

ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النّحل: ٣٦]، وكُلُّ رسولٍ يقولُ لقومِه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعرَاف: ٥٩]، وقد وصَفَ اللهُ بـ«العباد» أكرمَ خَلْقِهِ من الملائكةِ والرسلِ، وعبادةُ اللهِ شرفٌ وعزٌّ في الدنيا والآخرةِ، ومنْ لمْ يعبدِ اللهَ صارَ عبدًا للشيطانِ الذي هو عدُوُّهُ، قالَ تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]. مَنْ لمْ يعبدِ اللهَ صارَ عبداً لِهَواهُ، قالَ تعالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفُرقان: ٤٣]. ومَنْ لم يعبدِ اللهَ صارَ عبدًا للدُّنيا والدرهمِ والأطماعِ الدنيةِ الرذيلةِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدينارِ، تَعِسَ عبدُ الدرهمِ، تَعِسَ عبد الخميصةِ، تَعِسَ عبدُ الخميلةِ»[1]. فالإنسانُ عبدٌ ولابُدَّ، فإمَّا أن يكونَ عبداً للهِ الواحدِ القهارِ، بامتثال أَمْرِه واجتناب نَهْيِهِ، وفي ذلكَ عِزُّهُ وشرفُه وسعادَتُه في الدنيا والآخرةِ؛ ويكونُ من الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رفيقًا، وإمَّا أنْ يكونَ عبدًا لغيرِ اللهِ من الشياطينِ والأهواءِ والشهواتِ والنزعاتِ والأربابِ المتفرقةِ؛ فيكونَ مع السفلةِ والهابطينَ والكفارِ والمشركينَ ﴿ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، والزموا طاعةَ اللهِ وعبادتَهُ تنالوا كرامَتَهُ في الدنيا والآخرةِ، فإنَّكم حينما تقرؤون قولَه تعالَى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفَاتِحة: ٥] تُعَاهِدُونَ اللهَ في كلِّ ركعةٍ من صلواتِكم ألا تعبدوا إلاَّ إيَّاهُ، ولا تَسْتَعِينوا إلاَّ به، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البَقَرَة: ٤٠].

بارِكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيم

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) من حديث أبي هريرة.

في وجوبِ احترامِ نِعَمِ اللهِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وَعَدَ الشاكرينَ لنِعَمِه المزيدَ، وتوعَّدَ من كَفَرَ بها بالعذابِ الشديدِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أعظمُ الخلقِ شكراً للهِ وطاعةً له، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، بينَ أيدِيكُم نِعَمٌ كثيرةٌ أنتم مُحَاسَبونَ عليها، ومَسْؤُولونَ عن شُكْرِها، فأحْسِنوا التصرُّفَ فيها تكُنْ عونًا لكم على طاعةِ اللهِ، ولا تُسِيئوا في استعمالِها تكُنِ استدراجًا لكم من حيثُ لا تعلمونَ، فقد كانَ النبيُّ ﷺ لا يَخْشَى على أُمَّتِه الفقرَ، وإنَّما يَخْشى عليها الغِنى؛ أنْ تُبْسطَ عليها الدنيا كما بسطتْ على من كانَ قَبْلَها من الأمم؛ فيحصلُ التنافُسُ والهلاكُ[1]، ونَخْشى أنْ نكون اليومَ قد وقَعْنا فيما تَخوَّفَهُ رسولُ اللهِ علينا، فقد بُسِطَتْ علينا نِعَمٌ كثيرةٌ، وأساءَ الكثيرُ منَّا استِعْمالها، وتفاخَروا في الإسرافِ فيها وإنفاقِها في غيرِ وجوهِها.

لقد حَثَّ النبيُّ ﷺ على احترامِ الطعامِ، وتوقيرِ النعمةِ وعدمِ إهدارِها، فكان ﷺ لا يعيبُ طعاماً قَطُّ، بلْ إنِ اشْتَهاهُ أكَلَهُ وإلاَّ تَرَكَه[2]، وعَنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: مَرَّ النبيُّ ﷺ بتمرةٍ في الطريقِ فقالَ: «لولا أنِّي أخافُ أنْ تكونَ من الصدقةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥) ومسلم (٢٩٦١) من حديث المسور بن مخرمة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٣، ٥٤٠٩) ومسلم (٢٠٦٤) من حديث أبي هريرة.

لأكَلتُها»[١]. متفقٌ عليهِ. فقد بيَّنَ ﷺ أنَّه لولا المانعُ لأكَلَ هذه التمرة ولمْ يَتْرُكها تذهبُ وتفسدُ، وهذا مِمَّا يدلُّ على اهتمامِه ﷺ بشأنِ النعمةِ وحفظِها من الإهدارِ، وعَنْ أمِّ المؤمنينَ ميمونةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها وَجَدَتْ تمرةً فأكَلَتْها وقالتْ: إنَّ اللهَ لا يحبُّ الفسادَ. وقد رَوَى ابنُ ماجه عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ: دخلَ عليَّ النبيُّ ﷺ البيتَ فرأى كِسْرةً ملقاةً فأخَذَها فَمَسَحَها ثم أكَلَها وقالَ: يا عائشةُ، أكْرِمِي كَرِيمًا، فإنَّها ما نَفَرَت عن قومٍ فعادَت إليهم[٢]، وقالَ ﷺ: **«إذا سَقَطَتْ لقمةُ أحدِكم فليَأْخُذْها فليُمِطْ ما كانَ بها من أذى ثم لِيَأكُلْها، ولا يَدَعْها للشيطانِ»**[٣]. رواه مسلمٌ. وأَمَرَ ﷺ بِلَعْقِ الأصابعِ والصحفةِ وقال: **«إنَّكم لا تدرونَ في أيِّ طعامِكُم البركةَ»**[٤]. رواهُ مسلمٌ.

كلُّ هذا مِنْ حِفْظِ النعمةِ وتوقيرِها وتوفيرِها عن الضَّياعِ والابتعادِ عن التَّكَبُّرِ، وإذا قارنْتَ بينَ هَدْيِ النبيِّ ﷺ في ذلكَ وبينَ ما عليه غالبُ الناسِ اليومَ من امْتِهانٍ للنعمةِ، وإسرافٍ في عملِ الأطعمةِ وإهدارِها، تَبَيَّنَ لكَ الفرقُ العظيمُ، وخِفْتَ على الناسِ من العقوبةِ العاجلةِ، فَتَرَى كثيرًا من الناسِ في حفلاتِ الزواجِ وغيرِها يصنعونَ الولائمَ الكبيرةَ من الأطعمةِ واللحومِ، ثم لا يُؤْكَلُ منها إلاَّ القليلُ، وأكْثرُها يُهْدَرُ، ويُلْقى في المزابلِ، ويَنْتُجُ عن ذلكَ مفسدتانِ عظيمتانِ:

الأولى: الإسرافُ وإفسادُ المالِ، وقد قالَ تعالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٥، ٢٤٣١) ومسلم (١٠٧١).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣٥٣) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه مسلم (٢٠٣٣) من حديث أنس.
(٤) أخرجه مسلم (٢٠٣٣) من حديث جابر بن عبد الله.

تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦ـ٢٧].

والمفسدةُ الثانية: أن في هذا إهانةَ النعمةِ وإلْقاءَها مع القاذوراتِ، وإذا كانَ النبيُّ ﷺ أرشدَ إلى رَفْعِ كِسْرَةِ الخبزِ وأَخْذِ التمرةِ من الطريقِ، وأَمَرَ بأَخْذِ اللقمةِ إذا سَقطتْ، وإزالةِ ما عليها من الأذَى ثم أَكْلِها، وأَمَرَ بِلَعْقِ الأصابعِ، ولَعْقِ الصحفةِ؛ لئلا يضيعَ شيءٌ من نِعمِ اللهِ أو يُمْتَهَنَ، فكيفَ بالذي يُهْدِرُ الأكوامَ من الطعامِ واللحومِ وقد يُلْقيها مع الزبالةِ؟! إنَّها لجريمةٌ عظيمةٌ ومنكرٌ ظاهرٌ تُخْشى عواقِبُهُ الوخيمةُ، ثُمَّ هذه الذبائحُ الكثيرةُ التي تُذبَحُ في هذِه الولائمِ لا من أجلِ الأَكْلِ لأنَّ ذابحها يَعلَم أنَّها لنْ تُؤْكَلَ، وإنَّما يَذْبَحُها للرياءِ والسمعةِ والتفاخُرِ، وهي جريمةٌ أُخْرى تَذْهَبُ فيها الحيواناتُ هدرًا، والحيوانُ المباحُ لا يجوزُ ذَبْحُه إلاَّ للحاجةِ لأَكْلِه؛ لِمَا رَوَى ابنُ عَمرٍو ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ مرفوعًا: «**ما مِنْ إنسانٍ يقتلُ عصفورًا فما فوقَها بغيرِ حقِّها إلاَّ سأَلَهُ اللهُ عنها**» قالَ: يا رسولَ اللهِ وما حقُّها؟ قالَ: «**يذبحُها ويأكلُها، ولا يقطعُ رأسَها ويطرحُها**»[1]. رواهُ الشافعيُّ، والنسائي، والحاكمُ، وفي حديثٍ آخرَ: «**مَنْ قتلَ عصفورًا عبثًا عجَّ إلى اللهِ يومَ القيامةِ يقولُ: يا ربِّ إنَّ فلانًا قَتَلَني عبثًا ولم يَقْتُلْني منفعةً**»[2] رواهُ الشافعيُّ، وأحمدُ، والنسائيُّ.

فَلْيتَّقِ اللهَ هؤلاءِ الذينَ يأتونَ بالقطعانِ من الأغنامِ ويذْبَحُونها في الولائمِ، ثم يُلقونَ لحومَها تذهبُ هدرًا وربَّما تُرْمَى في الزبالةِ مع القاذوراتِ والأنجاسِ،

---

(١) أخرجه الشافعي في المسند (ص٣١٥)، والنسائي (٧/ ٢٠٦) والحاكم (٤/ ٢٦١).
(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٧٦) والنسائي (٤٤٤٦) من حديث الشريد بن عمرو.

ألمْ تكونوا في الأمسِ القريبِ فقراءَ عالةً لا تجدونَ في بيوتِكم إلاَّ القوتَ الضروريَّ أو لا تجدونَ شيئًا؟!

أأمِنتُم زوالَ النِّعَمِ؟ ألمْ تعلَموا ما حلَّ بالبلادِ المجاورةِ لكم من الحروبِ والمجاعاتِ؟ ألا تَرونَهم يأتونَ إلى بلادِكم طلبًا لِلُقمةِ العيشِ؟ وما ذَكَرْناهُ من الإسرافِ في الطعامِ إلى جانبِه أنواعٌ أُخرى من الإسرافِ في الملابسِ والمراكبِ والمساكنِ، فقد أغرقَ كثيرٌ من الناسِ في التَّرفِ، بحيثُ لا يلبسُ إلاَّ جديدًا، ولا يَركبُ إلا سيارةً فخمةً، ولا يَسكنُ إلا قصرًا مشيدًا فيه كلُّ وسائلِ الراحةِ.

لقد كانَ السلفُ الصالحُ يَتخوَّفون من بَسْطِ النعمِ والتلذُّذِ بها أنْ تكونَ حسناتُهم عُجِّلتْ لهم فقالوا: مَنْ أذْهَبَ طيباتِه في حياتِه الدنيا واسْتَمتعَ بها نَقَصتْ درجاتُه في الآخرةِ، ويخشونَ عليه أنْ يكونَ من الذينَ قالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؛ لأنَّ مَنْ تعوَّدَ الشهواتِ المباحةَ مالتْ نَفْسُه إلى الدنيا، وكلما أجابَ نفْسَه إلى واحدةٍ من الملاذِّ دَعَتْهُ إلى غيرِها، فيصْعُبُ عليه ردُّها، ورُبَّما تدعوهُ إلى الشهواتِ المحرمةِ.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، واسمعوا قولَ اللهِ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥].

باركَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في فضلِ شهرِ محرمٍ وما يُشرعُ فيه

الحمدُ للهِ على فضلِه وإحسانِه، يُوالي مواسمَ الخيرِ على عبادِه على مدارِ الأيامِ والشهورِ، لِيُوفيهم أجورَهُم ويزيدَهُم من فضلِه إنَّه غفورٌ شكورٌ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أَوَّلُ سابقٍ إلى الخيراتِ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه ذوي المناقبِ والكراماتِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واغْتَنِموا مواسمَ الخيراتِ قبلَ فواتِها.

عبادَ اللهِ: لمَّا انقضتْ أشهرُ الحجِّ المباركةُ أَعْقَبَها شهرٌ كريمٌ هو شهرُ اللهِ المحرمُ؛ فقد رَوَى مسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**أفضلُ الصيامِ بعد شهرِ رمضانَ شهرُ اللهِ الذي تدعونَه المحرمَ، وأفضلُ الصلاةِ بعدَ الفريضةِ قيامُ الليلِ**»[1]، فقد سَمَّى النبيُّ ﷺ المحرمَ شهرَ اللهِ، وإضافتُه إلى اللهِ تدلُّ على شرفِه وفضلِه، فإن اللهَ تعالَى لا يضيفُ إليه إلاَّ خواصَّ مخلوقاتِه، وهو مِفتاحُ السَّنَةِ، وفيهِ نَصَرَ اللهُ نبيَّه وكليمَه موسى عليهِ السلامُ على إمامِ الكفرةِ والملحدينَ فرعونَ الذي طَغَى وعلاَ في الأرضِ وقالَ: أنا ربُّكم الأَعْلى.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القَصص: ٤].

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٣).

أيْ قَسَّمَ رعيتَهُ إلى أقسامٍ ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً ﴾ وهم شَعْبُ بني إسرائيلَ الذينَ هم من سُلالةِ نبيِّ اللهِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ خليلِ اللهِ، وكانوا إذْ ذاكَ خيارَ أهْلِ الأرضِ، فَجَعَلَ يستعبِدُهم في أخسِّ الصنائعِ ومعَ هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾.

وكانَ الحاملُ له على هذا الصُّنعِ القبيحِ أنَّ بني إسرائيلَ كانوا يتدارسونَ فيما بينَهم ما يؤثرونه عن إبراهيمَ عليهِ السلامُ مِنْ أنَّه سيخْرُجُ في ذُرِّيتِهِ غلامٌ يكونُ هلاكُ مَلِكِ مصرَ على يَدَيهِ، وكانتْ هذه البشارةُ مشهورةً في بني إسرائيل، فتحدَّثَ بها القبطُ فيما بينَهم، ووَصَلَتْ إلى فرعونَ، فأَمَرَ عندَ ذلكَ بِقَتْلِ أبناءِ بني إسرائيلَ حَذَرًا من وجودِ هذا الغلامِ ـ ولنْ يُغْنِيَ حذَرٌ مِنَ قَدَرٍ ـ فقد شاءَ اللهُ ألا يُربَّى هذا المولودُ إلاَّ في دارِ فرعونَ، ويَتَغَذَّى بطعامِه وشرابِه، فَلَمَّا حَمَلَتْ أمُّ موسى به احْتَرَزَتْ مِنْ أنْ يُعْلَمَ بِحَملِها، ولمْ يكنْ يَظْهرُ عليها علاماتُ الحَمْلِ، فلمَّا ولدتْهُ ضاقَتْ به ذَرْعًا، فألْهَمَها اللهُ أنْ تَتَّخِذَ له تابوتاً، وكانتْ دارها على نهرِ النيلِ، فكانتْ تُرضِعُ ابنَها، فإذا خَشِيتْ من أحَدٍ وضَعَتْه في ذلكَ التابوتِ، فأرْسَلَتْهُ إلى البحرِ، وكانَ في التابوتِ حبلٌ تُمْسِكُه به، فأَرْسَلَتْه ذاتَ يومٍ، ونَسِيتْ أنْ تربطَ الحَبْلَ، فذهبَ التابوتُ وفيهِ ولدُها مع النيلِ، فَمَرَّ على دارِ فرعونَ ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القَصَص: ٨]، ووُضِعَ بينَ يَدَي امرأةِ فرعونَ، فلمَّا فَتَحَتْهُ رأَتْ وجَهَهُ يتلألأُ بالأنوارِ، فوقعَ حبُّه في قلبِها، فلمَّا جاءَ فرعونُ ورآهُ أَمَرَ بِذَبْحِه، فدافَعَتْ عنه وقالَتْ: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ [القَصَص: ٩]. وقد حَقَّقَ اللهُ لها مَا رَجَتْ، فهدَاها اللهُ به، وأسْكَنَها جنَّتَه بسبَبِه.

ولمَّا أرادُوا أنْ يُغَذُّوه بالرضاعةِ لم يقبلْ ثديًا، فحاروا في أَمْرِه، فأَرْسَلُوه معَ

القوابلِ إلى السوقِ لعلَّهُم يَجدونَ له مرضعةً يَقْبَلُ ثَدْيَها، فَرَأَتْه أُخْتُهُ، ولم تُظْهِرْ أنَّها تَعْرِفُهُ بلْ قالتْ: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القَصَص: ١٢]. فذهبوا إلى مَنْزِلِهم، فأَخذَتْهُ أُمُّهُ، فلمَّا أرْضَعتْهُ، الْتَقَم ثدْيَها، ففرِحوا بذلكَ فرحًا شديدًا، وأَجْروا لها مُرَتَّبًا من النفقةِ والكسوةِ، وجمعَ اللهُ شَمْلَها بابْنِها، قالَ تعالَى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القَصَص: ١٣]. ثُمَّ نشأ موسى عليهِ السلامُ برعايةِ اللهِ وحِفْظِه في بيتِ فرعونَ، يتغذَّى بأطيبِ المآكلِ، ويلبسُ أحْسَنَ الملابسِ.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ [القَصَص: ١٤] أيْ تكاملَ خَلْقُهُ وخُلُقُه في سِنِّ الأربعينَ، آتاهُ اللهُ حُكْمًا وعِلْمًا وهو النبوَّةُ والرسالةُ، ثُمَّ وَجَدَ رجلينِ يقتتلانِ أيْ يتضاربانِ، أحدُهما من بني إسرائيلَ شيعةِ موسى، والثاني من القبطِ أعداءِ موسى، فطَلَبَ الإسرائيليُّ من موسى مناصرَتَهُ على القبطيِّ، فأجابَهُ، وضربَ القبطيَّ فماتَ على أثَرِ الضربةِ، وعندَ ذلكَ أدْرَكَ موسى أنَّه قد أساءَ، فاسْتَغْفَرَ ربَّه عزَّ وجلَّ فَغَفَرَ له.

ثم خافَ من فرعونَ ومَلَئِهِ أنْ يَطْلُبوه من جرَّاءِ ذلكَ القَتْلِ؛ فخرجَ من مصرَ إلى تلقاءِ مدينَ، وهي المدينةُ التي أَهْلَكَ اللهُ فيها قومَ شعيبٍ، فوَصَلَ إليها، وبَقِي فيها، وتَزَوَّجَ هناكَ في مقابلِ رعايتِه الغنمَ ثماني سنينَ أو عَشْرَ سنين، فلمَّا أكْمَلَ الأَجَلَ، سارَ بأهْلِه إلى أرضِ مصرَ.

وبينَما هو في الطريقِ أكْرَمَهُ اللهُ برسالتِه وبَعَثَهُ إلى فرعونَ فبلَّغَه رسالةَ ربِّه، ولكنَّه عَصَى وتكَبَّرَ وعانَدَ وخاصَم، فأقامَ موسى عليهِ الحُجَجَ والبراهينَ وعندَ ذلكَ عَدَلَ فرعونُ إلى استعمالِ القوةِ لصدِّ الحقِّ، فأمَرَ اللهُ نبيَّهُ موسى عليه السلامُ أنْ يخرجَ بِمَنْ معَهُ من المسلمينَ إلى بلادِ الشامِ، فخرجَ بهم ليلاً، فلمَّا عَلِمَ

فرعونُ بخروجِهم، غَضِبَ عليهم، وجمعَ جنودَه وسارَ في طلبِهم، فأدْرَكَهُم عندَ شروقِ الشمسِ، وقد انْتَهوا إلى البحرِ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦١]؛ لأنَّ العدُوَّ خلْفَهُم، والبحرَ أمامَهم، والجبالَ عن يمينِهم وشمالِهم، وهي شاهقةٌ، فقالَ لهم الرسولُ الصادقُ المصدوقُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٢] وتقدَّم إلى البحرِ، وهو يتلاطمُ وهو يقولُ: هَهُنا أُمِرْتُ، فأوْحَى اللهُ إليه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٣]. فلمَّا ضربَه انْفلَقَ، وصارَ اثني عَشَرَ طريقًا على عددِ أسباطِ بني إسرائيلَ، وصارَ البحرُ يابسًا، فسلَكَهُ موسى بِمَنْ معه، فلمَّا جاوزُوه وخرجَ آخِرُهُم منه، دخَلَهُ فرعونُ وجنودُه في أَثَرِهِمْ وعندما تكاملُوا، أطْبَقَهُ اللهُ عليهم، فأغْرَقَهُم أجمعينَ، وبنو إسرائيلَ ينظرونَ إليهم. وهكذا نَصَرَ اللهُ رسولَه وكَليمَهُ ومَنْ معه من المؤمنينَ، وأهْلكَ فرعونَ ومَن معه من الكافرين.

وكانَ هذا الحدثُ العظيمُ والنصرُ المبينُ في اليومِ العاشرِ من شهرِ اللهِ المحرمِ، وهو يومُ عاشوراءَ، وقد صامَ موسى عليهِ السلامُ هذا اليومَ شكراً للهِ عزَّ وجلَّ، ولمَّا قدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ وجدَ اليهودَ يصومونَه، فقالَ لهم: «ما هذا اليومُ الذي تَصُومونَه»؟ قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنْجَى اللهُ فيه موسى وقومَه، وأغْرَقَ فرعونَ وقومَه، فصامَه موسى شكرًا فنحنُ نصومُه، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فنحنُ أحقُّ بموسى وأَوْلى بموسى مِنكُم»، فصامَه رسولُ اللهِ ﷺ وأَمَرَ بصيامِه[1]. رواهُ البخاريُّ، ومسلم. ويُسْتَحَبُّ صوم يومٍ قَبْلَه أو بَعْدَه، لِمَا رَوَى مسلمٌ عن ابنِ عباسٍ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ أنَّه قالَ حينَ صامَ رسولُ اللهِ ﷺ، عاشوراءَ، وأَمَرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٠)، وأطرافه في (٢٠٠٤، ٣٣٩٧، ٣٩٤٣، ٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).

بصيامِه، قالوا: يا رسولَ اللهِ إنَّه يومٌ تعظِّمُه اليهودُ والنصارى، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ «فإذا كانَ العامُ المقبلُ إنْ شاءَ اللهُ صُمْنَا اليومَ التاسعَ»[1]، وفي مُسْنَدِ الإمامِ أحمدَ: «صوموا يومَ عاشوراءَ، وخالِفُوا اليهودَ، صوموا يومًا قَبْلَه أو يومًا بَعْدَه»[2]. فينبغي صيامُ هذا اليوم ويومٍ قبله أو بعده، مخالفةً لليهودِ، وتحصيلاً لفضيلتِه، فعَنْ أبي قتادةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن صيامِ يومِ عاشوراءَ فقال: «يُكفِّرُ السنةَ الماضيةَ»[3]. رواهُ مسلمٌ وغيرُه، وابنُ ماجه، ولفْظُهُ: قالَ: «صيامُ يومِ عاشوراءَ إنِّي أحتسبُ على اللهِ أنْ يكفِّرَ السنةَ التي بَعْدَه»[4]. والمرادُ تكفيرُ الذنوبِ الصغائرِ، أمَّا الذنوبُ الكبائرُ؛ كالزِّنا، وشربِ الخمرِ، وأكلِ الرِّبا، فإنَّها لا تُكفَّرُ إلاَّ بالتوبةِ منها.

فاتَّقُوا الله، عبادَ اللهِ، وبادِرُوا مواسمَ الفضائلِ قبلَ فواتِها، واعْتَبِروا بقصصِ الأنبياءِ وسيَرِهِم.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يُوسُف: ١١١].

بارَكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) صحيح مسلم (١١٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٥) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة، وفيه: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي بعده والسنة التي قبله»

(٤) سنن ابن ماجه (١٧٣٨) من حديث أبي قتادة.

في بيانِ حكم الهجرةِ، وتحريمِ الاحتفالِ بمناسبةِ هجرةِ الرسولِ ﷺ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، شَرَعَ الهجرةَ، ووعَدَ المهاجرينَ إليهِ أجْرًا عظيمًا، فقالَ في كتابِه العزيزِ ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النِّساء: ١٠٠]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه القائلُ: «لا تنقطعُ الهجرةُ حتى تنقطعَ التوبة، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تطلعَ الشمسُ من مغربِها»[(١)]، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟﴾، وسلَّم تسليمًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وادْرُسوا سيرةَ نبيِّكم ﷺ، واقْتَدُوا به؛ فقد أَمَرَكُم اللهُ بذلكَ في قولِه تعالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومِنْ أعظمِ وقائعِ السيرةِ النبويةِ قضيةُ الهجرةِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا اشتدَّ عليه أَذَى المشركينَ بمكةَ، صارَ يعرضُ نَفْسَه على القبائلِ في موسمِ الحجِّ، ويطلبُ منها أنْ تَحْمِيَهُ وتناصِرَه حتى يُبَلِّغَ رسالةَ ربِّه، فلمْ يَجِدْ مَنْ يُجيبُهُ حتى حجَّ نَفَرٌ من الخزرجِ من أهلِ المدينةِ، وكانَ جيرانُهم من اليهودِ يحدِّثُونَهم عن مَبْعَثِ رسولٍ قريبٍ، ويتوَعَّدُونهم أنَّهم سيكونونَ معه فيُقاتلونَهم، كمَا قالَ اللهُ تعالَى عن اليهــودِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩) من حديث معاوية بن أبي سفيان.

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨٩] أي: كانَ اليهودُ قبلَ مَجيءِ الرسولِ ﷺ يستنصرونَ به على أعدائِهم، ويقولون: اللهُمَّ انْصُرْنا بالنبيِّ المبعوثِ آخرَ الزمانِ الذي نَجِدُ نَعْتَه في التوراةِ. فلمَّا جاءَ النبيُّ ﷺ يعرضُ نَفْسَهُ على القبائِلِ كعادتِه في موسمِ الحجِّ، وصادفَ نفرًا من الخزرجِ، ففرِحُوا به، وقالوا: هذا النبيُّ الذي تَوَعَّدكُم به يهودُ، فلا يسْبِقُوكم إليهِ، فآمَنُوا به وبايَعُوه، وانْصَرَفُوا إلى قومِهم بالمدينةِ، فأخْبَرُوهُم، فآمَنَ مَنْ آمَنَ. وقدِمُوا في العامِ الثاني للحجِّ، وبايَعُوا النبيَّ ﷺ عندَ العقبةِ على الإيمانِ به ومُنَاصَرتِه إذا هو هاجَرَ إليهم، فأذِنَ النبيُّ ﷺ بعدَ ذلكَ لبعضِ أصحابِه بالهجرةِ إلى المدينةِ.

ولمَّا أرادَ ﷺ أنْ يلْحَقَ بهم أرادَ المشركونَ مَنْعَهُ مخافةَ أنْ تَقْوَى شوكَتُهُ ويَظْهَرَ دينُه، ويتغلَّبَ عليهم، فاجْتَمَعوا وتَشَاوَروا في شأنِه، فاتَّفَقَ رأيُهم على قَتْلِه، واجْتَمَعوا عندَ بابِه ينتظرونَ خروجَهُ؛ ليقتلوه، فأخْبَرَ اللهُ نبيَّه بمكيدتِهم، فأَمَرَ عليًّا ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنْ يبيتَ على فراشِه، فَخَرَجَ من بينِهم ولمْ يَشْعُروا به، وذَهَبَ إلى أبي بكرٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ ووجَدَهُ قد أَعَدَّ راحلتينِ للسَّفرِ واسْتأْجَرَ دليلًا، فَخَرجا من مكةَ مُتَخَفِّيَيْنِ، وذهبا إلى غارِ ثورٍ، وَدَخَلاهُ، واخْتَفَيا فيه، ودَفَعَا الراحلتينِ للدليلِ، وواعَدَاه أنْ يأْتِيَ بهما في وقتٍ مُحَدَّدٍ.

ولمَّا عَلِمَ المشركونَ بخروجِ الرسولِ ﷺ وأنَّ الذي على الفراشِ هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ، غَضِبُوا غضبًا شديدًا، ونَفَروا يلتمسونَ النبيَّ ﷺ في كلِ وَجْهٍ، وجعلوا لِمَنْ يأتِي به الأموالَ الطائلةَ، قالَ الله تعالَى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وأمرَ اللهُ عنكبوتًا فَنَسجَتْ على بابِ الغارِ، وحمامةً فرَّخَتْ فيه،

وعندما وصلَ المشركونَ إلى بابِ الغارِ، وقفوا عليهِ حتى قالَ أبو بكر - رضي اللهُ عنه -: يا رسولَ اللهِ، لو نَظَرَ أحدُهم إلى موضعِ قدمِه لأبْصَرنا، فقالَ النبيُّ ﷺ: «يا أبا بكرٍ ما ظَنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟»(١)، وفي ذلكَ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التَّوبة: ٤٠]. ولمَّا رأى المشركونَ عشَّ العنكبوتِ أَيِسُوا من وجودِ النبيِّ ﷺ في الغارِ حتى قالَ أحدُهم: إنَّ هذا العشَّ موجودٌ قَبْلَ أنْ يُولَدَ محمّدٌ. وانْصَرفوا خائبينَ صاغرينَ.

ومَكَثَ النبيُّ ﷺ وصاحبُه في الغارِ أيامًا. وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبي بكرٍ يأتيهِما خفيةً بأخبارِ المشركينَ، وكانَ عامرُ بنُ فهيرةَ مولى أبي بكرٍ يَرْعَى غنمًا ويَمَرُّ بها عليهِما فيحلبانِ من لبَنِها، وكانَتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ تأتيهِما بالطعامِ خفيةً في المساءِ، فلَبِثا في الغارِ ثلاثةَ أيامٍ حتى انقطعَ الطلبُ، فجاءَ الدليلُ بالراحلتينِ على الميعادِ، فَرَكبا وتوجَّها إلى المدينةِ.

وكانَ الأنصارُ - رضي اللهُ عنهم - ينْتَظِرونَهُما بفارغِ الصبرِ كلَّ يومٍ إلى أنْ وَصلاَ بسلامةِ اللهِ وحِفْظِه إلى المدينةِ، وهناكَ اجتمعَ المهاجرونَ والأنصار، وتكَوَّنَتِ الدولةُ الإسلاميةُ، وأَمَرَ اللهُ رسولَه بالجهادِ؛ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ وإظهارِ دينِه، فَوَاصَلَ ﷺ الغزواتِ والسرايا، ونَصَرَهُ اللهُ وأظْهَرَ دينَهُ حتى دخلَ مكةَ عامَ الفتحِ مُعَزَّزًا منصورًا، تَحُفُّ به راياتُ المهاجرينَ والأنصارِ، وأزالَ ما على الكعبةِ المشرَّفَةِ من الأصنامِ، ودَخَلَها وكبَّرَ اللهَ فيها، ثم خرجَ إلى قريشٍ، وكانوا قد اجْتَمَعوا في المسجدِ الحرامِ ينتظرونَ ماذا يفعلُ بهم من العقوبةِ، فقالَ:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) من حديث أنس عن أبي بكر.

«يا معْشرَ قريشٍ، ما تَظُنُّونَ أنّي فاعلٌ بكم؟» قالوا: خيرًا؛ أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، قالَ: «فإنّي أقولُ لكم كمَا قالَ يوسفُ لإخوَتِه: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذْهبوا فأنْتمُ الطلقاءُ»(١).

عبادَ اللهِ: هكذا كانَتْ هجرةُ رسولِ اللهِ ﷺ، كانَتْ لأجْلِ نصرةِ دينِ اللهِ، وإعلاءِ كَلِمَتِه، ليسَ القصدُ منها الرفاهيةَ، وراحةَ البدنِ والتَّنَعُّمَ، وهكذا تكونُ هجرةُ المؤمنينَ إلى آخرِ الزمانِ. فالهجرةُ من بلدِ الكفرِ إلى بلدِ الإسلامِ باقيةٌ إلى أنْ تطلعَ الشمسُ من مغربِها لِمَنْ لا يستطيعُ إظهارَ دينِه في بلدِ الكفرِ. وإظهارُ الدينِ معناهُ الجَهْرُ به، والدعوةُ إليهِ وبيانُ بطلانِ ما عليهِ الكفارُ، وليسَ معنى إظهارِ الدينِ أنْ يُتْرَكَ الإنسانُ يُصَلِّي ويَتَعَبَّدُ، ويسْكُتُ عن الدعوةِ إلى اللهِ وإنكارِ الشركِ والكفرِ، لو كانَ الأمْرُ كذلكَ لبَقِيَ النبيُّ ﷺ بمكةَ؛ لأنَّ المشركينَ لمْ يمْنَعُوه من أنْ يُصَلِّي ويتَعبَّدَ، ولكنَّهم مَنَعُوه من الدعوةِ إلى اللهِ، وإبطالِ ما عليهِ الكفارُ والمشركونَ.

عبادَ اللهِ: إنَّ من الناسِ اليومَ مَنْ لا يعرفُ عن هجرةِ الرسولِ ﷺ إلاَّ أنَّها ذِكْرَى تَمُرُّ كلَّ عامٍ، وتُقَامُ بمناسَبتِها احتفالاتٌ وخطبٌ ومحاضراتٌ لمدةِ أيامٍ، ثم تَنْتَهي وتُنْسَى إلى مرورِ تلكَ الأيامِ من السنةِ القابلةِ، دونَ أنْ يكونَ لذلكَ أثَرٌ في سلوكِهم وعملِهم؛ ولذلكَ تَجدُ بعضَهم لا يهاجِرُ من بلادِ المشركينَ إلى بلادِ الإسلامِ كما هاجَرَ النبيُّ ﷺ، بلْ على العكسِ فإنَّ الكثيرَ منهم يَنتقلُ من بلادِ الإسلامِ إلى بلادِ المشركينَ، لا لشيءٍ إلاَّ للترفُّهِ

---

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/ ١٦١) والبيهقي في سننه (٩/ ١١٨)، عن قتادة مرسلا.

والعيشِ هناكَ بِحُريَّةٍ بهيميةٍ.

إنَّ ذِكْرى الهجرةِ يجبُ أنْ تكونَ على بالِ المسلمِ طولَ السنةِ لا في أيامٍ مخصوصةٍ. فإنَّ تحديدَ أيامٍ مخصوصةٍ؛ للاحتفالِ بمناسبةِ الهجرةِ النبوية، أو لتدارُسِها: بِدْعةٌ، «وكلُّ بدعةٌ ضلالةٌ»، فلمْ يكُنِ الرسولُ ﷺ ولا صحابَتُهُ ولا القرونُ المفضلةُ من بعدِهم يخصُّونَ هذه المناسبةَ باحتفالٍ يتكَرَّرُ كلَّ عامٍ، وإنَّما كانَ السلفُ الصالحُ والتابعونَ لهم بإحسانٍ يدرسونَ سِيرَةَ نبيِّهم ﷺ للاقتداءِ بها غيرَ مُتَقَيِّدينَ بوقتٍ معينٍ، ثُمَّ إنَّ الهجرةَ هجرتانِ:

الهجرةُ الأولى: هجرةٌ قلبيةٌ إلى اللهِ بعبادتِه وحدَه لا شريكَ له، وإلى رسولِه ﷺ باتِّباعِه وفِعْلِ ما أَمَرَ به وتَرْكِ ما نَهَى عنه، كما قالَ ﷺ: «**والمهاجرُ من هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه**»(١)، وهذه الهجرةُ مُلازمةٌ للمسلمِ طولَ حياتِه لا يَتْرُكُها أبدًا.

والهجرة الثانية: هجرةٌ بدنيةٌ، وهي تَتَضَمَّنُ الهجرةَ القلبيةَ، وهذه الهجرة هي الهجرةُ من بلادِ الشركِ إلى بلادِ الإسلامِ، وهذه الهجرةُ تجِبُ عندَ الحاجةِ إليها إذا لم يستطعِ المسلمُ إظهارَ دينِه في بلادِ الكفرِ.

فاتَّقُوا اللهَ: عبادَ اللهِ، وادْرُسُوا سيرةَ نبيِّكم، واسْتَفِيدُوا من أحداثِها العِبْرَةَ والقُدْوَةَ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٣٢].

بارَكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (١٠، ٦٤٨٤) ومسلم (٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

في وجوبِ إخلاصِ النيةِ في الأعمالِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له مخلصًا له الدين، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الصادق الأمين، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلهِ وأصحابِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، والْزَموا الإخلاصَ لوجْهِه في أعمالِكم وأقوالِكم؛ فقد رَوَى البخاريُّ، ومسلمٌ، عَنْ عمرَ بنِ الخطابِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّما الأعمالُ بالنياتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى**»[1]. فكلُّ عملٍ لا يُرادُ به وجْهُ اللهِ فهو باطلٌ، لا ثمرةَ له في الدنيا ولا في الآخرةِ، إذا كانَ هذا العملُ يفْتَقِرُ إلى النِّيَّةِ.

والنِّيَّةُ عندَ العلماءِ يُرادُ بها معنيانِ:

أحدُهما: تمييزُ العباداتِ عن العاداتِ، كتَمْييزِ الغسلِ من الجنابةِ عن غسلِ التَّبَرُّدِ والتنظُّفِ، وتَمْييزُ العباداتِ بعضِها عن بعضٍ؛ كتَمْييزِ صلاةِ الظهرِ عن صلاةِ العصرِ مثلاً، وتَمْييزِ صيامِ رمضانَ عن صيامِ غيرِه.

والمعنى الثاني للنيَّة: تمييزُ المقصودِ بالعملِ هلْ هو للهِ وحدَه أو للهِ ولغيرِه، وهذا هو محلُّ الاهتمامِ ومناطُ السعادةِ والشقاوةِ والثوابِ والعقابِ. فقد يعملُ الاثنانِ عملاً واحدًا في الصورةِ، ويكونُ تَعَبُهُما متساويًا، لكنَّ أحدَهم يُثابُ، والآخَرَ لا ثوابَ له، أو يُعاقَبُ؛ نظرًا لاختلافِ المقاصدِ؛ قالَ تعالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا

---

(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]؛ ولهذا قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّما تَفَاضَلوا بالإراداتِ، ولمْ يَتفاضَلوا بالصومِ والصلاةِ.

والهجرةُ من بلادِ الكفرِ إلى بلادِ الإسلامِ من أفضلِ الأعمالِ، لكنَّها لا تكونُ كذلكَ إلاَّ بالنِّيَّةِ لا بمجردِ الانتقالِ من بلدٍ إلى بلدٍ من غيرِ قصدٍ، أو لمقصودٍ دنيويٍّ، قالَ ﷺ: «**فَمَنْ كانَتْ هِجْرَتُه إلى اللهِ ورسولِه فَهِجْرَتُه إلى اللهِ ورسولِه، ومَنْ كانَتْ هِجْرتُه لدنيا يُصِيبُها أو امرأةٍ يَنْكِحُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليهِ**»[1]، فأخبرَ ﷺ أنَّ هذه الهجرةَ تختلفُ باختلافِ المقاصدِ والنِّيَّاتِ بها، فَمَنْ هاجرَ إلى دارِ الإسلامِ حُبًّا للهِ ورسولهِ، ورغبةً في تَعَلُّمِ دينِ الإسلامِ، وإظهارِه، حيثُ كانَ يعجزُ عن ذلكَ في دارِ الشركِ، فهذا هو المهاجرُ إلى اللهِ ورسولِه حقًّا، وقد وعدَهُ اللهُ بالثوابِ العظيمِ. ومَنْ كانَتْ هِجْرَتُه من دارِ الشركِ إلى دارِ الإسلامِ لطلبِ دُنيا، أو للتَّزَوُّجِ بامرأةٍ، فهذا ليسَ بمهاجرٍ إلى اللهِ ورسولِه، وإنَّما هو تاجرٌ أو خاطبٌ.

وقد سُئِلَ النبيُّ ﷺ عَنِ اختلافِ مقاصدِ الناسِ في القتالِ؛ من الرياءِ، وإظهارِ الشجاعةِ والعصبيةِ، وغيرِ ذلكَ؛ أيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ فقالَ ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيا، فهو في سبيلِ اللهِ**»[2]، ورَوى النسائيُّ من حديثِ أبي أمامةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قال: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: أرأيتَ رَجُلاً غزا يلْتَمِسُ الأجْرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا شيءَ**»، ثم قالَ ﷺ: «**إنَّ**

---

(١) هو بقية حديث «إنما الأعمال بالنيات» أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٣) ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

اللهَ لا يَقْبَلُ إلاَّ ما كانَ خالصًا، وابْتُغِيَ به وجْهُهُ»(١).

ولا شكَّ أنَّ الاستشهادَ في سبيلِ اللهِ، وتعلُّمَ العِلْمِ النافعِ وتعليمَه، وإنفاقَ المالِ في سبيلِ اللهِ: من أفضلِ الأعمالِ وأشَقِّها على النفوسِ، لكنْ إذا ساءتْ نِيَّةُ القائمِ بِعَمَلٍ من هذِه الأعمالِ صارَ من أهْلِ النارِ؛ فقد رَوَى مسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: **«إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليه رجُلٌ اسْتشْهَدَ، فأُتِي به فَعَرَّفَه نِعَمَهُ فَعَرَفَها، فقالَ: ما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتلتُ فيكَ حتى استشْهَدْتُ، قالَ: كَذَبْتَ، ولكنَّك قَاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ: جريءٌ، فقد قيلَ. ثم أُمِرَ به، فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النارِ. ورَجُلٌ تعلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ، وقرأَ القرآنَ، فأُتِيَ به فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، فقالَ: ما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وعَلَّمْتُه، وقرأتُ القرآنَ فيكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولكنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ ليُقالَ: عَالِمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ: قارئٌ، فقد قيلَ. ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِه حتى أُلقِيَ في النارِ. ورَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عليه، وأعْطاهُ من أصنافِ المالِ فأُتِيَ به فعرَّفَه نِعَمَهُ فَعَرَفَها، فقالَ: فما عَمِلْتَ فيها؟ فقالَ: ما تَرَكْتُ من سبيلٍ تحبُّه أنْ يُنْفَقَ فيه إلاَّ أنْفَقْتُ فيه لكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولكنَّك فَعَلْتَ ليُقَال: هو جوادٌ، فقد قيلَ. ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِه حتَّى أُلْقِيَ في النارِ»**(٢).

ولما بَلَغَ معاويةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ هذا الحديثُ بَكَى حتى غُشِيَ عليه، فلمَّا أفاقَ قالَ: صدقَ اللهُ ورسولُه؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هُود: ١٥، ١٦].

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٤٠) من حديث أبي أمامة.

(٢) صحيح مسلم (١٩٠٥).

قالَ الإمامُ ابنُ رجبٍ ـ رحمَهُ اللهُ ـ ما مُلَخَّصُهُ: واعْلَم أنَّ العملَ لغيرِ اللهِ أقسامٌ:

فتارةً يكونُ رياءً محضًا بحيثُ لا يُرادُ به سِوَى مُراءاةِ المخلوقينَ لغرضٍ دنيويٍّ؛ كحالِ المنافقينَ في صلاتِهم، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [النِّساء: ١٤٢]، وكذلكَ وصَفَ اللهُ تعالَى الكفارَ بالرياءِ المَحْضِ في قولِه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفَال: ٤٧]. وهذا الرياءُ المَحْضُ لا يكادُ يصدرُ من مؤمنٍ في فرضِ الصلاةِ والصيامِ، وقد يصْدُرُ في الصدقةِ الواجبةِ والحجِّ وغيرِهما من الأعمالِ الظاهرةِ، التي يَتَعدَّى نَفْعُها، فإنَّ الإخلاصَ فيها عزيزٌ. وهذا العملُ لا يَشُكُّ مسلمٌ أنَّه حابطٌ، وأنَّ صاحِبَه يستحِقُّ المَقْتَ من اللهِ والعقوبةَ.

وتارةً يكونُ العملُ للهِ، ويشارِكُه الرياءُ، فإنْ شَارَكَهُ من أصلِه فالنصوصُ الصحيحةُ تدلُّ على بُطْلانِه أيضًا وحبوطِهِ.

وأمَّا إنْ كانَ أصلُ العملِ للهِ، ثُمَ طرأتْ عليهِ نِيَّةُ الرياءِ، وكانَ خاطرًا ودَفَعَهُ، فإنَّه لا يضرُّهُ بغيرِ خلافٍ، فإنِ اسْتَرْسَلَ معه فهلْ يُحْبِطُ عمَلَه، أمْ لا يضُرُّه ذلكَ ويُجَازَى على أصلِ نِيَّتِهِ؟ في ذلكَ اختلافٌ بينَ العلماءِ من السلفِ.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وأخْلِصُوا أعمالَكم للهِ وحدَه، وابْتعِدُوا عن الرياءِ، والمقاصدِ الدنيئةِ، فإنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إلى صورِكم وأموالِكم، وإنَّما يَنْظُرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم.

عبادَ اللهِ: إنَّ إخفاءَ العملِ وإسْرارَهُ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه أَدْعَى إلى الإخلاصِ، وأَبْعَدُ عن الرياءِ، وقد جاءَ في الحديثِ أنَّ من السبعَةِ الذينَ يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: «رجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأَخْفَاها حتى لا تَعْلَمَ شمالُهُ ما تُنْفِقُ

يمينُه»[١]، وقالَ اللهُ تعالَى: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [البَقَرَة: ٢٧١].

فالمؤمنُ إذا تبرَّعَ لمشروعٍ خيريٍّ فإنَّه لا ينْبَغِي له أن يوافِقَ على الإعلانِ عنه في الصحفِ وغيرِها، إلاَّ إذا كانَ القصدُ من ذلكَ حثَّ الآخرينَ على التبرُّعِ، أو كانَ هذا الإعلانُ بغيرِ عِلْمِه. وبعضُ الناسِ إذا عَمَرَ مسجدًا كَتَبَ على بابِه: عُمِّرَ هذا المسجدُ على نَفَقَةِ المُحْسِنِ فلانٍ، وهذا لا ينْبَغِي، ويُخْشَى أنْ يُفْسِدَ ذلكَ عَمَلَهُ، خصوصًا إذا كانَ قَصْدُه بذلكَ تخليدَ ذِكْرَاهُ.

فاتقوا اللهَ يا عبادَ اللهِ، وأخصلوا لله أعمالكم.

أعوذ باللهِ من الشيطان الرجيم ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠].

بارِكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة.

في توجيهِ الشبابِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، جعلَ هذِه الأمةَ خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ربُّ الناسِ، مَلِكُ الناسِ، إلـهُ الناسِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه ذوي الشجاعةِ والبأسِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى بامتثالِ أوامرِهِ، واجتنابِ نواهيهِ، وشُكْرِ نِعَمِهِ، وخُذُوا على أيْدِي شبابِكم، ووجِّهُوهُم الوجهةَ الصالحةَ، فإنَّ اللهَ قَدِ استَرْعَاكُم عليهِم، «فكلُّكُم راعٍ، وكلُّكُمْ مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ».

عبادَ اللهِ: إنَّ الشبابَ هم عِمادُ الأمَّةِ، وهم جيلُ المستقبلِ، منهم يَتَكَوَّنُ بناءُ الأمَّةِ، فمِنْهُم يَنْشَأُ العلماءُ والمُوَجِّهونَ، ومنهم يَنْشَأُ الجنودُ المجاهدونَ، ومنهم يَنْشَأُ الصنَّاعُ والمحترفونَ، إذا صَلحُوا قرَّتْ بهم أعينُ آبائِهم في الحياةِ، وجَرَى نَفْعُهم عليهم بعدَ المماتِ، ولحِقُوا بهم إذا دَخَلوا الجنَّاتِ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطُّور: ٢١] ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣﴾ [الرّعد: ٢٣]، ومِنْ ثَمَّ اتَّجَهَتْ عنايةُ الأنبياءِ عليهم السلامُ نحْوَ ذُرِّيَّتِهم قبلَ وجودِهم، فها هو إبراهيمُ الخليلُ عليهِ السلامُ يَدْعُو اللهَ فيقولُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وها هو زكريا عليهِ السلامُ يقولُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عِمران: ٣٨]، والصالحُ من عبادِ اللهِ يقولُ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا

تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ [الأحقاف: ١٥].

كانَ السَّلَفُ الصالحُ يُعْنَوْنَ بأبنائِهم منذُ نعومةِ أظفارِهم، يُعلِّمُونَهُم، ويُنَشِّؤُونَهُم على الخيرِ، ويُبْعِدُونَهُم عن الشَّرِّ، ويخْتارونَ لهم المعلمينَ الصالحينَ، والمربينَ الحكماءَ والأتقياءَ، والنبيُّ ﷺ يأمُرُ الآباءَ أنْ يبدءُوا معَ أولادِهم التربيةَ الدينيةَ والخُلُقيةَ من سِنِّ التمييزِ؛ حيثُ يقولُ ﷺ: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ لِسَبْعٍ، واضرِبُوهُم عليها لِعَشْرٍ، وفَرِّقوا بينهم في المضاجِعِ»(١).

عبادَ اللهِ: إنَّ شبابَ الأُمَّةِ إذا فسدوا انهدمَ بناءُ الأمةِ، وتسلَّطَ عليها أعداؤُها، وبالتالي تزولُ عن الوجودِ. وإنَّ مِمّا يُدْمِي القلوبَ ويُبْكِي العيونَ، ما نشاهدُ عليهِ كثيرًا من شبابِ المسلمينَ اليومَ، من تَمَرُّدٍ على آبائِهم، وانحرافٍ في أخلاقِهم، وفسادٍ في دينِهم، يتجمعونَ في الشوارعِ من بعدِ العصرِ إلى آخرِ الليلِ بسياراتِهم يعبثونَ بها، فيُضَايقونَ المارةَ ويُزْعجونَ السكانَ، ويُعَرِّضُونَ الناسَ للخطرِ، ويَتْرُكُونَ الصلواتِ، بلْ يُشوِّشُونَ على المصلينَ في المساجدِ، ويَخْتلِطُ بهم عناصرُ فاسدةٌ تأْتِيهِم من هُنا وهناك، تُروِّجُ بينَهم تعاطِيَ الدخانِ والمخدِّراتِ، وفسادَ الأخلاقِ، والوقوعَ في الفواحشِ.

لقدِ اسْتَشْرى شَرُّهُم، وعَظُمَ خَطَرُهُم، وصاروا يهدِّدونَ مَنْ يحاولُ نُصْحَهم، أو يُنْكِرُ عليهم.

فيا عبادَ اللهِ، انْتَبِهوا لهذا الخطرِ، وقُومُوا لِدفْعِه، والتَّخَلُّصِ منه بجدٍّ وحزمٍ؛ وذلكَ بأنْ يقومَ المسؤولونَ بِمَنْعِه بِقُوَّةِ السلطةِ والتأديبِ الرادعِ، ويقومَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

الآباءُ بالأَخذِ بأيدِي أولادِهم ومنْعِهِم منه، ويقومَ المعلمونَ في المدارسِ والأئِمَّةُ في المساجدِ بتوجيهِ الشبابِ، وبيانِ أضرارِ هذه التَّجَمُّعاتِ المشبوهةِ، وتحذيرِهم من دعاةِ الفسادِ وقرناءِ السوءِ، ويَتَعَاونَ أهْلُ الحاراتِ على مطاردةِ هذه التجمعاتِ وإبعادها عن حاراتهم، وعلى الشبابِ الصالحينَ أنْ يَنْصَحوا مَنْ كانَ في سِنِّهِمْ؛ لأنَّ قبولَ الشابِّ من شابٍّ مِثْلِهِ في السِّنِّ أقربُ من قَبولِه مِمَّنْ هو أكبرُ منه سِنًّا؛ فإنَّه لا يَبْعُدُ أنْ يَسْتَغِلَّ الأعداءُ هذه التجمعاتِ لإفسادِ شبابِ المسلمينَ؛ لأنَّهم يَعْلَمونَ مَا تَجُرُّه من شرٍّ، فَكَمْ من شابٍّ فَسَدَ خُلُقُه، وضاعَ دينُه بسببها، وكَمْ من شابٍّ أَهْلَكَ نَفْسَه وأَهْلَكَ غَيْرَه بِسَبَبِ عَبَثِه الأَهْوَجِ بسيارتِه، وكَمْ من شابٍّ اختَلَّ عَقْلُه، وضاعَتْ رُجولتُه، وتَحَوَّلَ إلى شِبْهِ أُنْثَى، فأصبحَ عالةً على مُجْتَمَعِه، وخسارةً على أهْلِه، كُلُّ ذلكَ بسببِ هذه التجمعاتِ السيئةِ، والمخالطاتِ المشبوهةِ.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، واعْلَموا أنَّكُم في زمانِ فتَنٍ، وأنَّكم تَعِيشونَ بينَ أعداءٍ، وأنَّ أهْلَ الشَّرِّ يَنْشُرونَ شَرَّهُم بينكُم بِمَكْرٍ دقيقٍ ودهاءٍ خبيثٍ، واعْلَموا أنَّ أعْظَمَ ذُخْرٍ لَكُم، وأَنْفَعَ ثروةٍ تُحَصِّلُونها من دُنياكُم بَعْدَ العملِ الصالحِ: هم أولادُكُم؛ في الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انْقَطَعَ عَمَلُه إلاَّ من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعُو له**»[1]. إنَّ أولادَكم هم الذينَ يَقُومونَ عليْكُم عندَ كِبَرِكُم وعَجْزِكُم، وهم الذين يَخْلُفُونَكُم في المحافظةِ على محارِمِكُم، إنَّهم أنْفَعُ لكم من الأموالِ، فكيفَ تُضَيِّعونَهُم، ولا تَهْتَمُّونَ بِشَأْنِهِم؟!

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة.

إنَّ الإنسانَ لَيأسَفُ ويَعْظُمُ خَجَلُهُ عندما يَرى الكفارَ يُعْنَوْنَ بتربيةِ أولادِهم التربيةَ الماديةَ الدنيويةَ، فلا يَتْرُكُونَهُم يَسِيبُونَ في الشوراعِ، ولا يَدَعُونَ لهم فراغًا أبدًا؛ بلْ يُنَظِّمونَ لهم حياتَهُم تنظيمًا دقيقًا، أمَّا كثيرٌ من المسلمينَ فلا يَهُمُّه من شَأْنِ ولدِه إلاَّ أَنْ يُسَمِّيَهُ عندَ الولادةِ، ويُوَفِّرَ له الطعامَ والشرابَ والكسوةَ والمسكنَ، ولا يَدْرِي عَمَّا وراءَ ذلكَ، بلْ إنَّ البعضَ يُوَفِّرُ لأولادِه أسبابَ الفسادِ، فَيَمْلأُ جيوبَهم بالنقودِ، ويَشْتري لهم السياراتِ الفخمةَ، ويَمْلأُ لهم البيتَ بآلاتِ اللَّهْوِ والأفلامِ الخليعةِ، فلا تسألْ بعد ذلكَ عَمَّا يَنْشأُ عليه الأولادُ الذينَ وُفِّرَتْ لهم هذه الوسائلُ؛ من فسادٍ خُلُقِيٍّ، وانْحِرافٍ فِكْرِيٍّ، وبَهيميةٍ عارمةٍ، ولا تَسألْ عمَّا يَلْحقُ آباءَهُمْ من آثامٍ، وما يُصِيبُهم من حسرةٍ عندما يُواجِهُهُم أولادُهُم بالعقوقِ، وعندما يُحْرَمونَ من نَفْعِهم، وعندما يُدْرِكُهُم الكِبَرُ، ويَحْتاجونَ إليهم، فإنَّ الجزاءَ من جِنْسِ العملِ. وقد أوْصَى اللهُ الأولادَ أنْ يَرُدُّوا على الآباءِ جميلَهُم عند عَجْزِهم وكِبَرِهم، فقالَ سبحانَه وتعالَى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فأَمَرَ اللهُ الولدَ أنْ يتذكَّرَ إحسانَ الوالدينِ إليه في حالةِ ضَعْفِه وصِغَرِه، ليُقَابِلَ ذلكَ بالإحسانِ إليهما في حالِ ضَعْفِهِمَا وعَجْزِهِمَا، فكيفَ إذا كانَ الولدُ لا يتذكَّرُ من والديهِ إلاَّ الإضاعةَ والإساءةَ والتوجيهَ الفاسدَ، ماذا يعملُ تِجَاهَ ذلكَ؟.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، واعْلَموا أنَّ الأولادَ أمانةٌ في أعناقِكم، فاتَّقُوا اللهَ فيهم وفي أمانتِهِم.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفَال: ٢٧، ٢٨].

باركَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في المحافظةِ على الصلاةِ عُمومًا والعصرِ والفجرِ خُصوصًا

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، جَعَلَ الصلاةَ كتابًا موقوتًا على المؤمنينَ، وأخْبَرَ أنَّ التكاسلَ عنها من صفاتِ المنافقينَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلهِ وأصحابِه، والتابعينَ لهم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسْليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واهْتَمُّوا بأمورِ دينِكم عامةً، وبِصَلاتِكُم خاصةً، فإنَّها عمودُ الإسلامِ، وهي تَنْهى عن الآثامِ، والفارقةُ بينَ الكفرِ والإسلامِ، وقد أوْصَى اللهُ بها في مُحْكَمِ كتابِه، قالَ تعالَى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨]، وقالَ تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [المَاعون: ٤، ٥]، وقالَ تعالَى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريَم: ٥٩]، وأخبرَ أنَّ أهْلَ النارِ إذا سُئِلوا عَنْ سببِ دخولِهِم فيها أجابُوا بقولِهِم: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾ [المدَّثِّر: ٤٣].

عبادَ اللهِ: والمحافظةُ على الصلاةِ يُرادُ بها أداؤُها في أوقاتِها التي حَدَّدَهَا اللهُ لها مع الجماعةِ في المساجدِ التي بُنيتْ من أجْلِها، وأنْ تكونَ مستوفيةً لشروطِها وأركانِها وواجباتِها التي شَرَعها اللهُ فيها، فمَنْ أخلَّ بشيءٍ من ذلكَ لم يكُنْ محافظًا على صلاتِه، كما أنَّه مطلوبٌ من المسلمِ أنْ يَهْتَمَّ بجميعِ الصلواتِ الخَمْسِ، فالتهاونُ ببعضِ الصلواتِ كالتهاونِ بجميعِها، وبعضُ الناسِ قد ابْتُلُوا

في زمانِنا هذا بالتهاونِ في صلاتين: هما صلاةُ العصرِ وصلاةُ الفجرِ، فصلاةُ العصرِ يتهاونُ بها بعضُ الموظفينَ، حيثُ يخرجُ من الدوامِ الرسميِّ بعدَ الظهرِ، ثمَ ينامُ، ويتركُ صلاةَ العصرِ معَ الجماعةِ، ويُؤَخِّرُها إلى أنْ يستيقظَ ولو خَرَجَ وقتُها، وصلاةُ العصرِ لها شأنٌ عظيمٌ، وهي الصلاةُ الوُسْطى التي أوْصَى اللهُ بالمحافظةِ عليها خصوصًا، بعدما أوْصَى بالمحافظةِ على الصلواتِ عمومًا؛ قالَ تعالَى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقَرَة: ٢٣٨]. والذي عليه أكْثرُ أهْلِ العِلْمِ أنَّ الصلاةَ الوسْطى هي صلاةُ العصرِ؛ لأدلةٍ كثيرةٍ؛ مِمَّا يدلُّ على تأكُّدِ الاهتمامِ بها خاصةً، وقد وردَ الوعيدُ الشديدُ في حقِّ مَنْ تهاونَ بها؛ عَنْ بُريدةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَنْ تَركَ صلاةَ العصرِ فقد حَبِطَ عملُه**»[1] رواهُ البخاريُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه. وعَنِ ابنِ عمرَ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الذي تَفُوتُه صلاةُ العصرِ فكأنَّما وُتِرَ أهْلَه ومالَه**»[2]. رواه مالكٌ، والبخاريُّ، ومسلمٌ. وقد فسَّرَه الإمام مالكٌ ـ رحمه الله ـ بأنَّ المرادَ به ذهابُ الوقتِ.

وإذا كانَ هذا الوعيدُ في حقِّ من فاتَتْهُ صلاةُ العصرِ مرةً واحدةً، فكيفَ بِمَنِ اعتادَ ذلكَ، وداومَ عليهِ، وجَعَلَ وقتَ صلاةِ العصرِ وقْتَ نومٍ له؟! فاتقوا الله، يا مَنْ تفعلونَ هذا، وتُوبوا إلى اللهِ، وأَدُّوا صلاةَ العصرِ في وقتِها معَ الجماعةِ كما أَمَرَكُم اللهُ بذلكَ، ولا يُغْوِيَنَّكُم الشيطانُ وتَنْساقوا مع العاداتِ السيئةِ التي تُخِلُّ بدينِكُم، وتوقِعُكُم في غضبِ اللهِ وأليمِ عقابِه، اجْعَلوا وقتَ نومِكُم وراحتِكُم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣، ٥٩٤) والنسائي (٤٧٤) وابن ماجه (٦٩٤) من حديث بريدة.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب وقوت الصلاة، باب جامع الوقوت، حديث (٢١) والبخاري (٥٥٢) ومسلم (٦٢٦).

بعدَ أداءِ الصلاةِ، وكونوا قُدْوةً صالحةً لغيرِكُم، ولا تكونوا قُدوةً سيئةً.

وأمَّا صلاةُ الفجرِ فقد نوَّهَ اللهُ بِشأْنِها، وأخبرَ أنَّها تَحْضُرُها الملائكةُ الكرامُ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨]. والمرادُ بقرآنِ الفجرِ صلاةُ الفجرِ، سُمِّيتْ بذلكَ؛ لأنَّها تَطولُ فيها القراءةُ، ومعنى «مشهودًا» أيْ تَحْضُرُه الملائكةُ، ملائكةُ الليلِ وملائِكةُ النهارِ؛ ففي الصحيحينِ عَنْ أبي هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ عن النبيِّ ﷺ: قالَ: «يتعاقبونَ فيكُم ملائكةٌ بالليلِ، وملائكةٌ بالنهارِ، ويجْتَمِعونَ في صلاةِ الصبحِ، وفي صلاةِ العصرِ. فيعرجُ الذينَ باتوا فيكم، فيَسْألُهُم ربُّهُم ـ وهو أعْلَمُ بكُم ـ كيفَ تَركْتُم عبادِي؟ فيقولونَ: أتيناهُم وهم يُصَلُّونَ، وتركْنَاهُم وهم يُصَلُّون»[1]. وعن أبي مالكٍ الأشجعيِّ عن أبيهِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صلَّى الصبحَ فهو في ذِمَّةِ اللهِ، وحِسَابُه على اللهِ»[2] رواهُ الطَّبَرانِيُّ. وعَنْ جُنْدبِ بنِ عبدِ اللهِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صلَّى الصبحَ فهو في ذِمَّةِ اللهِ، فلا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ من ذِمَّتِه بشيءٍ؛ فإنَّه مَنْ يَطْلُبْه مِنْ ذِمَّتِه بشيءٍ يُدْرِكه، ثم يَكُبهُ على وجْهِهِ في نارِ جهنَّمَ»[3]. رواهُ مسلمٌ وغيرُه.

ومَعَ هذا الفَضْلِ العظيمِ لصلاةِ الفجرِ، والوعيدِ الشديدِ في حقِّ مَنْ تهاونَ بها، فإنَّ بعضَ الناسِ لا يَهتَمُّونَ بها، فَتَجِدُ أحَدَهُم يَسْهرُ مُعْظَمَ الليلِ لمشاهدةِ ما يُعْرَضُ على شاشةِ التلفازِ من برامجَ، ربَّما يَكُونُ أكْثرُها ضارًّا، ثُمَّ ينامُ عن صلاةِ الفجرِ مع الجماعةِ، ويُؤَخِّرُها عن وقتِها فلا يُصَلِّيها إلاَّ بعد خروجِ وقتِها،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥، ٧٤٢٩، ٨٤٨٦) ومسلم (٦٣٢).

(٢) معجم الطبراني (٨١٨٨).

(٣) صحيح مسلم (٦٥٧).

وهو بذلكَ يَرْتَكِبُ جريمتين عظيمتين: الأولى: تَرْكُ الصلاةِ مع الجماعةِ. والثانية: تأخيرُ الصلاةِ عن وقتِها. ويُضافُ إلى ذلكَ إذا كانَ سَهَرُه لمشاهدةِ أفلامٍ يَحْرُمُ النَّظَرُ إليها، ومشاهدةِ ما يُعْرَضُ فيها من جرائمَ.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، ولا تكونوا مِمّنْ قالَ اللهُ فيهم: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٥٩].

ومِنَ الشهواتِ التي تُسَبِّبُ إضاعةَ الصلاةِ السَّهَرُ لمشاهدةِ برامجِ التلفازِ، والتَّمَتُّعِ برؤيتِها، ثم النومُ بعدَ ذلكَ عن صلاةِ الفجرِ، وأكْثرُ ما يحصلُ التَّكاسُلُ عن صلاةِ الفجرِ في يومِ الجُمُعَةِ الذي هو أفضلُ الأيامِ؛ لأنَّ السَّهَرَ في ليلةِ الجمعةِ أكْثَرُ من السَّهَرِ في بقيةِ الليالي.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، واحْسبوا للصلاةِ حسَابَها، ناموا مُبَكِّرينَ لِتَسْتيقِظوا مبكرينَ للصلاةِ، واعْلَموا أنَّ كُلَّ ما يَشْغَلُ عن الصلاةِ، أو يُسَبِّبُ تأخيرَها عن وقتِها؛ من بيعٍ أو شراءٍ أو نومٍ أو عملٍ ـ فهو مُحَرَّمٌ؛ قالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ ﴾ [المنافقون: ٩]، وقالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [الجُمُعَة: ٩]، وقد رأى النبيُّ ﷺ قومًا تُرْضَخُ رؤوسُهُم بالصخرِ، كلما رُضِخَتْ عادتْ كما كانتْ، ولا يفْتُرُ من ذلكَ شيءٌ، فقالَ: «**ما هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قالَ: هؤلاءِ الذينَ تتثاقلُ رؤوسُهُم عن الصلاةِ المكتوبةِ**»[1]. فاتَّقُوا اللهَ، وأَدُّوا الصلاةَ في وقتِها كما أَمَرَكُمُ اللهُ.

---

(١) عزاه للبزار كذلك المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٢٠).

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ ﴾ [النُّور: ٣٦، ٣٧].

باركَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في التَّـداوِي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ على فَضْلِه وإحسانِه، أَمَرَ بالتَّوَكُّلِ عليهِ معَ الأَخْذِ بالأسبابِ النافعةِ، ونَهَى عن الاعتمادِ على غيرِه، وعن تعطيلِ الأسبابِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، لا يأْتي بالحسناتِ إلاَّ هو، ولا يَدْفَعُ السيئاتِ إلاَّ هو، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ به، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه القائلُ: «لكلِّ داءٍ دواءٌ، فإذا أصابَ الدواءُ الداءَ بَرأَ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ»[1]، اللهُمَّ صلِّ على عبدِك ورسولِك نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلهِ وأصحابِه، وسلِّمْ تسليمًا كثيرًا.

أما بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وتَعَرَّفُوا إليه في الرخاءِ يَعْرِفْكُم في الشدَّةِ، واعْلَموا أنَّكم فقراءُ إليه دائمًا وأبدًا، لا تَسْتَغْنونَ عنه طرفةَ عينٍ، فالقويُّ منكم لا يغْتَر بِقُوَّتِه، والضعيفُ منكم لا يَيْأَسْ من رحمتِه، كما قالَ الخليلُ عليه السلامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠]، وكما قالَ أيوبُ عليه السلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبيَاء: ٨٣]. فَعَلِّقوا آمالَكُم به، وتَوَكَّلوا عليه، فهو نِعْمَ الوكيلُ.

عبادَ اللهِ: إنَّكُم تُبتَلونَ بالأمراضِ البدنيةِ، والمشروعُ لكم عندَ ذلكَ شيئانِ:

الشيءُ الأولُ: الرِّضَا بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وعدمُ التَّسَخُّطِ والجَزَعِ، معَ محاسبةِ أنْفُسِكُم؛ فإنَّه لا يصيبُكُم شيءٌ إلاَّ بما كَسَبتْ أيدِيكم من المعاصِي.

الشيءُ الثاني: تعاطِي العلاجِ النافعِ المباحِ، وتَجَنُّبُ العلاجِ المُحَرَّمِ؛ فقد رَوَى مسلمٌ في صحيحِه عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «لكلِّ داءٍ

(١) صحيح مسلم (٢٢٠٤).

دواءٌ، فإذا أصابَ الدواءُ الداءَ بَرَأَ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ»[١]. وفي الصحيحينِ عن عطاء عن أبي هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أَنْزَلَ اللهُ من داءٍ إلاَّ أَنْزَلَ له شفاءً»[٢]، وفي مُسْنَدِ الإمامِ أحمدَ عن أسامةَ بنِ شريكٍ قالَ: كُنْتُ عندَ النبيِّ ﷺ وجاءَتِ الأعرابُ فقالوا: يا رسولَ اللهِ أَنَتَداوى؟ قالَ: «نَعَمْ يا عبادَ اللهِ، تَدَاووا، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَضَعْ داءً إلاَّ وَضَعَ له شفاءً، غيرَ داءٍ واحدٍ» قالوا: ما هو؟ قالَ: «الهَرَمُ»[٣]، وفي لفظٍ: «إنَّ اللهَ لم يُنْزِلْ داءً إلاَّ أَنْزَلَ له شفاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ»[٤].

والعلاجُ لا يُنَافِي قَدَرَ اللهِ سبحانَه؛ لأنَّه مِنْ قَدَرِ اللهِ؛ فقد قالَ رجُلٌ للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ أرأيتَ رُقًى نَسْتَرْقِيها، ودواءً نَتداوى به، وتُقَاةً نَتَّقِيها، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ شيئًا؟ فقالَ: «هي مِنْ قَدَرِ اللهِ»[٥]. رواهُ الإمامُ أحمدُ، وأصحابُ السُّنَنِ.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ: فقد تَضَمَّنَتْ هذه الأحاديثُ إثباتَ الأسبابِ والمُسَبَّباتِ، وإبطالَ قولِ من أَنْكَرها... وفي هذه الأحاديثِ الصحيحةِ الأَمْرُ بالتداوي، وأنَّه لا يُنَافِي التَّوَكُّلَ، كما لا يُنَافِيه دَفْعُ داءِ الجوعِ والعطشِ والحرِّ والبردِ بِأَضْدَادِها. بلْ لا يتم حقيقة التوحيد إلاَّ بمباشرةِ الأسبابِ التي نَصبَها اللهُ مقتضياتٍ لِمُسَبَّباتِها قَدَرًا وشَرْعًا، وأنَّ تعطِيلَها يَقْدَحُ في نَفْسِ التَّوَكُّلِ... إلى أنْ قالَ: وفي قولِه ﷺ: «لكلِّ داءٍ دواءٌ» تَقْوِيةٌ لِنَفْسِ المريضِ والطبيبِ، وَحَثٌّ

---

(١) صحيح مسلم (٢٢٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).
(٣) أخرجه أحمد (١٧٩٨٧).
(٤) المسند (١٧٩٨٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٢١٤٨) وابن ماجه (٣٤٣٧) من حديث أبي خزامة.

على طلبِ ذلكَ الدواءِ والتفتيشِ عليه، فإنَّ المريضَ إذا اسْتَشْعَرتْ نَفْسُه أنَّ لدائِه دواءً يُزيلُه تَعَلَّقَ قَلْبُه بِرُوحِ الرجاءِ، وبَرَدَ من حَرَارةِ اليأسِ، وانْفَتَحَ له بابُ الرجاءِ، وكذلكَ الطبيبُ إذا عَلِمَ أنَّ لهذا الداءِ دواءً أمْكَنَهُ طَلَبُه والتفتيش عليه.

والتَّداوي النافعُ على نوعين:

النوعُ الأول: التَّدَاوي بالآياتِ القرآنيةِ والأدعيةِ النبويةِ التي تُقْرَأُ على المريضِ، فَيُشْفَى بإذنِ اللهِ، إذا تَوَفَّرتِ الأسبابُ وانْتَفَتِ الموانعُ مِنْ قِبَلِ الرَّاقي والمَرْقِيّ.

النوعُ الثاني: التَّداوي بالأدويةِ المباحةِ التي خَلَقَها اللهُ تعالَى، وأَذِنَ بالتَّداوي بها، فإنَّه لا شيءَ من المخلوقاتِ إلاَّ وله ضِدٌّ، فكُلُّ داءٍ له ضِدٌّ من الدواءِ يُعَالَجُ بِضِدِّه، فإذا وافقَ الدواءُ الداءَ بَرَأَ بإذْنِ اللهِ.

ولَمَّا أغْنانا اللهُ تعالَى بالأدويةِ النافعةِ المباحةِ نهانا عن التَّداوي بالأدويةِ المُحَرَّمة، كالتداوي بالخمرِ، فقد سألَ طارقُ بنُ سويدِ النبيَّ ﷺ عن الخمرِ فَنَهاهُ عنها، فقالَ: إنَّما أَصَنَعُها للدواءِ، فقالَ: **«إنَّه ليسَ بدواءٍ، ولكنَّه داءٌ»**(١). رواهُ أحمدُ ومسلمٌ وغيرُهما. وعن أبي الدرداءِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«إنَّ اللهَ أنْزلَ الداءَ والدواءَ، وجَعَلَ لكلِّ داءٍ دواءً، فتداووا، ولا تتداووا بحرامٍ»**(٢). رواهُ أبو داودَ. وقالَ ابنُ مسعودٍ في المُسكرِ والمَنعِ منه: إنَّ اللهَ لم يَجْعَلْ شفاءَكم فيما حَرَّمَ عليكُم(٣). ذَكَرَه البخاريُّ.

فَدَلَّتْ هذه الأحاديثُ على تحريمِ التَّداوي بالموادِّ المُحَرَّمَةِ عموماً،

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٨١٠) ومسلم (١٩٨٤) وابن ماجه (٣٥٠٠).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤).
(٣) علقه البخاري في صحيحه؛ كتاب الأشربة، باب: شراب الحلواء والعسل.

وتحريمِ التَّداوي بالخمرِ ومُشْتَقَّاتِه خصوصًا. وأعْظَمُ من ذلكَ التَّداوي بأمورٍ شِرْكِيَّةٍ تُفْسِدُ العقيدةَ، كذهابِ المريضِ إلى المُشَعْوِذينَ والدجالينَ الذينَ يَسْتَخْدِمونَ الجنَّ، ورُبَّما يأمرونَ المريضَ بأنْ يَذْبَحَ لغيرِ اللهِ، والذبحُ لغيرِ اللهِ شِرْكٌ أكْبَرُ، أو يَكْتُبونَ له حُروزًا تَشْتمِلُ على طلاسمَ وكلماتٍ شِرْكِيَّةٍ يستصحبها المريضُ معه، أو يُعَلِّقُها على جِسْمِه.

ومن ذلك أيضًا أنْ يَشُدَّ الإنسانُ عَلَى ذراعِهِ أو ساقِه خيطًا يَعْتَقِدُ أنَّه يَدْفَعُ عنه الآفاتِ، أو يَرْفَعُ عنه المرضَ النازلَ، فَعَنْ عمرانَ بنِ حصينٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رَجُلاً في يدِه حَلَقَةٌ من صُفْرٍ فقالَ: «ما هذا»؟ قالَ: من الواهنةِ ـ يعني الحُمَّى ـ فقالَ: **«انزِعْها فإنَّها لا تَزِيدُكَ إلاَّ وَهْنا، فإنَّكَ لو مُتَّ وهي عليكَ ما أفْلَحْتَ أبدًا»**[1]. رواهُ أحمدُ بسندٍ لا بأسَ به. وعن حُذَيفةَ أنَّه رأى رجُلاً في يدِه خَيْطٌ من الحمى فقَطَعَه، وتلا قولَه تعالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝﴾ [يُوسُف: ١٠٦]. فما يَرْبِطُه الجُهَّالُ على أرْجُلِهِم أو أذْرُعِهِم أو أَصَابِعِهِم من الخيوطِ يَتَّقُونَ به الأمراضَ، فإنَّه يَدْخُل في الشِّرْكِ ووسائِلِه، وقد قالَ النبيُّ ﷺ لِمَنْ فَعَلَ ذلكَ: **«لا تَزِيدُكَ إلاَّ وَهْنًا»** أيْ ضَعْفًا وَمَرَضًا وخسارةً في الدنيا والآخرةِ، وقالَ: **«لو مُتَّ وهي عليكَ ما أفْلَحْتَ أبدًا»**؛ لأنَّ ذلكَ شِرْكٌ، والمُشْرِكُ لا يُفْلِحُ.

ومن ذلكَ أيضًا ما يُعَلَّقُ على الأبدانِ، أو الدوابِّ أو السياراتِ أو أبوابِ البيوتِ أو الدكاكينِ، مِنَ الحروزِ والوَدَعِ والسُّيورِ؛ لاتقاءِ العَيْنِ والآفاتِ؛ قالَ النبيُّ ﷺ: **«مَنْ تَعلَّقَ تميمةً فلا أتَمَّ اللهُ له، ومَنْ تَعَلَّقَ وَدَعةً فلا ودعَ اللهُ له»**[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٤٩٨) وابن ماجه (٣٥٣١).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٥١) من حديث عقبة بن عامر.

والتَّميمةُ: خرزاتٌ كانتِ العربُ تُعَلِّقُها على أولادِهم يَتَّقُون بها العينَ في زَعْمِهم، والوَدعُ: شيءٌ يَخْرُجُ من البحرِ يُشْبِهُ الصَّدفَ يَتَّقُونَ به العينَ.

وفي الصحيحِ عَنْ أبي بشيرٍ الأنصاريِّ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنَّه كانَ معَ النبيِّ ﷺ في بعضِ أسفارِه، فأرْسَلَ رسولاً أنْ: لا تَبْقَيَنَّ في رقبةِ بعيرٍ قِلادةٌ من وَتَرٍ أو قلادة إلا قُطِعَتْ[1]. قالَ البَغَوِيُّ: وذلكَ أنَّهم كانوا يَشُدُّونَ تلكَ الأوتارَ والتمائم والقلائدَ، ويُعَلِّقونَ عليها العُوَذَ، يظُنُّونَ أنَّها تَعْصِمُهُم من الآفاتِ، فَنَهَاهُم النبيُّ ﷺ وأَعْلَمَهُم أنَّها لا تَرُدُّ مِنْ أمْرِ اللهِ شيئًا.

فاتَّقُوا الله، عبادَ اللهِ، وحافِظُوا على عقيدتِكُم، وتداووا بما أباحَ اللهُ لكم مع الاعتمادِ على اللهِ في حصولِ الشِّفاءِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَراء: ٧٥ـ ٨٢].

بارَكَ اللهُ لي ولكم في القرآنِ العظيمِ

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٥) ومسلم (٢١١٥).

بِمُنَاسَبةِ تَأَخُّرِ نزولِ المطـرِ

الحمدُ للهِ الغنيِّ الحميدِ، يَفْعَلُ ما يشاءُ ويَحْكُمُ ما يُريدُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يُنْزِلُ الغيثَ من بعد ما قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وهو الوليُّ الحميدُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بَعَثَهُ رحمةً للعالمينَ، وحجةً على الخلائقِ أجمعينَ، فبلَّغَ الرسالةَ وأدّى الأمانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهد في اللهِ حقَّ جهادِه، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِه وصحابتِه، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧]. وهو مَعَ غِناهُ عنكم يَأْمُرُكُم بدعائِه لِيَسْتَجِيبَ لكم، وسُؤَالِه لِيُعْطِيَكُم، واسْتِغْفَارِه لِيَغْفِرَ لكم. وأنتم مَعَ فَقْرِكُم وحاجَتِكُم إليه، تُعْرِضُونَ عنه وتَعْصُونَه، وأنتم تَعْلَمونَ أنَّ مَعْصِيتَه تُسَبِّبُ غَضَبَه عليكم وعُقُوبَتَه لكم، ففي سُنَنِ ابنِ ماجه من حديثِ عبدِ اللهِ بن عمرَ بنِ الخطابِ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ قالَ: كُنْتُ عاشِرَ عَشرَةِ رهْطٍ من المهاجرينَ عند رسولِ اللهِ ﷺ فأَقْبَلَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ بوَجْهِه فقالَ: «يا مَعْشَرَ المهاجرينَ، خَمْسُ خِصَالٍ أعوذُ باللهِ أنْ تُدْرِكُوهُنَّ: ما ظَهرتِ الفاحشةُ في قومٍ حتى أعْلَنوا بها إلاَّ ابْتُلوا بالطواعينِ والأوجاعِ التي لم تَكُنْ في أَسْلافِهِم الذينَ مَضُوا، ولا نَقَصَ قومٌ المكيالَ إلاَّ ابْتُلُوا بالسِّنينَ وشِدَّةِ المؤونةِ وجَوْرِ السلطانِ، وما مَنَعَ قومٌ زكاةَ أموالِهِم إلاَّ مُنِعُوا المَطَرَ من السماءِ ولولا البهائمُ لم يُمْطَروا، ولا خَفَرَ قومٌ العَهْدَ

إلاَّ سَلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرِهِم، فَأَخَذُوا بعضَ ما في أيدِيهم، وما لم تَعْمَلْ أئِمَّتُهُم بما أَنْزَلَ اللهُ في كتابِهِ إلاَّ جَعَلَ اللهُ بأسَهُم بينَهم»[1].

فَذَكَرَ ﷺ في هذا الحديثِ خَمْسةَ أنواعٍ من المعاصي؛ كلُّ نوعٍ منها يُسَبِّبُ عقوبةً من العقوباتِ. ومِنْ ذلكَ مَنْعُ الزكاةِ ونَقْصُ المكيالِ، يُسَبِّبانِ مَنْعَ المطرِ وحصولَ القَحْطِ وشدَّةَ المؤونةِ، وجَوْرَ السلطانِ، وأنتم في هذه الأيامِ تَرونَ تأَخُّرَ المطرِ عن وقتِهِ، وإجْدابَ المراعي، مِمَّا يَترتَّبُ عليه تَضَرُّرُ العبادِ والبلادِ والبهائِمِ. قالَ أبو هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ: إنَّ الحبارى لتَمُوتُ في وكْرِها من ظُلْمِ الظالمِ[2]. وقالَ مُجَاهدٌ: إنَّ البهائمَ تَلْعَنُ عُصَاةَ بني آدمَ إذا اشْتَدَّتِ السنةُ، وأُمْسِكَ المطرُ، تقولُ: هذا بِشُؤْمِ معصيةِ ابنِ آدمَ.

أمَّا مَنْعُ الزكاةِ فقد ابتُلِيَ كثيرٌ من الناسِ اليومَ بِتَضَخُّمِ الأموالِ في أيدِيهِم، وصاروا يَتَساهَلُون في إخراجِ الزكاةِ، إمَّا بُخْلاً بها إذا نَظَروا إلى كَثْرَتِها، وإمَّا تَكَاسُلاً عن إحْصائِها، وصَرْفِها في مصارِفِها. وأمَّا نَقْصُ المكاييلِ فالبعضُ من الناسِ حَمَلَهُم الطَّمعُ والجشعُ على الغشِّ في المعاملاتِ ونقصِ المكاييلِ والموازيينِ وبَخْسِ الناسِ أشياءَهم، فَيَأْتِي على الأكياسِ والصناديقِ، ويُفَرِّغُ منها، ويَبِيعُها على الناسِ على أنَّها تامةٌ وعلى شَدِّ بلادِها، وهي منقوصةٌ مبخوسةٌ، وبائعو الخضارِ والفواكهِ والتمورِ يغشُّونَ الناسَ في الصناديقِ، فَيَضَعُون الرديءَ في الأسفلِ، والجيِّدَ في الأعْلَى، ويقولونَ: كُلُّه من النوعِ الجيِّدِ، وقد أنْكَرَ النبيُّ ﷺ على مَنْ فَعَلَ مِثْلَ هذا وَزَجَرَهُ حينما مَرَّ على بائعِ طعامٍ، فأدْخَلَ يَدَه ﷺ فيهِ، فأدْرَكَ في أسْفلِهِ بللاً فقالَ: «ما هذا يا صاحبَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب.
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ـ كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٤).

الطعام؟» قالَ: أصابتْه السماءُ يا رسولَ اللهِ. يعني المطرَ، فقالَ ﷺ: «أفلا جَعَلْتَه ظاهرًا حتَّى يَراهُ الناسُ، مَنْ غَشَّنَا فليسَ منَّا»(١)، فقدِ اعْتبرَ ﷺ إخفاءَ المعيبِ، وإظهارَ السليمِ غشًّا للمسلمينَ وتَبَرَّأَ من فاعِلِه. وبعضُ الباعةِ يُغَرِّرُونَ بالمشترينَ الذينَ لا يَعْرِفونَ أسعارَ السلعِ، وَيثِقُونَ بهم، فيَرْفَعونَ عليهم القيمةَ، ويَغْبنُونَهُم غَبْنًا فاحِشًا.

وكلُّ هذِه الجرائمِ وغيرها مِمَّا يَجْري في أسواقِ المسلمينَ تُسَبِّبُ العقوباتِ الخاصةَ والعامةَ، ومن ذلكَ ما تُشَاهِدونَ من تَأَخُّرِ المطرِ الذي به حياتُكُم، وحياةُ بهائِمِكُم، وحياةُ زروعِكُم وأشجارِكُم، قالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠]. قالَ الحافظ ابنُ كثيرٍ ـ رحمَهُ اللهُ ـ: وقولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أيْ: أمْطَرْنا هذِه الأرضَ دونَ هذِه، وسُقْنا السحابَ يَمُرُّ على الأرضِ ويَتَعَدَّاها ويَتَجَاوزُها إلى الأرضِ الأُخْرى، فيُمْطِرُها ويكْفِيها، ويَجْعَلُها غَدَقًا، والتي وراءَها لمْ يُنْزِلْ فيها قطرةً من ماءٍ، وله في ذلكَ الحجةُ البالغةُ، والحكمةُ القاطعةُ. قالَ ابنُ عباسٍ وابنُ مسعودٍ ـ رضيَ اللهُ عنهم ـ: ليسَ عامٌ بأكْثَرَ مطرًا من عامٍ، ولكنَّ اللهَ يُصَرِّفُه كيفَ يشاءُ، ثم قرأ هذِه الآيةَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان: ٥٠]. أيْ: لِيَذَّكَّروا بإحياءِ اللهِ الأرضَ الميتةَ أنَّه قادرٌ على إحياءِ الأمواتِ والعظامِ الرُّفاتِ، أو لِيَذَّكَّرَ مَنْ مُنِعَ المَطَرَ، أنَّما أصابَه ذلكَ بذنبٍ أصابَه، فيُقْلِعَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢) والترمذي (١٣١٥) من حديث أبي هريرة. واللفظ للترمذي.

عَمَّا هو فيهِ، فالمطرُ نعمةٌ مِنَ اللهِ على عبادِه، قالَ تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠].

فهو الذي أَنْزلَ هذا المطرَ بِمَنّهِ وفَضْلِهِ، ولو شاءَ لَحَبَسَهُ، فَتَضَرَّرَ العبادُ، وهو الذي جَعَلَهُ عَذْبًا فُراتًا سائغًا شَرَابُه، ولو شاءَ جَعَلَهُ مِلْحًا أُجَاجًا لا يصلحُ للشُّربِ.

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ أَرْشَدَنا عند احْتِباسِ المطرِ إلى أنْ نَسْتَغْفِرَهُ من ذنوبِنا التي بِسَبَبِها حَبَسَ عنا المطرَ، قالَ تعالَى حكايةً عن هودٍ عليه السلامُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هُود: ٥٢].

فالإكثارُ من الاستغفار والتوبةِ سببٌ لنزولِ المطرِ، وقالَ تعالَى حكايةً عن نوحٍ عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نُوح: ١٠ ـ ١٢].

أيْ: إذا تُبْتُمْ إلى اللهِ واسْتَغْفَرْتُموه وأَطَعْتُمُوهُ، كَثَّرَ الرزقَ عليكم، وأَسْقَاكُم من بركاتِ السماءِ، وأَنْبَتَ لكم من بركاتِ الأرضِ، وأَنْبَتَ لكم الزرعَ، وأَدَرَّ لكم الضرعَ، وأَمَدَّكُم بأموالٍ وبنينَ، وجَعَلَ لكم جناتٍ فيها أنواعُ الثمارِ، وَتَتخَلَّلُها الأنهارُ الجاريةُ.

وقد شَرَعَ النبيُّ ﷺ لأُمَّتِه الاستسقاءَ عندَ احْتباسِ المطرِ، وذلكَ بالصلاةِ والدعاءِ والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ تعالَى، فقد ثَبَتَ عنه ﷺ أَنَّه اسْتَسْقَى على وجوهٍ: منها أَنَّه اسْتَسْقَى يومَ الجمعةِ على المنبرِ في أثناءِ خُطْبتِه، ومنها أَنَّه وعَدَ الناسَ يومًا يَخرجونَ فيه إلى المُصَلَّى، فَصَلَّى بالناسِ ركعتينِ، وخَطَبَ ودَعَا، مِمَّا يَدُلُّ على

أنَّه مطلوبٌ من المسلمينَ جميعًا عند امتناعِ المطرِ أنْ يُحَاسِبوا أنْفُسَهُم ويَتُوبوا إلى ربِّهم؛ لأنَّ ذلكَ بسببِ ذنوبِهم، كما قالَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ: ما نَزَلَ بلاءٌ إلاّ بذنبٍ، ولا رُفِعَ بلاءٌ إلاَّ بتوبةٍ. وقالَ تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وتُوبوا إلى ربِّكم، وخُذُوا على أيْدِي سُفَهائِكُم، بأَمْرِهِم بالمعروفِ ونَهْيِهِم عن المنكرِ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

بارَكَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في وجوبِ شُكرِ اللهِ على نزولِ الغيثِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يَفْعَلُ ما يشاءُ، ويَحْكُمُ ما يُريدُ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى: ٢٨]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، شهادةً تَنْفِي الشِّرْكَ بجميعِ أنواعِه وتُثْبِتُ التوحيدَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرْسَلَهُ رحمةً للعالمينَ وقُدْوةً للعاملينَ، وحُجَّةً على المعاندينَ، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِهِ وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واشْكُروه، فقد كُنتم في الأيامِ الماضيةِ في ضيقٍ وشِدَّةٍ من تأَخُّرِ نزولِ المطرِ الذي منه تَشْربونَ، وتُسْقونَ حُروثَكُم وأشْجارَكُم، وتَتَوَفَّرُ به المراعي لأنعامِكم، ثم فَرَّجَ اللهُ شِدَّتَكُم، ورحِمَ ضَعْفَكُم، فأنْزلَ عليكم الغيثَ بِفَضْلِه ورحْمَتِه، فارْتَوتِ الأرضُ، وسالتِ الأوديةُ، وامتلأتِ السُدودُ، فاحمدُوا اللهَ، واشكُروه على هذِه النعمةِ العظيمةِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ [النبأ: ١٤ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٨ـ ٧٠].

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ ـ رحمهَ اللهُ ـ: ثُمَّ تأمَّلِ الحكمةَ البالغةَ في نزولِ المطرِ على الأرضِ من عُلو، لِيعُمَّ بِسَقْيِهِ وِهَادَها، وتُلولَها، وظِرابَها، وآكامَها، ومُنْخَفَضَها، ومُرْتَفَعَها، ولو كانَ ربُّها تعالَى إنَّما يسقيها من ناحيةٍ من نواحِيها

لَمَا أَتى الماءُ على الناحيةِ المرتفعةِ إلاَّ إذا اجْتمعَ في السُّفْلى وكَثُرَ، وفي ذلكَ فسادٌ، فاقْتَضَتْ حِكمتُه أنْ سقاها من فَوْقِها، فَيُنْشِئُ سبحانَهُ السحابَ، وهي روايا الأرضِ، ثم يُرْسِلُ الرياحَ فَتُلَقِّحُها كما يُلَقِّحُ الفحلُ الأنثى، ثم يَنْزِلُ منه على الأرضِ، ثم تأَمّلِ الحكمةَ البالغةَ في إنْزالِه بِقَدْرِ الحاجةِ. حتى إذا أَخَذَتِ الأرضُ حاجَتَها، وكانَ تَتابُعُهُ عليها بعدَ ذلكَ يَضُرُّها ـ أَقْلَعَ عنها، وأعْقَبَهُ بالصَّحْوِ.

عبادَ اللهِ: اشْكُروا اللهَ على هذِه النعمةِ العظيمةِ بالتَّحَدُّثِ بها وإضافَتِها إليه، والثناءِ على اللهِ، واعتقادِ أنَّها منه وحدَه، والاستعانةِ بها على طاعتِه، فإنَّ كثيرًا من الناسِ لا يَشْكُرونَ اللهَ على هذِه النعمةِ، كما أنَّهم لا يشكرُونَه على غيرِها من النِّعَمِ، فبعضُهُم لا يَنْسبُ نزولَ المطرِ إلى اللهِ، وإنَّما يَنْسبُهُ إلى الطبيعةِ ويقولُ: هذا يرجعُ إلى المناخِ، فبلادُ أوروبا مثلاً كثيرةُ الأمطارِ نظرًا لمناخها وموقِعها الجغرافيِّ، وبلادُنا قليلةُ الأمطارِ نظرًا لمناخِها وموقعها الجغرافيِّ، فَيَنْسَى هذا الجاهلُ أو المُلْحِدُ أنْ هذا راجعٌ إلى قُدْرة اللهِ وحِكْمتِه، وأنَّه هو الذي يُنْزِلُه ويَحْبِسُهُ كما يشاءُ. ولمْ يَرَ هذا الجاهلُ أنَّ كثيرًا من بلاد أوروبا وإفريقيا الآنَ تشكو من الجفافِ، وقلَّةِ الأمطارِ، ولم يَنْفَعْها مناخُها ومَوْقِعُها الجغرافيُّ؛ لأنَّ اللهَ حَبَسَ المطرَ عنها، قالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفُرقان: ٥٠].

وبعضُ الناسِ يَنْسبُ نزولَ المطرِ إلى النُّجوم والطوالعِ، أو الانخفاضِ الجويِّ كما يُسَمُّونَه، ويَنْشُرونَ في بعضِ الصحفِ أنَّ هذا العامَ ستكْثُرُ الأمطارُ أو تَقِلُّ نظرًا لكذا وكذا، وهذا من الجرأةِ على اللهِ، وادِّعاءِ عِلْمِ الغيبِ والتَّشويشِ على العوامِّ الذينَ لا يَعْرفونَ كَذِبَهُم وتَخَرُّصَهُم، وفي مِثْلِ هؤلاءِ يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقِعَة: ٨٢] أي: بَدَلَ أنْ تَشْكُروا اللهَ

تعالَى على إنْزالِه المطرَ عليكُم «تُكَذِّبونَ» فَتَنْسِبونَ ذلكَ إلى غيرِه من الكواكبِ والمخلوقاتِ التي لا قُدْرةَ لها.

وفي الصحيحينِ عن زيدِ بنِ خالدٍ الجُهَني قالَ: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصبحِ بالحديبيةِ على أثرِ سماءٍ (أيْ نزولِ مطرٍ) كانَتْ من الليلِ، فلَمَّا انْصرفَ أقْبَلَ على الناسِ قالَ: «أتدرونَ ماذا قالَ ربُّكُم»؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعْلَمُ، قالَ: «**قالَ: أصْبحَ من عبادِي مُؤْمِنٌ بي وكافرٌ، فأمَّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِه فذلكَ مُؤْمِنٌ بي كافرٌ بالكواكبِ، وأمَّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلكَ كافرٌ بي مُؤْمِنٌ بالكواكبِ**»[1].

ومعنى الحديثِ: أنَّ مَنْ نَسَبَ المطرَ إلى اللهِ واعْتَقَدَ أنَّه أَنْزَلَه بفضلِه ورحمتِه من غيرِ استحقاقٍ من العبدِ على ربِّه، وأثْنَى على اللهِ بذلكَ فقالَ: «مُطِرْنا بفضلِ اللهِ ورحمتِه» فهذا مُؤْمِنٌ باللهِ شاكرٌ لنعمتِه كافرٌ بما سِواهُ.

وأمَّا مَنْ نَسَبَ نزولَ المطرِ إلى غيرِ اللهِ من الكواكبِ أو الطبيعةِ وتَغَيُّرِ المناخِ، فذلك كافرٌ باللهِ تعالَى مُؤْمِنٌ بغيرِه. فإذا اعْتَقَدَ أنَّ لغيرِ اللهِ تأثيرًا في إنزالِ المطرِ، فهذا كُفْرٌ أكْبَرُ؛ لأنَّه شِرْكٌ في الربوبيةِ والمُشْرِكُ كافرٌ. وإنْ لمْ يَعْتَقِدْ ذلك، وأضافَ المطرَ إلى السببِ، فهو من الشِّركِ الأصغرِ، والكُفْرِ الأصغرِ؛ لأنَّه نَسَبَ نِعْمةَ اللهِ إلى غيرِه، حيثُ نَسَبَ المطرَ إلى السببِ، والواجبُ نِسْبَتُه إلى الخالِقِ، فالواجبُ أنْ يَنسبَ نزولَ المطرِ وجميعَ النعمِ إلى اللهِ تعالى، قالَ تعالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: ٥٣]. وإنزالُ الغيثِ من أعظمِ نِعَمِ اللهِ وإحسانِه إلى عبادِه؛ لِمَا اشتملَ عليهِ من منافِعِهم، فلا يَسْتغنونَ عنه

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣)، ومسلم (٧١).

أبدًا، فيجبُ عليهم أنْ يشكُروه عليه، ومِنْ شُكرِه أنْ يُضِيفُوه إليهِ وحدَه ويَحْمَدوه عليه. فإنَّ النفوسَ مجبولةٌ على حُبِّ مَنْ أحْسَنَ إليها، واللهُ جلَّ وعلاَ هو المُحْسِنُ المطلقُ الذي يَجِبُ أنْ تُضَافَ إليه النِّعَمُ كلُّها، ويُشْكَر عليها وحدَه لا شريكَ له في ذلكَ.

عبادَ اللهِ: ومِنَ الناسِ في هذَا الزمانِ مَنْ يَسْتَغِلُّ وقتَ نزولِ الأمطارِ للنزهةِ والترفيهِ عن النَّفْسِ، فيخرجونَ إلى البراري والأوديةِ بعوائِلِهم ونسائِهم، فَيُسْرِفون في المآكلِ، ويُضَيِّعون الصلواتِ، ويُزَاوِلون أنواعًا من الملاهي بالأغاني والدفوفِ والمزاميرِ، ورُبَّما يَشْربونَ المسكراتِ، ويَتَعاطونَ المخدراتِ، ويَخْتَلِطُ الرجالُ بالنساءِ، وتحصلُ أنواعٌ من المفاسدِ والمعاصي والفسوقِ، ويُقَابِلون نعمةَ اللهِ بِكُفْرِها، ويَسْتَغِلُّونَها في مَعاصِيهِ.

فاتقوا اللهَ، يا مَنْ تَفْعلونَ ذلك، واحْذَروا أنْ يُصِيبَكُم ما أخْبرَ به النبيُّ ﷺ في الحديثِ الذي رواهُ عبدُ اللهِ بنُ الإمام أحمدَ عَنْ عُبادةَ بنِ الصامتِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ عَنْ رسولِ اللهِ قالَ: **«والذي نَفْسِي بيدِه ليَبِيتَنَّ أُناسٌ من أُمَّتي على أَشَرٍ وبَطَرٍ ولَعِبٍ ولَهْوٍ، فَيُصْبِحوا قردةً وخنازيرَ باسْتِحْلالِهِم المحارمَ، واتِّخَاذِهم القيناتِ، وشُربِهِم الخمرَ، وبأكْلِهِم الرِّبا، ولُبْسِهِم الحريرَ»**[1]. وورَدتْ بِمَعْناهُ أحاديثُ أُخَرُ.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، إنَّ الخروجَ إلى البرِّ للفُسْحةِ ومشاهدةِ السيولِ، مع المحافظةِ على طاعةِ اللهِ، والابتعادِ عن فِعْلِ المحرماتِ ـ أمْرٌ لا بأْسَ به، ولكنْ قليلٌ من الناسِ مَنْ يَتَقَيَّدُ بذلكَ، فاتَّقُوا اللهَ في أنْفُسِكُم، واحْذَروا أنْ تكُونوا مِمَّنَ

---

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على مسند أبيه (٢٢٢٨٤).

قالَ اللهُ فيهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

بارِكَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في التَّحذيرِ من الشِّرْكِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يُوسُف: ٤٠]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يُونس: ١٨]، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، بَعَثَهُ اللهُ بالدعوةِ إلى التوحيدِ، والتحذيرِ من الشركِ، فجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، وبلَّغَ رسالةَ ربِّه، وأكْمَل اللهُ به الدينَ، وأتَمَّ به النعمةَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، ومَنْ سَلَكَ سبيلَهُم، وسارَ على نَهْجِهِم إلى يومِ الدينِ، وسلَّم تسليمًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، وافْعَلوا ما أَمَرَكُم به، واجْتَنِبوا ما نَهَاكُم عنه، واعْلَموا أنَّ أعظمَ ما أَمَرَكُم اللهُ به هو التوحيدُ، وهو إخلاصُ العبادةِ للهِ وحدَه لا شريك له الذي خُلِقْتُم من أجْلِه؛ قالَ تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّاريَات: ٥٦]. والمصلحةُ في ذلكَ راجعةٌ إليكم، فأنتم بحاجةٍ إلى عبادةِ اللهِ؛ لتنالوا بها رحمةَ اللهِ، وتَنْجُوا من عذابِه، فاللهُ أَمَرَكُم بعبادتِه لمَصْلحتِكُم أنتم، أمَّا هو سبحانَه فهو غنيٌّ عن عبادتِكُم؛ قالَ تعالَى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

وأعْظَمُ ما نَهَاكُم عنه هو الشركُ، وهو جَعْلُ شيءٍ من العبادةِ لغيرِ اللهِ تعالَى، كالدعاءِ والذبحِ والنَّذْرِ والخوفِ والرجاءِ والرغبةِ والرهبةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المَائدة: ٧٢]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: ٤٨].

والشِّرْكُ نوعانِ:

شرْكٌ أكْبَرُ يُخْرِجُ من المِلَّةِ، ويكونُ صاحِبُه في الدنيا حلالَ الدمِ والمالِ، إلاَّ إذا كانَ له عهدٌ من المسلمينَ، وفي الآخرةِ يكونُ خالدًا مخلدًا في نارِ جهنَّم، فقد حَرَمَهُ اللهُ من جنَّتِه، وطَرَدَهُ من مَغْفِرَتِه ورحمتِه. وهذا الشركُ يحصلُ ويتحقَّقُ إذا وَجَّهَ العبدُ شيئًا من العبادةِ لغيرِ اللهِ؛ كأن يَدْعُو الأمواتَ والجنَّ والشياطينَ، لقضاءِ حاجاتِه وتفريجِ كُرُباتِه، أو يَذْبح لهم لشفاءِ مرضِه، أو لدَفْعِ شرِّهِم عنه.

ومن ذلكَ ما يحصلُ اليومَ عندَ قبورِ الأولياءِ والصالحينَ، حيثُ أَصبحتْ تلكَ القبورُ أوثاناً تُعْبَدُ من دونِ اللهِ في كثيرٍ من البلادِ، كما فَعَلَ قومُ نوحٍ غُلُوًّا في الصالحينَ ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نُوح: ٢٣]. ففي صحيح البخاريِّ عَنْ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ أنَّ هؤلاءِ المذكورينَ في هذِه الآيةِ هم رجالٌ صالحونَ من قومِ نوحٍ، فلمَّا هَلَكُوا أوْحَى الشيطانُ إلى قومِهِم أنِ انْصبوا إلى مجالسِهِم التي كانوا يجلسونَ فيها أنصابا، وسَمُّوها بأسْمائِهِم، فَفَعَلوا، ولم تُعْبَدْ حتى إذا هَلَكَ أولئكَ ونُسي العلم عُبدتْ[1]. ورَوَى ابنُ جريرٍ ـ رحِمَهُ اللهُ ـ عَنْ محمدِ بنِ قيسٍ: أنَّ يغوثَ، ويعوقَ، ونسرًا ـ كانوا قومًا صالحينَ من بني آدمَ، وكانَ لهم أتباعٌ يَقْتَدونَ بهم، فلمَّا ماتوا قالَ أصحابُهُم: لو صَوَّرْناهُم كان أشوقَ لنا إلى العبادةِ، فصوروهم، فلمَّا ماتوا ـ أيْ ماتَ هؤلاءِ المصوَّرون ـ وجاءَ آخرونَ دَبَّ إليهم إبليسُ فقال: إنَّما كانوا يَعْبُدُونَهُم وبهم يُسْقَوْنَ المطرَ، فعبدوهُم[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢) من حديث ابن عباس.

(٢) تفسير الطبري (٢٩/٩٩).

عبادَ اللهِ: هذا الذي كانَ من قومِ نوحٍ من عبادةِ الأمواتِ هو الذي يحصلُ اليومَ من عُبّادِ القبورِ في كثيرٍ من البلادِ، وهم يدّعونَ الإسلامَ.

النوع الثاني من أنواعِ الشركِ: الشركُ الأصغرُ؛ كالرياءِ، والحلفِ بغيرِ اللهِ، وقَوْلِ: «ما شاءَ اللهُ وشاءَ فلانٌ» «لولا اللهُ وأنتَ ما حصلَ كذا»، وما أشْبَه ذلك. وهذا النوعُ لا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ، ولكنَّه خطيرٌ، وإثْمُهُ عظيمٌ، وقد يَجُرُّ إلى الشركِ الأكبر.

عبادَ اللهِ: إذا كانَ الشركُ بهذه الخطورةِ فإنَّه يَجِبُ على المسلمِ أنْ يعرِفَه ليجْتَنِبَه؛ وذلكَ بأنْ يتعلَّمَ العقيدةَ الصحيحةَ، ويعرفَ ما يُضَادُّها من الشركِ الأكبرِ، أو ينقصُها من الشركِ الأصغرِ؛ فإنَّ مَنْ لا يعرفُ الشَّرَّ يوشكُ أنْ يقعَ فيه، وقد قالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ: يوشكُ أنْ تُنْقَضَ عُرى الإسلامِ عروةً عروةً إذا نَشَأَ في الإسلامِ مَنْ لا يعرفُ الجاهليةَ. وكانَ حذيفةُ بنُ اليمانِ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ يقولُ: كانَ الناسُ يسألونَ رسولَ اللهِ ﷺ عن الخيرِ، وكُنْتُ أسْأَلُه عن الشرِّ مخافةَ أنْ أقَعَ فيه[1].

وكيفَ لا يخافُ الإنسانُ من الوقوعِ في الشركِ، وقد خافَ من ذلكَ إبراهيمُ الخليلُ حينَ قالَ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦]. مَعَ أنَّه عليه السلامُ كَسَّرَ الأصنامَ بيدِه، لكنَّه خَشِيَ من الفتنةِ، والمؤمنُ لا يُزَكِّي نَفْسَهُ، ولا يأْمَن الفتنةَ، فهو بحاجةٍ إلى أنْ يُثَبِّتَه اللهُ على الحقِّ.

وكيفَ لا يخافُ الإنسانُ من الوقوعِ في الشركِ، ونبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦، ٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧).

يقولُ لأصحابِه: «**إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ!**». قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**الرياءُ. يقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ إذا جَازَى الناسَ بأعمالِهم: اذهبوا إلى الذينَ كنتم تُراؤونَ في الدنيا، فانْظُروا هَلْ تجدونَ عندهم جزاءً**»[١]، رواهُ الإمامُ أحمدُ.

وقالَ الشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ حسنٍ ـ رحمه الله ـ: فإذا كانَ الشركُ الأصغرُ مَخُوفًا على أصحابِ رسول الله ﷺ مَعَ كمالِ عِلْمِهِم، وقوَّةِ إيمانِهم، فكيفَ لا يخافُه وما فوقَه مَنْ هو دونَهُم في العِلْمِ والإيمانِ بمراتبَ؟! خصوصًا إذا عُرِفَ أنَّ أكثرَ علماءِ الأمصارِ اليومَ لا يَعْرفونَ من التوحيدِ إلاَّ ما أقرَّ به المشركونَ، وما عَرَفُوا مَعْنى الإلهيةِ التي نَفَتْها كلمةُ الإخلاصِ عن كلِّ ما سِوى اللهِ.

عبادَ اللهِ، كيفَ لا نخافُ من الشركِ؟ وأكْثَرُنا لا يَدْري ما هو الشركُ وما هي أنواعُه، حتى صارَ بعضُ الجُهَّالِ أو المتساهلينَ في عقيدتِهم يتعالجونَ من الأمراضِ عندَ الدجالينَ والمشعوذينَ والسحرةِ، ورُبَّما يأمُرُونَهم بارتكابِ الشركِ فيفعلونَ ذلكَ؛ كالذبحِ للجنِّ، والنَّذْرِ للقبرِ الفلانِيِّ، ولبْسِ الحلقةِ والخيطِ والطلاسِم. والبعضُ الآخرُ يَذْهبُ إلى الكهانِ والعرافينَ؛ ليسألَهُم عن المغيباتِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَتَى عرَّافًا فَسَأَلَه عن شيءٍ فَصَدَّقَه بما يقولُ، لمْ تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعينَ يومًا**»[٢]، رواهُ مسلمٌ. وقالَ ﷺ: «**مَنْ أَتَى كاهِنًا فَصَدَّقَه بما يقولُ فقد كَفَرَ بما أُنزِلَ على محمدٍ ﷺ**»[٣]، رواهُ أحمدُ، وأبو داودَ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣١١٩، ٢٧٧٤٢) من حديث محمد بن لبيد.

(٢) صحيح مسلم (٢٢٣) من حديث صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٩٠٣٥) وأبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) وابن ماجه (٦٣٩) من حديث أبي هريرة.

والترمذيُّ، وابنُ ماجه.

كيفَ لا نخافُ من الوقوعِ في الشركِ؟! وكثيرٌ مِمَّنْ ينتسبونَ إلى الإسلامِ اليومَ قد وَقَعوا فيهِ، ومارَسُوهُ بجميعِ أنواعِه عندَ القبورِ والمَشَاهِدِ التي بُنِيتْ في كثيرٍ من الأمصارِ، قد شُيِّدتْ عليها القبابُ، وأُرخِيَتْ عليها السُّتورُ، ووُضِعَتْ عندها الصناديقُ لجمعِ النذورِ، وهُيِّئَتْ للطوافِ بها والتمسُّحِ بأركانِها، وطَلَبِ المَدَدِ من سُكَّانِها، واتِّخاذِهِم وسائِطَ عندَ اللهِ، كما قالَ إخوانُهُم من المشركينَ الأولينَ: ﴿مَانَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣].

وفي الصحيحينِ عَنْ عائشةَ ـ رضيَ اللهُ عنها ـ: أنَّ أمَّ سلمةَ ـ رضيَ اللهُ عنها ـ ذَكَرَتْ للنبيِّ ﷺ كنيسةً رأَتْها بأرضِ الحبشةِ وما فيها من الصُّوَرِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «أولئكَ إذا ماتَ فيهم الرجلُ الصالحُ أو العبدُ الصالحُ بَنوا على قبرِهِ مسجدًا، وصَوَّروا فيه تلكَ الصُّورِ، أولئكَ شرارُ الخَلْقِ عندَ اللهِ»[1]. قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ ـ رحمه الله ـ: فهؤلاءِ جَمَعوا بينَ فتنتينِ: فتنة القبورِ، وفتنة التماثيلِ. وقالَ ـ رحمه الله ـ: فإنَّ الشركَ بقبرِ الرجلِ الذي يُعْتَقَدُ صلاحُه أقْرَبُ إلى النفوسِ من الشركِ بِخَشَبَةٍ أو حَجَرٍ؛ ولهذا تَجدُ أهلَ الشركِ يَتَضَرَّعونَ عندها، ويَخْشَعونَ، ويَخْضَعون، ويَعْبُدون بقلوبِهم عبادةً لا يَفْعَلُونَها في بيوتِ اللهِ، ولا وقْتَ السَّحَرِ، ومنهم مَنْ يَسْجُدُ لها، وأَكْثَرُهُم يَرْجُونَ من بركةِ الصلاةِ عندها والدعاءِ ما لا يَرْجُونَه في المساجدِ. انتهى.

فاتَّقُوا الله، عبادَ اللهِ، واسْأَلُوهُ أنْ يُوَفِّقَكُم لمعرفةِ الحقِّ، والعَمَلِ به، والثَّباتِ عليه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عِمرَان: ٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨) عن أم حبيبة وأم سلمة.

في التّذكيرِ بنعمةِ الأمنِ

الحمدُ للهِ الذي مَنَّ علينا بنعمةِ الإيمانِ، والأمنِ في الأوطانِ، والصحةِ في الأبدانِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، كُلَّ يومٍ هو في شَأْنٍ، وأشهدُ انَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِه، ومن تَبِعَهُم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليمًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناس، اتَّقُوا اللهَ، واشْكُروه على ما مَنَّ به عليكُم مِنَ الأمْنِ في أوطانِكُم والسعةِ في أرزاقِكُم، بينَما يُتَخَطَّفُ الناسُ من حولِكُم وتُهَدِّدُهُم المجاعاتُ، واعْلَموا أنَّكُم إذا لمْ تَشْكُروا هذِه النعمةَ وتُقَيِّدُوها بالطاعةِ، فإنَّها تُسْلَبُ سريعًا، وتَحِلُّ محلَّها النقمةُ، فَيَحلُّ الخوفُ محلَّ الأمنِ، ويَحلُّ الجوعُ محلَّ الرِّزْقِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النّحل: ١١٢].

وقد قصَّ اللهُ عليكُم في كتابِه الكريمِ ما عَاقَبَ به الأُمَمَ السابقةَ لمَّا كَفرَتْ بنِعَمِهِ؛ فقالَ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفَجر: ٦ ـ ١٤]، وقال تعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ

مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سَبَأ: ١٥ـ١٧].

قالَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ ـ رحمه اللهُ ـ: كانتْ سبأُ ملوكَ اليمنِ وأَهْلها، وكانتْ التبابعةُ منهم، وبلقيسُ صاحبةُ سليمانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ من جُمْلَتِهِم، وكانوا في نعمةٍ وغِبطةٍ في بلادِهِم وعيشِهِم واتساعِ أرْزاقِهِم، وزروعِهِم وثمارِهِم، وبعثَ اللهُ تباركَ وتعالَى إليهم الرُّسُلَ تأمُرُهُم أنْ يأكُلوا من رِزْقِهِ، ويَشْكُرُوه بتوحيدِه وعبادتِه، فكانوا كذلكَ ما شاءَ اللهُ تعالَى، ثُمَّ أعْرَضُوا عمَّا أُمِرُوا به، فَعُوقِبُوا بإرسالِ السَّيْلِ، والتَّفَرُّقِ في البلادِ أيدي سبأ، شَذَرَ مَذَرَ.

وقالَ في تفسير قولِه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سَبَأ: ١٨، ١٩]: يَذْكُرُ تَعالَى ما كانوا فيه من النعمةِ والغبطةِ والعيشِ الهنيءِ الرغيدِ والبلادِ المُرْضِيَةِ والأماكِنِ الآمنةِ، والقرى المتواصلةِ المتقاربةِ بعضها مِنْ بعضٍ، مَعَ كثرةِ أشجارِها وزُروعِها وثمارِها، بحيثُ إنَّ مسافِرَهُم لا يحتاجُ إلى حَمْلِ زادٍ ولا ماءٍ، بلْ حيثُ نَزَلَ وجَدَ ماءً وثمرًا، وَيقِيلُ في قريةٍ ويبيتُ في أُخرى، بمقدارِ ما يحتاجونَ إليهِ في سَيْرِهِم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وذلكَ أَنَّهم بَطَرُوا هذه النعمةَ، وأَحَبُّوا مفاوِزَ ومَهَامِهَ يَحْتاجونَ في قَطْعِها إلى الزَّادِ، والرواحلِ، والسَّيْرِ والمخاوفِ ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أيْ: بِكُفْرِهِم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾. أيْ: جَعَلْناهُم حديثًا للناسِ وسَمَرًا، يتحدثونَ عن خَبَرِهِم، وكيفَ مَكَرَ اللهُ بهم، وفرَّقَ شَمْلَهُم بعدَ الاجتماعِ والأُلفَةِ، والعيشِ الهَنِيءِ، تفَرَّقوا في البلادِ ههنا وههنا.

عبادَ اللهِ: قارِنوا بينَ حالِنا اليومَ في هذِه البلادِ، وما نَنْعَمُ به من الأَمْنِ،

والرِّزْقِ، والراحةِ، وسهولةِ الأسفارِ، وتقارُبِ الأقطارِ، قارِنوا بينَ ذلكَ وبينَ ما قَصَّ اللهُ من حالِ هؤلاءِ، واخْشوا أنْ يَحِلَّ بنا مِثْلُ ما حَلَّ بهم إنْ لمْ نَشْكُرْ نعمةَ اللهِ ونَبْتَعِدْ عن معصيتِه، وأنتم تَسْمَعونَ ما يَحِلُّ بالأُمَمِ المجاورةِ لكم من النكباتِ، والكوارثِ، والفقرِ، والجوعِ، والتشريدِ، والجلاءِ عن الديارِ، وهلاكِ الأنْفُسِ، وتلفِ الأموالِ، وما يحصلُ في تلكَ البلادِ من الترويعِ، والإرهابِ، والتخريبِ، والاغتيالاتِ، والاختطافِ، وتفجيرِ القنابلِ المُرَوِّعةِ التي تهدِمُ المباني المشيدةَ، وتُهْلِكُ النفوسَ الكثيرةَ، وتُلْحِقُ الأضرارَ البالغةَ ـ بالجراحاتِ والتَّشْويهِ ـ بالمصابينَ الذينَ يَبْقونَ على قيدِ الحياةِ، وما يَتْبَعُ ذلكَ من نَهْبِ الأموالِ، وقَطْعِ الطُّرُقِ ونَشْرِ المخاوفِ، كلُّ ذلكَ يَجْري من حولِكم، وأنتم تَنْعَمونَ بالأمْنِ والاستقرارِ، وسعةِ الأرزاقِ، تحتَ ظلِّ الإسلامِ، وعقيدةِ التوحيدِ.

إنَّنا لم نحصلْ على هذِه النعمِ بحولِنا وقوَّتِنا، بلْ نحنُ أضعفُ الأُمَمِ حولاً وقوةً؛ وإنما حَصَلْنا على هذِه النعمِ بفضلِ اللهِ وحدَه، ثم بالتَّمَسُّكِ بدينِ الإسلامِ عقيدةً وشريعةً، حيثُ وَعَدَ اللهُ بذلكَ مَنْ تَمَسَّكَ بدينِه، وحَكَمَ بِشَريعتِه، وأَخْلَص العبادةَ له وحدَه؛ قالَ تعالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور: ٥٥].

لقد كانتْ هذِه البلادُ كما يُحَدِّثُنا التاريخُ مسرحًا للفتنِ والحروبِ والنهبِ والسلبِ، حتى منَّ اللهُ على أهْلِها بظهورِ دعوةِ التوحيدِ على يدِ الشيخِ الإمامِ المجَدِّدِ محمدِ بنِ عبدِالوهابِ عليهِ رحمةُ اللهِ ورضوانُه، وبقيامِ الحُكمِ بشريعةِ اللهِ على أَيْدي القادةِ الحكامِ من آلِ سعودٍ أيَّدَهُم اللهُ بنصْرِه وتوفيقِه، حتى

أصبحتْ هذِه البلادُ ولا تزالُ ـ ولله الحمدُ ـ مَضْرِبَ المَثَلِ في الأمنِ والاستقرارِ، مِمَّا لم تَظْفَرْ به أمةٌ من الأممِ التي تَمْلِكُ السلاحَ، والقوَّةَ الفتاكةَ، ولا تزالُ هذِه البلادُ ـ بحولِ اللهِ ـ بخير وأمانٍ مادامتْ مُتَمَسِّكَةً بعقيدةِ التوحيدِ، ومُحَكِّمَةً لشريعةِ اللهِ.

ولكنَّ الذي نَخْشاهُ أنْ يُغَيِّرَ أَهْلُها ما هم عليهِ من الدينِ، ويَكْفُروا نعمةَ اللهِ، فيُغَيِّرُ اللهُ عليهِم نِعْمَتَه، كما قالَ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفَال: ٥٣]. ولقد ظَهَرتْ فينا بوادرُ الشَّرِّ وكفران النعمةِ؛ من تَضْييعِ الصلاةِ وفِعْلِ المُحَرَّماتِ في أولادِنا وجيرانِنا، فكثيرٌ من البيوتِ تَمْتَلِئ بالرجالِ الذينَ لا يَشْهدُون الصلاةَ في المساجدِ، ومنهم مَنْ يَتْرُكُ الصلاةَ بالكليةِ، وهناكَ بيوتٌ تَمْتَلِئ بآلاتِ اللَّهْوِ والأفلامِ الخليعةِ، وتَرْتَفِعُ فيها أصواتُ المطربينَ والمطرباتِ بالأغاني الخليعةِ والأصواتِ الفاجرةِ، وهناكَ أناسٌ كثيرونَ تَسَاهَلوا في أمْرِ نِسائِهم ومَحَارِمِهم، فَتَركُوهُنَّ يَخْرُجْنَ للأسواقِ قُطْعانًا، وهناكَ مَنْ جَلَبوا إلى بلادِ المسلمينَ قُطْعَانًا من الرجالِ والنساءِ الأجانبِ، وأَدْخَلُوهم في بيوتِهم، وخَلَطُوهُم مَعَ عوائِلِهم باسمِ خادمينَ وخادمات، ومُربينَ وسائقينَ، وقد يكونُ كثيرٌ من هؤلاء المجلوبينَ كفرةً وملاحدةً، جاءُوا لإفسادِ عقائِد المسلمينَ وأخلاقِهِمْ، وتدميرِ بيوتِهِم، وكلُّ هذِه التصرفاتِ المنكرةِ التي حَدَثَتْ في بلادِنا مؤذنةٌ بزوالِ تلكَ النعمِ، إنْ لمْ نَتَدَارَكْ أمْرَنا، ونأْخُذْ على أيْدِي سُفَهائِنا بجدٍّ وحزمٍ.

ولنَسْتَمِعْ إلى قولِ اللهِ تعالَى، أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسرَاء: ١٦، ١٧].

في الحثِّ على ذِكْرِ اللهِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمَرَنا بِذِكْرِهِ، وَوَعَدَ الذاكرينَ اللهَ كثيرًا والذاكراتِ مغفرةً وأجرًا عظيمًا، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، كانَ يَذْكُرُ اللهَ على كلِّ أَحْيانِه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليمًا.

أمَّا بَعْدُ: أيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَى، واعْلَموا أنَّ اللهَ أَمَرَكُم أنْ تَذْكُرُوهُ ذِكْرًا كثيرًا، وتُسَبِّحُوهُ بكرةً وأصيلاً؛ لأنَّ ذِكْرَ اللهِ تَطْمَئِنُّ به القلوبُ؛ قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد: ٢٨]. وأَخْبَرَ أنَّ الإكثارَ من ذِكْرِهِ سببٌ للفلاحِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]. كما أخْبَرَ أنَّ الذي يُلْهِيهِ مالُه وولدُه عن ذِكْرِ اللهِ يكونُ خاسرًا في الدنيا والآخرةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافِقون: ٩] فَحَكَم عليهم بالخسرانِ مَعَ أنَّهم يَظُنُّونَ أنَّهم قد رَبِحوا الأموالَ والأولادَ.

وذِكْرُ اللهِ تعالَى يَجْمَعُ للعبدِ خيري الدنيا والآخرةِ، ويُعِينُهُ على مشاقِّ الحياةِ، وعلى تحصيلِ الطاعاتِ؛ فقد أَتَى إلى النبيِّ رَجُلٌ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ شرائعَ الإسلامِ قد كَثُرتْ عليَّ، فبابٌ نَتَمسَّكُ به جامعٌ، قالَ: **«لا يزالُ لسانُكَ رطبًا من ذِكْرِ اللهِ»**[1]. رواهُ الإمامُ أحمدُ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٢٧) والترمذي (٣٣٧٥) وابن ماجه (٣٧٩٣) من حديث عبد الله بن بسر.

والإكثارُ من ذِكْرِ اللهِ براءةٌ من النفاقِ؛ لأنَّ اللهَ وصفَ المنافقينَ بأنَّهم لا يَذْكُرون اللهَ إلاَّ قليلاً. قالَ بعضُ السلفِ: علامةُ حُبِّ اللهِ كثرةُ ذِكْرِهِ، فإنَّك لن تُحِبَّ شيئًا إلا أكْثَرْتَ من ذِكْرِهِ. وقد ذَكَرتْ عائشةُ ـ رضيِ اللهُ عنها ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَذْكُرُ اللهَ على كلِّ أحيانِه(١). تَعْنِي في حالِ قيامِه، ومَشْيِهِ، وقعودِه، واضطجاعِه. وقد وصفَ اللهُ المؤمنينَ بذلكَ فقالَ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١].

وقد فرضَ اللهُ على المسلمين أنْ يَذْكُروه كلَّ يومٍ وليلةٍ خَمْسَ مراتٍ، بإقامةِ الصلواتِ الخَمْسِ في مواقيتِها المُؤَقَّتَةِ، وشَرَعَ لهم معَ هذِه الفرائضِ الخَمْسِ أنْ يَذْكُروه ذِكْرًا يكونُ لهم نافلةً ـ أي زيادة على الفرض ـ هو نوعانِ:

أحدهما: من جِنْسِ الصلاةِ، حيثُ شَرَعَ لهم أنْ يُصَلُّوا مع الصلواتِ الخمسِ قَبْلَها أو بَعْدَها، سننًا تكونُ زيادةً على صلاةِ الفريضةِ. فإنْ كانَ في الفريضةِ نَقْصٌ جُبِرَ بهذِه النوافلِ، وإلاَّ كانتِ النوافلُ زيادةً على الفرائضِ. ولمَّا كانَ بينَ صلاةِ العشاءِ وصلاةِ الفجرِ، وبينَ صلاةِ الفجرِ وصلاةِ الظهرِ، وقتٌ طويلٌ ليسَ فيهِ صلاةٌ مفروضةٌ، شَرَعَ بينَ العشاءِ وصلاةِ الفجرِ صلاةَ الوِتْرِ، وقيامُ الليلِ، وشَرَعَ بينَ صلاةِ الفجرِ وصلاةِ الظهرِ صلاةَ الضُّحى.

والثاني: أنه سبحانه شَرَعَ لهم أنْ يذْكُروه باللسانِ: بالتهليلِ، والتكبيرِ، والتسبيحِ، والتحميدِ، في جميعِ الأوقاتِ، ويتأكَّدُ عقيبَ الصلواتِ المفروضاتِ بالأذكارِ الواردةِ عن النبيِّ ﷺ بعد السلامِ، ويتأكَّدُ أيضاً ذِكرُ اللهِ باللسانِ بعد الصلاتينِ اللَّتَيْنِ لا تطوُّعَ بعدَهُما، وهما الفجرُ والعصرُ، فيُشرَعُ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧٣)، وعلقه البخاري في صحيحه في كتاب الحيض، باب: تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت.

الذِّكرُ بعدَ صلاةِ الفجرِ إلى أنْ تطلعَ الشمسُ، وبعدَ صلاةِ العصرِ حتى تَغْرُبَ الشمسُ، وهذانِ الوقتانِ هما أفضلُ أوقاتِ النهارِ للذِّكْرِ، وقد أَمَرَ اللهُ بِذِكرِهِ فيهما في آياتٍ كثيرةٍ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢] ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١] ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩] ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: ١٧].

ثم بعدَ هذينِ الوقتينِ يَذكُرُ العبْدُ اللهَ في سائِرِ ساعاتِ الليلِ والنهارِ بالذِّكرِ المطلقِ، ويدخلُ فيه الصلواتُ النوافلُ، وتِلاوةُ القرآنِ، وتعَلُّمُهُ، وتعليمُهُ، وتعليمُ العِلْمِ النافعِ، ويدخلُ فيه التسبيحُ، والتكبيرُ، والتهليلُ. وإذا أرادَ أنْ ينامَ فإنَّه يُستَحَبُّ له أنْ ينامَ على طهارةٍ، ويأتِي بما قدَرَ عليه من الأذكارِ الواردةِ عن النبيِّ ﷺ عندَ النومِ، ثم ينامُ على ذلكَ. وإذا استيقَظَ، وتقلَّبَ في فراشِه ذكَرَ اللهَ كُلَّما تَقَلَّبَ؛ ففي صحيحِ البخاريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**مَنْ تعَارَّ من الليلِ فقالَ: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ، ثم قالَ: اللهُمَّ اغفِرْ لي ـ أو قالَ: ثم دَعَا ـ اسْتُجيبَ له، فإنْ عزَمَ فتوضَّأَ، ثم صَلَّى قُبلتْ صلاتُه**»[(١)]، ثم إذا استيقظَ من نومِه، وانتَهى منه، فإنَّه يبدأُ يَوْمَه وتحرُّكَه للقيامِ بذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فقد ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ إذا استيقظَ من منامِه يقولُ: «**الحمدُ للهِ الذي أحْياني بعدَ ما أَمَاتَنِي، وإليهِ النشورُ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٤، ٧٣٩٤) من حديث حذيفة. وفي (٦٣٢٥، =

وينْبَغِي للمسلمِ أنْ يستيقظَ مُبَكِّراً، ويُصَلِّيَ من آخرِ الليلِ ما تيسَّرَ له، ويختِمَ صلاتَه بالوِتْرِ قبلَ طلوعِ الفجرِ، ثم يشتغِلَ بالاستغفارِ في السَّحَرِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانَه مَدَحَ المُستَغْفِرينَ بالأسحارِ. وإذا طلعَ الفجرُ، صلَّى راتبةَ الفجرِ ركعتينِ، ثم صلَّى الفجْرَ، واشتغلَ بعدَ صلاةِ الفجرِ بالذِّكرِ إلى أنْ تطلعَ الشمسُ. ثم إذا ارتفعتْ قيدَ رمحٍ صلَّى ركعتينِ. فمَنْ داومَ على هذه الحالةِ لمْ يزلْ لسانُه رطباً من ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وكانَ من الذاكرينَ اللهَ كثيراً الذينَ وَعَدَهُم اللهُ بالمغفرةِ، والأجرِ العظيمِ، والفلاحِ في الدنيا والآخرةِ.

عبادَ اللهِ: إنَّ الإكثارَ من ذِكْرِ اللهِ يُوجبُ خشيةَ القلوبِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقالَ تعالَى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥] وفي الحديثِ أنَّ من السبعةِ الذينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: رجلاً ذَكَرَ اللهُ خالياً، ففاضَتْ عيناهُ.

وذِكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُورثُ الطُّمأْنينةَ في القلبِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]. وذِكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ يُقَوِّي المجاهدينَ عندَ اللقاءِ، ويُورثُ النصرَ على الأعداءِ؛ قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

وذِكرُ اللهِ تعالَى يَطرُدُ الشيطانَ عن الإنسانِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ

٧٣٩٥) من حديث أبي ذر. ومسلم (٢٧١١) من حديث البراء.

مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠، ٢٠١]. وعن ابنِ عباسٍ في تفسيرِ قولهِ تعالَى: ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾ [الناس: ٤]. قالَ: الشيطانُ جاثمٌ على قلبِ ابنِ آدمَ، فإذا سَهَا وغَفلَ، وسْوَسَ، فإذا ذكَرَ اللهَ خَنَسَ.

فاتَّقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، ولازِمُوا ذِكْرَ اللهِ بالقلبِ، واللسانِ، والجوارح، تَسْعَدوا به في الدنيا والآخرةِ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: ١٩].

أقولُ قَوْلِي هذا، وأستغفرُ اللهَ لي ولكم..

* * *

في التحذيرِ من اتِّباعِ الهَوَى

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خَلَقَنا، ورَزَقَنا، ولمْ يَتْرُكْنا هملاً، بلْ أرْسَلَ إلينا رسولاً يدُلُّنا على طريقِ الخيرِ، وينهَانا عن طريقِ الشَّرِّ، وأَمَرَنا بطاعتِه واتِّبَاعِه، لنحصلَ على سعادةِ الدنيا والآخرةِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِه وأصحابِهِ، وكلِّ من اتَّبَعَه، وتَمَسَّكَ بسنته إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا.

أمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى: واعلَموا أنَّكم لمْ تُخلَقوا عبثاً، ولن تُتركُوا سُدىً، بل تُحصَىٰ عليكم أعمالُكمُ، وأقوالُكُم في كتابٍ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحْصَاها، ثم تُحَاسَبونَ عنها يومَ القيامةِ، وتُجَازَونَ بها «**فَمَنْ وَجَدَ خيراً فليحمدِ اللهَ، ومَنْ وَجَدَ شرًّا فلا يَلُومَنَّ إلاَّ نفسَه**». ثم إنَّ الإنسانَ في هذِه الحياةِ يَهْوى بقلبِه، ويُحِبُّ ولا بُدَّ. فإنْ كانَ يَهْوَى الخيرَ، ويُحِبُّ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ وترتاحُ له نفسُه، ويُبغِضُ الشرورَ والمعاصيِ، فهذا هو المؤمنُ. وإنْ كانَ يَهْوى الشرورَ والمعاصي ويَكْرَهُ ما جاءَ به النبيُّ ﷺ فهذا هو الكافرُ أو المنافقُ؛ ففي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يكونَ هواهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**»[١]. قالَ الإمامُ النوويُّ ـ رحمهُ اللهُ ـ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، رويناهُ في كتابِ الحُجَّةِ بإسنادٍ صحيحٍ. وقد ورَدَ في القرآنِ الكريمِ آياتٌ تدلُّ على هذا: قالَ تعالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقالَ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩]، وقالَ تعالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾﴾ [محمد: ٢٧ ـ ٢٩].

فالواجبُ على كلِّ مُؤمنٍ أنْ يُحِبَّ ما أَحَبَّ اللهُ محبةً تُوجِبُ له الإتيانَ بما وَجَبَ عليه منه، وإنْ زادَتِ المحبةُ حتى أَتَى بما يُسْتَحَبُّ منه كانَ ذلكَ فضلاً وزيادةَ خيرٍ. ويَجِبُ على المؤمنِ أنْ يَكْرَهَ ما يَكْرَهُهُ اللهُ كراهةً تُوجِبُ له الكفَّ عمَّا حَرَّمَ اللهُ عليهِ منه، وإنْ زادتِ الكراهةُ حتى تَرَكَ ما يَنْبغي تَرْكُه تنزيهاً كانَ ذلكَ فضلاً.

ومحبةُ الطاعاتِ والإتيانُ بها وبُغضُ المُحرَّماتِ، والابتعادُ عنها ـ دليلٌ على محبَّةِ اللهِ ورسولِه، ودليلٌ على متابعةِ الرسولِ ﷺ؛ فقد قالَ تعالَى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]. وقد ثَبَتَ في الصحيحينِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتى أكونَ أَحَبَّ إليهِ من نفسِهِ، وولدِه، وأهلِهِ والناسِ أجمعينَ»[(١)]. فلا يكونُ المؤمنُ مؤمناً حتى يقدمَ محبةَ الرسولِ على محبةِ جميعِ الخَلقِ، ومحبةُ الرسولِ تابعةٌ لمحبةِ اللهِ، ومَنْ أَحَبَّ اللهَ ورسولَه حقًّا قدَّمَ طاعَتَهُما على هَوَى نفسِهِ،

---

(١) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك.

وملذّاتِها من الأموالِ، والأولادِ، والأوطانِ، إذا كانتْ هذِه الأشياءُ تتعارضُ معَ محبةِ اللهِ ورسولِه؛ قالَ تعالَى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤].

ولذلكَ تَرَكَ المهاجرونَ أوطانَهُم، وأموالَهُم، لَمَّا كانَ البقاءُ فيها يتعارضُ معَ طاعةِ اللهِ ورسولِه؛ قالَ تعالَى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر: ٨]. فنالُوا رِضَا اللهِ تعالَى بسببِ ذلكَ، وعوَّضَهُم خيراً مِمَّا تَرَكُوا؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩].

ومَنْ آثرَ محبَّةَ اللهِ على هَوى نفسِه فقدَّمَ ما يُحِبُّهُ اللهُ على ما يُحِبُّهُ هو، فقد وجدَ حلاوةَ الإيمانِ؛ ففي الصحيحينِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«ثلاثٌ منْ كُنَّ فيه وجدَ بِهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يرجعَ إلى الكفرِ بعدَ أنْ أنقذَه اللهُ منه، كما يَكْرَهُ أنْ يُلقَى في النارِ»**[1].

وجميعُ المعاصِي إنَّما تنشَأُ عن تقديمِ هَوَى النَّفسِ على محبةِ اللهِ ورسولِه، وقد وَصَفَ اللهُ المشركينَ باتِّباعِ الهوى في مواضعَ من كتابهِ الكريمِ؛ قالَ تعالَى:

---

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١، ٦٤١، ٦٩٤١) ومسلم (٤٣) من حديث أنس.

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]. وأصحابُ البدَعِ إنَّما يُحدِثُونَ بِدعَهُم اتِّباعاً لأهوائِهِم المخالفةِ لشرعِ اللهِ؛ ولذلكَ سُمِّي المُبْتَدِعةُ بأصحابِ الأهواءِ. والذينَ يُحَكِّمونَ القوانينَ الوضعيةَ، ويُعرِضُونَ عن شرعِ اللهِ، إنَّما حَمَلَهُم على هذا اتِّباعُ أهوائِهِم المخالفةِ لشرعِ اللهِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقالَ تعالَى: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٨٤]. ومَنْ أطاعَ هَواه في مخالفةِ أَمْرِ اللهِ فقد اتَّخَذَه إلهاً من دونِ اللهِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقد قالَ تعالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وسائِرُ المعاصِي إنَّما تقَعُ بسببِ تقديمِ الهَوَى على محبةِ اللهِ ورسولِه، فالذي يترُكُ الصلاةَ معَ الجماعةِ من غيرِ عُذرٍ شرعيٍّ إنَّما يفعَلُ ذلكَ اتِّباعاً لِهَواهُ، وشهوةِ نفسِه؛ قالَ تعالَى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَٰتِ ﴾ [مريم: ٥٩]. فهذا الذي يسمعُ الأذانَ، ولا يخرُجُ للصلاةِ معَ المسلمينَ إنَّما فَعَلَ ذلكَ إيثاراً للنَّومِ والكَسلِ، أو اشتغالاً باللهوِ واللعبِ، أو إيثاراً لجَمعِ المالِ، وحطامِ الدنيا، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافقون: ٩]، ويقولُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُواْ الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة: ٩]. والمنادي في صلاةِ الفجرِ يقولُ: «الصلاةُ خيرٌ من النومِ»، فمن

كانَ يُحِبُّ اللهَ ورسولَه تَرَكَ النومَ، وأجابَ داعيَ اللهِ؛ كما قالَ تعالَى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]. ومنْ آثَرَ محبَّةَ النومِ على مَحَبَّةِ اللهِ ورسولِه، فإنَّه يَبْقَى على فراشِه، ولا يُجيبُ داعيَ اللهِ، فيكونُ قد بالَ الشيطانُ في أُذُنِهِ، وعقَدَ عليهِ ثلاثَ عُقَدٍ، وقالَ له: ارْقُد عليكَ ليلٌ طويلٌ. وكانَ عذابُه في القبرِ أنَّه يُرضَخُ رأسُهُ بالحجرِ كُلَّما رُضِخَ عادَ كما كانَ، حيثُ كانَ يَتَثاقلُ عن صلاةِ الفجرِ؛ كما أخبرَ بذلكَ النبيُّ ﷺ.

فاتَّقِ اللهَ، يا عبدَ اللهِ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في بيانِ ثمرةِ الأعمالِ الصالحةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمَرَ بطاعتِه، وأَخبرَ أَنَّها سببٌ للنجاةِ والسرورِ، ونَهَى عن معصيتِه، وأخبرَ أَنَّها سببٌ للهلاكِ والشرورِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه البشيرُ النذيرُ والسراجُ المنيرُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليماً كثيراً إلى يومِ البعْثِ والنُّشورِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، ولازِمُوا الأعمالَ الصالحةَ، وأكثِروا من فضلِ الطاعاتِ؛ فإنَّها سببٌ للنجاةِ من المهلكاتِ العاجلةِ والآجلةِ. ويقولُ اللهُ تعالَى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣]. ويقولُ النبيُّ ﷺ: «تَعرَّفْ إلى اللهِ في الرخاءِ يعرِفْكَ في الشدَّةِ»[١]، يعنِي أنَّ العبدَ إذا اتَّقَى اللهَ، وحفِظَ حُدُودَه، فإذا وَقَعَ في شِدَّةٍ فإنَّ اللهَ يُنْجيهِ منها، فمَنْ عَاملَ اللهَ بالتَّقوىٰ والطاعةِ في حالِ رخائِه عامَلَهُ اللهُ باللطفِ والإعانةِ في حالِ شِدَّتِه؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ورُوِيَ أنَّ يونُسَ عليهِ السلامُ لمَّا دَعَا في بطنِ الحوتِ، قالتِ الملائكةُ: يا ربِّ، هذا صوتٌ معروفٌ في بلادٍ غريبةٍ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: أَمَا تعرِفونَ ذلكَ؟ قالوا: ومَنْ هو؟ قالَ: عبدي يونُسُ، قالوا: عبدُكَ يونسُ الذي لمْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٠٠) وهو جزء من وصية حديث النبي ﷺ لابن عباس المروي في الصحيحين.

يزلْ يُرْفعُ له عملٌ مُتقبَّلٌ، ودعوةٌ مستجابةٌ. قالَ: نَعَمْ، قالوا: يا ربِّ أفلا تَرْحَم ما كانَ يصنَعُ في الرخاءِ فتُنْجِيهِ من البلاءِ؟ قالَ: بَلَى. قالَ: فَأَمَرَ اللهُ الحوتَ، فَطَرَحَهُ بالعراءِ».

وقالَ الضحاكُ بنُ قيسٍ: اذكُروا اللهَ في الرخاءِ، إنَّ يونُسَ عليه السلامُ كانَ يذكُرُ اللهَ تعالَى، فلمَّا وقَعَ في بطنِ الحوتِ قالَ اللهُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصَّافات: ١٤٣، ١٤٤]. وإنَّ فرعونَ كانَ طاغياً ناسياً لذِكْرِ اللهِ، فلمَّا أَدْرَكَهُ الغرقُ قالَ: آمنْتُ، فقالَ اللهُ تعالَى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١].

وأَعظمُ الشدائدِ التي تَنزِلُ بالعبدِ في الدنيا: الموتُ، وما بعدَه أشدُّ منه، فالواجبُ على المؤمنِ الاستعدادُ للموتِ وما بعده في حالِ الصحةِ بالتقوى والأعمالِ الصالحةِ؛ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٨، ١٩]. فمنَ ذكَرَ اللهَ في حالِ صِحتِه ورخائِه، واستعدَّ حينئذٍ للقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ذكَرَهُ اللهُ عندَ هذه الشدائدِ، فكانَ معهُ فيها وأعانَه وثبَّتَهُ على التوحيدِ وتوفَّاه وهو عنه راضٍ، ومَنْ نَسِيَ اللهَ في حالِ صِحتِه، ورخائِه، ولم يستعدَّ للقائِه نسِيَهُ اللهُ في هذه الشدائدِ؛ بمعنى أنَّه أعْرَضَ عنه، ولم يُعِنهُ إذا وقعَ فيها.

ومن الوقائعِ العجيبةِ لأهلِ التقوى ونَجاتِهم من الشدائدِ، ما أخبرَ به النبيُّ ﷺ في الحديثِ المتفقِ على صِحتِه قالَ: «انطلقَ ثلاثةُ نَفرٍ مِمّنْ كانَ قبلَكم حتى آواهُمُ المبيتُ إلى غارٍ فدَخَلُوه، فانحَدرتْ صخرةٌ من الجبلِ، فَسَدَّتْ عليهم الغارَ. فقالوا: إنَّه لا يُنجِيكُم من هذه الصخرةِ إلاَّ أنْ تَدْعُوا اللهَ بصالحِ أعمالِكُم،

قالَ رجلٌ منهم : اللهُمَّ إنه كانَ لي أبوانِ شيخانِ كبيرانِ، وكُنتُ لا أغْبِقُ قبلهُما أهلاً ولا مالاً، فَنَأَىٰ (أي : بَعُدَ) بي طلبُ الشجرِ يوماً فلمْ أرحْ عليهما حتى ناما، فحَلَبْتُ لهما غَبوقَهُما، فوجَدْتُهما نائمينِ، فكرِهتُ أنْ أوقِظَهُما، وأنْ أغبقَ قبلَهُما أهلاً ومالاً، فلبِثْتُ والقدحُ على يَدِي أنتظِرُ استيقَاظَهُما حتى برقَ الفجرُ، والصبيةُ يتضاغون عندَ قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقَهَما. اللهُمَّ إنْ كُنتُ فعلتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِك ففرِّجْ عنا ما نحنُ فيه من هذه الصخرةِ. فانفَرجَتْ شيئاً لا يستطيعونَ الخروجَ منه.

وقالَ الآخرُ: اللهُمَّ إنَّه كانتْ لِي ابنةُ عمٍّ، كانت أحبَّ الناسِ إليَّ، فراودْتُها على نفسِها، فامتنعتْ مني حتى أَلَمَّتْ بها سَنةٌ من السنينَ، فجاءَتني، فأعْطَيتُها عشرينَ ومائةَ دينارٍ على أنْ تُخْلِي بيني وبين نفسِها ففعَلت، حتى إذا قَدرْتُ عليها، قالت: اتَّقِ اللهَ، ولا تَفُضَّ الخاتِمَ إلاَّ بِحَقِّه، فانصَرَفتُ عنها، وهي أحبُّ الناسِ إليَّ، وتركْتُ الذهبَ الذي أعطيتُها، اللهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك، فافرجْ عنا ما نحن فيه. فانفرجت، غيرَ أنَّهم لا يستطيعونَ الخروجَ منها.

وقالَ الثالث: اللهُمَّ إني استأجَرْتُ أُجَراءَ، وأعطَيتُهم أَجرَهُم غيرَ رجلٍ واحدٍ، ترَكَ الذي له وذهَبَ، فاستثمرت أَجْرَه حتى كَثُرَتْ منه الأموالُ، فجاءَني بعدَ حينٍ فقالَ: يا عبدَ اللهِ، أَدِّ إليَّ أجْري، فَقُلْتُ: كُلُّ ما تَرى مِنْ أجرِكَ، من الإبلِ والبقرِ والغنمِ والرقيقِ. فقالَ يا عبدَ اللهِ، لا تَسْتَهْزِئْ بي، فَقُلتُ: لا أسْتهزِئُ بك، فأَخَذَهُ كلَّه فاستاقه فلمْ يترُكْ منه شيئاً، اللهُمَّ إنْ كُنتُ فعلْتُ ذلكَ ابتغاءَ وجهِكَ فافرجْ عنا ما نحنُ فيهِ، فانفرجتِ الصخرةُ فخرجوا يَمْشُونَ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث عبد الله بن عمر.

فهؤلاءِ الثلاثةُ لمَّا وقعوا في الشدَّةِ والضيقِ لمْ يَجِدُوا ما يُخَلِّصهُم إلاَّ الأعمالَ الصالحةَ التي أسْلَفُوا. فالأولُ منهم: تَوسَّلَ بِبِرِّه بوالديهِ، وأنَّه كانَ لا يُؤْثِرُ عليهما أهلاً ولا مالاً، والثاني تَوسَّلَ إلى اللهِ بعفافِه عن الفاحشةِ، وتركِهِ إيَّاها بعدَ ما قدرَ عليها خوفاً من اللهِ عزَّ وجلَّ، والثالث: توَسَّلَ إلى اللهِ بأداءِ حقِّ الأجيرِ، وحِفْظِ الأمانةِ، ففرَّجَ عنهم الشدَّةَ لَمَّا دَعَوْهُ بصالحِ أعمالِهم.

فالأعمالُ الصالحةُ تكونُ سبباً للنجاةِ من المهالكِ في الدنيا والآخرةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، ولهذا أَهْلَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ أعداءَ الرُّسلِ كقومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وأصحابِ الرَّسِّ، وقومِ لوطٍ، وأهلِ مَدْينَ وأشباهِهِم، وأَنْجَى اللهُ تعالَى من بينِهم المؤمنينَ، فلم يُهْلِكْ منهم أحداً، وأهلكَ الكافرينَ ولم يُفْلِتْ منهم أحداً.

فاتقُوا اللهَ، أيُّها المسلمونَ، وحافِظُوا على دينِكم الذي به نجاتُكُم، وسعادتُكُم في الدنيا والآخرةِ، ولا تُضَيِّعوه فتَهْلِكُوا، فإنَّ كثيراً من الناسِ قد غَرِقُوا في المعاصِي والمحَرَّماتِ، وهؤلاءِ إذا رَأَوا العذابَ، وتقطَّعتْ بهم الأسبابُ، لايَحصُلونَ على النجاةِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ اللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنعام: ٣١].

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في المسحِ على الخفينِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أكملَ لنا الدينَ، وأتمَّ علينا النعمةَ، وما جَعلَ علينا في الدينِ من حَرَجٍ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليماً.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وتعلَّموا من أحكامِ دينِكم ما تستقِيمُ به عبادتُكُم وتزكو به أعمالُكُم، فإنَّ الجهلَ داءٌ قاتلٌ، وشِفَاؤُهُ بالتَّعَلُّمِ والسؤالِ؛ يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]. ومِنَ الناسِ مَنْ يعبدُ اللهَ على جهلٍ، ويمنعُهُ الحياءُ أو الكِبرُ من السؤالِ، وقد قالَ بعضُ السلفِ: إنَّ هذا العِلْمَ لا يَنالُه مُستَحٍ ولا مُستكبرٌ. ولمَّا قيلَ لابنِ عباسٍ ـ رضيَ اللهُ عنهما ـ: بِمَ نِلْتَ هذا العِلْمَ؟ قالَ: بلسانٍ سَؤُولٍ، وقلبٍ عَقُولٍ.

ولهذا فإنني سأعرِضُ مسألةً يحتاجُ كلٌّ منكم لمعرِفَتِها؛ وهي مَسْألةُ المَسْحِ على الخفينِ، وما في حُكْمِهِما، لأنَّكم تعلمونَ أنَّ الطهارةَ شرطٌ من شروطِ صحةِ الصلاةِ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. فأمَرَ تعالَى بِغَسلِ الوجهِ، واليدينِ، والمسحِ على الرأسِ، وغَسلِ الرجلينِ، عندما يريدُ المسلمُ أنْ يُصَلِّيَ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «**لا يقبَلُ اللهُ صلاةَ أحدِكم إذا أَحدثَ حتى يتوضَّأَ**»[1]. متفقٌ عليهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥، ٦٩٥٤) ومسلم (٢٢٥) من حديث أبي هريرة.

ومن الوضوءِ غسلُ الرجلينِ إلى الكعبينِ لقولِه تعالَى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. وهذا إذا لمْ يَلْبَسْ عليهما حائلاً من خفافٍ أو جواربَ، فإنْ كانَ عليهما حائلٌ فإنَّه يَكْفي عن غسلِهما مسحُ ظاهرِ ذلكَ الحائلِ من خُفٍّ أو جواربَ، كما ثَبَتَ ذلكَ بالسُّنَّةِ الثابتةِ عن النبيِّ ﷺ قولاً وفعلاً.

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّم ـ رحمه اللهُ ـ: صَحَّ عنه ﷺ أنَّه مَسَحَ في الحَضَرِ والسَّفرِ، ولم يُنسَخْ ذلكَ حتى تُوفِّيَ، وَوَقَّتَ للمقيمِ يوماً وليلةً، وللمسافرِ ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ، في عدةِ أحاديثَ حسانٍ وصحاحٍ، وكانَ يمسحُ ظاهِرَ الخفينِ، ولمْ يصحَّ عنه مسحُ أسفَلِهما، ومسَحَ على الجوربينِ والنعلينِ... إلى أنْ قالَ: ولمْ يَكُنْ يتكلَّفُ ضِدَّ حَالِهِ التي عليها قَدَمَاهُ، بلْ إنْ كانَتا في الخُفِّ مَسحَ عليهما ولم ينزعْهُما، وإنْ كانتَا مكشوفتينِ غَسَلَ القدمينِ، ولمْ يَلْبَسِ الخُفَّ ليمسَحَ عليه.

أيُّها المسلمونَ: يُشترطُ لصحةِ المسحِ على الخفينِ أو الجواربِ أنْ يكونا ساترينِ للرِّجلينِ من الكعبِ فأسفلَ، فإنْ كانَ نازِلاً على الكعبِ، أو كانَ شَفَّافاً، أو مُخرَّقاً يُرَى من ورائِه الجلدُ، لم يَجُزِ المسحُ عليهِ. ويُشترطُ أنْ يَلْبَسَهُما على طهارةٍ كاملةٍ، فلو لَبِسَ الخُفَّينِ أو الجوربينِ على غيرِ وضوءٍ لمْ يَجُزْ له المسحُ عليهما، ويُشترطُ ألا يخلَعَ ما ابتدأَ المسحَ عليه. فلو ابتدأ المسحَ على الخُفِّ، ثم خَلَعَه بَطَلَ وضوءُهُ لو كانَ تحتَه جَورَبٌ؛ لأنَّه لم يبدأ المسحَ على الجوربِ، وهذه مسألةٌ مهمةٌ، فإن الكثيرَ من الناسِ في هذا الزمانِ يلبَسون خفافًا تحتَ الكعبينِ، وتحتها جواربُ، ثم يَخْلعونَ الخفافَ عند دخولِهم في المنازلِ أو المساجدِ، ويُبقُونَ الجواربَ، فالواجبُ عليهم في هذه الحالةِ أنْ يمسَحوا على الجواربِ؛ لأنَّها هي الثابتةُ بِشَرْطِ أنْ تكونَ سميكةً خاليةً من الخروقِ والشقوقِ ضافيةً على الرِّجلِ، بحيثُ تكونُ مُغَطِّيةً للكعبينِ وما تحتهما، ومن شروطِ صحةِ

المسحِ على الخفينِ: أنْ يقعَ المسحُ في المدةِ المحدَّدَةِ، وهي يومٌ وليلةٌ للمقيمِ، وثلاثةُ أيامٍ بلياليها للمسافرِ؛ لقولِه ﷺ: «**للمسافرِ ثلاثةُ أيامٍ ولياليهنَّ، وللمقيمِ يومٌ وليلةٌ**»[1]، رواهُ أحمدُ ومسلمٌ، وابتداءُ المدةِ من الحدَثِ بعدَ اللُّبْسِ، فإذا توضَّأَ، ثم لَبِسَ الخفينِ فإنَّ مدةَ المسحِ عليهما تبدأُ من انتقاضِ ذلكَ الوضوءِ ولو تأخَّرَ.

وصفةُ المسحِ على الخفينِ أو الجوربينِ: أنْ يبلَّ أصَابعَ يديهِ بالماءِ، ويضَعَها مُفَرَّجَةً على أصابعِ رجليهِ، ثم يمرَّها إلى ساقيهِ، اليُمْنى على اليُمْنى، واليُسْرى على اليُسْرى.

أيُّها المسلمونَ: وإذا وضَعَ الإنسانُ ضمَاداً على جُرْحٍ أو كَسْرٍ في أحدِ أعضاءِ الوضوءِ، واحتاجَ إلى بقاءِ ذلكَ الضمادِ على الجرحِ، أو موضعِ الألمِ ـ فإنَّه يَكْفي عن غسلِ ما تحتَه أنْ يمسحَ عليه في الوضوءِ والغسلِ، ويَبْقَى إلى أنْ يَستغْني عنه، ثم يَنزعه، وهذا من لُطفِ اللهِ، وتَيسِيرِه على هذه الأمةِ، حيثُ لم يُكلِّفْها حرجاً. ومن ذلك أنَّه شرعَ المَسحَ على الخفينِ، وعلى ما يُشَدُّ على الجُرحِ، وموضعِ الألمِ من الضماداتِ الضروريةِ؛ لأنَّ نزعَها وغَسلَ ما تحتَها يشقُّ أو يُؤْلِمُ، لكنْ لا بُدَّ للمسلمِ من معرفةِ ضوابطِ ذلك وشروطِه؛ حتى يفعلَه على الوجهِ المشروعِ.

فاتقوا اللهَ، عبادَ اللهِ وتعلَّموا من أحكامِ دينكم ما تَتمكَّنونَ به من أداءِ ما أوْجَبَ اللهُ عليكم، خصوصاً أحكامَ الطهارةِ التي هي شرطٌ من شروطِ الصلاةِ وهي تتكرَّرُ عليكم في اليومِ والليلةِ خمسَ مراتٍ، فإنَّ الطهورَ شطرُ الإيمانِ،

---

(١) أخرجه أحمد (٧٨٢) ومسلم (٢٧٦) من حديث علي بن أبي طالب.

والله تعالى ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦].

باركَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في إنكارِ الوصيةِ المكذوبةِ، المنسوبةِ للشيخِ أحمدَ خادمِ المسجدِ النبويِّ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمَرَنَا باتِّباعِ كتابِه وسُنَّةِ رسولِه، ونَهَانا عنِ اتّباعِ المُضِلِّينَ والمنحرفين والمخرفين، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الخلقُ والأَمرُ، وإليه المصيرُ يومَ الحشرِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، لا خيرَ إلاَّ دلَّ الأمَّةَ عليه، ولا شرَّ إلاَّ حذَّرها منه، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ. ونصحَ الأمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ سارَ على نَهجِهِ، واقتفَى أثَرَهُ، وتمسَّك بسُنَّتِه، وسلَّم تسليماً.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: عبادَ اللهِ، اتقُوا اللهَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

في هذِه الآياتِ الكريمةِ يُذَكِّرُ اللهُ عبادَه بنعمتِه عليهم، بإنزالِ كتابِه الذي

أَخْرَجَهُم به من الظلماتِ إلى النورِ، ويأْمُرُهُم بالاعتصامِ والتَّمَسُّكِ به، ويُحذِّرُهُم من مخالفتِه وطَلَبِ الهدايةِ من غيرِه من الآراءِ والأهواءِ المُضِلَّةِ؛ مِمَّا يدلُّ على أنَّه سيكونُ هناكَ محاولاتٌ تُبذَلُ من شياطينِ الجنِّ والإنْسِ لصرفِ الناسِ عن كتابِ ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم، وإخْرَاجِهم من النورِ إلى الظلماتِ، وصَرْفِهم عن طريقِ الجنَّةِ إلى طريقِ النارِ.

وما زالَ هذا الخبثُ والمكرُ السَّيِّئُ يُبذَلُ من أعداءِ اللهِ ورسولهِ منذُ بعَثَ اللهُ نبيَّه ﷺ إلى يومنا هذا، ومِنْ ذلكَ ما يَظْهَرُ منذُ سنواتٍ في هذِه البلادِ من خرافةٍ صَاغَها شيطانٌ مُضِلٌّ على صورةِ رُؤْيا نَسَبَها إلى الشيخِ أحمدَ خادمِ الحرمِ النبويِّ الشريفِ[(١)]، وقد ضمَّنَ هذهِ الرُّؤيا المزعومةَ أكاذيبَ وتهديداتٍ وتخويفاتٍ، زَعَمَ أنَّه تَلقَّاها من النبيِّ ﷺ حينَ رآهُ في المنامِ، وقالَ له: أَخْبِرْ أُمَّتي بهذِه الوصيةِ؛ لأنَّها منقولةٌ بقلمِ القدرِ من اللوحِ المحفوظِ، ومَنْ يَكْتُبْها ويُرْسِلْها من بلدٍ إلى بلدٍ، ومِنْ مَحلٍّ إلى محَلٍّ، بُنِيَ له قصرٌ في الجنَّةِ. ومَنْ لمْ يَكتُبْها ويُرسِلها حُرِّمَتْ عليه شفاعَتي يومَ القيامةِ. ومَنْ كَتَبَها وكانَ فقيراً أغناهُ اللهُ، أو كانَ مديناً قضَى اللهُ دَينَه، أو عليهِ ذنبٌ غفَرَ اللهُ له ولوالدَيهِ، ببركةِ هذِه الوصيةِ. ومَنْ لمْ يَكْتُبْها من عبادِ اللهِ اسْودَّ وجهُهُ في الدنيا والآخرةِ، ومَنْ يُصَدِّقْ بها يَنْجُ من عذابِ اللهِ، ومَنْ كَذَّبَ بها كَفرَ!

هذا بعضُ ما جاءَ في هذِه الوصيةِ المكذوبةِ التي تَجَرَّأَ مُختَرِعُها على الكذبِ على رسولِ اللهِ ﷺ الذي قالَ: «**مَنْ كذبَ عليّ مُتعمِّداً فليَتَبَوَّأْ مقعَدَه من النارِ**»[(٢)]. وهذه الوصيةُ المكذوبةُ قديمةٌ؛ فقد ظَهَرت في مصرَ منذُ أكثرَ من

---

(١) وقصده بهذه النسبة ترويج هذه الفرية.

(٢) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٣) من حديث أبي هريرة. وهو حديث متواتر جاء =

ثمانينَ سنةً، وقد دَحَضَها أهلُ العِلْمِ وأظهروا زيفها، وبيَّنوا ما فيها من الكذبِ والباطلِ، منهم الشيخُ محمد رشيد رِضَا ـ رحمه اللهُ ـ وقد قالَ في رَدِّه عليها: قد أَجَبْنا عن هذه المسألةِ سنةَ ١٣٢٢هـ، وإنَّنا نَتَذَكَّرُ أنَّنا رأينا مثلَ هذه الوصيةِ منذُ كُنَّا نَتَعَلَّمُ الخطَّ والتهجِّي إلى الآنَ مراراً كثيرةً، وكلُّها معزوةٌ إلى رَجُلٍ اسمُه الشيخُ أحمدُ خادمُ الحُجرةِ النبويَّةِ. والوصيةُ مكذوبةٌ قطعاً لا يَختَلِفُ في ذلك أَحدٌ شَمَّ رائحةَ العِلْمِ والدينِ، وإنَّما يُصَدِّقُها البُلداءُ من العوامِّ الأُمِّيينَ. ثم ردَّ عليها ـ رحمه اللهُ ـ ردًّا مطولاً مفيداً، دَحَضَ فيه كلَّ ما جاءَ فيها من الافتراءاتِ، ثم إنَّ هذهِ الوصيةَ اختُصِرَتْ، وجيءَ بها إلى هذهِ البلادِ على يدِ بعضِ المخرفينَ والدجالينَ بِقَصدِ إفسادِ عقائدِ الناسِ، وصَرفِهِم عن كتابِ ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم؛ حتى يَسْهلَ تضْليلُهُم بمثلِ هذه الوصيةِ الكاذبةِ. وبِمَا أنَّ هذهِ البلادَ ـ والحمدُ للهِ ـ هي بلادُ التوحيدِ فإنَّها لا تُرَوَّجُ فيها هذه الخرافةُ بإذنِ اللهِ وتوفيقِه.

وقد تَلَقَّفَها بعضُ الجهلةِ، وأَخَذوا يطبعونَها، ويُوَزِّعُونَها متأثرينَ بما فيها من الوعودِ والوعيدِ، لأنَّ هذا الفاجرَ الذي اخْترعَها قالَ فيها: من طَبَعَ منها كذا من النُّسخِ، ووَزَّعَها حَصَلَ على مطلوبِهِ: إنْ كانَ مُذْنِباً غَفَرَ اللهُ له، وإنْ كانَ موظفاً رُفِعَ إلى وظيفةٍ أحسنَ من وظيفتِه، وإنْ كانَ مديناً قُضِيَ دينُه، ومَنْ كَذَّبَ بها اسودَّ وجْهُهُ، وحَصَلَ عليه كذا وكذا من العقوباتِ، فإذا قَرأَها بعضُ الجهلةِ تأثَّرَ بها، وعَمِلَ على نَشْرِها خوفًا وطمعًا.

وقد قامَ العلماءُ ببيانِ كَذِبِ هذه الوصيةِ، وحَذَّروا الناسَ من نَشْرِها

عن عدد كبير من الصحابة في الصحيحين وغيرهما.

والتصديقِ بها، ومن هؤلاءِ العلماءِ: الشيخُ عبدُ العزيزِ بنُ بازٍ ـ حفظه الله ـ فقد رَدَّ بِرَدٍّ جيدٍ مفيدٍ، وبَيَّنَ ما فيها من الكذبِ والتدجيلِ، ولمَّا رأى مُرَوِّجُوها أنَّ المسلمينَ قد تَنَبَّهوا لِدَسِّهِم، وعرَفُوا حقيقتهُم، أَخَذُوا ينشرونَها خِفيةً، ويُغْرُونَ بعضَ الجُهَّالِ بنشرِها وتوزيعِها، وهذِه الوصيةُ باطلةٌ من عدةِ وجوهٍ:

أولاً: أنَّ أحكامَ الدينِ، والوعدَ والوعيدَ، والإخبارَ عن المستقبلِ، كلُّ هذه الأمورِ لا تَثْبُتُ إلاَّ بوحيٍ من اللهِ إلى رُسُلِه، والوحيُ قدِ انقَطَعَ بموتِ الرسولِ ﷺ بعدَ ما أَكْمَلَ اللهُ به الدينَ، وقد وَرَّثَ لنا الكتابَ والسُّنَّةَ، وفيهما الكفايةُ والهدايةُ. أمَّا الرؤىٰ والحكاياتُ فلا يَثْبُتُ بها شيءٌ؛ لأنَّ غالبَها من وضعِ الشياطينِ لإضلالِ الناسِ عن دينِهم، ومُفْتَرِي هذه الوصيةِ يَعِدُ من صدَّقَها ونَشَرَها بدخولِ الجنَّةِ، وقضاءِ حوائِجِه، وتفريجِ كُرُباتِه، ويَتَوعَّدُ مَنْ كذَّبَ بها بدخولِ النارِ، وأنَّه يَسوَدُّ وجهُهُ، وهذا تشريعُ دينٍ جديدٍ، وكذِبٌ على اللهِ سبحانَه وتعالَى، نعوذُ باللهِ من ذلكَ.

ثانياً: أنَّ مُفْتَرِي هذه الوصيةِ جعلَها أعظمَ من القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ منْ كَتَبَ المصحفَ الشريفَ، وأرْسَلَه من بلدٍ إلى بلدٍ، لا يحصلُ له هذا الثوابُ الذي قالَ هذا الدجالُ: إنَّه يحصُلُ لِمَنْ يَنشُرُ هذه الوصيةَ، ومَنْ لمْ يكتُبِ القرآنَ ويُرسِلهُ من بلدٍ إلى بلدٍ لايُحرَمُ من شفاعةِ النبيِّ ﷺ إذا كانَ مؤمناً، فكيفَ يُحرَمُ المؤمنُ من الشفاعةِ إذا لمْ يكْتُبْ هذهِ الوصيةَ ويُرسِلها من بلدٍ إلى بلدٍ كما يقولُ مُفتَرِيها؟!

ثالثاً: أنَّ هذِه الوصيةَ فيها ادِّعاءُ علمِ الغيبِ حيثُ جاءَ فيها: «إنَّه مِنَ الجُمُعَةِ إلى الجمعةِ ماتَ مائةٌ وستونَ ألفا على غيرِ دينِ الإسلام». فهذا من ادِّعاءِ عِلمِ الغيبِ الذي لا يَعْلَمُه إلا اللهُ؛ فإنَّه هو الذي يعْلَمُ عددَ منْ يموتُ على الإسلامِ، ومَنْ يموتُ على الكفرِ، ومَنِ ادَّعى عِلْمَ الغيبِ فهو كافرٌ باللهِ.

رابعاً: أنَّ الثوابَ والعقابَ في الدنيا والآخرةِ لا يَثْبُتانِ إلاَّ بِنصٍّ من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، وهذا المُفتَري في هذِه الوصيةِ جعلَ الثوابَ لِمَنْ صدَّقَها والعقابُ لِمَنْ كَذَّبَ بها ولم يَنْشُرْها، وقد فَضَحَهُ اللهُ والحمدُ للهِ؛ فكثيرٌ من المسلمينَ كَذَّبُوها وبيَّنوا زيفها ولمْ يحصلْ لهم إلاَّ الخيرُ، والذينَ صَدَّقُوها، ونَشَرُوها لم يحصلْ لهم إلاَّ الخيبةُ والخسارةُ.

ثم إنَّ هذا المُفْتَري أرادَ أنْ يُوهمَ العوامَّ والجهَّالَ بصدقِ هذِه الوصيةِ، فحَلفَ باللهِ أَيْماناً مكررةً أنَّه صادقٌ، وأنَّها حقيقةٌ، وأنَّه إنْ كانَ كاذِباً يخرج من الدنيا على غيرِ الإسلامِ، وأَرادَ أنْ يتظاهرَ بحبِّ الإسلامِ، وبُغْضِه للمعاصي والمنكراتِ، حتى يُحْسَنَ به الظنُّ ويُصَدَّقَ.

وهذا مِنْ مَكْرِهِ وخُبْثِه، بلْ من غباوَتِه وجهْلِه، فإنَّ الحلفَ، وكثرةَ الأيْمانِ لا تَدلُّ على صدْقِ كلِّ حالفٍ؛ فكثيرٌ من الكذابينَ يحْلِفون للتغريرِ بالناسِ، فهذا إبليسُ حلَفَ للأبوينِ عليهم السلامُ: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. واللهُ تعالى قالَ لنبيِّهِ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، وأَخْبرَ أنَّ المنافقينَ يحلِفونَ على الكذبِ وهم يعلمونَ، ويقولُ عنهم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧]. فهلْ يظنُّ هذا الغبيُّ الأحمقُ أنَّه إذا افترى الكذِبَ على اللهِ ورسولِه في هذه الوصيةِ، وحلَفَ في آخرِها أنَّ المسلمينَ سيُصَدِّقونَه، ويقْبَلون أقوالَه؟! حاشا وكَلاَّ، وأَمَّا تَظَاهُرُه بالغيرةِ على الدينِ والتألُّمِ من المنكراتِ، فهو من التغريرِ الذي يُقْصَدُ من ورائِه أنْ يُحسِنَ الناسُ به الظنَّ ويقبلُوا قولَه، ولمْ يَدْرِ أنَّ فرعونَ اللعينَ تَظَاهرَ لقومِه بالنُّصحِ والشفقةِ حينما قالَ لهم يُحَذِّرُهُم من اتِّباعِ موسى عليهِ السلامُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦]. فما كُلُّ

مَنْ تظاهرَ بالمناصحةِ والغيرةِ يكونُ صادِقاً، ويكْفِينا ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ من التحذيرِ من المنكراتِ والمعاصي، وبيانِ العقوباتِ المترتبةِ عليها، ففي ذلكَ الكفايةُ لأهلِ الإيمانِ.

هذا وربما يُسْأَلُ: ما الهدفُ الذي يَقْصِدُه صاحبُ هذهِ الوصيةِ؟ وما الدافعُ لقيامِه بافترائِها وترويجِها؟

والجواب: أنَّ هدفَه من ذلكَ تضليلُ الناسِ عن كتابِ ربِّهم وسُنّةِ نبيِّهم، وصرفِهم إلى الخرافاتِ والحكاياتِ المكذوبةِ، فإذا صَدَّقُوه في هذِه وراجَتْ بينَهم، اخترعَ لهم أُخرى وأُخرى، حتى يَنْشَغِلوا بذلكَ عن الكتابِ والسُّنةِ، فيسهُلَ الدسُّ عليهم، وتغييرُ عقائِدِهِم، فإنَّ المسلمينَ ما داموا مُتَمَسِّكينَ بكتابِ ربِّهم وسُنّة نبيِّهم، فلنْ يستطيعَ المضللونَ صَرْفَهُم عن دينهِم، لكنَّهم إذا تَركُوا الكتابَ والسُّنةَ، وصدّقوا الخرافاتِ والحكاياتِ والرُّؤَى الشيطانيةَ، سَهُلَ قيادُهم لكلِّ مُضَلِّلٍ وملحدٍ.

وقد يكونُ من وراءِ ذلكَ منظماتٌ سريةٌ من الكفارِ، تعملُ على ترويجِ هذه المفترياتِ لصرفِ المسلمينَ عن دِينهم[١].

فإيَّاكم ـ أيُّهَا المسلمونَ ـ والتصديقَ بهذِه المفترياتِ، ولا يَكنْ لها رواجٌ بينكم، واسْأَلوا أهلَ العلمِ عمَّا أَشْكَلَ عليكم، ومَنْ رأيْتُمُوه يكتبُ هذهِ الوصيةَ المكذوبةَ، ويُرَوِّجُها فَبَلِّغُوا عنه أهلَ العِلْمِ، وبَلِّغُوا عنه أهلَ الحسبةِ والسلطةِ للأخذِ على يدِه، وكَفِّ شَرِّه عن المسلمينَ. وَفَّقنا اللهُ وإيَّاكم لطريقِ الهُدَى، وجنَّبنا طريقَ الغيِّ والرَّدَى.

---

(١) ومما يدل على ذلك أن هذه الخرافة موجودة منذ قرن من الزمان ويبعد أن يكون مخترعها على قيد الحياة، فلولا أن هناك من يعمل على ترويجها من بعده لم تظهر.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧].

الخطبة الثانية:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الكهف: ١-٣]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ﴿ مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾ [الجن: ٣]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، دعَا الناس إلى الهُدَى، وحذَّرَهُم من طريقِ الغيِّ والرَّدَى، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومن تَبِعَهُم بإحسانٍ واهْتدَى، وسلَّمَ تسليمًا..

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلَموا أنَّ أعداءَ اللهِ ورسولِه، من الكفارِ والمنافقينَ وشياطينِ الجنِّ والإنْسِ، دائمًا يُحَاوِلونَ صرفَ الناسِ عن الدينِ الحقِّ إلى الدينِ الباطلِ، وعن طريقِ الجنَّةِ إلى طريقِ النارِ، وعن اتِّباعِ الرُّسُلِ إلى اتِّباعِ الشياطينِ والمُضِلِّينَ، فكانوا يُحرِّفونَ شرائعَ الأنبياءِ، ويُغَيِّرونَ الكتبَ المنزلةَ على الرُّسُلِ، كما فَعَلُوا في التوراةِ والإنجيلِ، ولمَّا بعثَ اللهُ خاتمَ النبيينَ محمدًا ﷺ وأَنزلَ عليه القرآنَ العظيمَ والشرعَ القويمَ، تكَفَّلَ سبحانَه بحفظِ القرآنِ العظيمِ من التغييرِ والتبديلِ، فقال سبحانَه وتعالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وحفِظَ سُنَّةَ نبيِّه ﷺ من كذبِ الكذَّابينَ بما أقامَ عليها من الحُرَّاسِ الأمناءِ وصفوةِ العلماءِ الذينَ حَفِظُوها ونقلُوها بأمانةٍ، ونَفَوا عنها كلَّ ما حاولَ إدخالَه فيها

الكذَّابونَ والدَّجَّالونَ، فوضَعُوا الضوابطَ والقواعدَ التي يُعْرَفُ بها الحديثُ الصحيحُ من الحديثِ المكذوبِ، ودَونوا الأحاديثَ الصحيحةَ وحَموها، وحشروا الأحاديثَ المكذوبةَ، وحاصَرُوها، وحَذَّروا منها، فلمَّا لمْ يَجِدْ أعداءُ اللهِ ورسولِه لهم مَنْفَذاً للدَّسِّ في كتابِ اللهِ وسُنةِ رسولِه، لجئُوا إلى محاولةِ صرفِ الناسِ عن الكتابِ والسُّنةِ، وإشغالِهم بالحكاياتِ المكذوبةِ، والمَناماتِ المزورةِ التي تشتملُ على الترغيبِ والترهيبِ، والوعودِ الكاذبةِ التي تُغْري وتَغُرُّ ضعافَ الإيمانِ والجهلةَ، فصَرفوا كثيرًا منهم إلى الشركِ والإلحادِ والبِدَعِ، باسم الدين والعبادةِ والزُّهدِ، جريًا وراءَ تلكَ الخرافاتِ.

فدينُ هؤلاءِ المنحرفينَ لا يَنْبَنِي على الكتابِ والسُّنةِ، وإنَّما يَنْبَنِي على الحكاياتِ المكذوبةِ، والمناماتِ المزعومةِ، فَضَلُّوا عن الهُدَى، وتركوا كتابَ اللهِ وسُنةَ رسولِه إلى وساوسِ الشياطينِ، وهذا جزاءُ من أعرضَ عن الكتابِ والسُّنةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

فاتقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وتمسَّكُوا بكتابِ ربِّكم، وسُنَّةِ نبيِّكم، واحذَروا الدسائِسَ المُضِلَّةَ التي يُرَوِّجُها أعداء المِلَّةِ، واعلمُوا أنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدْيِ هديُ محمدٍ ﷺ... إلخ.

* * *

في بيانِ مكانةِ المساجدِ في الإسلامِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ المساجدَ بيوتَه التي أَذِنَ أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسمُه، يُسَبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصالِ، رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكرِ اللهِ وصالحِ الأعمالِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، إلهٌ انفردَ بالعظمةِ والعزَّةِ والجلالِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حثَّ على بناءِ المساجدِ وتطهيرِها من الشركِ وعقائدِ الضلالِ، صلَّى اللهُ وسلَّمَ عليه وعلى آلِه وأصحابِه، صلاةً وتسليمًا يتجددانِ بتجَددِ الغُدُوِّ والآصالِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ، واعرِفوا ما للمساجدِ من مكانةٍ وحُرْمةٍ، وقُومُوا بحقِّها من واجبِ الخدمةِ؛ فإنَّها بيوتُ اللهِ، ومهابطُ رحمتِه، ومُلْتقى ملائكتِه والصالحينَ من عبادِه، وقد أضافَها الربُّ إلى نفسِه إضافةَ تشريفٍ وإجلالٍ، وتوعَّدَ من يَمنَعُ عبادَه من ذِكرِه فيها أو خرَّبَها أو تَسبَّبَ في خرابِها؛ فقالَ تعالَى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [البقرة: ١١٤].

عبادَ اللهِ: إنَّ من ينظرُ في حالةِ المساجدِ اليومَ، ويقارِنُها بما كانت عليهِ في صدرِ الإسلامِ، وعهدِ القرونِ المفضلةِ، يجدُ الفرقَ كبيرًا، فقد كانتَ المساجدُ في العهدِ الأولِ مواطنَ العبادةِ، ومعاهدَ العلمِ، ومنطلقَ المجاهدينَ، والرابطةَ القويةَ بينَ المؤمنينَ. كانتْ في غيرِ أوقاتِ الصلواتِ لا تخلو من المتعبدينَ،

والمعتكفينَ، ولا من الدارسينَ المتفقهينَ، وفي أوقاتِ الصلواتِ تَغصُّ بالمصلينَ، بحيثُ لا يتخلَّفُ عنها إلا معذورٌ عن الحضورِ، أو منافقٌ معلومُ النفاقِ.

وفي العهدِ الحاضرِ تغَيَّرَ حالُها، وساءَ تعامُلُ الناسِ معها، وأُحْدِثَ فيها ما يتنافى مع مكانَتِها وقُدْسِيَّتِها، أو لا يليقُ بكرامتِها، ففي بعضِ البلادِ صارَ يُدفَنُ فيها الأمواتُ مِمَّنَ يُعتقَدُ بهم الولايةُ، وتُمارَسُ حولَ قبورِهم فيها جميعُ أنواعِ الشركِ الأكبرِ؛ من دعاءِ هؤلاءِ الأمواتِ، والاستغاثةِ بهم، وطَلَبِ المَددِ منهم، وأوَّلُ من أحْدَثَ ذلكَ في بلادِ المسلمينَ الشيعةُ الفاطميونَ، يريدونَ بذلكَ القضاءَ على الإسلامِ، وبَثَّ الوثنيةِ؛ لأنَّهم منظمةٌ يهوديةٌ ادَّعتِ الإسلامَ خديعةً ومكرًا، وقلَّدَهُم الصوفيةُ الخرافيونَ في بناءِ هذه المساجدِ في بلدانٍ أُخرى، فأصبحتْ هذه المساجدُ المبنيةُ على القبورِ مصادرَ للوثنيةِ، بعد أنْ كانت المساجدُ السُّنيةُ مصادرَ للتوحيدِ، وقد لعَنَ النبيُّ ﷺ هؤلاءِ الذينَ يَبْنُونَ المساجدَ على القبورِ، وأَخبرَ أنَّهم شرارُ الخَلْقِ عندَ اللهِ. ثم إنَّ غالبَ المساجدِ التي ليسَ فيها قبورٌ في بعضِ البلادِ، تُمَارَسُ فيها البِدَعُ، والخرافاتُ المتمثلةُ بالطرقِ الصوفيةِ، والأذكار والأوراد الجماعية المُبْتدَعَة.

وفي بلادِنا ساءَ وضعُ غالبِ المساجدِ، من حيثُ علاقةُ الناسِ بها، ومن حيثُ وضعُ القائمينَ فيها، ومن حيثُ تَخْطيطُها وتَصْميمُها، ومن حيثُ نظافتُها وصيانتُها:

فأمَّا من حيثُ علاقةُ الناسِ بها وارتيادها، فالمساجدُ في غالبِ وقتِها مهجورةٌ مغلقةُ الأبوابِ لا تُفتحُ إلاَّ في وقتِ الصلاةِ، ولا يَحْضُرُ غالبُ مَنْ يريدونَ الصلاةَ إلاَّ متأخرينَ، إمَّا عندَ الإقامةِ، أو بعدَ ما يفوتُ معظمُ الصلاةِ أو

كلُّها، والكثيرُ لا يعرفُ المساجدَ ولا يحضرُ جمعةً ولا جماعةً كأنَّه يعيشُ في بلادِ أوروبا وأمريكا، ولا يوجد من يُنكرُ، ولا من يغارُ، لا من أولياءِ أمورِهم ولا من جيرانِهم ولا من عمومِ المسلمينَ إلاَّ من شاءَ الله ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وأمَّا من حيثُ وضعُ القائمينَ على المساجدِ، وهم الأئمةُ والمؤذنونَ والملاحظونَ، فمعلومٌ أنَّ الإمامَ ضامنٌ والمؤذِّنُ مؤتمنٌ كما في الحديثِ، وعليهما مسؤوليةٌ عظيمةٌ فيجبُ اختيارُ الإمامِ من أفضلِ الموجودينَ علمًا ودينًا؛ لأنه قُدوةٌ، فيجبُ أنْ يكونَ الإمامُ سليمَ العقيدةِ، حَسَنَ السلوكِ والخُلُقِ، محافظاً على إقامةِ الصلاةِ في أوقاتِها، مُتَمِّمًا لأحكامِها، وأركانِها، وواجباتِها، وسُنَنِها، من غيرِ أنْ يَشُقَّ على المأمومينَ، ولا يجوزُ أنْ يتولَّى الإمامةَ مَنْ لا تُعرَفُ عقيدتُه، خصوصًا في هذا الزمانِ الذي كَثُرَ فيه الوافدونَ إلينا من بلادٍ أُخرى بعقائدَ غيرِ سليمةٍ؛ كالأشاعرةِ، والمعتزلةِ، والجَهمِيَّةِ، أو أصحابِ النِّحَلِ الضالةِ، والأفكارِ المسمومةِ؛ كالصوفية، والمُبتَدِعَةِ، والقُبُوريةِ، إنَّه يجبُ أنْ يتولَّى اختيارَ الإمامِ جهةٌ علميةٌ موثوقةٌ، تتعرَّفُ أينَ دَرَسَ، ومن أينَ تَخرَّجَ، وتختبرُه في عقيدتِه اختبارًا دقيقًا، ولا يُكتَفَى باختيارِ جماعةِ المسجدِ، أو بعضِهم؛ لأنَّ أغلبَهُم يجهلونَ هذه الأمورَ.

وأمَّا المؤذنُ فيجبُ عليه مراقبةُ الوقتِ بدقةٍ، فلا يُؤَذِّنُ إلاَّ عندَ دخولِ الوقتِ، وإذا غابَ وَجَبَ عليه أنْ يخلفَ منْ ينوبُ عنه، وبعضُ المؤذِّنينَ يتساهلُ في أمرِ الوقتِ؛ فربما أَذَّنَ قبلَ دخولِه، فَيُصَلِّي من يَسْمَعُه من النساءِ وبعضُ أَئمَّةِ المساجدِ قبلَ دخولِ وقتِ الصلاةِ، وبعضُهم يتأخَّرُ في الأذانِ، فَيَسمَعُه الكُسالى، فيتأَخَّرونَ حتَّى تفوتَهُم صلاةُ الجماعةِ، وهذا خللٌ عظيمٌ يجبُ التَّنَبُّهُ له وتَجَنُّبُه.

وأما الملاحظونَ لنظافةِ المساجدِ فغالبُهُم لا يقومُ بِعَمَلِه معَ أنَّه يتقاضى المكافأةَ الماليةَ، وهي حرامٌ عليهِ ما دامَ لا يقومُ بواجبِه، ربما يقولُ بعضُهم: إنَّ المكافأةَ قليلةٌ، فيتساهلُ بأداءِ العملِ، وهذا عذرٌ باطلٌ؛ لأنَّ المكافأةَ وإنْ كانتْ قليلةً فإنَّه لا يحلُّ له أخذُها إلاَّ بأداءِ العملِ، الذي خُصِّصَتْ من أجْلِه.

وأمَّا من حيثُ تخطيطُ المساجدِ: فالوضعُ الذي عليه غالبُ المساجدِ غيرُ مناسبٍ لمتطلباتِ الوقتِ الحاضرِ، فتوزيعُ المساجدِ على الحاراتِ غيرُ مناسبٍ؛ لأنَّ بعضَ الحاراتِ تَقِلُّ فيه المساجدُ جدًّا، والبعضُ الآخرُ تكثُرُ فيه المساجدُ جدًّا من غيرِ حاجةٍ، والواجبُ أنْ تُنْشَأَ المساجدُ على قَدْرِ الحاجةِ؛ لأنَّ كثرةَ المساجدِ في موضعٍ واحدٍ مِمَّا يُسَبِّبُ تَفَرُّقَ المسلمينَ، وتقليلَ عددِ المصلينَ فيها، والنبيُّ ﷺ يقولُ: **«صلاةُ الرجُلِ مع الرجُلِ أزكَى من صلاتِه وحدَه، وصلاتُه معَ الرجُلينِ أزْكَى من صلاتِه معَ الرجُلِ، وما كان أكثر فهو أحبُّ إلى اللهِ تعالَى»**(١)، فدلَّ هذا الحديثُ على أنَّ كثْرَةَ العددِ مطلوبةٌ، وكثرةَ المساجدِ مع تقارُبِها فيه تَشْتيتٌ للمصلينَ، وهو أيضاً يسبِّبُ العجزَ عن توفيرِ الأَئمَّةِ الأكفاءِ لها، إضافةً إلى أنَّ المساجدَ المتقاربةَ يُشَوِّشُ بعضُها على بعضٍ، فإنَّ بعضَ الأَئمَّةِ ـ هداهُم اللهُ ـ يُخرِجُ صوتَ المكرفون خارجَ المسجدِ، فيمتدُّ صوتُه إلى مَنْ حولَه من المساجدِ، وهذا لا مُبَرِّرَ له؛ لأنَّ المطلوبَ من الإمامِ أنْ يُسمِعَ منْ خلفَه فقطْ، أمَّا إذا تجاوزَ صوتُه خارجَ المسجدِ فهذا فيه مَحْظورانِ:

المحظورُ الأولُ: التشويشُ على مَنْ حولَه، ومعلومٌ أنَّ الجهر بالقرآنِ إذا كانَ يتأذَّى به مُصَلٍّ أو قارئٌ آخرُ فإنَّه لا يجوزُ كما نصَّ على ذلكَ العلماءُ، وقد

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٥٤) والنسائي (٨٤٣) من حديث أبي بن كعب.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠].

والمحظورُ الثاني: أنَّ الإمامَ إذا قصدَ أنْ يسمعَ صوتَهُ خارجَ المسجدِ دخلَ في الرياءِ والسُّمعةِ، وهما صفتانِ مذمومتانِ، فيجبُ الانتباهُ لهذا.

وأمَّا تصميمُ المساجدِ: فغالبُ المساجدِ لا يَفِي تصميمُها بالحاجةِ، فقد تكونُ ضيقةً ولا يكونُ لها مرافقُ كافيةٌ؛ كإعدادِ مساكِنَ للقائمينَ عليها، ودوراتِ المياهِ، ولا تكونُ مُكَيَّفَةً بما يخففُ عن المصلينَ الحرَّ والبردَ.

وبعضُ المساجدِ تُزخْرفُ وتفخَّمُ عمارتُها بما لا يتناسبُ مع قدسيةِ المساجدِ، وقد نَهى النبيُّ ﷺ عن زخرفةِ المساجدِ؛ فقد رَوى ابنُ خزيمةَ في صحيحهِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**يأْتِي على أُمَّتِي زمانٌ يتباهونَ بالمساجدِ، ثم لا يَعمُرونها إلاَّ قليلًا**»[1]، وفي روايةٍ لابنِ حِبانَ: نهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يتباهى الناسُ في المساجدِ[2]. وما يُنْفَقُ في هذا المسجدِ المُزَخْرَفِ من الأموالِ الكثيرةِ لو وُزِّعَ لأَقامَ عِدَّةَ مساجدَ على الوجهِ الشرعيِّ.

وأمَّا من حيثُ صيانةُ المساجدِ وتنظيفُها: فالتقصيرُ في ذلكَ ظاهرٌ بحيثُ إنَّ بعضَ المساجدِ يتراكمُ فيه الغبارُ والقماماتُ؛ بسببِ الإهمالِ وعدمِ العنايةِ؛ لأنَّ الاحتسابَ اليومَ قد قَلَّ، والمُكَلَّفونَ بهذا العملِ من قِبَلِ الوزارةِ أغلبُهُم لا يقومُ بالعملِ؛ لأنَّه لا يخافُ من اللهِ، وليسَ هناكَ رقابةٌ من الجهةِ المسؤولةِ.

وقد أُحْدِثَ في زمانِنا هذا ما يُسَمَّى بأسبوعِ المساجدِ، ينشطُ الناسُ في وقتِه

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٣٢١) وعلقه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة، باب: بنيان المساجد.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٦١٣).

بنظافةِ بعضِ المساجدِ، ثم يَنتَهي ذلك بانتهاءِ هذا الأسبوعِ الذي ليسَ لوجودِه مبررٌ سوى التَّشَبُّهِ والتقليدِ الأعمى للدولِ الأخْرى التي أَحدثتْ هذه الأسابيعَ لمقاصدَ وأهدافٍ؛ كأسبوعِ النظافةِ، وأسبوعِ الشجرةِ، فأَحدثَ هؤلاءِ أسبوعَ المساجدِ تقليدًا لهم، فجعلوا المساجدَ كالشجرةِ والأمورِ الأُخرى الدنيويةِ، مع أنَّ دينَنا يأْمُرُنا بتنظيفِ المساجدِ دائماً لا في أسبوعٍ فقطْ، وتنظيفُها عبادةٌ فإذا خُصِّصَت بوقتٍ لم يُخَصِّصْه الشارعُ صارَ بدعةً في الدينِ، والدليلُ على أنَّه عبادةٌ من الكتابِ والسُّنةِ؛ فعَنْ سمرةَ بنِ جندبٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: أمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نتخذَ المساجدَ في ديارِنا، وأَمَرَنا أنْ نُنَظِّفَها[١]. رَواهُ أحمدُ، والترمذيُّ وقالَ: حديثٌ صحيحٌ. وعن أنسٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عُرِضتْ عليَّ أجورُ أُمَّتِي حتى القذاةُ يخرجُها الرجلُ من المسجدِ»[٢]. الحديثُ رَاوهُ أبو داودَ، والترمذيُّ، وغيرُهما. وعن أبي هريرةَ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ أنَّ امرأةً سوداءَ كانتْ تَقُمُّ المسجدَ، فَفَقَدَها رسولُ اللهِ ﷺ فسألَ عنها بعدَ أيامٍ فقيلَ له: إنَّها ماتتْ، فقالَ: «فَهَلَّا آذنْتُمُونِي»، فأَتى قبرَها فصلَّى عليها[٣]. رواهُ البخاريُّ، ومسلمٌ، وغيرُهما.

فقد شرعَ لنا رسولُ اللهِ ﷺ تنظيفَ المساجدِ كلَّ وقتٍ، ولم يَقْصُرْنا على أسبوعٍ، فمَنْ خَصَّصَ أسبوعًا لذلكَ فقدِ ابتدعَ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، علاوة على ما في ذلكَ من التَّشَبُّهِ بالكفارِ، فإنَّ هذه الأسابيعَ لم تُعرفْ إلاَّ من قِبَلِهم.

فالواجبُ على المسلمينَ أنْ ينْتَبِهوا لمسؤوليتِهم أمامَ بيوتِ اللهِ، ويَتْركوا

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٧١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦١) والترمذي (٩١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٨) ومسلم (٩٥٦).

التقليدَ الأعمى، والتَّشَبُّه الفاسدَ، الذي قد يكونُ وراءَه ما وراءَه.

نسألُ اللهُ أنْ يُرينا الحقَّ حَقًّا، ويَرْزُقَنا اتِّباعَه، ويُرينا الباطلَ باطلاً، ويرْزُقَنا اجتنابَه.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨].

بارَكَ اللهُ لي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومن اهْتدى بهُداه، وسلَّمَ تسليمًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعْلموا أنَّه كما يُشرَعُ تنظيفُ المساجدِ على الدوامِ وتَطْييبُها، فإنَّه يَحرُمُ امتهانُها بإلقاءِ القاذوراتِ؛ كالبصاقِ، والمخاطِ، والأوراقِ المُهْمَلَةِ، ومخلفاتِ الطعامِ ونحو ذلك؛ فعن ابنِ عمرَ ـ رضي اللهُ عنهما ـ قالَ: بينما رسولُ الله ﷺ يخطبُ يومًا إذْ رأى نخامةً في قبلةِ المسجدِ، فتغيظَ على الناسِ، ثم حَكَّهَا، قالَ: وأحْسَبُه قالَ: فدَعا بزَعفَران فلطخَه به، وقالَ: «**إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قِبَلَ وجهِ أحدِكم إذا صلَّى، فلا يبصُقْ بينَ يديهِ**»[1]، رواه البخاريُّ ومسلمٌ، وعن أنسٍ ـ رضيَ اللهُ عنه؛ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**البصاقُ في**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦، ٧٥٣، ١٢١٣، ٦١١١) ومسلم (٥٤٧) وأبو داود (٤٧٩).

المسجدِ خطيئةٌ، وكفارتُها دَفْنُها»[١]. رواه البخاريُّ ومسلم. وعن أبي هريرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ سَمِعَ رجُلاً يَنْشُدُ ضالةً في المسجدِ فلْيَقُلْ: لا ردَّها اللهُ عليكَ، فإنَّ المساجدَ لم تُبْنَ لهذا»[٢]. رَواهُ مسلمُ وأبو داودَ. وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ ـ رضيَ اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «سيكونُ في آخرِ الزمانِ قومٌ يكونُ حديثُهم في مساجدِهِم، ليسَ للهِ فيهم حاجةٌ»[٣]. رواهُ ابنُ حِبانَ في صحيحهِ.

أيُّها المسلمونَ: من هذِه الأحاديثِ الشريفةِ يَتَبيَّنُ لنا حرمةُ المساجدِ، والنَّهْيُ عن امتهانِها بإلقاءِ القاذوراتِ فيها، وجَعلِها محلاً للسؤالِ عن الأموالِ الضائعةِ ونحو ذلك، وجَعْلِها مجالسَ للتَّحدُّثِ بأمورِ الدنيا، وقد اعتادَ بعضُ الشبانِ المتدينينَ في وقتِنا الحاضرِ إلصاقَ الأوراقِ على جدرانِ المساجدِ، وعلى أبوابِها، وتُكتبُ فيها بعضُ الإعلاناتِ، أو تُكتبُ فيها بعضُ الآياتِ، أو الأحاديثُ، أو النصائحُ، حتى أصبحتْ بعضُ المساجدِ كأنَّها معارضُ أو متاحفُ، وهذا العملُ مُحْدَثٌ لم يكُنْ من عملِ السلفِ الصالحِ، إضافةً إلى أنَّه يَشْغَلُ المصلينَ والداخلينَ إلى المسجدِ عن ذِكْرِ اللهِ، وقد يكونُ المكتوبُ أيضاً مِمَّا لا يجوزُ نشرُه؛ كأنْ يكون حديثًا مكذوبًا، أو دعايةً لمذهبٍ باطلٍ. وبعضُ الجهَّالِ يأتونَ بكتبٍ ونشراتٍ، ويَضَعونَها في المساجدِ للتوزيعِ، وقد تكونُ هذِه الكتبُ والنشراتُ غيرَ مسموحٍ بتوزيعِها، لِمَا تشْتَمِلُ عليهِ من أباطيلَ، أو فَتاوى غيرِ صحيحة أو أورادٍ وأذكارٍ بِدْعِيَّةٍ. فالواجبُ مَنعُ هذا العملِ، والأخذُ على

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٥) ومسلم (٥٥٢).
(٢) أخرجه مسلم (٥٦٨) وأبو داود (٤٧٣).
(٣) أخرجه ابن حبان (٦٧٦١).

أَيْدِي مَنْ يقومُ به؛ لئلا يتطورَ الأمرُ إلى ما هو أشَدُّ، كجَعْلِ المساجدِ محلاًّ لِبَثٍّ الدعاياتِ، والإعلاناتِ، والخرافاتِ. ويجبُ ألا يُوَزَّعَ أيُّ كتابٍ أو نشرةٍ أو فتوى إلا بإذنٍ من دارِ الإفتاءِ والإشراف على المطبوعات؛ لئلا يَجِدَ المخرفونَ سبيلاً إلى نشْرِ خرافاتِهم بيننا، يجبُ على أئمةِ المساجدِ والمؤذنينَ الانتباهُ لهذا، ويجبُ ألا يُوضعَ في المساجدِ إلاَّ المصاحفُ فقط، كما كانتْ في عهدِ السلفِ الصالحِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ.

فاتقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، واحْذَروا من الدسائسِ الماكرةِ، ولا تَقْبلوا أيَّ كتابٍ، أو نشرةٍ، أو فتوى، إلاّ بعد عَرْضِها على أهْلِ العلمِ الموثوقينَ في علمِهِم وعقيدتِهِم.

وفَّقَ اللهُ الجميعَ، واعْلَموا أنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ. . . إلخ.

* * *

الخوفُ والرجاءُ

الحمدُ للهِ ذي الفضلِ والإنعامِ، تَوعَّدَ من عَصاهُ بأليمِ الانتقامِ، ووَعدَ مَنْ أطاعَه بجزيلِ الثوابِ والإكرامِ، أحمدُه على إحسانِه العامِّ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨﴾، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حثَّ على فعلِ الطاعاتِ، وحذَّرَ من المعاصي والآثامِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه البررةِ الكرامِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، مستمرًّا على الدوامِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وتدبَّروا كتابَ اللهِ، فقد حثَّكُم على فِعْلِ الطاعاتِ، وبيَّنَ لكم ثوابَها وثمراتِها لتُكْثِروا منها، ونَهاكُم عن المعاصِي وبيَّن لكم عِقابَها وآثارَها الضارةَ؛ لتحذروا منها وتَجْتنِبوها، كما أنه وصَفَ لكم الجنَّةَ وما فيها من النعيمِ والفوزِ المقيمِ؛ لتعمَلوا لها، ووَصَفَ لكم النار وما فيها من العذابِ الأليمِ والهوانِ المقيمِ؛ لتتركوا الأعمال الموصلةَ إليها. وهكذا كثيرًا ما نَجِدُ آياتِ الوعدِ إلى جانبِ آياتِ الوعيدِ، وذِكْرَ الجنَّةِ إلى جانبِ ذِكْرِ النارِ، ليكونَ العبدُ دائمًا بينَ الخوفِ والرجاءِ، لا يأمن من عذابِ اللهِ، ولا ييأسُ من رحمةِ اللهِ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ۝٢٨﴾ [المعارج: ٢٧، ٢٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦﴾ [الرعد: ٦]. وقد وَصفَ اللهُ أنبياءَه وخواصَّ أوليائِه: أنَّهم يدعونَ ربَّهم خوفًا وطمعًا وَرَغَبًا وَرَهَبًا، ويرجونَ

رحمتَه، ويخافونَ عذابَه، وقد أَمَرَ اللهُ العبادَ أنْ يخافوهُ، ويرهبوهُ، ويخشوهُ، في آياتٍ كثيرةٍ؛ قالَ تعالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقالَ تعالَى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١]، وقالَ تعالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]. والخوفُ المحمودُ الصادقُ هو الذي يَحُولُ بينَ صاحبِهِ وبينَ محارمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والرجاءُ المحمودُ الصادقُ هو الثقةُ بجودِ الربِّ سبحانَه وفضلِه وكرمِه، ولا بُدَّ أنْ يقترنَ معه العملُ، قالَ تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

فالرجاءُ لا يصحُّ إلاَّ مع العملِ، قالَ العلماءُ: والرجاءُ ثلاثةُ أنواعٍ:

الأولُ: رجاءُ رجلٍ عملَ بطاعةِ اللهِ على نورٍ من اللهِ، فهو راجٍ لثوابِهِ.

والثاني: رجاءُ رجُلٍ أَذْنَبَ ذنبًا، ثم تابَ منه، فهو راجٍ لمغفرةِ اللهِ وعَفوِهِ وإحسانِه وجودِه وحلمِه وكرمِه.

والثالثُ: رجُلٌ مُتَمادٍ في التَّفريطِ والخَطَايا، يرجو رحمةَ اللهِ بلا عملٍ، فهذا هو الغرورُ والرجاءُ الكاذبُ.

والواجبُ على العبدِ ما دامَ على قيدِ الحياةِ أنْ يكونَ متعادلاً بينَ الخوفِ والرجاءِ، فلا يَغلِبُ جانبُ الرجاءِ لئلا يُفْضِيَ به ذلكَ إلى الأمْنِ من مَكْرِ اللهِ، فيكونَ من الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا يغلِبُ جانبُ الخوفِ لئلا يُفْضِيَ به إلى اليأسِ من رحمةِ اللهِ، فيكونَ من الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ

رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر: ٥٦]، ومن الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٧].

ولهذا قالَ بعضُ العلماءِ: الخوفُ والرجاءُ كجناحي الطائرِ إذا اسْتَوَيَا استوى الطائرُ، وتمَّ طيرانُه، وإذا نَقصَ أحدُهُما وقعَ فيه النَّقْصُ، وإذا ذهبا صارَ الطائرُ في حدِّ الموتِ. وقالَ بعضُهم: القلبُ في سيرِه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بمنزلةِ الطائرِ: فالمحبةُ رأسُه، والخوفُ والرجاءُ جناحاهُ، فمتى سَلِمَ الرأسُ والجناحانِ فالطائرُ جيِّدُ الطيرانِ، ومتى قُطِعَ الرأسُ ماتَ الطائرُ، ومتى فُقِدَ الجناحانِ فهو عُرْضةٌ لكلِّ صائدٍ وكاسرٍ.

وقد وصفَ اللهُ سبحانَه أنبياءَه والصالحينَ من عبادِه أنَّهم يَجْمَعون بينَ الخوفِ والرجاءِ؛ فقالَ تعالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقالَ تعالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وابتغاءُ الوسيلةِ إليهِ: هو طلبُ القربِ منه بالعبوديةِ والمحبةِ، فَذَكرَ أنَّهم تَحلَّوا بمقاماتِ الإيمانِ الثلاثةِ التي عليها بناؤُه وهي: الحبُّ، والخوفُ، والرجاءُ، فإنَّ مَنْ أَحبَّ اللهَ تقرَّبَ إليه، ومَنْ رَجاهُ أطاعَه، ومَنْ خافَه تَرَكَ معصيتَه؛ وبذلكَ يكونُ قد اتَّخذَ الأسبابَ الجالبةَ للثوابِ، والمُنْجِيةَ من العقابِ، فأهلُ المعرفةِ باللهِ هم الذينَ يعملونَ بطاعةِ اللهِ ويخافونَ اللهَ؛ قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

رَوى الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ عن عائشةَ ـ رضي اللهُ عنها ـ قالتْ: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، قَوْلُ الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أَهو الذي يَزْنِي، ويشربُ الخمرَ، ويسرِقُ؟ قال: «**لا يا ابنةَ الصدِّيقِ، ولكنَّه الرجلُ يصومُ، ويُصلِّي، ويتصدَّقُ، ويخافُ ألا يُقْبَلَ منه**»[١]. قالَ الحسنُ: عَمِلوا واللهِ بالطاعاتِ، واجتهَدوا فيها، وخافوا أنْ تُردَّ عليهم، إنَّ المؤمنَ جمَعَ إحسانًا وخشيةً، والمنافقَ جَمعَ إساءةً وأمنًا.

نعَمْ إنَّ الذي ذَكرهُ الحسنُ ـ رحمه اللهُ ـ ينطبقُ على كثيرٍ من الناسِ اليومَ، فقدِ انغمسَ الكثيرُ في المعاصِي، واتِّباعِ الشهواتِ، وإضاعةِ الصلاةِ، وجمعِ المالِ من المكاسبِ المُحَرَّمَةِ، ولا يخافونَ عقابَ اللهِ. لقد حذَّر اللهُ هؤلاءِ وأمثالَهُمْ، من أخذِهِم بالعقوبةِ على غِرَّةٍ منهم، وفي حالِ مأْمَنِهم، قالَ تعالَى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧]، وقالَ تعالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ١٠٠].

فاتقُوا اللهَ، يا مَنْ هجرتُم المساجدَ، وتَرَكْتُم الصلاةَ مع جماعةِ المسلمينَ، أو أخَّرْتُم الصلواتِ عن أوقاتِها، أو تركتُم الصلاةَ بالكليةِ، أَمَا تخافونَ أن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٧٣٥) والترمذي (٣١٧٥).

يأخُذكُم اللهُ على غِرَّةٍ كما أَخَذَ من كان قبلكُم من العُصاةِ والمجرمينَ؟! قالَ تعالَى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٩]. أَلَمْ تسمَعوا وعيدَاللهِ وإنذاره لكم بقوله: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]، وقولِه تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: ٤، ٥] لقد فسَّرَ ابنُ عباسٍ وغيرُهُ إضاعةَ الصلاةِ والسَّهوَ عنها، بأنَّهما تأخيرُها عن وقتِها، فكيفَ بِمَنْ يَتْرُكُونَها بالكليةِ، هؤلاءِ في سَقَر، وإذا قيلَ لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

وإذا كانَ العاملونَ بطاعةِ اللهِ يخافونَ ألا تُقبلَ مهم طاعتُهم، كما قالَ اللهُ تعالَى عنهم: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠] فكيفَ لا يخافُ العاصِي أنْ يُعاقَبَ على معصيتِه؟! إنَّ جهلَ هؤلاءِ باللهِ هو الذي حَمَلَهُم على التَّمادِي في معصيتِه. أمَّا أهلُ المعرفةِ باللهِ فهم أهلُ خشيتِه، كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «**أنَا أتقَاكُم للهِ، وأشَدُّكم له خشيةً**»[(١)]، وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «**إنِّي لأعْلَمُكم باللهِ، وأشَدُّكم له خشيةً**»[(٢)]، وقالَ: «**لو تعلمونَ ما أعْلَمُ لَضَحِكتُم قليلًا، ولَبَكَيتُم كثيرًا، ولَمَا تلَذَّذْتُم بالنساءِ على الفُرُشِ، ولَخرجتم إلى الصُّعُداتِ تَجأرونَ إلى اللهِ تعالَى**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٦٧) من حديث جابر بن عبد الله.
(٢) أخرجه البخاري (٢٠) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه البخاري (٤٦٢١) ومسلم (٢٣٥٩) والترمذي (٢٣١٢) من حديث أبي ذر.

إنَّ خوفَ اللهِ تعالَى يحبسُ الإنسانَ عن المعاصِي، ولو تَمكَّنَ منها وكان خالياً من الناسِ؛ كما قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. وخوفُ اللهِ تعالَى هو الذي يحمِلُ العاصي على المبادرةِ بالتوبةِ، كما في قصةِ الرجُلِ والمرأةِ اللذين جاءَ كلٌّ منهما إلى النبيِّ ﷺ، واعترف عندَه بالزِّنَا، وطلب منه إقامةَ الحدِّ عليه بالرجمِ، وألَحَّا حتى أُقِيمَ عليهما الحدُّ ورُجِما.

ورجاءُ رحمةِ اللهِ هو الذي يُرَغِّبُ العبدَ في الإكثارِ من الطاعاتِ، وبَذْلِ النفوسِ والأموالِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ. والخوفُ والرجاءُ مُتلازمانِ، فكلُّ راجٍ خائفٌ، وكلُّ خائفٍ راجٍ، فالخوفُ بلا رجاءٍ يأسٌ وقنوطٌ، والرجاءُ بلا خوفٍ أمنٌ من مَكرِ اللهِ. وقالَ بعضُ السلفِ: ينبغي أنْ يغلِبَ في حالِ الصحةِ جانبُ الخوفِ، ويغلِبَ عندَ الموتِ والخروجِ من الدنيا جانبُ الرجاءِ ويحسنَ الظن باللهِ تعالَى؛ وفي الحديثِ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا عندَ ظَنِّ عبدِي بي»[١]، وفي الحديثِ الآخرِ: «لا يموتنَّ أحدُكم إلاَّ وهو يحسنُ الظَّنَّ بربِّه»[٢]. رواهُ مسلمٌ.

فاتقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، واعمَلوا بطاعتِه راجينَ ثوابَه، واتركُوا معصيتَه خائفينَ من عقابِه.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٤ـ٤١].

باركَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) صحيح مسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله.

الخطبة الثانية :

الحمدُ للهِ على فضلِه وإحسانِه، أسبغَ علينا نِعمهُ ظاهرةً وباطنةً ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] فله الحمدُ والشكرُ، ونسألُه المزيدَ من فضلِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليه، وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانِه، وسلَّم تسليمًا.

أَمَّا بعدُ :

عبادَ اللهِ: اتقُوا اللهَ تعالَى. بعضُ الناسِ قد يَغْتَرُّ بصحتِه أو بشبابِه، فيفسَحُ لنفسِه في تناولِ شهواتِها المُحرَّمةِ، ويؤجِّلُ التوبةَ، إمَّا اعتمادًا على سعةِ عَفْوِ اللهِ، وإمَّا استبطاءً للأَجَلِ، وتمديدًا للأملِ، وهذا من تغريرِ الشيطانِ للإنسانِ، ومن تسويلِ النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسوءِ، فكما أنَّ عفو الله سبحانه واسع فإن عقابه شديد، وكما أنَّه سبحانَه رحيمٌ بعبادِه فإنَّه غيورٌ على مَحَارِمِه، وفي كثيرٍ من الآياتِ قَرَنَ سبحانَه مغفرتَه بتوبةِ العبدِ من ذنوبهِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه : ٨٢]، وقَرَنَ مغفرتَه للذنوبِ بشِدَّةِ عقابِه للعُصَاةِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر : ٣].

وأمَّا استبطاءُ الأجَلِ، وطولِ الأملِ فإنَّهما من الغرورِ، فَكَمْ من عاصٍ أخذَهُ اللهُ في ريعانِ شبابِه، ووافِرِ صحتِه، وكَمْ من صحيحِ الجسمِ ماتَ من غيرِ مرضٍ، وكَمْ من شخصٍ فاجأَهُ الموتُ في مأمَنِهِ، وهو نائمٌ على فراشِهِ، أو راتعٌ في شهواتِه، أو مستغرقٌ في غفلاتِه، كما قالَ تعالَى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأعراف : ٩٧، ٩٨]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا

بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف: ٤]. إنكم ترونَ حدوثَ الأمراضِ التي لم تَكُنْ في أسلافِكم الذينَ مضوا، وتسمعونَ عن وقوعِ الحوادثِ التي ينْجُمُ عنها كوارثُ في المراكبِ البريةِ والبحريةِ والجويةِ، فيهلك فيها جماعاتٌ وأُسرٌ بأكملِها، وتسمعونَ عن حوادثِ الحروبِ، والزلازلِ، والحرائقِ، والانفجاراتِ المُرَوِّعَة التي يهلكُ بها المئاتُ بلِ الألوفُ من الناسِ فجأَةً وعلى غِرَّةٍ، وأكثرُهُم على غيرِ استعدادٍ، وعلى غيرِ توبةٍ، وقد حذَّرَنا ربُّنا هذا الموقفَ، فقالَ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

فاتقوا اللهَ، عبادَ اللهِ، فإنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، واعلموا أنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ... إلخ.

* * *

في الخشوعِ في الصلاةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمَرَنا بالاستعانةِ بالصبرِ والصلاةِ على مشاقِّ الحياةِ، وأَخْبَرَ أنَّها كبيرةٌ إلاَّ على الخاشعينَ، ووصفَ المؤمنينَ بالخشوعِ في صلاتِهم، وجَعَلَ ذلكَ أوَّلَ صفاتِهم، فقالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، أحمدُه على عظيمِ فضلِه وإحسانِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له تعظيمًا لشأنه، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الدَّاعي إلى رضوانِه، وصلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومن تَبِعَهُم بإحسانِه.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلَموا أنَّ الخشوعَ في الصلاةِ هو روحُها والمقصودُ منها، وقد وصَفَ اللهُ به رُسُلَه والصالحينَ من عبادِه فقالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. ووصفَ أهْلَ العِلمِ بخشيتِه والخشوعِ عندَ سماعِ كلامِه، فقالَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ۝١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٧ـ١٠٩].

وأَصلُ الخُشوعِ: لينُ القلبِ وسكونُه وخضوعُه، فإذا خَشَعَ القلبُ تَبِعَه

خشوعُ الجوارحِ والأعضاءِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «ألاَ إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلَحتْ صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه ألا وهي القلبُ»[١]. متفقٌ عليهِ. ومتى تكَلَّفَ الإنسانُ الخُشوعَ في جوارحِهِ وأطرافِه معَ عدمِ خُشوعِ قلبِهِ كانَ ذلكَ خُشوعَ نفاقٍ؛ فقد نَظَرَ عمرُ ـ رضي اللهُ عنه ـ إلى شابٍّ قد نَكَّسَ رأسَه، فقالَ له: يا هذا، ارفعْ رأسَكَ، فإنَّ الخُشوعَ ليسَ في الرقابِ. إنَّ الخشوعَ لا يزيدُ على ما في القلبِ، والخُشوعُ الحاصلُ في القلبِ إنَّما يحصلُ من معرفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ومعرفةِ عظَمتِه، فمَنْ كان باللهِ أَعرفَ كان له أخشعَ.

ومن أعظمِ الأسبابِ لحصولِ الخُشوع تَدَبُّرُ كلام اللهِ عزَّ وجلَّ، فقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]. وقد وصفَ اللهُ المؤمنينَ من علماءِ أهلِ الكتابِ بالخشوعِ عند سماعِ هذا القرآنِ، فقالَ تعالَى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]. وقد ذمَّ اللهُ مَنْ لا يخشعُ عندَ سماعِ كلامِه، فقالَ سبحانَه: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد: ١٦]، بلْ قد تَوَعَّدَ اللهُ أصحابَ القلوبِ القاسيةِ بقولِه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقد كانَ النبيُّ ﷺ يستعيذُ باللهِ من قلبٍ لا يخشعُ، كما في الحديثِ الذي رواهُ مسلمٌ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: «اللهم إني أعوذُ بك من

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢، ٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

عِلْمٍ لا ينفَعُ، وقلبٍ لا يَخْشَعُ، ومن نفسٍ لا تشبَعُ، ومن دعوةٍ لا يُسْتجَابُ لها»[(١)].

وقد شَرَعَ اللهُ لعبادِه من أنواعِ العباداتِ ما يظهَرُ فيه خشوعُ قلوبِهم وأبدانِهم، ومن أعظَمِ ذلكَ الصلاةُ، وقد مَدَحَ اللهُ الخاشعينَ فيها بقولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. قالَ مجاهدٌ: كان العلماءُ إذا قامَ أحدُهم في الصلاة هابَ الرحمنَ عزَّ وجلَّ أنْ يَشذَّ نَظَره، أو يلتفِتَ، أو يقلِبَ الحَصى، أو يعبثَ بشيءٍ أو يحدثَ نفسَه في أمرِ الدنيا، إلا ناسياً، ما دام في صلاتِهِ. وفي صحيح مسلمٍ عن عثمانَ ـ رضي اللهُ عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ما من امرئٍ مسلمٍ تَحْضُرُه صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسِنُ وضوءَها وخشوعَها وركوعَها، إلاَّ كانتْ كفارةً لِمَا قَبْلَها من الذنوبِ، ما لمْ تُؤْتَ كبيرةٌ، وذلكَ الدهرَ كلَّه»[(٢)].

عبادَ اللهِ: وللخشوعِ في الصلاةِ أسبابٌ من أعظمِها استحضارُ العبدِ عظَمةَ ربِّه الذي هو واقفٌ بينَ يديهِ وأنَّه قريبٌ منه، يَراهُ، ويسمَعُه، ويَطَّلِعُ على ما في قلبِه وضميرِه، فَيَسْتَحي من ربِّه عزَّ وجلَّ. ومن أسبابِ الخشوعِ في الصلاةِ وضعُ اليدينِ إحداهُما على الأخرى، بأنْ يضعَ اليمنى على اليُسْرى، ويجعلَهما فوقَ صدرِه، ومعنى ذلكَ الذلُّ والانكسارُ بينَ يدي اللهِ عزَّ وجلَّ، فقد سُئِلَ الإمامُ أحمدُ ـ رحمه الله ـ عن المرادِ بذلكَ فقالَ: هو ذُلٌّ بينَ يديْ عزيزٍ.

ومن أسبابِ الخشوعِ في الصلاةِ قطعُ الحركةِ والعبث، وملازمةُ السكونِ، ولهذا لَمَّا رأَى بعضُ السلفِ رجلاً يعبثُ بيدِه في الصلاةِ قالَ: «لو خَشَعَ قلبُ هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم.
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨).

لخَشَعَتْ جوارحُه»[١]، ورُوي ذلكَ مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ. وبعضُ الناسِ إذا قامَ في الصلاةِ يَتَمَلْمَلُ ويُحرِّكُ يديهِ ورجليهِ، ويعبثُ بلحيتِه وأنْفِه، حتى إنَّه يُؤذِي مَنْ بجواره، وهذا مِمَّا يدلُّ على عدمِ الخشوعِ في الصلاةِ.

ومن أسبابِ الخشوعِ في الصلاةِ حُضُورُ القلبِ فيها، وعدمُ انشغالِه بهمومِ الدنيا وأعمالِها، وأنْ يُقْبِلَ بقلبِه على اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يشتغلَ بغيرِ صلاتِه، وقد جاءَ النَّهْيُ عن الالتفاتِ في الصلاةِ؛ قالَ العلماءُ: والالتفاتُ في الصلاةِ نوعانِ:

أحدهما: التفاتُ القلبِ عن اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ ينصرفَ إلى الدنيا وأَشغالِها، ولا يتفرَّغَ لربِّه، وفي صحيحِ مسلمٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ في فضلِ الوضوءِ وثوابِه: **«فإنْ هو قامَ وصلَّى، فحمدَ اللهَ، وأثْنَى عليه، ومجَّدَه بالذي هو أهْلُه، وفرَّغَ قلبَهُ، انصرفَ من خطيئتِه كيومَ ولدتْه أمُّه»**[٢].

النوعُ الثاني: الالتفاتُ بالنظرِ يمينًا وشمالاً، والمشروعُ قَصْرُ النظرِ على موضعِ سجودِه؛ لأنَّ ذلك من لوازمِ الخشوعِ، ويقطعُ عنه الاشتغالَ بالمناظرِ التي حولَه، وفي صحيحِ مسلم عن عائشةَ ـ رضيَ اللهُ عنها ـ: سألت رسولَ اللهِ ﷺ عن الالتفاتِ في الصلاةِ فقالَ: **«هو اختلاسٌ يختَلسُه الشيطانُ من صلاةِ العبدِ»**[٣]. وخَرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ من حديثِ الحارثِ الأشعري ـ رضي اللهُ عنه ـ عن النبيِّ ﷺ؛ **«أنَّ اللهَ أَمَرَ يحيى بنَ زكريا عليهما السلامُ بِخمسِ كلماتٍ؛ أنْ يعملَ بهنَّ ويأمُرَ بني إسرائيلَ أنْ يعملوا بهنَّ، فذَكَرَ منها: «وأَمَرَكُم بالصلاةِ، فإنَّ اللهَ ينصبُ وجهَه لوجهِ عبدِه ما لمْ يلتفتْ، فإذا صلَّيْتُم فلا**

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٢) من حديث عمرو بن عبسة، وهو حديث طويل.
(٢) أخرجه البخاري (٧٥١، ٣٢٩١) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه أحمد (١٦٧١٨، ١٧٣٤٤، ٢٤٠٣) والترمذي (٢٨٦٣).

تلتَفِتوا»(١)، ورَوَى الإمامُ أحمدُ أيضاً من حديثِ أبي ذرٍّ ـ رضي اللهُ عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «لا يزالُ اللهُ مُقْبلاً على العبدِ في صلاتِه ما لمْ يلتفتْ، فإذا التفتَ انصرفَ عنه»(٢).

عبادَ اللهِ: إنَّ الصلاةَ في كلِّ ما يُفعلُ فيها خضوعٌ للهِ عزَّ وجلَّ، كالقيامِ والركوعِ والسجودِ، وما يُقَالُ في هذه الأحوالِ من الأذكارِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقالَ: ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣]؛ لأنَّ الركوعَ خضوعٌ للهِ، وذُلٌّ بينَ يديهِ بظاهرِ الجسدِ، وقد أَبى المتكبرونَ أنْ يركَعوا، فتوَعَّدَهم اللهُ بقولِه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٤٨، ٤٩].

ومن ذلكَ السجودُ، وهو أعظم ما يظهرُ فيه ذُلُّ العبدِ لربهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ جَعَلَ العبدُ أشرفَ أعضائِه، وأعزَّها عليه، وأعْلاها عليه: أوْضعَ ما يكونُ بينَ يدي ربِّه، فيضَعُه في الترابِ مُتعَفِّرًا، ويتبعُ ذلكَ انكسارُ القلبِ وتواضُعُه وخشوعُه للهِ عزَّ وجلَّ، ولهذا كانَ جزاءُ المؤمنِ إذا فَعلَ ذلكَ أنْ يقرِّبَه اللهُ إليه، «فإنَّ أقربَ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ» كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ، وقد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩]. وقد استكبرَ إبليسُ عن السجودِ، فباءَ باللعنةِ والصَّغارِ، وأَبى المشركونَ والمنافقونَ السجودَ واستكْبروا عنه، فتوعَّدَهُم اللهُ عزَّ وجلَّ بأن يَحرِمَهُم من السجودِ يومَ القيامةِ عند لقائِه، لمَّا أبوا أنْ يسجدوا له في الدنيا؛ قالَ تعالَى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ

---

(١) مسند أحمد (٢٠٩٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة.

وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم: ٤٢: ٤٣].

رَوَى البخاريُّ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**يكشفُ ربُّنا عن ساقِه، فيسجدُ له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويَبْقَى مَنْ كانَ يسجدُ في الدنيا رياءً وسُمعةً، فيذهبُ ليسجُدَ، فيعودُ ظهرُه طبقًا واحدًا**»[1]، قالَ الإمامُ ابنُ كثيرٍ: وهذا الحديثُ مُخَرَّجٌ في الصحيحينِ وفي غيرِهما من طُرُقٍ، وله ألفاظٌ، وهو حديثٌ طويلٌ مشهورٌ.

ومن تمامِ خشوعِ العبدِ في ركوعِه وسجودِه أنَّه إذا ذَلَّ لربِّه بالركوعِ والسجودِ، وصفَ ربَّه حينئذٍ بصفاتِ العزِّ والكبرياءِ والعظمةِ والعُلُوِّ، فكأنَّه يقولُ: الذُّلُ والتواضعُ وصْفِي، والعُلُوُّ والعظمةُ والكبرياءُ وصفُكَ. ولهذا شُرِعَ للعبدِ في ركوعِه أنْ يقولَ: «سبحانَ ربِّيَ العظيمِ»، وفي سجودِه: «سبحانَ ربِّيَ الأعلى».

أيُّها المسلمونَ: إنَّ التأمُّلَ في أسرارِ الصلاةِ وفوائِدِها مِمَّا يسهلُ على العبدِ أداءَها، ويجعَلُه متلذذًا بها، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرةُ عيني في الصلاةِ**»، وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقالَ تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. لكنْ حينما يغفلُ العبدُ عن فوائدِ الصلاةِ وأسرارِها، تصبحُ ثقيلةً عليه، وإذا دخلَ فيها كأنَّه في سجنٍ حتى يخرجَ منها؛ ولهذا تَكْثُرُ حركاتُه وهواجسُه، ويسابقُ الإمامَ، ومنْ كانَ كذلكَ فإنَّه يخرجُ من صلاتِه بلا فائدةٍ، ولا يجدُ رغبةً في الدخولِ فيها، وإنَّما يصلِّي من بابِ العادةِ أو المجاملةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٠).

فاتقوا اللهَ، عبادَ اللهِ، في صلاتِكم، فإنَّها عمودُ الإسلامِ، وتَنْهى عن الفحشاءِ والآثامِ، وهي آخرُ ما أوْصَى به النبيُّ ﷺ عند خروجِه من الدنيا، وآخرُ ما يُفقدُ من الدينِ، فليسَ بعدَ فقدِ الصلاةِ دينٌ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ . . .﴾ إلى قوله تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١ـ١١].

باركَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في فضلِ دِينِ الإسلامِ، والنَّهْيِ عن التَّشَبُّهِ بالكفارِ

الحمدُ للهِ على نعمهِ الظاهرةِ والباطنةِ التي أجلُّها نعمةُ الإسلامِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهَ وحدَه لا شريكَ له في ربوبيتِه، وإلهيتِه، وأسمائِه وصفاتِه العظامِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بعثَهُ بدينِ الإسلامِ إلى جميعِ الأنامِ، صلَّى اللهُ عليهِ وسلم، وعلى آلِه وأصحابِه البررةِ الكرامِ، صلاةً وتسليمًا كثيرًا مُستمرَّيْنِ على الدوام.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واشكُروا نعمتَه عليكم، حيثُ يقولُ لكم: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. هذا الإسلامُ الذي تضمَّنَ سعادةَ الدنيا والآخرةِ لِمَنْ تَمسَّك به، ولا يعرفُ قَدْرَ هذا الإسلامِ إلاَّ من عرفَ دينَ الجاهليةِ قديمًا وحديثًا.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ ـ رحمهُ اللهُ ـ: اعلمْ أنَّ الله سبحانَه وتعالَى أرسلَ محمداً ﷺ إلى الخَلْقِ، وقد مَقَتَ أهلَ الأرضِ عَربَهُم وعَجَمَهُم إلا بقايا من أهلِ الكتابِ، ماتوا أو أكثرُهُم قبلَ مَبعثِه، والناسُ إذ ذاك أَحَدُ رَجُلينِ: إمَّا كتابيٌّ مُعتصمٌ بكتابٍ إما مُبَدَّلٍ، وإما منسوخٍ، أو بدينٍ دارسٍ، بعضُه مجهولٌ، وبعضُه متروكٌ. وإمَّا أُميٌّ مِنْ عربيٍّ وعجميٍّ مُقبلٌ على عبادةِ ما استحْسَنَه، وظنَّ أنَّه ينفعُه؛ من نجمٍ، أو وثنٍ، أو قبرٍ، أو تمثالٍ، أو غيرِ ذلكَ. والناسُ في جاهليةٍ جهلاءَ، من مقالاتٍ يظُنُّونَها عِلمًا وهي جَهْلٌ، وأعمالٍ يحسبُونَها صلاحًا وهي

فسادٌ. وغايةُ البارعِ منهم عِلْماً وعملاً أنْ يُحصّلَ قليلاً من العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ المتقدمينَ مشوبًا بأهواءِ المُبدِّلينَ والمبتدعينَ، قد اشْتَبَه عليهم حقُّه بباطِلِه. أو يشتغلُ بعملٍ، القليلُ منه مشروعٌ، وأكثرُه مُبتَدَعٌ، ولا يكادُ يُؤَثِّرُ في صلاحِه إلاَّ قليلاً.

هذا الذي ذَكَرَهُ شيخُ الإسلامِ من وصفِ الجاهليةِ، وما عليهِ أهلُها من الضلالِ المبينِ، ولا يزالُ هذا الوصفُ وأسوأُ منه، ملازماً لكلِّ مَنْ لم يؤمنْ بهذا الدينِ، فالكفارُ اليومَ يتخبطونَ في ضلالاتٍ غليظةٍ، وجهالاتٍ شنيعةٍ، وضياعٍ مُسْتَمِرٍّ في العقائدِ والأخلاقِ والمعاملاتِ.

ثم قالَ شيخُ الإسلامِ ـ رحمَهُ اللهُ ـ : فهدَى اللهُ الناسَ ببركةِ نُبُوَّةِ محمدٍ ﷺ وبما جاءَ به من البيِّناتِ والهُدَى، هدايةً جَلَّتْ عن وصفِ الواصفينَ، وفاقتْ معرفةَ العارفينَ، حتى حصلَ لأُمَّتِه المؤمنينَ به عمومًا، ولأُولي العِلمِ منهم خصوصًا، من العلمِ النافعِ، والعملِ الصالحِ، والأخلاقِ العظيمةِ، والسُّنَنِ المستقيمةِ: ما لو جُمِعَتْ حكمةُ سائرِ الأممِ علماً وعملاً الخالصةُ من كلِّ شَوبٍ إلى الحكمةِ التي بُعِثَ بها ـ لتَفَاوتَتْ تفاوتاً يمنعُ معرفةَ قَدْرِ النسبةِ بينهما، فللّهِ الحمدُ كما يُحِبُّ ربُّنا ويَرْضى.

أيُّهَا المسلمونَ: إنَّ دينَ الإسلامِ الذي بُعِثَ به محمدٌ ﷺ هو الصراطُ المستقيمُ، صراطُ الذينَ أَنعَمَ اللهُ عليهِم من النبيينَ، والصديقينَ، والشهداء، والصالحينَ، وما سِواهُ من الأديانِ بعدَ مجيئِهِ فهو دينُ المغضوب عليهِم والضالينَ، وقد فَرَضَ اللهُ عليكُم في كلِّ ركعةٍ من صلاتِكم أنْ تَسْألوه أنْ يهدِيَكُم لهذا الصراطِ المستقيمِ، ويُجَنِّبَكُم صراطَ المغضوبِ عليهِم والضالينَ.

تَسألونَه أنْ يهديَكُم للتَّمَسُّكِ بهذا الدينِ، وأنْ يحميكم من الانحرافِ عنه

إلى دينِ الكفارِ في عقائِدِهم وعاداتِهم المُحرَّمةِ، وفي صفاتِهم وأخلاقِهم. ولكنَّ بعضَ المسلمينَ أو كثيرًا منهم يقولُ هذا الدعاءَ بلسانِه من غيرِ استحضارٍ لمَعْناهُ، ومن غيرِ التزامٍ بمدلولِه؛ ولذلكَ يحصلُ عندَه من النقصِ في دينِه والأخذِ في دينِ المغضوبِ عليهِم والضالينَ: الشيءُ الكثيرُ، تقليدًا لهم، وتَشَبُّهًا بهم، وقد حرَّمَ اللهُ ورسولُه التَّشَبُّهَ بالكفارِ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**منَ تشبَّهَ بقومٍ فهو منهم**»[١]. رواهُ أحمدُ، وأبو داودَ، وصحَّحَه الحاكمُ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ ـ رحمه اللهُ ـ: ومعَ أنَّ اللهَ قد حذَّرَنا سبيلَهُم، فقضاؤُه نافذٌ بما أخْبَرَ به رسولُه مِمَّا سبق في علمِه؛ حيثُ قالَ فيما أخْرجاهُ في الصحيحينِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لتتبعنَّ سنَنَ منْ كانَ قبلَكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حتى لو دخَلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخَلْتُموه**»، قالَ: يا رسولَ اللهِ، اليهودُ والنصارى؟ قالَ: «**فَمَنْ؟**»[٢]. ورَوَى البخاريُّ في صحيحِه عن أبي هريرةَ ـ رضي اللهُ عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتَّى تأخُذَ أُمَّتي مَأْخَذَ القرونِ شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذارعٍ**» فقيلَ: يا رسولَ اللهِ، كفارسَ والرومِ؟ قالَ: «**ومن الناسُ إلا أولئكَ**»[٣]. فأَخبرَ أنَّه سيكونُ في أمَّتِه مُضاهاةٌ لليهودِ والنصارى وهم أهلُ الكتابِ، ومُضاهاةٌ لفارسَ والرومِ وهم الأعاجمُ، فقد كانَ ﷺ يَنْهي عن التَّشَبُّهِ بهؤلاءِ وهؤلاءِ، وليسَ هذا إخبارًا عن

---

(١) أخرجه أحمد (٥٠٩٣) وأبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) بلفظ: «شبرا بشبر، وذراعاً بذراع». ولفظ «حذو القذة بالقذة» أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥) من حديث شداد بن أوس.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده (٨٢٢٨) من حديث أبي هريرة.

جميعِ الأمةِ، بلْ قد تَواتَرَ عنه أنَّه قالَ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ظاهرةً على الحقِّ حتى تقومَ الساعةُ**»[١]. كما أنَّ هذا الإخبارَ منه ﷺ عن حصولِ التَّشَبُّهِ في هذه الأمةِ، إنَّما هو إخبارٌ بمعنى النَّهْيِ والتحذيرِ عن الوقوعِ فيه.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ دينَ الإسلامِ هو دينُ الكمالِ، والتَّمسُّكُ به هو العِزُّ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقالَ تعالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ، فما بالُ أقوامٍ يلتمسونَ العزَّةَ بغيرِ الإسلامِ! فيقلدونَ الكفارَ في عقائِدهم وأخلاقِهم وعاداتهم الذميمة؟. لقد كانَ الكفارُ يغلُونَ في الأمواتِ من الأنبياءِ والصالحينَ، ويَبْنونَ على قبورِهم المساجدَ والقبابَ، فكانَ في هذِه الأمةِ مَنْ يفعلُ ذلك ويلجأُ إلى الأضرحةِ لقضاءِ حاجاتِه وتفريجِ كُرُباتِه، وشادوا عليها المبانِي والمساجدَ والمشاهدَ الشركيةَ تَشَبُّهًا بالكفارِ.

لقد كانَ الكفارُ يعملونَ أعيادًا بدعيةً كأعيادِ الموالدِ والأفراحِ، فكانَ في هذهِ الأمةِ منْ يعملُ مِثْلَ هذِه الموالدِ البدعيةِ، كالمولدِ النبويِّ، وموالدِ العظماءِ، وما يُسَمُّونَه بالأعوامِ، أو بالأيامِ؛ كيومِ الأمِّ، ويومِ الطفلِ، أو عام الطفلِ، وما يُسَمُّونَه بالأسابيعِ؛ كأسبوعِ النظافةِ، وأسبوعِ المساجدِ، وأسبوعِ الشجرةِ، إنَّ دينَنا ـ وللهِ الحمدُ ـ يأمُرنا ببِرِّ الوالدينِ دائمًا، في حياتِهما وبعدَ موتِهما، لا في يوم مُعَيَّنٍ فقط،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠، ٧٣١١، ٧٤٥٩) ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة. وأخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٣٦٤١، ٧٣١٢، ٧٤٦٠) ومسلم (١٠٧٣) من حديث معاوية بن أبي سفيان. وفي الباب عن جمع من الصحابة انظر: تخريجها في نظم المتناثر في الحديث المتواتر للكتاني برقم (١٤٥).

ودينُنا يأمُرُنا بالنظافةِ وتنظيفِ المساجدِ دائمًا لا في أسبوعٍ مُعَيَّنٍ، وديننا يأمُرنا بغرسِ الأشجارِ والزراعةِ دائمًا في أوقاتِها المناسبةِ، لا في أسبوعٍ مُعَيَّنٍ فقط، فلِمَ هذا التقليدُ الأعمى، والتَّشَبُّهُ الممقوتُ؟!.

لقد آلَ الأمرُ ببعضِ الناسِ إلى أنْ حَمَلَهُم التَّشَبُّهُ بالكفارِ على مخالفةِ الفِطْرةِ وسُنّةِ الأنبياءِ، فحلقوا لِحاهُم، ووفَّروا شواربَهم، وشوَّهوا خِلْقَتَهم تمشياً مع التقليدِ الأعمى، ومخالفةً لأمرِ الرسولِ ﷺ حيثُ يقولُ: «**جُزُّوا الشواربَ، وأرْخُوا اللِّحى؛ خالِفُوا المجوسَ**»[1]. رواهُ مسلمٌ. وفي الصحيحينِ: «**خالفوا المشركينَ؛ وفِّروا اللِّحى، وأحْفوا الشواربَ**»[2]. ولقد آلَ الأَمرُ ببعضِ المسلمينَ إلى أنْ هَجَروا أسماءَ آبائِهم وأُمَّهاتِهم وقبائلهم، وسَمَّوا أولادَهُم بأسماءٍ غريبةٍ، فتركوا التَّسَمِّي بمحمدٍ وعبدِالرحمنِ وعليٍّ وإبراهيمَ وفاطمةَ ورقيةَ وعائشةَ مثلاً، إلى التَّسَمِّي بأسماءٍ غريبةٍ على أُسْرَتِهم وبلادِهِم، لا لشيءٍ إلاَّ محبةً للتقليدِ الأعمى، ومخالفةً للأسماءِ المعتادةِ ولو كانتْ أحسَنَ، ورُبَّما بعدَ فترةٍ وجيزةٍ، تتغيرُ بسببِ ذلكَ أسماءُ الأُسر كلِّيًّا، وتنقطعُ صلةُ الأحفادِ بالأجدادِ لتغيُّرِ الأسماءِ، فلا يعرفُ بعضُهم بعضًا، إنَّ الذي حمَلَ هؤلاءِ على استجلابِ هذِه الأسماءِ إنَّما هو ضَعْفُ الشخصيةِ، وعدمُ الثقةِ بماضِيهِم، واعتقادُ الكمالِ في غيرِهِم.

ولقد آلَ الأَمرُ ببعضِ الناسِ في مناسبةِ الزواجِ إلى أنْ يأتي بأمورٍ منكرةٍ في أثناءِ الحفلاتِ، فيأْتِي بالمطربينَ، وآلاتِ اللهوِ، والمصورينَ، وأغرب من ذلكَ أنَّه قد يُظْهِرُ بِنتَه أو مَوْليَّتَه العروسَ أمامَ الحفْلِ بلباسٍ غيرِ عاديٍّ يُسَمُّونَه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨٩٢) ومسلم (٢٥٩).

التشريعةَ، وربما يكونُ غيرَ ساترٍ، ويتركُ المُصَوِّرَ يُصوِّرُها على هذِه الحالِ السيئةِ. محرماتٌ تُرْتَكَبُ ومنكراتٌ تُفعَلُ لا لشيءٍ إلا للتقليدِ الأعمى، والتَّشَبُّهِ بِمَنْ لا دينَ لهم ولا خُلُقَ!.

فاتقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وتمسَّكوا بدينِكُم، وأخلاقِكُم، وعاداتِكُم الطيبةِ، ولا تَنْحَدِروا معَ التقليدِ والتَّشَبُّهِ الممقوتِ ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] قالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ: ـ رضيَ اللهُ عنه ـ: إنَّ اللهَ أَعزَّنا بهذا الدينِ فمهْما ابتغينا العزَّ من غيرِهِ أَذَلَّنا اللهُ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ..

* * *

خطبةٌ واعظةٌ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ الموتَ والحياةَ ليبْلُوَكُم أيُّكُم أحسنُ عملاً، وهو العزيزُ الغفورُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه البشيرُ النذيرُ والسراجُ المنيرُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا إلى يومِ البعْثِ والنُّشورِ.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقوا الله، وتفكَّروا في دنياكُم وآخرتِكم، واعلَموا أنَّكُم لم تُخلَقُوا عبثًا، ولن تُترَكُوا سُدًى، وأنَّ لكم دراينِ: دارًا تَمُرُّونَ بها للتَّزَوُّدِ ثم تنتقلونَ منها، وهي الدنيا، ودارًا تَسْتقِرُّون فيها للجزاءِ وهي الآخرةُ، فَتَزَوَّدُوا من دنياكُم لآخرتِكُم، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حسابَ، وغدًا حسابٌ ولا عملَ، وسيندمُ عبدٌ واجَهَ الحسابَ بلا عملٍ صالحٍ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]. وسيطلبُ الرجوعَ إلى الدنيا ليَستدْركَ ما فاتَه فلا يُمكَّنُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]؛ أيْ: أنَّه قائِلٌ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ لا محالةَ، وليسَ الأمْرُ على ما يَظُنُّه من أنَّه يُجَابُ إلى الرجوعِ إلى الدنيا. فَتصَوَّروا ـ يا عبادَ اللهِ ـ هذا الموقفَ الحرِجَ، واسْتعِدُّوا له قبلَ أنْ تُواجِهُوهُ، واستغِلُّوا حياتَكُم الدنيا فيما خُلِقتُم له، ولا تُضَيِّعُوها بالغفلاتِ، والتفريطِ بالطاعاتِ، واتِّباعِ الشهواتِ، فإنَّ المماتَ

قريبٌ، والحسابَ شديدٌ، والجزاءَ واقعٌ لا محالةَ ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ ـ رحمه الله ـ: واللهُ سبحانَه معَ كونِه خالقَ كلِّ شيءٍ، فهو موصوفٌ بالرِّضا والغضبِ، والعطاءِ والمَنْعِ، والخفْضِ والرَّفْعِ، والرحمةِ والانتقامِ.

فاقتضتْ حكمتُه سبحانَه أنْ خلَقَ دارًا لطالِبي رِضَاهُ، العاملينَ بطاعتِهِ، المُؤْثِرينَ لأَمْرِه، القائمينَ بمَحَابِّه، وهي الجنةُ، وجعلَ فيها كلَّ شيءٍ مَرْضِيٍّ، وملأَها من كلِّ محبوبٍ ومرغوبٍ ومُشْتَهًى لذيذٍ، وجعلَ الخيرَ بحذافيرِه فيها، وجعلها محلَّ كلِّ طيبٍ من الذواتِ، والصفاتِ، والأقوالِ. وخلقَ دارًا أُخْرى لطالبي أسبابِ غضبِه وسخطِهِ، المُؤْثِرينَ لأغراضِهم وحظوظِهم على مرضاتِه، العاملينَ بأنواعِ مخالفتِه، القائمينَ بما يَكرَهُ من الأعمالِ والأقوالِ، الواصفينَ له بما لايليقُ به، الجاحدينَ لِمَا أَخبرَتْ به رُسُلُه من صفاتِ كمالِه ونعوتِ جلالِه ـ وهي جنهَّمُ، وأودَعَها كلَّ مكروهٍ، وسجْنُها مليءٌ من كلِّ شيء مُؤْذٍ ومُؤلمٍ، وجعلَ الشَّرَّ بحذافيره فيها، وجعلَها محلَّ كل خبيثٍ من الذواتِ، والصفاتِ والأقوالِ، والأعمالِ.

فهاتان الداران هما دارَا القرارِ، وخَلقَ داراً ثالثةً هي كالميناءِ لهاتينِ الدارينِ، ومنها يتزوَّدُ المسافرونَ إليهما، وهي دارُ الدنيا، ثم أخرَجَ إليها من آثارِ الدارينِ بعضَ ما اقْتَضَتْه أعمالُ أربابِهما، وما يستدلُّ به عليهما حتى كأنَّهما رأيُ عينٍ، ليصيرَ الإيمانُ بالدارينِ ـ وإنْ كانَ غيبًا ـ وجْهَ شهادةٍ تَسْتأْنِسُ به النفوسُ وتستدِلُّ به، فأخرَجَ سبحانَه إلى هذه الدارِ من آثارِ رحمتِه من الثمارِ، والفواكِه، والطيباتِ، والملابسِ الفاخرةِ، والصُّوَرِ الجميلةِ، وسائرِ مَلاذِّ النفوسِ،

ومشتهاها: ما هو نفحةٌ من نفحاتِ الدارِ التي جعلَ ذلكَ كلَّه فيها على وجْهِ الكمالِ، فإذا رآهُ المؤمنونَ ذَكَّرَهُم بما هناكَ من الخيرِ، والسرورِ، والعيشِ الرَّخيِّ، فشَمَّروا إليهِ وقالوا: اللهُمَّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرةِ، وأحْدَثَتْ لهم رُؤْيَتُه عزمًا وهِممًا، وجِدًّا وتشميرًا؛ لأن النعيمَ يُذكَرُ بالنعيمِ، والشيءَ يُذكرُ بجنسِه، فإذا رأى أحدُهم ما يعجِبُه ويروقُه، ولا سبيلَ له إليه قال: موعدُك الجنةُ، وإنَّما هي عشيةٌ أو ضُحاها. فوجودُ تلكَ المشتهياتِ، والملذات في هذه الدارِ رحمةٌ من اللهِ، يسوقُ بها عبادَه المؤمنينَ إلى تلكَ الدارِ التي هي أكملُ منها، وزادٌ لهم من هذه الدارِ إليها، فهي زادٌ، وعِبرةٌ، ودَليلٌ، وأَثرٌ من آثارِ رحمتِه التي أوْدَعَها تلكَ الدارَ، فالمؤمنُ مَنْ يهتزُّ برؤيتِها إلى ما أمامَه، ويُثيرُ ساكنَ عزماتِه إلى تلك، فَنفْسُه ذوَّاقةٌ، إذا ذاقتْ شيئاً منها تاقتْ إلى ما هو أكملُ منه حتى تتوقَ إلى النعيمِ المقيمِ في جوارِ الربِّ الكريمِ.

وأخرجَ سبحانَه إلى هذِه الدارِ أيضاً من آثارِ غضبِه، ونقمتِه من العقوباتِ، والآلامِ، والمحنِ، والمكروهاتِ من الأعيانِ والصفاتِ: ما يستدلُّ بجنسِه على ما في دارِ الشقاءِ من ذلكَ، معَ أنَّ ذلك من آثارِ النَّفَسَيْنِ في الشتاءِ والصيفِ اللذينِ أَذِنَ اللهُ سبحانَه بحكمتِه لجهنَّمَ أنْ تتنفس بهما، فاقتضَى ذانك النفسان آثارًا ظهرتْ في هذهِ الدارِ، كانتْ دليلاً وعِبرةً عليها، وقد أشارَ سبحانَه إلى هذا المعنى، ونبَّهَ عليهِ بقولِه في نارِ الدنيا: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٣] تذكرةً يُذَكرُ بها الآخرة، ومنفعةً للنازلينَ بالقوى، وهم المسافرونَ؛ يُقَالُ: أقْوَى الرَّجُل: إذا نَزلَ بالقوى، وهي الأرضُ الخاليةُ، وخَصّ المقوينَ بالذِّكرِ ـ وإنْ كانتْ منفعتُها عامةً للمقيمينَ والمسافرينَ ـ تنبيهًا لعبادِه ـ واللهُ أعلمُ بمرادِه من كلامِه ـ على أنَّهم كلُّهم مسافرونَ، وأنَّهم في هذه

الدارِ على جناحِ سَفَرٍ، ليسوا مقيمينَ ولا مستوطنينَ . . . . إلى أنْ قالَ ابنُ القيِّمِ ـ رحمه الله ـ: ولمَّا كانتْ هذه الدارُ ممزوجاً خيرُها بِشرِّها، وأذاها براحتِها، ونعيمُها بعذابِها، اقتضتْ حكمةُ أحْكَمِ الحاكمينَ أنْ خَلَّصَ خيرها من شرِّها، وخَصَّهُ بدارٍ أخْرى هي دارُ الخيراتِ المحضةِ، ودارُ الشرورِ المحضةِ، فكتبَ على هذِه الدارِ حكمَ الامتزاجِ والاختلاطِ، وأعْقَبَه بالتمييزِ والتخليصِ، فميَّزَ بينَهما بدارينِ ومحلينِ، وجعلَ لكلِّ دارٍ ما يناسِبُها، وأسكنَ فيها مَنْ يناسِبُها، وخلقَ المؤمنينَ المخلصينَ لرحمتِه، وأعداءَه الكافرينَ لنقمتِه. انتَهى. .

فاتقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، ولا تُضَيِّعوا دُنياكُم باللَّهْوِ والغفلةِ والإعراضِ عن طاعةِ اللهِ، فتَخْسَروا آخرتكُم؛ فإن الدنيا مزرعةٌ للآخرةِ، مَنْ زَرَعَها بالطاعةِ حصدَ الكرامةَ يومَ القيامةِ، ومنْ زرَعَها بالمعاصِي حصدَ الخسارةَ والندامةَ. السفهاءُ من الناسِ جعَلوا الدنيا أكبَرَ هَمِّهِم، ومبلغَ عِلْمِهِم، فانشغَلوا بها عن الآخرةِ، فَخَسِروا الدنيا والآخرةَ. والعقلاءُ من الناسِ جَعَلُوا الدنيا مطيةً للآخرةِ، وتزَوَّدُوا منها بالأعمالِ الصالحةِ، فربحُوا دُنياهم وآخرتَهم.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ الدنيا لا تُذَمُّ ولا تُمدَحُ لذاتِها، فإنَّها وقتٌ ثمينٌ، ومنافعُ وإمكانياتٌ مفيدةٌ، وإنَّما الذي يُذَمُّ أو يُمْدَحُ هو تصرُّفُ ابنِ آدمَ فيها، فمَنْ قَصَرَ هَمَّه عليها، أو تَمَتَّعَ بها فيما حَرَّمَ اللهُ، وضيَّعَ أوقاتَها، فذلكَ هو المذمومُ، ومن أرادَ الآخرةَ واستعانَ بالدنيا على الوصولِ إليها، واشتغلَ في التَّزَوُّدِ النافعِ، فذلكم الممدوحُ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]. إنكم تسمعونَ قصصَ من

قَبْلَكُم من الأممِ والأفرادِ الذينَ اشتغَلوا بالدنيا ونسوا الآخرةَ؛ كعادٍ، وثمودَ، وفرعونَ، وهامانَ، وأبي جهلٍ، وأبي لهبٍ، ماذا كانتْ عقوبتُهم في الدنيا؟ وماذا تكونُ عاقبتُهم في الآخرة؟ وتشاهدونَ من مُعاصِريكُم مِمَّنْ تَشَبَّهُوا بهؤلاءِ، فلقوا نفسَ المصيرِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٩، ٧٠].

قالَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ ـ رحمهُ اللهُ ـ في معنى هاتينِ الآيتينِ: فإنَّه سبحانَه قالَ: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ فتلكَ القوةُ التي كانتْ فيهم كانوا يستطيعونَ أنْ يعملوا بها للدنيا والآخرةِ، وكذلك أموالُهم، وتلك القوةُ والأموالُ والأولادُ هو الخَلاقُ، والخلاقُ هو النصيبُ والحظُّ وما خُلِقَ للإنسانِ وقُدِّرَ له، فاستَمْتَعوا بقوَّتِهِم وأموالِهِم وأولادِهِم في الدنيا، ونفسُ الأعمالِ التي عملوها بهذِه القوةِ لو أرادوا بها اللهَ والدارَ الآخرةَ لكانَ لهم ثوابٌ في الآخرةِ عليها، فَتَمَتُّعُهُم بها أَخَذَ حظوظَهُم العاجلةَ بها، فدَخلَ في هذا من لم يعملْ إلا لدنياهُ، وقد توعَّدَ سبحانَه هؤلاءِ المستمتعينَ الخائضينَ بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ حبوطُ الأعمالِ معناهُ فسادُها وبُطْلانُها، فانظروا كيفَ بطلتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرةِ، فلم يبقَ لهم دُنيا ولا دينٌ، وخَسِروا الدُّنيا والآخرةَ ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ

ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فاتقوا اللهَ عباد اللهِ، ولا تضيعوا دينكم فتضيع دنياكم وآخرتكم، واسمعوا نداء ربكم حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [فاطر: ٥ ـ ٧].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في فضلِ الجهادِ، وبيانِ أنواعِه

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمرَ بالجهادِ في سبيلهِ في كتابِه وعلى لسانِ رسولِه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ربوبيتهِ وإلهيتِه وأسمائِه وصفاتِه، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، جاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِه وأصحابِه الذين آمنوا به، وعزَّروهُ ونصرُوه، واتَّبَعوا النورَ الذي أُنزِلَ معه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلموا أنَّ الجهادَ ذروةُ سنامِ الإسلامِ، وأنَّ منازلَ المجاهدينَ أعلى منازلِ أهلِ الجنةِ، كما لهم الرفعةُ في الدنيا فهم الأعلون في الدنيا والآخرةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقد أَمرَ اللهُ المؤمنينَ أنْ يجاهدوا فيهِ حقَّ جهادِه، فقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨] كما أَمَرَهم أنْ يتَّقوه حقَّ تقاتِه، فكما أنَّ حقَّ تُقاتِه أنْ يُطاعَ فلا يُعْصى، ويُذكَرَ فلا يُنْسى، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ، فحقُّ جهادِه أنْ يُجاهِدَ العبدُ نفْسَه ليُسلِمَ قلبُه ولسانُه وجوارحُه للهِ، فيكونُ كلُّه للهِ وباللهِ، والجهادُ على أربعِ مراتبَ وهي: جهادُ النَّفْسِ، وجهادُ الشيطانِ، وجهادُ الكفارِ، وجهادُ المنافقينَ وأصحابِ المعاصِي والمنكراتِ. وأكمَلُ الخَلقِ عندَاللهِ منْ كَمَّلَ مراتبَ الجهادِ كلَّها، والخلقُ متفاوتونَ عندَ اللهِ في منازِلِهم، كتفاوتِهِم في مراتبِ الجهادِ؛

ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ أكملَ الخَلْقِ وأكرَمَهُم عندَ اللهِ؛ لأنَّه كَمَّلَ مراتبَ الجهادِ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِه منذُ أنْ بَعثَه اللهُ إلى أنْ تَوفَّاهُ، فإنَّه لمَّا أَنزلَ اللهُ عليهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: ١ـ٤] قامَ ودَعا إلى اللهِ ليلاً ونهارًا، سِرًّا وجهارًا، ولمَّا نزَلَ عليهِ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] صدَعَ بأمرِ اللهِ، لا تأخُذُه في اللهِ لومةُ لائمٍ، ولمَّا أمَرهُ اللهُ بقتالِ الكفارِ امتثلَ أَمرَ ربِّه، فغزاهُم بِنَفْسِه ﷺ بضعًا وعشرينَ غزوةً، أوَّلها غزوةُ بدرٍ، وآخرِها غزوةُ تبوك.

وعلى كلِّ مسلمٍ أنْ يُجاهدَ بنوعٍ من أنواعِ الجهادِ، إمَّا بالقلبِ، وإمَّا باللسانِ، وإمَّا بالمالِ، وإمَّا باليدِ. والمسلمُ في هذهِ الحياةِ بينَ ثلاثةِ أعداءٍ كلُّها تحتاجُ إلى جهادٍ: النَّفْسُ، والشيطانُ، وأهلُ المعاصِي من الكفارِ والمنافقينَ والفساقِ، وجهادُ النَّفْسِ هو الأصلُ والأساسُ، وما عداهُ فَرْعٌ عليه؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «**المجاهدُ من جاهدَ بنفسِه في ذات الله، والمهاجرُ من هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه**»[1]. رواهُ أحمدُ، وصحَّحَه ابنُ حِبَّان، والحاكمُ. فمنْ لم يجاهدْ نفسَه لتفعَلَ ما أُمِرَتْ به، وتَتركَ ما نُهِيتْ عنه، لا يُمْكِنه جهادُ عَدُوِّهِ في الخارجِ. وقد سُلِّطَ على العبدِ هذه الأعداءُ الثلاثةُ ابتلاءً وامتحاناً، وأُمِرَ بجهادِها، وأُعطِيَ مددًا وسلاحًا وعُدةً لمقابَلتِها؛ فجهادُ النَّفْسِ يكونُ بإلزامِها بِتَعلُّمِ الهُدَى، والعملِ به، والدعوةِ إليه، والصبرِ على الأذى فيه، ومنعِها من شهواتِها المحُرمةِ. وجهادُ الشيطانِ يكونُ بتكذيبِ وعْدِه، ومعصيةِ أَمْرِهِ، وارتكابِ نَهْيِهِ؛ فإنَّه يعدُ الأمانيَّ، ويُمَنِّي الغرورَ، ويعِدُ الفقرَ، ويأمرُ بالفحشاءِ، ويَنْهىٰ

---

(١) تقدم.

عن التقوى؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. والأمرُ باتِّخاذِه عدوًّا، يعني استفراغَ الوسعِ في محاربتِه ومجاهدتِه؛ لأنَّه عدُوٌّ لا يفترُ عن محاربةِ العبدِ ليلاً ونهارًا.

وأمَّا جهادُ العُصَاةِ وأصحابِ المنكراتِ فهو على ثلاثِ مراتبَ:

الأولى: باليدِ إذا قَدَرَ، فإنْ عجزَ انتقلَ إلى اللسانِ، فإنْ عجزَ جاهدَ بالقلبِ بأنْ يبغضَهم بقلبِه، ويبتعدَ عن مخالطتِهم، كما قالَ النبيُّ ﷺ: **«مَنْ رأَى منكم منكرًا فلْيُغَيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لمْ يستطعْ فبلسانِه، فإنْ لمْ يستطعْ فبقلبِه، وذلكَ أضعفُ الإيمانِ»**[1]. فالإنكارُ بالقلبِ يجبُ بكل حالٍ؛ إذْ لا ضررَ في فِعلِه، ومَنْ لم يفعلْه فليسَ بمؤمنٍ؛ لقولِه ﷺ: **«وذلكَ أضعفُ ـ أو أدنى ـ الإيمانِ»**، وقالَ: **«ليسَ وراءَ ذلكَ من الإيمانِ حبةُ خردلٍ»**[2].

ويجبُ على المسلمِ أنْ يبدأَ بنَفْسِه، ثمَّ بأهلِه وأولادِه ومَنْ تحتَ يدِه، فيأمُرُهُم بالمعروفِ، ويَنهاهُم عن المنكرِ، كما قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وقالَ النبيُّ ﷺ: **«كلكم راعٍ، وكلُّكُم مسؤولٌ عن رعيتِه»**[3]. وقَيِّمُ البيتِ راعٍ على من فيهِ.

فَاتَّقُوا اللهَ، يا عبادَ اللهِ، فإنَّ كثيرًا من بيوتِكُم مملوء بالمنكراتِ والعُصاةِ، وأنتم ساكتونَ لا تُفكِّرونَ ولا تُغَيِّرونَ، وقد أهْملتُم مسؤوليتَكم، وضَيَّعتُم رعِيتَكُم. فاخْشوا العقوبةَ والوقوفَ بينَ يدي اللهِ يومَ يسألُكم عن رعِيَّتِكُم. أُقسمُ باللهِ لو أنَّ واحدًا من أولادِكم تعدى على شيءٍ من أموالِكُم فلن تَسْكُتوا عنه، ولن

---

(١) نفس الحديث السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري (٨٩٣، ٢٤٠٩) ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر.

تَترُكُوه يَعبَثُ به، بل تأخُذُونَه بالحزمِ والشدَّةِ، لكن حينما يَتعدَّى على دينِكم فالأمْرُ في نظرِكُم سهلٌ؛ لأنَّ الدنيا أغلى عندَ بعضِكُم من الدينِ، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ.

وأمَّا جهادُ المنافقينَ: فيكونُ باللسانِ، وذلك بِرَدِّ شُبهِهِم، ودَحضِ مفترياتِهم التي ينشرونها بينَ المسلمينَ؛ لقصدِ التخذيلِ والإرجافِ والإفسادِ؛ لأن المنافقينَ يُظْهِرونَ الإسلامَ، ويُبْطنونَ الكفرَ، ويَعيشونَ بينَ أظْهُرِ المسلمينَ، فَشرُّهم خطيرٌ، وأذاهُم للمسلمينَ كثيرٌ، فهم دائمًا يحاولونَ الإفسادَ وتفريقَ الكلمةِ، وزرعَ العداوةِ بينَ المسلمينَ، وقد أَمَرَ اللهُ بجهادِهم، وذلكَ بالحُجَّةِ والبيانِ، وتحذيرِ المسلمينَ من شرِّهِم، وببيانِ صفاتِهم الخبيثةِ حتى يعرِفَهُم المسلمونَ على حقيقتِهِم فيحْذَرُوهُم.

وأمَّا جهادُ الكفارِ: فيكونُ بالقلبِ واللسانِ والمالِ والنَّفسِ، فيجب على المسلمينَ أنْ يجاهدوا الكفارَ بأموالِهِم وأنفُسِهِم؛ لأنَّ الله أَمرَ بالجهادِ بالنَّفسِ والمالِ في آياتٍ كثيرةٍ، ومن عجزَ عن الجهادِ بالبدنِ لم يسقطْ عنه الجهادُ بالمالِ، ومن عجزَ عن الجهادِ بالمالِ لم يسقطْ عنه الجهادُ بالبدنِ، وجهادُ الكفارِ على نوعين:

جهادُ دفاعٍ: كما إذا أرادَ العدوُّ الهجومَ على المسلمينَ، فإنَّه حينئذٍ يجبُ القتالُ على كلِّ من يُطيقُه دفاعًا عن الدينِ والحرمةِ والأنفُسِ، وهو قتالُ اضطرارٍ.

وجهادُ طلبٍ: بأنْ يغزوَ المسلمونَ الكفارَ في ديارِهِم لإعلاءِ كلمةِ اللهِ، وإرهابِ العدوِّ، وهذا قتالُ اختيارٍ، يجبُ على الكفايةِ لا على الأعيانِ.

والمقصودُ من جهادِ الكفارِ ألا يُعْبَدَ إلاَّ اللهُ وحدَه، فلا يُدْعىٰ غيرُه

ولا يُصلَّىٰ لغيرِه، ولا يُحَجَّ إلاَّ إلى بيتِه، ولا تُذْبحَ القرابينُ إلاَّ للهِ، وأنْ يكونَ الدينُ كلُّه للهِ، وكلمةُ اللهِ هي العليا.

وقد ظَهرتْ بعضُ الجماعاتِ في وقتِنا الحاضرِ، تُنكِرُ فرضيةَ الجهادِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن النكرِ، وتقتصرُ على العبادةِ والأذكارِ والسَّيْرِ في الأرضِ، أو الخروجِ كما يُسَمُّونه. وظهرتْ طائفةٌ أُخْرى من الكتابِ والمؤلفينَ، يُنْكِرونَ جهاد الطلبِ، ويزعمونَ أنَّ الجهادَ دفاعٌ فقطْ، ومعنى هذا أنْ يسكتَ المسلمونَ، ويتركوا الكفارَ على كُفْرِهِم حتى يحصلَ منهم اعتداءٌ على المسلمينَ في بلادِهِم، وهذه الفكرةُ دسيسةٌ من أعداءِ الإسلامِ، يريدونَ بها القضاءَ على هذا الدينِ، وعدمَ انتشارِه في الأرضِ، وأنْ يستفحلَ الكفرُ والشَّرُّ، ويُحَاصرَ الإسلامَ في رقعةٍ ضيقةٍ من الأرضِ. وإذا نشأَ جيلٌ من أبناءِ المسلمينَ ولُقِّنَ هذه الفكرةَ الماكرةَ، نُسيَ الجهادُ في سبيلِ اللهِ، وقُضِيَ على الإسلامِ والمسلمينَ، فالواجب على علماءِ المسلمينَ أنْ يَنتبِهُوا لهذا الخطرِ، ويردُّوا على هذِه الفكرةِ، ويُبيِّنوا خطورتَها، ويُبيِّنوا حُكْمَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وأنواعَه، وأسبابَه، وفوائِدَه، وذلكَ بتدريسِ كتبِ العقائِد، وكتبِ الفقهِ التي ألَّفها العلماءُ المحققونَ من سلفِ هذه الأمةِ وأئِمَّتِها، والابتعادِ عن كثيرٍ من الكتبِ التي ألَّفَها كتَّابٌ يجهلونَ الأحكامَ الشرعيةَ، ويتأثَّرونَ بالأفكارِ المشبوهةِ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ ـ رحمه اللهُ ـ: فكلُّ مَنْ بَلَغَتْهُ دعوةُ رسولِ اللهِ ﷺ إلى دينِ اللهِ الذي بَعَثَهُ به، فلم يَسْتَجِبْ له فإنَّه يجبُ قِتالَه ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وقالَ أيضاً: والأَمرُ بالجهادِ وذِكرُ فضائِلِه في الكتابِ والسُّنةِ أكثرُ منْ أنْ يحصَرَ، ولهذا كانَ أفضلَ ما تطوَّعَ به الإنسانُ، وكان ـ باتفاقِ العلماءِ ـ أفضلَ من الحجِّ والعمرةِ، ومن صلاة التطوع،

وصوم التطوع كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنةُ، حتى قالَ النبيُّ ﷺ: «**رأسُ الأمرِ الإسلامُ، وعمودُه الصلاةُ، وذروةُ سنامِه الجهادُ**»، وقال أيضًا: وأبلغُ الجهادِ الواجب للكفارِ والمُمْتَنِعينَ عن بعضِ الشرائعِ، كَمَانِعِي الزكاةِ، والخوارج ونحوهم، يجبُ ابتداءً ودفعًا، فإذا كانَ ابتداءً فهو فرضٌ على الكفَايةِ، إذا قامَ به البعضُ سَقطَ الفرضُ عن الباقينَ، وكانَ الفضلُ لِمَنْ قامَ به. فأمَّا إذا أرادَ العدوُّ الهجومَ على المسلمينَ فإنَّه يصيرُ دفْعُهُ واجباً على المقصودينَ كُلِّهم، وعلى غيرِ المقصودينَ لإعانتِهم؛ كما قالَ تعالَى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] انتَهى كلامُه رحِمَه اللهُ.

وقد بيَّن أنَّ القتالَ على نوعينِ:

قتالُ ابتداءٍ: وهو غزوُ العدوِّ في بلادِه أو غيرِ بلادِه، وقتالُ دفاعٍ، وفرَّقَ بينهما في الحُكْمِ. وهؤلاءِ الكُتَّابُ المحدثونَ المتأثرونَ بأفكارِ الغربِ والمستشرقينَ، يجعلونَ القتالَ كُلَّه في الإسلامِ قتالَ دفاعٍ، وهذا دَسٌّ من المستشرقينَ، وجَهلٌ من كُتّابِ المسلمينَ؛ فيجبُ التَّنبُّهُ له، والتَّنْبيهُ على خطرِه؛ لأنَّه تعطيلٌ للجهادِ الذي هو ذروةُ سنامِ الإسلامِ، وسبيلُ تَبْليغِه ونَشْرِه.

فاتقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وجاهِدوا في اللهِ حقَّ جهادِه، كما أَمَرَكمُ بذلكَ، لتكونوا من الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

الفرحُ المشروعُ، والفرحُ الممنوعُ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ على ما خَصَّنا به من جزيلِ الإنعامِ، ومَنَّ علينا به من دينِ الإسلامِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ربوبيتِه وإلهيتِه وأسمائِه وصفاتِه، وتباركَ اسمُ ربِّكَ ذي الجلالِ والإكرامِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُ ورسولُه، أفضلُ من صلَّى وصامَ، ووقفَ بالمشاعرِ وطافَ بالبيتِ الحرامِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه البررةِ الكرامِ، وسلَّمَ تسليمًا على الدوامِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا الله تعالَى، وانظُروا في عملِكُم، واستَعِدُّوا لرحيلِكُم من هذه الدارِ إلى دارِ القرارِ، وأينَ سيكونُ نزولُكُم أفي الجنَّةِ أم النارِ؟ فحقيقٌ بِمَنْ تحقَّقَ قُرْبُ رحيلِه، ولا يَدْري أينَ يكونُ نُزولُه، أنْ يخافَ غايةَ الخوفِ، وأنْ يستَعِدَّ بأحسنِ ما لدَيهِ من استعدادٍ، وألا يغْفلَ ولا يَلْهوَ، ولا يفرحَ بمالٍ زائلٍ، ودنيا فانيةٍ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] أمَرَ اللهُ سبحانَه المؤمنينَ أنْ يفرحوا بفضلِه ورحمتِه، وهما القرآنُ والإسلامُ؛ لأنَّهما أكبرُ نعمةٍ على العبادِ، فينْبَغي للمسلمينَ أنْ يَسْتَبْشِروا ويَغتبطُوا بهما، ويتَلَذَّذوا بهما، ولا شكَّ أنَّ مَنْ فَرِحَ بشيءٍ تَمَسَّكَ به واحتفَظَ به، وخافَ من زوالِه، كما أنَّ المؤمنينَ يفرَحون بنصرِ اللهِ لهم على أعدائِهم؛ لأنَّ في انتصارِ المؤمنينَ على الكافرينَ انتصارًا للحقِّ على الباطلِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

فالأمورُ التي يُشْرَعُ للمسلمينَ الفرحُ بها: هي القرآنُ والإسلامُ، وانتصارُ الحقِّ على الباطلِ، وتَغَلُّبُ المسلمينَ على الكافرينَ، لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا، وكلمة الذينَ كفروا السفلى. وأمَّا متاعُ الدنيا، وحظوظُها العاجلةُ فقد ذَمَّ اللهُ الفرحَ بها، ولهذا لما أَمَرَ اللهُ بالفرحِ بِفضْلِه وبرحمتِه وقال: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝﴾ [يونس: ٥٨] أيْ أنَّ فضلَ اللهِ ورحمتَه المُتَمَثِّلَينِ في القرآنِ والإسلامِ خيرٌ للناسِ من حُطامِ الدنيا الفَانِي الذي يُتْعِبونَ أَنفُسَهُم بِجَمْعِه، ويتحَمَّلونَ مسؤوليتَه.

وإذا كانَ الأَمرُ كذلك، فاللائقُ بالمؤمنِ ألا يفرَحَ بالحياةِ الدنيا مهما تَزَيَّنَتْ وتَزَخْرَفَتْ، وإنَّما تكونُ قُرَّةُ عينِه وبهجةُ نفسِه بكتابِ ربِّه وذِكْرِهِ وطاعتِه؛ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاةِ»[1]. وقد ذَمَّ اللهُ الفرَحَ بالدنيا؛ لأنَّ ذلكَ دليلٌ على التَّعَلُّقِ بها والانشغالِ بها عن الآخرةِ؛ فقالَ تعالَى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] أيْ أنَّ الكفارَ فَرِحوا بما أُوتُوا من الحياةِ الدُّنيا استدراجًا لهم، ولم يعلَموا أنَّها متاعٌ مؤقتٌ سيزولُ عنهم عمَّا قليلٍ؛ كما ذكَرَ اللهُ عن قومِ قارونَ أنَّهم نَهوه عن الفَرحِ بذلكَ، فقالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقالَ تعالَى عن الإنسانِ: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، وقالَ تعالَى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقالَ تعالَى عن الكفارِ: إنهم حينما يدخلونَ النارَ ويُقَاسونَ شِدَّةَ عذابِها، يُقالُ لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥].

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩) من حديث أنس.

والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، تَذُمُّ الفرحَ بالدُّنيا ومتاعِها؛ لأنَّ ذلكَ يحمِلُ على الأشَرِ والبَطَرِ، ويَشْغَلُ عن العملِ للدارِ الآخرةِ.

وإذا كانَ الفرحُ بالحظوظِ الدنيويةِ مذمومًا معَ ما فيها من بعضِ المصالحِ والمنافعِ العاجلةِ، فكَيفَ بالفرَحِ بالأشياءِ التافهةِ التي لا فائدةَ فيها، ولا خيرَ فيها، وإنَّما هي مجردُ لهْوٍ ولَعِبٍ وضِياعٍ للوقتِ؟ كالفرحِ بانتصارِ المنتخبِ الرياضيِّ الفُلانيِّ على المنتخبِ الآخرِ، ومَنْحِ الجوائزِ الكبيرةِ من المشجعينَ لهذِه المنتخباتِ، بلْ من الرجالِ والنساءِ مَنْ يخرجُ إلى الشوارعِ لاستقبالِ اللاعبينَ، كالذي يَحصُلُ دائماً من التطبيلِ، والفَخْفَخَةِ، وضياعِ الأموالِ والأوقاتِ، وإهدارِ الطاقاتِ؛ لا لشيءٍ إلاَّ أنَّ فريقَنا انتصرَ على الفِرَقِ الأُخرى، وبماذا انتصَرَ؟!! انتصرَ بقذفِ الكرةِ إلى هدفٍ معينٍ، وما هي النتيجةُ والفائدةُ التي تعودُ على المسلمينَ في دينِهم ودنياهُم من وراءِ هذا العبثِ الذي عُظِّمَ شأنُه، وهُوِّلَ أمْرُه؟ حتى صارَ كأنَّه شيءٌ يُذكرُ وهو لا شيءَ. يا لسخافة العقولِ، وضياعِ الحياءِ والرجولِة!!!.

إنَّ الإنسانَ لَيَخْجَلُ أنْ يتحدَّثَ عن هذا، ولكنَّه أصبحَ واقعًا مريرًا، يَتَكَرَّرُ ويتطوَّرُ، ويُحاطُ بِهَالةٍ من الإكبارِ والتبجيلِ والتشجيعِ، في وسائلِ الإعلامِ وفي أوساطِ المجتمعِ ومن بعضِ الرؤساءِ، حتَّى آلَ الأمرُ ببعضِ الشبابِ المُتَهوِّرِ إلى أنْ يقودَ سيارتَه في وسطِ الشارعِ بِطَيْشٍ وحُمْقٍ من شِدَّةِ الفرحِ، حتى نتجَ عن ذلكَ وقوعُ حوادثَ، ذَهبَ بسببِها أَنْفُسٌ بريئةٌ، ونتجَ عنه إزعاجٌ للمارَّةِ وغيرِهم، وتهديدٌ لسلامتِهم، وفي الحكمةِ المشهورةِ: «أنَّ كلَّ شيءٍ تجاوزَ حَدَّه، سينقلبُ إلى ضِدِّه». ونحنُ نَخْشى من العقوبةِ التي تَترتَّبُ على هذا التَّهورِ.

وإذا كانَ الإسلامُ لا يمنعُ من الرياضةِ البدنيةِ المفيدةِ للجسمِ، فإنَّ ذلكَ في حدودِ المعقولِ الذي لا يَشْغَلُ عن واجبٍ دينيٍّ، أو عملٍ دُنْيَوِيٍّ نافعٍ للفردِ والمجتمعِ، وبِشَرْطِ ألا يصلَ إلى حدِّ التَّهَوُّرِ والمبالغةِ. وإذا كانَ الكفارُ يبالغونَ في تشجيعِ هذه الألعابِ، فإنَّه لا يجوزُ لنا ـ معْشَرَ المسلمينَ ـ أنْ نُقَلِّدَهُم، ونَتَشَبَّهَ بهم؛ لأنَّ دينَنا يَمْنَعُنا من التَّشَبُّهِ بهم، ولأنَّ الكفارَ ليسَ لهم مستقبلٌ أُخْرَوِيٌّ يحافظونَ عليه ويستَعِدُّون له؛ لأنَّهم نَسوا اللهَ فأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُم، ونَسوا يومَ الحساب ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢] وليسَ بعدَ الكفرِ ذنبٌ، فلا يُسْتغْرَبُ منهم الانشغالُ بهذِه التُّرَّهاتِ. أمَّا المسلمونَ فإنَّ واجِبَهُم في هذه الحياةِ واجبٌ عظيمٌ، كما قالَ تعالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فليس في حياةِ المسلمينَ فراغٌ لِلَّهْوِ واللعبِ والعبثِ، ولكنَّ حياتَهُم كلَّها جِدٌّ في جِدٍّ، وعملٌ مثمرٌ لدينِهم ودُنْياهم، لأَنْفُسِهِم ولغيرِهم، وكيفَ يكونُ عندَ المسلمينَ اليومَ فراغٌ لِلَّهْوِ واللعبِ، وقد تكالبَ عليهم أعداؤُهُم من اليهودِ والشيوعيينَ والصليبيينَ، وانْتزَعوا منهم بيتَ المقدسِ والمسجدَ الأقصى الذي باركَ اللهُ حَوْلَه، وهو ثالثُ المساجدِ المقدسةِ التي تُشَدُّ الرحالُ إليها للصلاةِ فيها، وهجموا على المسلمينَ في بلادِهِم، في أفغانستانَ، والعراقِ ولبنانَ، والحربُ مُستَمِرَّةٌ بينَ المسلمينَ وبينَ هؤلاءِ الكفارِ في كُلِّ جهةٍ، وقد شُرِّدَ الملايينُ من ديارِهِم، وقُتِلَ الألوفُ من الرجالِ الذين فَقَدَتْهُم عوائِلُهُم فأصبحتِ النساء أراملَ وأصبح الأطفال أيتامًا؟!.

فهلْ يليقُ بالمسلمينَ معَ هذا الواقعِ الأليمِ أنْ يُضَيِّعوا دقيقةً من وقتِهِم، أو

دِرْهمًا من أموالِهِم إلاَّ في الاستعدادِ للخروجِ من هذِه المحنة؟! فلا يَنْشَغِلوا في هذِه التُّرَّهاتِ والتوافِهِ المُضْحِكَة، إنَّني أخْشى أنْ تكونَ هذه المشاغلُ الرياضيةُ بتخطيطٍ من الكفارِ لإشغالِ المسلمينَ عن واجبِهِم وعن التَّنَبُّهِ لمخططاتِ أعدائِهِم، وحتى يَنْشَأَ جيلٌ من الشبابِ المسلمِ على هذا اللَّهْوِ واللعبِ، لا يستطيعُ الجهادَ في سبيلِ اللهِ وتحَمُّلَ المسؤوليةِ؛ لأنَّه شبابُ لَهْوٍ ولَعِبٍ وميوعةٍ.

ألمْ يَتَّعِظِ المسلمونَ بهذِه المجاعةِ التي ضَرَبَتْ كثيرًا من أنحاءِ إفريقيا، وصارَ يموتُ فيها المئاتُ من الناسِ يوميًّا من الجوعِ؟ هلْ يليقُ بِمَنْ يسْمَعُ عن ذلكَ، أو يُشاهِدُه أنْ يَلْهُوَ ويلعبَ أو يشجعَ اللاعبينَ؟ أَمَا يَخْشَى أَنْ يُصِيبَه ما أصابَ غَيْرَه؟!.

فاتقُوا اللهَ، عبادَ اللهِ، وتَذَكَّروا قولَه تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، كَرَّمَ بني آدمَ وفضَّلهُم على كثيرٍ من مخلوقاتِه، بما منحَهُم من العقولِ، وسَخَّرَ لهم من منافعِ الكونِ تَفَضُّلاً منه وإحسانًا، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وصحبِه، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا الله تعالَى، واحذَروا عَدُوَّكُم، كما حَذَّرَكُم اللهُ منه؛ قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ

ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ [يس: ٦٠]. إنَّ هذا الشيطانَ زَيَّنَ لأبيكُم آدمَ المعصيةَ، ودَعَاهُ إليها حتَّى أَوْقَعَه فيها، وحَصَلَ عليه بِسبَبِها ما حَصَلَ من الامتهانِ، وما زالَ يُزَيِّنُ لبني آدمَ ويُغويهِم؛ قالَ تعالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]. إنَّه يُزَيِّنُ لبَنِي آدمَ التوافِهَ والمَضَارَّ؛ لِيَصْرِفَهُم بها عن المنافعِ والحقائقِ، ويُزَيِّنُ لهم الشركَ، والكفرَ، والفسوقَ، والعصيانَ؛ لِيَصْرِفَهُم عن العبادةِ، وطاعةِ الرحمنِ، فهو دائمًا مع بَنِي آدمَ في محاولاتٍ، إذا أَدْرَكَ منهم الشيءَ الحقيرَ تدرَّج بهم إلى الشيءِ الكبيرِ، وإنَّ ما نَراهُ في عالَمِنا اليومَ من جري وراءَ هذه المبارياتِ الرياضيةِ التافهةِ، ما هو إلاَّ مثالٌ واضحٌ لتزيينِ الشيطانِ. فهذه اللعبةُ أُعْطِيتْ من الأهميةِ أكبَرَ من حَجْمِها، من حيثُ الاهتمامُ، والتشجيعُ، وإنفاقُ الأموالِ، وهي لُعْبَةٌ تافهةٌ لا تُسْمِنُ ولا تُغْني من جوعٍ، ولا تعودُ بأيِّ فائدةٍ. لكنَّها أَحْدَثَتْ منافساتٍ وحزازاتٍ بينَ الفِرَقِ ومُشَجِّعيها قد تُؤَدِّي أحيانًا إلى المضاربةِ والمخاصمةِ، كما أَحْدَثَتِ انقساماتٍ وعداواتٍ بينَ المشجعينَ، حتَّى رُبَّما فَرَّقَتْ بينَ الإخوةِ والأقاربِ حينما يُشَجِّعُ كلُّ واحدٍ غيرَ ما يُشَجِّعُه الآخرُ من الفِرَقِ، وشَغَلَتْ عمَّا هو مفيدٌ ونافعٌ. ولو صُرِفَتْ هذِه الجهودُ والأموالُ فيما ينفعُ المسلمينَ لكانَ أَجْدَى.

ومِنْ هنا يَتَبَيَّنُ لنا كيدُ الشيطانِ، وما يُريدُه من وراءِ تَزْيينِهِ لهذِه اللعبةِ التافهةِ التي يَظُنُّها كثيرٌ من الناسِ مُجَرَّدَ عمَلٍ رياضيٍّ، والواقعُ أنَّ وراءَها ما وراءَها. فَيَجِبُ على من خُدِعوا بذلكَ أنْ يُراجِعوا عقُولَهُم، ويستَعِيدوا صَوابَهُم،

وينصَرِفوا إلى ما هو أنفعُ لدينِهم ودُنياهُم، وينْتَبِهوا لخداعِ أعدائِهم ومَكْرِهِم بهم، فإنَّ شأنَ المسلمينَ أرْفَعُ من أنْ يَنْساقوا وراءَ هذِه التوافِهِ الساقطةِ التي يُرَوِّجُها أَعداؤُهُم، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فعُلُوُّ المؤمنينَ على غيرِهم إنَّما يتحقَّقُ بالإيمانِ، فالإسلامُ يَترَفَّعُ بالمسلمينَ عن السفاسفِ والدَّنايا، ويَعْلو بهم إلى مكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الأعمالِ. ومَنْ زَعَمَ أنَّ في هذِه المبارياتِ ظُهُورَ سُمعةِ المسلمينَ فقد أَخطَأَ في زَعمِهِ، فإنَّ السُّمْعَةَ الطيبةَ للمسلمينَ لا تَحْصُل إلاَّ بِتَمَسُّكِهِم بالإسلامِ، كما قالَ عمرُ بنُ الخطابِ ـ رضي اللهُ عنه ـ: «نحنُ قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فَمَتَى ابْتغَينا العزَّةَ بغيرِه أَذَلَّنَا الله». . .

فاتقُوا اللهَ، واعلَموا أنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله . . .

* * *

مسؤوليةُ الإنسانِ المؤمنِ في الحياةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، كَرَّمَ بَنِي آدمَ وحَمَلَهُم في البَرِّ والبحرِ، ورَزَقَهُم من الطيباتِ، وفَضَّلَهم على كثيرٍ مِمَّنْ خلقَ تفضيلاً، ووَعدَ مَنْ شَكَرَه منهم أجرًا جزيلاً، وأَعدَّ لِمَنْ كفرَ بِنعَمِهِ عذابًا وبيلاً.

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ربوبيتِه وإلهيتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وخيرتُه من جميعِ بَرِيَّاتِه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه الذينَ آمنوا به، وعزَّروهُ، ونصرُوهُ، وتَمَسَّكُوا بِسُنَّتِه في حياتِه، وبعدَ مَمَاتِه، وسلَّمَ تسليمًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقوا اللهَ تعالَى. ابنَ آدم، لقد خَلَقَكَ اللهُ في أحسنِ تقويمٍ، وصَوَّرَكَ فأحسنَ صُورَتَكَ، ورَزَقَكَ من الطيباتِ، فما هي مسؤوليتُكَ في الحياةِ؟ إنَّها أعظَمُ مسؤوليةٍ، فلقد تَحَمَّلتَ أمانةً عظيمةً أَبَتْ أنْ تَحمِلَها السمواتُ والأرضُ والجبالُ، وأَشْفَقَتْ منها، وحَمَلْتَها أَنْتَ، ولكَ الثوابُ العظيمُ إنْ قُمْتَ بِحَقِّها ورِعايتِها، أو لك العذابُ الأليمُ إنْ أَضعْتَها وفَرَّطْت في حَقِّها. وسُخِّرَتْ لك جميعُ الكائناتِ بِمَا فيها من منافعَ لِتستَعِينَ بها على تَحَمُّلِ هذه الأمانةِ والقيامِ بحَقِّها. فهل تَدْرِي ما هذه الأمانةُ وما جزاءُ مَنْ رَعَاها، وعقوبةُ مَنْ أضَاعَها؟ إنَّها ما أَوْجَبَ اللهُ عليك من حَقِّه وحقوقِ عبادِه، فإنْ وَعَيْتَها ورَعَيْتَها كنتَ من الذينَ هم لأَماناتِهم وعهْدِهِم راعونَ، الذينَ يَرِثُونَ الفردوسَ هم فيها خالدونَ. وإنْ أَضَعْتَها وأَهْمَلْتَها صِرْتَ في أسفلِ سافلينَ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿لَقَدْ

خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤ ـ ٦].

أيُّها الإنسانُ: إنَّ الطهارةَ من الحَدَثِ أمانةٌ، والصلاةَ أمانةٌ، وفِعْلَ الواجباتِ أمانةٌ، وتركَ المحرماتِ أمانةٌ، وأداءَ الحقوقِ إلى مُستحِقِّيها أمانةٌ، وأعظَمُ هذِه الحقوقِ ما أوْصَى اللهُ به في مُحْكَم كتابِه في قولِه: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦] وهذِه الآيةُ تُسَمَّى آيةَ الحقوقِ العَشَرَةِ؛ لأنَّها اشتمَلتْ على عشرةِ حقوقٍ: وهي حقُّ اللهِ، وحقُّ الوالدينِ، وحقُّ القرابةِ، وحقُّ اليتامى، وحقُّ المساكينِ، وحقُّ الجارِ القريبِ، وحقُّ الجارِ الجُنُبِ، وحقُّ الصاحبِ بالجَنْبِ، وحقُّ ابنِ السبيلِ، وحقُّ المماليكِ.

فأمَّا حقُّ اللهِ سبحانَه وتعالَى، فإنَّه أعظَمُ الحقوقِ، وأوَّلُ الواجباتِ، وهو أنْ تعبُدَه ولا تُشرِكَ به شيئًا، وهو الذي خُلِقْتَ من أجلِه، كما قالَ تعالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. والعبادةُ لا تنفعُ صاحِبَها إلاَّ مَعَ الإخلاصِ، بحيثُ لا يَشُوبُها شركٌ أكبرُ ولا أصغَرُ، كما قالَ تعالَى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وقالَ تعالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]. ومَنْ لمْ يعبدِ اللهَ صارَ عبداً لغيرِه من الشياطينِ، والأهواءِ، والأطماعِ، والشهواتِ، أو الأصنام والأوثان. فالإنسانُ عبدٌ ولا بُدَّ، إمَّا لِرَبِّه وإمَّا لغيرِه، وعبادتُه لربِّه وخالِقِه شَرَفٌ

وعِزٌّ ورِفعَةٌ، وعبادتُه لغيرِه ذلٌّ وهوانٌ وخسارةٌ.

وبعدَ حقِّ اللهِ تعالَى حقُّ الوالدينِ، وهو بِرُّهُما والإحسانُ إليهما، ودَفعُ الأذى عنهما، وعدمُ الإساءَةِ إليهما بالقولِ أو الفِعْلِ، وذلكَ مقابلُ ما أَسْدَياهُ إليكَ من الجميلِ في وقتٍ لا تستطِيعُ فيه أنْ تنفَعَ نفسَك بأيِّ شيءٍ، ولا تدفعُ عنها أيَّ ضررٍ، بلْ لا تُمَيِّزُ بينَ الضارِّ والنافعِ، وقد رَبَّياكَ وتعاهداكَ في تلكَ الحالِ، فَرُدَّ جَمِيلَهُما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤].

قالَ العلماءُ: فأحقُّ الناسِ بعدَ الخالقِ المنانِ، بالشُّكْرِ والإحسانِ، والتزامِ البرِّ والطاعةِ والإذعانِ: مَنْ قَرَنَ اللهُ الإحسانَ إليه بعبادتِه وطاعتِه، وشُكْرَهُ بشُكْرِه، وهما الوالدانِ؛ قالَ تعالَى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

ثُمَّ يأتي بعدَ حقِّ الوالدينِ حقُّ الأقاربِ، وهُمْ ذوو الأرحامِ الذينَ تَجْمَعُكَ بهم قرابةٌ من جهةِ الأَبِ، أو من جِهَةِ الأمِّ؛ كالأجدادِ والجداتِ، والأعمامِ والعماتِ، والأخوالِ والخالاتِ، والإخوةِ والأخواتِ. وَحَقُّهُم عليكَ أنْ تَصِلَهُم وتُحسِنَ إليهم؛ بالمالِ، والزيارةِ، والسلامِ، وسائرِ وجوهِ الإحسانِ القَوْلِيِّ والفِعْلِيِّ.

ثم حقُّ اليتامى، وهم الصغارُ الذينَ فقدوا آباءَهم، وذلكَ بالإحسانِ إليهم، والرَّأفَةِ بهم، وكفالَتِهم، وحِفْظِ أموالِهم وتَرْبيتِهم، وفي ذلكَ أجْرٌ عظيمٌ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«كافلُ اليتيمِ له أو لغيرِه، أنا وهو كهاتينِ في الجنَّةِ»**[1]؛ رواهُ مسلم.

ثـمَّ حـقُّ المساكينِ، وهم الذينَ أَسْكَنَتهُم الحاجـةُ وأَذَلَّتهُـم، وذلكَ

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٣) من حديث أبي هريرة.

بِمُواساتِهم، والتَّصَدُّقِ عليهم، وتفَقُّدِ أحوالِهِم؛ رَوَى مسلمٌ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الساعي على الأرْمَلَةِ والمسكينِ كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ**» وأَحَسَبُه قالَ: «**وكالقائم لا يَفتُرُ وكالصائِمِ لا يُفْطِرُ**»[1].

ثم حقُّ الجارِ؛ بالإحسانِ إليه، وكَفِّ الأذَى عنه، وقد جاءَ الترغيبُ بالإحسانِ إلى الجارِ، والوعيدُ الشديدُ لِمَنْ آذَى جارَه. وقد رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**الجيرانُ ثلاثةٌ: فَجَارٌ له ثلاثةُ حقوقٍ، وجارٌ له حقانِ، وجارٌ له حقٌّ واحدٌ. فأمَّا الجارُ الذي له ثلاثةُ حقوقٍ فالجارُ المسلمُ القريبُ؛ له حقُّ الجوارِ، وحقُّ القرابةِ، وحقُّ الإسلامِ. والجارُ الذي له حقانِ، فهو الجارُ المسلمُ، فله حقُّ الإسلامِ، وحقُّ الجوارِ. والجارُ الذي له حقٌّ واحدٌ هو الكافرُ وله حقُّ الجوارِ**»[2].

ثم حقُّ الصاحبِ بالجنبِ، وهو الرفيقُ في السَّفرِ، وذلك بِحُسنِ مُصَاحَبَتِه، والإحسانِ إليه.

ثم حقُّ ابنِ السبيلِ، وهو المسافرُ الذي يجتازُ بك مارًّا، ومن الإحسانِ إليه إعْطَاؤُه ما يحتاجُ إليهِ في سَفَرِه، وهِدايتُه إلى الطريقِ إذا ضَلَّ.

ثم حقُّ المماليكِ من الأرقاءِ والبهائمِ؛ بالإحسانِ إليهم، والرفقِ بهم؛ قالَ النبيُّ ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ سيِّئُ الملكةِ**»[3].

ثم خَتَمَ سبحانَه الآيةَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٦] فَنَفَى سُبحَانَه مَحَبَّتَهُ عن المُختالِ الفخورِ، وهو المُتكَبِّرُ الذي

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٢)، وهو في صحيح البخاري برقم (٥٣٥٣) نحوه.
(٢) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (٨/ ١٦٤).
(٣) أخرجه الترمذي (١٩٤٦) من حديث أبي بكر.

يفتَخرُ بنفسه، ويتطاولُ على الناسِ، وخصَّ هاتينِ الصفتينِ؛ لأنَّهما تحمِلانِ المُتَّصِفَ بهما على الإعراضِ عن الأقاربِ والفقراءِ والجيرانِ وغيرِهم مِمَّن ذُكِرَ في الآيةِ، فلا يُحسِنُ إليهم.

أيُّهَا المسلمُ: إنَّ هذه الحقوقَ المذكورةَ في هذه الآيةِ هي من أهَمِّ الأماناتِ التي تحَمَّلْتَها، فأحسِنْ أداءَها، والقيامَ بها، كما أَمَرَكَ اللهُ بذلكَ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

أيُّهَا التاجرُ: إنَّك مُؤْتَمنٌ على أموالِك، فأحسِنِ التَّصَرُّفَ فيها على الوجْهِ المشروعِ، ومُؤْتَمَنٌ على بيعِك وشرائِكَ، فالزَمِ الصدقَ، ولا تغُشّ ولا تَخْدَعِ المتعاملينَ معك.

أيُّهَا الموظفُ: إنَّك مؤتمنٌ على عملِك الوظيفيِّ، فأحسن القيامَ به على الوجْهِ المطلوبِ، لا تُعَرْقِلْ معاملاتِ المراجعينَ، لا تُحَابِ الأقوياءَ، ولاتَستَهِنْ بالضعفاءِ، لا تَقبَلِ الرشوةَ، فإنَّها سُحْتٌ ومَقْتٌ، تُوجِبُ لعنةَ اللهِ وغضَبَهُ على آخِذِها، ودافِعِها، والسَّاعي فيها.

أيُّهَا الأبُ إنَّك مُؤْتَمَنٌ على أولادِك، فأحسنْ تَرْبِيَتَهُم، وتعليمَهُم، وتنشِئَتَهُم على الخيرِ، وأبعِد عنهم وسائلَ الشَّرِّ التي تُفسِدُ أخلاقَهُم، فلا يَكُنْ في بيتِك أفلامٌ خليعة، أو أغانٍ ماجنةٌ، أو مجلاتٌ تشتمِلُ على الصُّورِ الفاتنةِ، والمقالاتِ الفاسدةِ، أو كتبٌ تشتملُ على قصصِ العِشْقِ والغرامِ، وتقودُ إلى الفُحْشِ والإجرامِ، أو كتبٌ تشتملُ على الكفرِ والإلحادِ وفاسدِ الاعتقادِ. لا يكُنْ في بيتِك خادمون وخادمات أجانبُ، يختلطونَ بنسائِك وأولادِك، يُفْسِدُونَ أخلاقهُم، وينفُثونَ فيهم الشَّرَّ، ورُبَّما يُوقِعُونَكَ في كارثةٍ لا تستطيعُ الخلاصَ منها، فإنَّ معظمَ النارِ من مُستَصْغَرِ الشَّرَرِ.

أَيُّهَا المسلمونَ: تنَبَّهوا لمسؤوليتِكم، وخُذُوا على أيدِي سُفَهائِكم، وتذكَّروا الأمانةَ التي تَحمَّلْتُمُوها، وقُوموا بحفظِها ورعايَتِها؛ تَفُوزوا بالثوابِ وتَنْجوا من العقابِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطان الرجيمِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، على فضلِه وإحسانِه. وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِه وصحبِه، وسلَّمَ تسليمًا. أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقاتِه، وسارعوا إلى مغفرتِه ومَرْضَاتِه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

واعلموا أنَّ الأماناتِ على قسمين:

القسم الأول: قسمٌ يتحمَّلُه الإنسانُ تَحَمُّلاً لازمًا من حينِ يبلغُ الحُلُمَ، ويستمِرُّ حامِلاً له إلى أنْ يموتَ، وهو ما أوْجَبَه اللهُ عليهِ من عبادتهِ وحدَه لا شريكَ له، وفِعْلِ أوامِرِه، وتَرْكِ ما نَهَى عنه، والإحسانِ إلى إخوانِه المسلمينَ، وكَفِّ الأذَى عنهم، ومُلازمةِ الصدقِ في تعامُلِه معهم، والنصيحةِ لهم، وعدمِ التَّعَدِّي على دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم وأسرارِهم، وهذه الأمانةُ يَعُمُّ تحمُّلُها جميعَ المُكَلَّفِينَ.

القسم الثاني من الأمانة: الأمانةُ الخاصةُ، وهي ما يتحَمَّلُه الإنسانُ بإرادتِه واختيارِه من حِفظِ الودائعِ، والنَّظرِ للقاصرينَ من اليتامى ونحوهم، والقيامِ على الأوقافِ والوصايا، والقيامِ بالأعمالِ الوظيفيةِ، العامةِ والخاصةِ، والتعهداتِ التي يتعَهَّدُ الإنسانُ بالقيامِ بها عن طريقِ الإجارةِ أو المقاولةِ، والديونِ التي يتحمَّلُها الإنسانُ على نفسِه للآخرينَ.

فيجبُ على المسلمِ المحافظةُ على هذِه الأماناتِ وأداؤها لأصحابِها بالوفاءِ والتمامِ؛ يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، ويقولُ سبحانَه: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضًا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ويقولُ النبيُّ ﷺ: «أَدِّ الأمانةَ إلى من ائْتَمنَكَ، ولا تَخُنْ من خَانكَ»(١)، وقالَ ﷺ: «لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له»، وقالَ ﷺ: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كذبَ، وإذا وَعَدَ أَخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ»(٢).

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، فاتقُوا الله، أيُّها المسلمونَ، بحفظِ أماناتِكُم ورعايتِها وأدائِها، فإنَّ أمْرَها عظيمٌ، وخَطَرَها جسيمٌ، وما منكم مِنْ أحدٍ إلاَّ وهو مُؤْتَمنٌ على دِينِه، وعلى مالِه وأهلِه وإخوانِه المسلمينَ.

فاتقُوا اللهَ، واستعِينوا باللهِ على تحَمُّلِ هذِه الأماناتِ، واعلَموا أنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمدٍ ﷺ...

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة.

في محبةِ اللهِ ورسولِه

الحمدُ للهِ على فضلِه وإحسانِه، أسبَغَ علينا نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أرْسَلَه بالهُدى ودينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدينِ كلِّه، فقامتْ به الحُجَّةُ، وتَمَّتْ به النعمةُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وصحبِه، وسلَّمَ تسليمًا..

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، وأطيعُوه حبًّا له، وإجْلالاً، وطَمَعًا في ثوابِهِ، وخوفاً من عِقابه، فهو الإلهُ الذي تُؤَلِّهُهُ القلوبُ، وتعبُدُه محبةً وإجلالاً وتعظيمًا، وإذا كانتِ القلوبُ قد جُبِلتْ على حُبِّ من أحسنَ إليها، فإنَّ كلَّ إحسانٍ وكلَّ نعمةٍ: صادرةٌ منه سبحانَه؛ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. فَيَجِبُ على العبدِ أنْ يُحِبَّه غايةَ الحُبِّ، ويعْبُدَه وحدَه لا شريكَ له.

ومحبةُ العبدِ لربِّه لها علاماتٌ تَدلُّ عليها؛ قالَ تعالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] فعلامةُ مَحَبَّةِ العبدِ للهِ أنْ يكونَ مُتَّبِعًا لرسولِه؛ يفعل ما أَمَرَ به، ويَتْرُكُ ما نَهَى عنه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ أمَّا من ادَّعى أنَّه يُحِبُّ اللهَ وهو مخالِفٌ لرسولِه فإنَّه كاذبٌ في دعْوَاهُ.

قالَ بعضُ السلفِ: ادَّعَى قومٌ مَحَبَّةَ اللهِ، فأنزلَ اللهُ آيةَ المِحنةِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقولُه تعالَى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ثمرةِ مَحَبَّةِ اللهِ وفائدتِها، وهي أنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهَ أَحَبَّهُ اللهُ، وغَفَرَ له ذنوبَه؛ قالَ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن

دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فذكرَ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ مَحبَّةَ العبدِ لربِّه لها أربعُ علاماتٍ:

الأولى: الذِّلَّةُ على المؤمنين، بمعنى أنْ يكونَ رحيمًا بهم عاطفًا عليهم مُحْسِنًا إليهم.

الثانية: العِزَّةُ على الكافرينَ، بمعنى أنَّه يكونُ شديدًا عليهم مُبغِضًا لهم؛ كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

الثالثة: أنْ يكونَ مجاهدًا في سبيلِ اللهِ بالنفسِ والمالِ واللسانِ والقلبِ.

الرابعة: ألا تأْخُذَه في اللهِ لومةُ لائمٍ، بحيثُ لا يُؤَثِّرُ فيه لومُ الناسِ له على ما يَبْذُلُه من الجهادِ والدعوةِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكرِ، فلا يَمْنَعُه لومُ الناسِ له عن الاستمرارِ في ذلك.

ومن علامةِ صِدْقِ العبدِ في مَحبَّتِه للهِ أنْ يُقدِّمَ ما يُحِبُّه اللهُ على ما تُحِبُّه نفسه، وعلى ما يميلُ إليه هَواهُ وطبعُه من المالِ والقرابةِ والوطنِ؛ قالَ تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]. أمَرَ اللهُ نَبيَّه أنْ يتوعَّدَ مَنْ قدَّمَ محبَّةَ هذِه الثمانيةِ: أهلِه، ومالِه، وعشيرتِه وتجارتِه، ومسكنِه؛ فآثرها أو بعضَها على فِعْلِ ما أوْجَبَه اللهُ عليه من الأعمالِ التي يُحِبُّها اللهُ تعالَى ويَرْضاها؛ كالجهادِ والهجرةِ ونحو ذلكَ، قالَ ابنُ كثيرٍ ـ رحمه الله ـ في تفسيرِ هذه الآيةِ: أي: إن كانت هذه الأشياءُ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي انتظِروا ماذا يحلُّ بكم من عقابِه؛

ولهذا آثَرَ السابقونَ الأولونَ من المهاجرينَ والأنصارِ والذينَ اتَّبَعُوهُم بإحسانٍ، ما يُحِبُّه اللهُ على ما يُحِبُّونَه، فقدَّموا أنفُسَهُم وأموالَهم للجهادِ والإنفاقِ في سبيلِه، معَ ما في ذلك من القتلِ ونفادِ الأموالِ. وتركَ المهاجرونَ ديارَهُم وأموالَهُم وأولادَهُم، وانتقلوا من وطنِهِم الأصليِّ إلى دارِ الهجرةِ، يَبْتَغونَ فضلاً من اللهِ ورضوانًا، ويَنْصُرونَ اللهَ ورسولَه، وقال اللهُ فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فقارنوا بينَ حالِ أكثرِنا اليومَ وحالِ هؤلاءِ الصادقينَ، فالكثيرُ منا اليومَ يُقدِّمُ هَوَى نفسِه على طاعةِ ربِّه، فإذا دُعيَ إلى الصلاةِ في المسجدِ آثَرَ النومَ والراحةَ، أو اللَّهوَ واللعبَ، ولم يخرجْ إلى الصلاةِ، ولم يُجِبْ داعيَ اللهِ، وإنَّما يجيبُ داعيَ الشيطان والهوى والنفس. وإذا دُعيَ إلى الصلاةِ وهو في متْجَرِهِ أو عملِه، آثَرَ طَلَبَ الدنيا على طلبِ الآخرةِ، فأَقْبَلَ على البيعِ والشراءِ بأداءِ العملِ الدنيويِّ، ولم يذهبْ إلى الصلاةِ وعَصَى أمرَ رَبِّه بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، وبقولِه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

والتاجرُ الذي يأخذُ المالَ بطُرقٍ مُحرَّمةٍ؛ كالربا والغشِّ والكذبِ، قد آثَرَ حُبَّ المالِ على حبِّ اللهِ، والبخيلُ الذي يمنَعُ الحقوقَ الواجبةَ في مالِه كالزكاةِ والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، قد آثَرَ حُبَّ المالِ على حُبِّ اللهِ، ونَسِيَ قولَه تعالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

[آل عمران: ١٨٠].

والوالدُ حينما يُؤمَرُ بإلزامِ أولادِه بالصلاةِ، وإحضارِهِم إلى المسجدِ، وإنقاذِهِم من النارِ؛ كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، وقال ﷺ: «**مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ لسبعٍ، واضربُوهُم عليها لعَشْرٍ**»[1]، فإنَّه لا يُبَالِي بأمْرِ اللهِ ورسولِه، ويتركُ أولادَه في بيتِه لا يشهدونَ صلاةً، ولا يعرِفونَ مسجدًا؛ لأنَّه آثَرَ حُبَّ أولادِه على مَحَبَّةِ اللهِ، فهو لا يريدُ أنْ يضْرِبَهم أو يغضِبَهم، ولو عَصَوا ربَّهم وتَرَكُوا واجبَهم، فصارتْ محبةُ الأولادِ أشَدَّ عندَه من مَحَبَّةِ اللهِ، واتقاءُ غضبِ الأولادِ أهمَّ في نَظَرِهِ من اتِّقاءِ غضبِ اللهِ، وإلاَّ لو كانَ الأَمرُ بالعكسِ لقدَّمَ أَمْرَ اللهِ على مَحَبَّتِهم، وهذا خليلُ اللهِ إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ لمَّا أمرَه اللهُ بذبحِ ابنِه الذي وَهَبَهُ اللهُ له بعد كِبَرِ سِنِّهِ، بادرَ إلى امتثالِ أمْرِ ربِّه، وتقديمِ محبَّةِ اللهِ على محَبَّةِ هذا الابنِ، ولَمَّا ظهرَ صِدْقُ نِيتِه، وخالصُ مَحَبَّتِه لِرَبِّه نَسَخَ اللهُ الأمرَ بذبْحِ الابنِ، وفَدَاهُ بِذِبْحٍ عظيمٍ، وبشَّرَه بابنٍ آخرَ هو إسحاقُ ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبُ، كلُّ هذا ببركةِ طاعةِ اللهِ، وتقديمِ مَحَبَّتِه على مَحَبَّةِ غيرِه.

عبادَ اللهِ: وكما تَجِبُ محَبَّةُ اللهِ تعالَى تَجِبُ محَبَّةُ رسولِه ﷺ، وهي تابعةٌ لِمَحَبَّةِ اللهِ ولازمةٌ لها؛ عن أنسِ بنِ مالكٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالَ: ﷺ «**لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليهِ من ولدِه ووالدِه والناسِ أجمعينَ**»[2]، أخرجاه في الصحيحينِ وَرَوى البخاريُّ عن عمرَ بن الخطابِ ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّه قالَ للرسولِ ﷺ: لأَنْتَ يا رسولَ اللهِ، أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلاَّ من نَفْسي. فقالَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٢) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك.

النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده حتى أكون أحبَّ إليكَ من نفْسِك»، فقالَ له عمرُ: فإنَّك الآنَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقالَ النبيُّ ﷺ: «الآنَ ياعمرُ»[(١)]؛ وذلكَ لأنَّ الرسولَ ﷺ هو الذي دلَّنا على الخيرِ، وبيَّنَ لنا طريقَ النجاةِ، وسبيلَ السعادةِ، وحَذَّرَنا من الشرِّ والهلاكِ، وبسببه اهتدينا. ومَحَبَّتُه ﷺ تَقْتَضي مُتَابعَتَه وطاعَتَه، فَمِن ادَّعَى مَحَبَّتَه بدونِ مُتابعَتِه، أو ادَّعى مَحَبَّتَه ولم يَتمسَّكْ بسُنَّتِه ولم يَتركِ البدعَ المخالفةَ لسُنَّتِه ـ فهو كاذبٌ في دعوى مَحَبَّتِه لرسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّ مَحَبَّتَه تَقْتَضي فِعْلَ ما أَمَرَ به؛ وتركَ ما نَهى عنه؛ وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فالذي يَدَّعِي محَبَّتَه، ويُخالِفُ سُنَّتَه ويعملُ بالبدعِ والخرافاتِ، هو كاذبٌ في دَعْواهُ.

ومن علامةِ مَحبَّةِ العبدِ للهِ ورسولِه:

أنْ يُحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُم اللهُ ورسولُه، فاللهُ يُحِبُّ المحسنينَ والمتقين، ويُحِبُّ التوابينَ، ويُحِبُّ المتطهرينَ. والقرآنُ والسُّنةُ مملوءانِ بِذِكرِ مَنْ يُحِبُّه اللهُ سبحانَه من عبادِه المؤمنينَ، وبما يُحِبُّه اللهُ من أعمالِهم وأقوالِهم وأخلاقِهم. وفي الصحيحينِ، عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلاَّ للهِ، وأنْ يكرهَ أنْ يعودَ في الكفرِ بعد إذ أنقذَه اللهُ منه، كما يكرهُ أنْ يُقذفَ في النارِ»[(٢)]، وعن ابنِ عباسٍ ـ رضي اللهُ عنه ـ قالَ: منْ أَحبَّ في اللهِ، وأبغضَ في اللهِ، ووالى في اللهِ، وعادى في اللهِ، فإنَّما تُنالُ ولايةُ اللهِ بذلك،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٦، ٢١، ٦٤١، ٦٩٤١) ومسلم (٤٣) من حديث أنس.

ولنْ يَجدَ عبدٌ طعمَ الإيمانِ ولو كَثُرَتْ صلاتُه وصومُه حتى يكونَ كذلكَ، وقد صارتْ عادةُ مؤاخاةِ الناسِ على أَمرِ الدنيا، وذلكَ لا يُجْدِي على أهلِه شيئًا. رواهُ ابنُ جريرٍ. فمَنْ أحبَّ الله تعالَى أحَبَّ فيه، ووالى أولياءَه، وعادى أعداءَه، فمَنْ كان كذلكَ تَولاّهُ اللهُ، ومن لمْ يكنْ كذلك فإنَّ اللهَ لا يتولاهُ، وإذا لم يَتَوَلَّهُ اللهُ تَولاهُ أعداؤه؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يَمُنُّ على مَنْ يشاءُ من عبادِه بالإيمانِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ وعلى آلِه وأصحابِه، ومَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلَموا أنَّ من علاماتِ مَحَبَّةِ اللهِ بُغْضَ ما يُبغِضُهُ اللهُ من الأشخاصِ والأعمالِ والأقوالِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨﴾ [لقمان: ١٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران: ٥٧]، وقالَ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]. فَيجبُ على المؤمنِ الذي يُحِبُّ اللهَ أنْ يُبْغِضَ ما يُبْغِضُه اللهُ، قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الممتحنة: ١٣] وقالَ تعالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ

أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فأوْجبَ سبحانَه في هذه الآياتِ بُغْضَ أعداءِ اللهِ المحادِّينَ له الذينَ غضِبَ اللهُ عليهم من الكفارِ والمنافقينَ والمتكبرينَ، ولو كانوا من أقربِ الأقربينَ. كما أوْجَبَ سبحانَه على المؤمنِ بُغْضَ المعاصِي من الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ؛ لأنَّ اللهَ يُبغِضُها، فيكرَه «أنْ يعودَ في الكفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ منه، كما يَكرَهُ أنْ يُقذفَ في النارِ»، كما جاءَ في الحديثِ.

واعلموا أنَّ كلَّ محبَّةٍ تأسَّستْ على معصيةِ اللهِ ستنقلبُ عداوةً يومَ القيامةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقالَ تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، وقالَ تعالَى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فاتقُوا اللهَ، وانظُروا من تُحِبُّونَ وتُصَاحِبونَ، فإنَّ المرءَ يكونُ معَ مَنْ أحَبَّ يوم القيامةِ، وقد ذكَرَ العلامةُ ابنُ القيِّمِ ـ رحمه الله ـ أنَّ الأسبابَ الجالبةَ لِمَحَبَّةِ اللهِ عشَرةٌ:

الأول: قراءةُ القرآنِ وتَدَبُّرُه.

الثانِي: التقرُّبُ إلى اللهِ بالنوافلِ بعدَ الفرائضِ.

الثالث: دوامُ ذِكْرِ اللهِ على كلِّ حالٍ، بالقلبِ واللسانِ والعملِ.

الرابع: إيثارُ مَحَابِّ اللهِ على مَحَابِّ النفسِ.

الخامس: التَّأَمُّلُ في أسماءِ اللهِ وصفاتِه، فَمنْ عرفَ اللهَ بأسمائِه وصفاتِه

وأفعالِه أَحَبَّهُ لا محالةَ .

السادسُ : التَّأمُّلُ في نِعَمِ اللهِ تعالَى على العبدِ ، فإنَّ التَّأمُّلَ فيها يَدْعو إلى مَحَبَّةِ المُنْعِمِ .

السابعُ : انكسارُ القلبِ بينَ يَدي اللهِ تعالى .

الثامنُ : الخلْوةُ باللهِ وقتَ النزولِ الإلهيِّ لمُناجَاتِه وتلاوةِ كلامِه حينَ يَبْقَى ثُلُثُ الليلِ الأخيرُ ، وخَتْمُ ذلكَ بالاستغفارِ .

التاسعُ : مُجالَسةُ الصالحينَ المحبينَ الصادقينَ ، والاقتداءُ بهم .

العاشرُ : الابتعادُ عن كلِّ الأسبابِ التي تَحُولُ بينَ القلبِ وبينَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

فاتَّخِذُوا هذه الأسبابَ رَحِمَكُم اللهُ للحصولِ على محبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وابتعِدُوا عن أضْدَادِها ، واعلَمُوا أنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ . . . إلخ .

* * *

المرأة في الإسلام

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، خلقَ لَكُم من أنفُسِكُم أزواجًا؛ لتسْكُنوا إليها، وجعلَ بينكُم مودَّةً ورحمةً، وجعلَ الرجالَ قوامينَ على النساءِ، بما فَضَّلَ بعضَهم على بعضٍ، وبما أنفقُوا من أموالِهم، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، شرَعَ لعبادِه ما فيه صَلاحُهُم وفلاحُهُم، وهو العليمُ بما يُصْلِحُهُم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، البشيرُ النذيرُ، والسراجُ المنيرُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ، بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ ما نَهاكُم عنه؛ لعلَّكم تُرْحَمونَ وتفلِحونَ.

عبادَ اللهِ، سيكونُ حديثي معَكُم عن موضوعٍ شغَلَ بالَ الإنسانيةِ قديما وحديثًا، وقد جاءَ الإسلامُ بالفصلِ فيه، ووضعَ له الحلَّ الكافي، والدواءَ الشافي، ألاَ وهو موضوعُ المرأة؛ لأنَّ أهلَ الشرِّ اتَّخَذوا من هذا الموضوعِ مُنْطلقًا للتضليلِ والخداعِ عندَ مَنْ لا يَعْرِفُ وضعَ المرأةِ في الجاهليةِ، ووَضْعَها في الإسلامِ، ووَضْعَها عند الأممِ الكفريةِ المعاصرةِ.

فقد كانتِ المرأةُ في الجاهليةِ، تُعَدُّ من سِقْطِ المتاعِ، لا يُقامُ لها وَزْنٌ، حتى بَل من شِدَّةِ بُغْضِهم لها آنذاك، أنَّ أحدَهُم حينما تُولدُ له البنتُ يَسْتاءُ منها جدًّا، ويكرَهُها، ولا يستطيعُ مقابلةَ الرجالِ من الخجلِ الذي يشعُرُ به، ثم يبقَى بينَ

أمْرين: إمَّا أن يترُكَ هذه البنتَ تعيشُ مُهَانَةً، ويصبرَ هو على كراهِيتِها، وتنقُّصِ الناسِ له بسببِها، وإمَّا أنْ يَقْتُلَها شرَّ قِتلَةٍ، بأنْ يدفِنَها وهي حيةٌ، ويترَكَها تحتَ الترابِ حتى تموتَ، وقد ذكرَ اللهُ ذلكَ عنهم في قولِه تعالَى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]. وأخبرَ سبحانَه أنَّه سيُنْصِفُ هذه المظلومةَ مِمَّنْ ظَلَمَها، وقَتَلَها بغيرِ حقٍّ؛ فقالَ تعالَى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

وكانوا في الجاهليةِ إذا لم يقْتُلوا البنتَ في صِغَرِها، يُهِينُونَها في كِبَرِها، فكانوا لا يُوَرِّثُونَها من قَريبِها إذا ماتَ، بلْ كانوا يعُدُّونَها من جملةِ المتاعِ الذي يُورَثُ عن المَيِّتِ؛ كما رَوى البخاريُّ وغيرُه عن ابنِ عباسٍ قالَ: كانوا إذا ماتَ الرَّجلُ كانَ أولياؤُه أحقَّ بامرأتِه، إنْ شاءَ بَعضُهم تَزَوَّجَها، وإنْ شاءوا زَوَّجُوها، وإنْ شاءُوا لمْ يُزَوِّجُوها، فهم أحقُّ بها من أهْلِها، فنَزَلَتْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾[1] [النساء: ١٩].

وكانَ الرجلُ في الجاهليةِ يَتَزَوَّجُ العددَ الكثيرَ من النساءِ من غيرِ حصرٍ بعددٍ، ويُسِيءُ عشْرَتَهنَّ، فلما جاءَ الإسلامُ حَرَّمَ الجمْعَ بينَ أكثرَ من أربعِ نساءٍ، واشترطَ لجوازِ ذلك تَحقُّقَ العدلِ بينهنَّ في الحقوقِ الزوجيةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣].

نعَمْ لقد جاءَ الإسلامُ والمرأةُ على هذا الوضعِ السَّيئِ، فأنقذَها منه وكرَّمَها،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٧٩، ٦٩٤٨).

وضمِنَ لها حقوقَها، وجَعَلَها مُساويةً للرجلِ في كثيرٍ من الواجباتِ الدينيةِ، وتَرْكِ المحرماتِ، وفي الثوابِ والعقابِ على ذلك؛ قالَ تعالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]، وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفَضَّلَ اللهُ الرَّجُلَ على المرأةِ في مقاماتٍ، ولأسبابٍ تَقْتَضي تَفْضِيله عليها، كما في الميراثِ والشهادةِ والدِّيةِ والقوامةِ والطلاقِ؛ لأنَّ عندَ الرجلِ من الاستعدادِ الخَلْقيِّ والخُلُقيِّ ما ليسَ عندَ المرأةِ، وعليهِ من المسؤوليةِ في الحياةِ ما ليسَ على المرأةِ؛ كما قالَ تعالَى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ ﴾ [النساء: ٣٤]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

جعَلَ اللهُ للمرأةِ حقًّا في الميراثِ؛ فقالَ سبحانَه: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ [النساء: ٧]. وجَعلَ اللهُ لها حقَّ التَّمَلُّكِ والتَّصَدُّقِ والإعتاقِ كما للرجلِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وجعلَ لها الحقَّ في اختيارِ الزوجِ، فلا تُزوَّجُ بدونِ رِضَاها، صانَها اللهُ بالإسلامِ من التَّبذُّلِ، وكَفَّ عنها الأيْدِيَ الآثمةَ والأعينَ الخائنةَ التي تُريدُ الاعتداءَ على عفافِها، والتَّمَتُّعَ بها على غيرِ وجهٍ شَرْعيٍّ.

وهكذا عاشَتِ المرأةُ تحتَ ظلِّ الإسلامِ وكرامتِه أُمًّا وزوجةً وقريبةً وأختًا في الدينِ، تُؤَدِّي وظيفتَها في الحياةِ رَبَّةَ بيتٍ وأُسرةٍ، وتُزاوِلُ خارجَ البيتِ ما يليقُ بها من الأعمالِ إذا دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلكَ مع الاحتشامِ والاحتفاظِ بكرامتِها، ومع التزامِ الحجابِ الكاملِ الضَّافي على جِسْمِها ووَجْهِها، وتحتَ رقابةِ وليِّها، فلا تَخْلو مع رجلٍ لا يحلُّ لها إلاَّ ومَعَها مَحْرَمُها، ولا تسافرُ إلاَّ معَ مَحْرمِها، هذا وضعُ المرأةِ في الإسلامِ الذي هو دينُ الرحمةِ والكمالِ والنزاهةِ والعدلِ، وأَوْصَى بها نبيُّ الإسلامِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وصيةً خاصةً حينَ قالَ في حجَّةِ الوداعِ: «**واستَوْصُوا بالنساءِ خيراً؛ فإنما هنَّ عَوَانٍ عندكم**»[1]، أي أسيراتٌ عندكم. هذا وصفٌ تقريبيٌّ لوضعِ المرأةِ في الإسلامِ.

أمَّا وضعُها في المجتمعاتِ الكافرةِ، والمجتمعاتِ التي تَتَسَمَّى بالإسلامِ وهي تستوردُ نُظُمَها وتقاليدَها من الكفارِ، فإنَّ وضعَها اليومَ في هذهِ المجتمعاتِ أسوأ بكثيرٍ من وضعِها في الجاهليةِ الأولى، فقد جُعِلَتْ فيها المرأةُ سلعةً رخيصةً، تُعرضُ عاريةً أو شبْهَ عاريةٍ أمامَ الرجالِ في مواطنِ تجمُّعِهِم على شكلِ خادماتٍ في البيوتِ، وموظفاتٍ في المكاتبِ، وممرضاتٍ في المستشفياتِ، ومضيفاتٍ في الطائراتِ والفنادقِ، ومدرساتٍ للرجالِ في دور التعليمِ، وممثلاتٍ في أفلامِ التلفزيونِ والسينما والفيديو، وإذا لم يمكنْ ظهورُ صورتِها في هذه الوسائلِ جاءوا بصوتِها في الراديو مذيعةً أو مطربةً، وإلى جانب إظهارِ صورتِها المتحركةِ في وسائلِ الإعلامِ المرئيةِ، يُظْهِرُونَ صورتَها الفوتوغرافيةَ في الصحفِ والمجلاتِ، بلْ وعلى أغْلِفةِ السلعِ التجاريةِ، فيختارونَ أجملَ فتاةٍ

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٣، ٣٠٨٧) وابن ماجه (١٨٥١) وغيرهما.

يَجدُونَها، ويَضَعونَ صورتَها على هذِه الصحفِ والمجلاتِ السيارةِ، أو على أغلِفَةِ السلعِ التجاريةِ؛ ليتخذوا منها دعايةً لِتَرْويجِ صُحُفِهِم وبضائِعِهِم، وليُغْروا أهلَ الفسادِ الخُلُقيِّ بفسادِهِم، ولِيَفْتِنوا الأبرياءَ.

وهكذا أصبحتِ المرأةُ سلعةً رخيصةً تُعرَضُ في كلِّ مناسبةٍ، لقد ظلموا المرأةَ؛ فسَلَبوها حَقَّهَا الشرعيَّ، فَمَنَعوا قوامةَ الرجلِ عليها بالإنفاقِ والرعايةِ، وعَزَلوها من ولايتِها على البيتِ، وتربيةِ الأولادِ، وتكوينِ الأسرةِ، وهكذا قَطَعوا عنها كلَّ الروافدِ التي تُعِينُها على أداءِ وظيفتِها في الحياةِ، حتى اضطَرُّوها للخروجِ لطلبِ لُقمةِ العيشِ ولو على حسابِ عَفَافِها، وانتهاكِ عِرْضِها عندَ كلِّ فاجرٍ وماجنٍ، وحَمَّلوها القيامَ بعملِ الرجلِ، وخَلَعوا عنها لباسَ السترِ، وتَرَكوها عاريةً مُظْهِرةً لمفاتنِ جِسْمِها، تَنفُذُها سهامُ الأنظارِ المَسْمُومَةُ من كلِّ جانبٍ.

كانتْ على شاطئِ السلامةِ وبرِّ الأمانِ، بعيدةً عن مُتَناولِ الأيْدِي، ومماسَّةِ الرجالِ، فقَذَفوها في بحارِ الاختلاطِ المُغرِقةِ عُرْضَةً للأيْدي الآثمةِ، ومَطمَعًا للنفوسِ الأمَّارةِ بالسوءِ. حَرَّموا ما أحلَّ اللهُ وأحَلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ في حقِّها، فمَنَعوا تَعَدُّدَ الزوجاتِ الذي هو عينُ المصلحةِ للنساءِ، بحيثُ يتحَمَّلُ الرجلُ القوامَةَ على أكبرِ قدرٍ ممكنٍ منهُنَّ؛ إذ من المعلومِ أنَّ عددَ النساءِ في المجتمعاتِ أكثرُ من عددِ الرجالِ، معَ ما يَعْتَري الرجالَ ويتَعَرَّضُونَ له من الأخطارِ التي تُقَلِّلُ عدَدَهُم، فقصروا الرجلَ على واحدةٍ، وتركوا البَقِيَّةَ منْهُنَّ أيامى مُعرَّضاتٍ للفسادِ والإفسادِ، قد يتأكَّلْنَ بأَعْراضِهِنَّ، أو يُزَاوِلْنَ الأعمالَ الشاقَّةَ مُشرداتٍ عن البيوتِ يَبْحَثْنَ عن العملِ الذي يعِشْنَ من ورائِه ولو في بلادٍ بعيدةٍ عن أوطانِهِنَّ، فيُسافِرْنَ ويعشْنَ غريباتٍ بينَ أجانبَ، ويتَهَدَّدُهُنَّ الخطرُ من كلِّ جانبٍ.

وهكذا قطَعَ أعداءُ اللهِ وأعداءُ الإنسانيةِ عن هذهِ المرأةِ المسكينةِ كلَّ روافدِ الحياةِ السعيدةِ، وجَرَّدُوها من كلِّ حقوقِها الاجتماعيةِ؛ ليكوِّنُوا منها وسيلةً للفسادِ وآلةً للدَّمارِ، وقد تَعْجَبون حينَ تعْلَمونَ أنَّهم معَ هذِه الجرائمِ التي ارْتَكَبوها في حقِّ المرأةِ، يدّعُونَ أنَّهم أنصارُها، والمُدافِعونَ عن حرِّيتِها، والمُنادون بالمطالبةِ بحقوقِها، مُغَرِّرينَ بها كما غَرَّرَ إمامُهُم إبليسُ بالأبوينِ عليهما السلامُ حينَ قاسَمَهُما: ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢١]. ويكونُ العجبُ أكثرَ إذا عَلِمْتُم أنَّ من بينِ المسلمينَ أبواقًا تُرَدِّدُ مقالاتِ هؤلاءِ أو بعضَها، وتُرَوِّجُها في بعضِ الصحفِ والمجلاتِ: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨] إنَّهم يُرَدِّدُون أقوالاً قيلتْ من قبلهم، وقد لا يُدْرِكونَ معناها.

أيُّها المسلمونَ: تنَبَّهوا لدسائِس أعدائِكُم، ولِمُخَطَّطاتِهِم للقضاء عليكم، ومن أعظَم ذلكَ موضوعُ المرأةِ الذي اتَّخذُوه سلاحاً ضِدَّكُم، يُشْهِرُه في وجوهِكُم بعضُ المخدوعينَ من أبنائِكُم. فأخْرِسُوا هذِه الألْسُنَ المُلَوَّثَةَ، وحَطِّموا هذهِ الأقلامَ المَشْبوهَةَ التي تَنْفُثُ هذِه السمومَ بينكُم، واعرِفوا من أينَ جاءتْ، فَسُدُّوا طريقَها عنكم، إنَّ عندَكُم ما إنْ تَمَسَّكْتُم به لن تَضِلُّوا ولن تُغْلَبوا، وهو كتابُ اللهِ وسُنةُ رسولِه ودينُ الإسلامِ، وليسَ عندهم إلاَّ الكَذِبُ والتدجيلُ والخداعُ، فاحْمَدوا اللهَ على نِعَمِهِ، واسْألوه الثباتَ على دينِه، والسلامةَ من شرِّ الفِتَنِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ

أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ١ ـ ٣].

الخطبة الثانية:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، هَدَانا للإسلامِ، وجعَلَنا به خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ إنْ نحن تَمَسَّكْنا به، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ تعالَى في نسائِكم، فإنَّكم سَتُحاسَبُون عليهِنَّ، وأيُّ خللٍ يقَعنَ فيهِ فأنتُمُ المسؤولونَ عنه، إنَّنا نَرى ونَسمعُ عن وضعِ النساءِ في مجتمعنا شيئًا مُؤسِفًا ومُؤذِنًا بخطرٍ كبيرٍ، من ذلك التساهلُ في أمرِ الحجابِ خصوصًا من الشاباتِ اللَّاتي اعْتَدْنَ الخروجَ، يَخْرُجْنَ في ملابسَ ضَيِّقَةٍ، ويَكْشِفْنَ عن أَكُفِّهِنَّ وأَذْرُعِهِنَّ، ورُبَّما عن وجوهِهِنَّ في معارضِ الأقمشةِ، وعندَ الصاغةِ ومحلاتِ تفصيلِ الملابِسِ، كأن أصحابَ هذه المحلاتِ من محارِمِهِنَّ! وهذا مُنْكَرٌ لا يجوزُ السكوتُ عليه، ومِنْهُنَّ مَنْ تَضَعُ على وجْهِها غطاءً شفافًا لا يَسْتُرُ ما وراءَه. وأنْتُم يا عبادَ اللهِ، تعلمونَ ما أصابَ بني إسرائيلَ من العقوبةِ بِسَبَبِ إهمالِ نسائِهِم.

وأَمْرٌ آخرُ فَشَا في مجتمعِنا وهو أَمْرٌ مخيفٌ، وهو عزوفُ النساءِ عن الزواجِ، بحجَّةِ أنَّ بعضَهُنَّ تريدُ إكمالَ دراستِها، وبعضَهُنَّ قد توَظَّفْنَ ولا يُرِدْنَ التَّخَلِّيَ عن وظَائِفِهِنَّ، والبعضُ الآخرُ عَزَفَ عن الزواجِ تأثُّرًا بالدعاياتِ السيئةِ التي شَوَّهتِ الزواجَ ونفَّرتْ منه، من خلالِ وسائلِ الإعلامِ، كالتمثيلياتِ المرئيةِ والمسموعةِ التي تُنفِّرُ من تعَدُّدِ الزوجاتِ، ومن تَزْويجِ كبارِ السنِّ، وتزويجِ مَنْ له

والدٌ كبير السِّنِّ أو والدةٌ، وهكذا يُصَوِّرون الزواجَ في هذِه الحالاتِ بصورةٍ سيئةٍ، ويتخيلونَ له مشاكلَ مكذوبةً، إضافةً إلى أنَّ بعضَ الأولياءِ يَمْنَعُ مَوْليَّتَهُ من الزواجِ بكُفْئها، ومِثْلُ هذا قد يُبْتَلَىٰ بتزويجِ من لا يصلحُ لمَوْليَّتِه خُلُقيًّا ودينيًّا فتحدُثُ المشاكلُ، وقد كَثُرَ تشكِّي النساءِ من بعضِ الأزواجِ غيرِ الأكْفاء، فهذه تقولُ: إنَّ زوجَها لا يُصَلِّي، أو إنَّه يأمُرها بِخَلْعِ الحجابِ، وأخرى تقولُ: إنَّ زَوْجَها لا يَصْحو من السُّكْرِ وتعاطِي المخدراتِ، وأخرى تقولُ: إنَّ زوجَها يريدُ أنْ يسْتَمْتِعَ منها في المَحَلِّ الذي حَرَّمَهُ اللهُ، وأخرى تقولُ: إنَّ زوجَها يجامِعُها في نهارِ رمضانَ، وكلُّ هذه الجرائمِ سَبَبُها عدمُ اختيارِ الكفءِ الصالحِ عندَ التزويجِ.

فاتقُوا اللهَ، أيُّها المسلمونَ، في نسائِكُم، واحفظوا فيهِنَّ وصيةَ اللهِ، ووصيةَ رسولِه؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «إذا أتاكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دينَه وخُلُقَه فأنْكِحُوه، إلاَّ تفعَلوه تكُنْ فتنةٌ في الأرضِ، وفسادٌ كبيرٌ»، قالوا: يا رسولَ اللهِ. وإنْ كانَ فيه؟ قالَ: «إذا جاءَكُم من تَرْضَونَ دينَه وخُلُقَه فأنْكِحُوهُ»[1] ثلاثَ مراتٍ. رواه الترمذي.

* * *

(١) أخرجه الترمذي (١٠٨٤) من حديث أبي هريرة.

فهرس الموضوعات